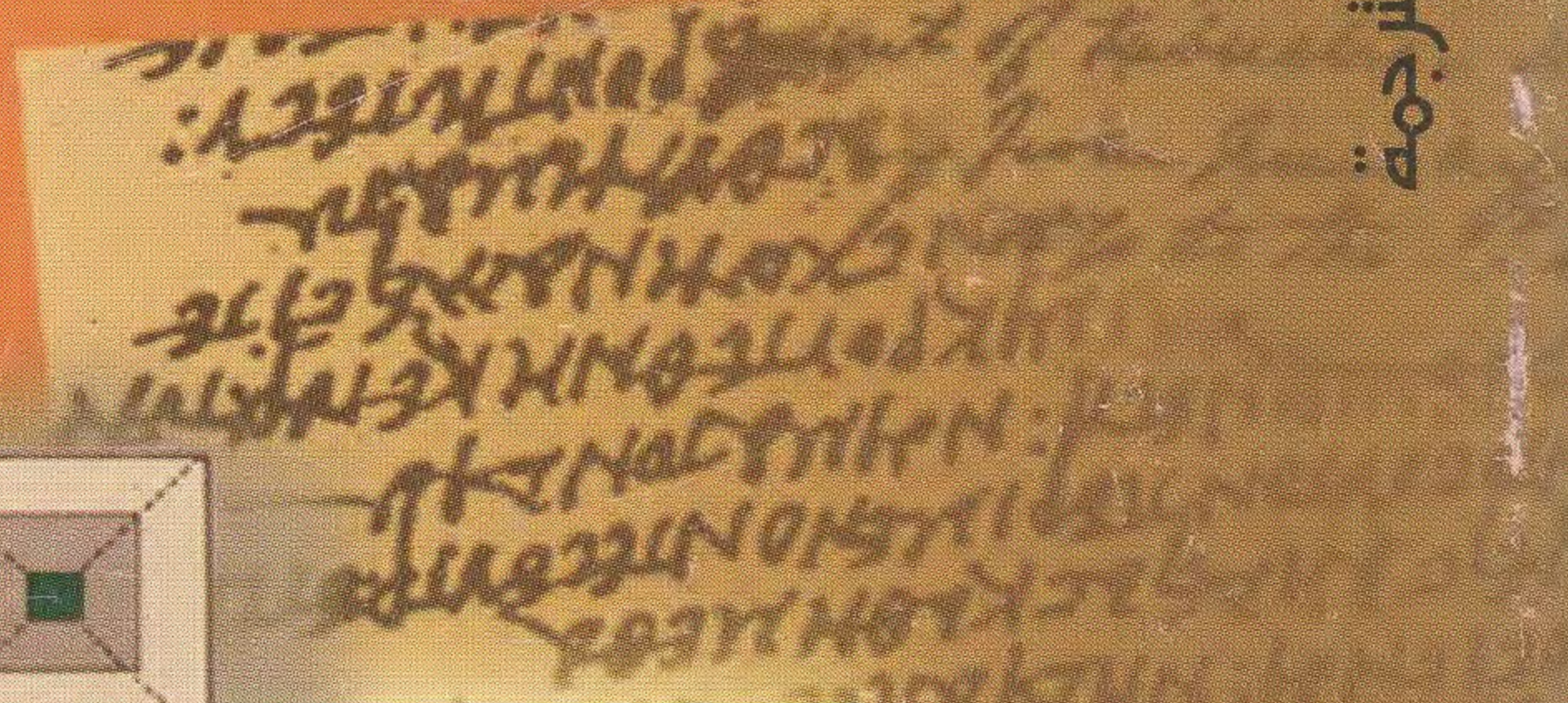


الأرشيفات والمदन الكبرى

تحرير : م . ف . روبرتس
ترجمة : عثمان مصطفى عثمان

المشروع القومي للترجمة



اهداءات ٢٠٠٤

جلس الأعلى للثقافة

الأرشيفات والمدن الكبرى

تحرير : م . ف . روبرتس

ترجمة : عثمان مصطفى عثمان

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٩٠

- الأرشيفات والمدن الكبرى

- م . ف . روبرتس

- عثمان مصطفى عثمان

- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة كاملة لكتاب

ARCHIVES AND THE METROPOLIS

تحرير : M. V. Roberts

دار النشر : Guildhall Library

1998

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأويرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7	تقديم
9	المقدمة
11	كلمة التحرير
13	المشاركون في هذا العمل
17	تمهيد
21	الفصل الأول : أرشيفات المدن الكبرى الرئيسية من القديم إلى الحديث .
	أرشيفات العالم القديم : الحفظ ، الوثائق ، وأرشيف
23	اليونان الحبرى
	جنوه ولوبك : البدايات الكوميونية للحفظ فى اثنتين من
33	المدن التجارية الكبرى فى العصور الوسطى
	ذاكرة مدينة : أرشيف بلدية فيينا منذ القرن الثالث عشر
49	وحى القرن العشرين
	ثلاث نماذج لأرشيفات المدن الكبرى بإسبانيا: برشلونة ،
67	سيفيل ، مدريد
79	أرشيف باريس : بتر ، تقطيع أوصال ، إعادة تكوين
89	الفصل الثانى : أرشيفات غير حكومية
91	أرشيف الأعمال : المارد النائم لتاريخ المدن الكبرى
	وثائق الآثار المتروبولية : مخلفات غير مرغوب فيها أم
103	مصادر أولية ؟
	السماعة الطبية ، والصرف الصحى ، وقرص الدواء :
117	الوثائق الطبية للمدن الكبرى
129	الفصل الثالث : لندن فى العصور الوسطى والفترة المبكرة من العصر الحديث
131	الوثائق وحفظها فى لندن فى العصور الوسطى

145	من مدينة صغيرة إلى متروبول مركب : وثائق حول تاريخ لندن (١٧٢٠-١٥٠٠)
161	الفصل الرابع : المباني ، والتأثيث ، والاستخدام
	المباني ، والتأثيث ، والإتاحة ، والاستخدام : أمثلة من أرشيف مكتب محفوظات البندقية من العصور الوسطى وحتى العصر الحديث
163	أرشيف بلدة مرسيليا ، إشكالية موقع
187	التخطيط لمقر جديد لأرشيف مدينة بودابست
193	الفصل الخامس : التاريخ المتروبولي من واقع الأرشيات
199	الأطلس التاريخي لقيينا كجزء من مشروع تاريخ قيينا ..
201	ستوكهولم ٢٠٠٢ : كيف تكتب سيرة مدينة
217	عاصمة مالية : مدينة لندن ١٨١٥-١٩٨٦
237	الفصل السادس : آسيا ، وأفريقيا ، والأمريكتان
241	الأرشيف المتروبولي لطوكيو والهيستوريوجرافيا
243	الماضي المتشردم: أرشيف مدينة نيويورك ١٨٠٤-١٩٩٦
249	أرشيات في شيكاغو
267	الأرشيات المتروبولية في البلدان الفيدرالية : حالة البرازيل
283	القاهرة : أرشياتها وتاريخها
293	الفصل السابع : ميناء لندن ، الأرشيات والتاريخ
309	"التاريخ السائل" : تاريخ هيئة ميناء لندن
311	استخدام أرشيف هيئة ميناء لندن في التاريخ الهندسي والمعماري
317	استخدام أرشيف هيئة ميناء لندن في التاريخ التجاري .
329	الفصل الثامن : الأرشف المتروبولي في عالم متغير
337	موسكو : الأرشف المتروبولي والتغير السياسي
339	الأرشف المتروبولي في القرن العشرين : فرز وإعداد الملفات
347	

تقديم

قلما ينفصل التاريخ عن الجغرافيا ، وقلما ينفصل تاريخ أمة عن تاريخ عاصمتها والمدن الكبرى فيها ، وهذا الكتاب يعبر عن تلك الحقيقة أصدق تعبير .

والأرشيف هو تجمع مقصود أو غير مقصود للوثائق ، إدارية كانت أو متخصصة (طبية ، أو هندسية ، أو جيولوجية ، ... إلخ) ، عامة كانت أو خاصة ، وهو لذلك أحد أهم مصادر كتابة التاريخ ، لأن إنتاج الوثيقة نفسها - أيا كان نوعها أو طبيعتها - لم يتم بهدف أن تكون سندا تاريخيا ؛ ولكن لتؤدي وظيفة حياتية وقت إنتاجها ، لذلك فهي تعتبر مصدرا غير مقصود يعتمد عليه في كتابة التاريخ .

وكما كان الأرشيف مادة تاريخية غير مقصودة ، فقد كان المؤتمر الذي تضم دفتا هذا الكتاب أوراقه ، رحلة غير مقصودة أيضا في القارات الخمس ، تطوف بنا في أحوالها وفكر أبنائها وتاريخهم ؛ فأصدق تعبير عن تاريخ أمة من الأمم هو ما يبوح به أرشيفها ، وربما لا يعلو عليه صدقا إلا ما «لا» يبوح به هذا الأرشيف ، ولكن المؤرخ نافذ البصيرة يستطيع أن يستشفه مما صمت عنه الأرشيف .

المثقف العادي ، والرحالة ، والجغرافي ، وعالم الاجتماع ، والطبيب ، والمؤرخ ، وغيرهم كثيرون ، وقبل وبعد كل أولئك الوثائقي ، سيجد كل منهم في هذا العمل متعة لعقله ، ومثيرا لشغفه ، وباعثا له على المزيد من المعرفة والاطلاع ؛ فإن كانت الوثائق هي نتاج الإنسان في حياته اليومية، فالأرشيف هو الذاكرة التي احتفظت بهذا الإنتاج. وهل يستطيع إنسان أن يحيا بلا إنتاج أو بلا ذاكرة ؟ وإن كنت ممن يعتقدون أن الاطلاع على أحوال الآخر من أفضل الوسائل لفهم الذات ، فستجد في هذا الكتاب ضالتك ، بلا أدنى شك .

المترجم

المقدمة

لقد حبانا مؤتمر الأرشيفات والمدن الكبرى بمزيتين ؛ فهو قد منح أعضاء مجلس مدينة لندن والعاملين به فرصة استضافة هذه البوتقة من الدارسين من كل أنحاء العالم، كما منحهم من ناحية ثانية فرصة تجاذب أطراف الحوار والبحث معهم حول مختلف أنواع المواد والمنظمات والمستودعات الأرشيفية في أرشيفات المدن الكبرى.

والوثائق المخطوطة التي أنتجتها مدينة لندن نفسها الـ " Square Mile " كثيفة العدد في كل المجالات. تستوى في ذلك الوثائق الرسمية، كوثائق مجلس المدينة نفسه، والباريشات، ومجالس الكنائس التي تقع فيها، والتي تشكل جذور إدارة المدينة، والوثائق الخاصة، مثل تلك التي أنتجها هذا الكم الهائل من الكيانات التجارية والخيرية التي بزغت نجومها ثم أفلت على مر السنين. ويوازي تلك الوثائق - بشكل كبير - المجموعات الرئيسية المتعلقة بمنطقة لندن على وجه الإجمال، والتي يحتفظ بها "الأرشيف المتروبولي للندن London Metropolitan Archives"، والذي كان يعرف في السابق بـ "دار محفوظات لندن الكبرى Greater London Record Office". المنظم الرئيسي لهذا المؤتمر. ولا يسعنا إلا أن نفخر بما استطعنا أن نقوم به في لندن من تجميع لكل هذه المصادر وضم بعضها إلى بعض، وتوفيرها للمستخدمين. بيد أن نظرة سريعة إلى محتويات هذا المؤلف الذي بين أيدينا توضح بجلاء أن هناك أنواعاً مختلفة من الأرشيفات التي أنتجتها العواصم والمدن، التي لها علاقة بها، في مواضع أخرى من لندن والمملكة المتحدة وعدد آخر من البلدان، لا يوصف ثراؤها وتنوعها بأقل من كونه مطمحا وتحديا للباحث وللأرشيفي المحترف على حد سواء.

وإنه لمن نواعى الفخر أن يشترك كل من "مكتبات مجلس مدينة لندن

" Corporation of London's Libraries " و"جاليري جيلدهال للفن Guildhall Art Gallery "

ولجنة الأرشيف Archives Committee " من خلال نور محفوظاتها مع "مركز التاريخ المتروبولي Centre for Metropolitan History " فى النهوض بهذه المبادرة العلمية، والتي كانت بحق مثيرة ومثمرة كدرس أولى لمساحة عريضة من الدراسات. ويملؤنى أمل فى أن تحفز الأوراق المقدمة إلى المؤتمر على المدى الأطول إقامة لقاءات أكثر من هذا النوع .

أنطونى موصى

رئيس مجلس إدارة: مكتبات، وجاليرى جيلدهال للفن،

ولجنة الأرشيف، بمجلس مدينة لندن.

كلمة التحرير

يتضمن المؤلف الذى بين أيدينا نصوص الأوراق المقدمة إلى المؤتمر بترتيب ورودها، بما فى ذلك تلك التى قدمت فى الجلسات ، بالإضافة إلى ورقة واحدة أخرى أعدت ولكنها لم تسلم لظروف قهرية . وقد عنونت الأوراق بعناوينها التى وردت عليها، والتى اختلفت فى بعض الأحيان عن تلك التى أعلن عنها فى برنامج المؤتمر الأصلي، وقد حدد تاريخ الأول من مايو 1997 كحد أقصى لتسليم الأوراق ليتسنى النشر فى موعده المحدد، وعلى ذلك فقد ضم الكتاب الأوراق التى سلمت قبل هذا الموعد ، كما طلب إلى المتحدثين إضافة الحواشى لاستكمال الفائدة من الأوراق المقدمة ، واستجاب معظمهم ، فضمت تلك الحواشى إلى أوراقهم.

وقد فضلنا حتى نوفر الكتاب بأقل سعر ممكن، أن نخرجه فى غلاف ورقى، منحني جانبا المداخلات (بالرغم من حيوية معظمها)، كما لم نضمنه إلا الرسومات التوضيحية الأكثر أهمية فقط (أبيض وأسود). وقد فكرنا مليا فى جدوى إضافة كشاف: بالرغم من أنه كثيرا ما يرتأى أنه عنصر أساسى لمثل هذه النوعية من الأعمال، إلا أن تكلفة أى عمل من هذا النوع يزيد على مجرد الكلمات الدالة للعناوين، كان سيرفع من سعر الكتاب بشكل كبير (ويؤخر النشر). وكان العامل الحاسم فى القرار بالطبع هو بنية العديد من الأوراق التى لا تتضح موضوعاتها بدقة إلا بقراءتها كاملة، حتى أن القارئ لن يظفر إلا بفائدة ضئيلة إذا ما اتجه لنقطة فيها عن طريق الكشف.

وقد اتبعت بشكل عام أعراف التحرير المتبعة فى "لندن جورنال London Journal" مع بعض الإضافات من "قواعد هارتس للمؤلفين ط. 39 (أكسفورد، 1983) Hart's Rules (for Compositors, 39th edn. (Oxford, 1983) ، وقد أكثرت من استخدام علامات الوقف لما لها من فائدة فى إيضاح معنى معقد.

وأوجه بشكر شخصى إلى أولوين ميهيل Olwen Myhill من مركز التاريخ المتروبولى Centre for Metropolitan History، وميك سكوت Mick Scott من أرشيف لندن المتروبولى London Metropolitan Archives دار محفوظات لندن الكبرى سابقا، Greater London Record Office ، بمساهمتهما القوية فى إخراج هذا العمل، وستيفن فريث Stephen Freeth من مكتبة جيلدهال Guildhall Library لنصائحه حول الموضوعات الأرشيفية، والتي بدونها لم أكن لأستطيع - وأنا لست بأرشيفى - أن أحرر مثل هذا الكتاب.

م. ف. روبرتس

المشاركون فى هذا العمل

- د. ديريك كين Derek Keene مدير مركز التاريخ المتروبولى، معهد البحوث التاريخية، جامعة لندن. Centre for Metropolitan History, Institute of Historical Research, University of London .
- د. روزالند توماس Rosalind Thomas محاضرة التاريخ برويال هولواى، جامعة لندن Royal Holloway, University of London .
- د. توماس بيرمان Thomas Behrmann جامعة فيستفاليش فيلهلمس Westfälische Whilhems-Universität, Münster مونستر .
- د. فرديناند أوبل، مدير أرشيف فيينا Wiener Stadt- und Landesarchivs .
- د. ميجيل-أنجل لاديرو كويسادا Miguel-Angel Ladero Quesada Catedrático ، de Historia Medieval, Universidad Complutense, Madrid.
- السيد/ فرانسوا جاسنوا François Gasnault مدير أرشيف باريس Archives de Paris .
- السيد/ إدوين جرين Edwin Green، الأرشيفى بميدلاند بنك Midland Bank plc .
- د. نيك ميريمان Nick Merriman المدير السابق لإدارة تاريخ ومجموعات لندن القديمة، متحف لندن Department of Early London History and Collections, Museum of London وحاليا بمعهد الآثار بجامعة لندن Institute of Archaeology, University of London .
- د. كريستوفر هيلتون Christopher Hilton الأمين المساعد بالمخطوطات الغربية، معهد ولكوم لتاريخ الطب Assistant Curator of Western Manuscripts, Wellcome Institute for the History of Medicine.
- أ.د. جيفرى مارتين Geoffrey Martin الأمين السابق للوثائق العامة لإنجلترا Public Records of England.

- د. فانيسا هاردنج Vanessa Harding كبير محاضرين لتاريخ لندن ببريكبك كوليج ، جامعة لندن Brikbeck College, University of London .
- السيدة/ دانييل بن عزوز Danielle Benazzouz المدير المساعد بالأرشيف المحلى لمارسيليا Archives Municipales de Marseille .
- السيد/ أندراس هورفاث András J. Horváth الأرشيفى والمؤرخ بأرشيف مدينة بودابست Budapest City Archives .
- د. رينات بانيك شفايتسر Renate Banik-Schweitzer ، مدير مشروع ومحرر مشارك فى الأطلس التاريخى لقيينا، والأطلس النمساوى للمدن التاريخية Historical Atlas of Vienna and the Austrian Atlas of Historic Towns بأرشيف فيينا - Wiener Stadt- und Landesarchivs.
- أ.د. لارس نيلسون Lars Nilsson أستاذ التاريخ الحضرى ومدير المعهد السويدي للتاريخ الحضرى، جامعة ستوكهولم، Swedish Institute of Urban History, Stockholm University.
- د. ديفيد كيناستون David Kynaston مؤرخ وكاتب ثلاثية - انتهى ثلثاها - عن تاريخ مدينة لندن بين عامى 1815 و 1986.
- د. تاموتسو كوماى Tamotsu Kumai أستاذ مشارك التاريخ بجامعة طوكيو كاساي جاكوين Tokyo Kasei Gakuin University .
- د. كليفتون هود Clifton Hod أستاذ مساعد التاريخ بكليتى هوربارت وويليام سميث Horbart and William Smith Colleges ، ولاية نيويورك New York State .
- د. جون دالى John Daly مدير أرشيف ولاية إلينويس Illinois State Archives .
- أ.د. آنا ماريا دى أليدا كامارجو Ana Maria De Almeida Camargo أستاذ التاريخ بجامعة ساو باولو، البرازيل .
- أ.د. رؤوف عباس، أستاذ التاريخ الحديث، جامعة القاهرة .

- د. روبرت أسبينال، أمين المكتبة والأرشيفى بمكتبة وأرشيف متحف لندن
دوكلاندز Museum of London Docklands .
- السيد/ بيتر جيلرى Peter Guillery الباحث والكاتب، باللجنة الملكية للآثار
التاريخية بإنجلترا Royal Commission on the Historical Monuments of England .
- د. ساره بالمر Sarah Palmer كبير محاضرى التاريخ، كلية كوين مارى، جامعة
لندن Queen Mary College, University of London .
- السيد/ فلاديمير أ. مانكين Vladimir A. Mankin النائب الأول لمدير جمعية
أرشفات مدينة موسكو Moscow City Association of Archives .
- د. جان بومجارد، مدير أرشفات الدولة العامة بهيج General State Archives in
The Hague.

تمهيد

إن الأرشيفات المتروبولية لتحتوى على أكثر من مجرد الذاكرة الإدارية للمدن الكبرى التى أنتجت مكونات هذه الذاكرة وحفظتها، فهى قد تحوى أيضا قرائن إنشاء المكان والمسئولية عنه؛ مما يضيف على تلك الأرشيفات سلطة معنوية بوصفها رموزا للهوية الجمعية، فهى تحتفظ بالمعلومات التى يستند إليها سكان المدينة بشكل أساسى فى قضاء أعمالهم اليومية، سواء تجمعت تلك المعلومات فى الأرشيف بشكل عمدى أو عفوى، والوثائق التى تحتفظ بها الأرشيفات تتفوق على أى متحف أو أثر فى كونها تمثل شخصية وأيديولوجية ووظائف المدينة فى شكل تمتد قيمته العملية زمنا وقد حظى الأرشيف بالعناية قبل أى مجموعات مدنية أخرى بوقت طويل وبشكل أكثر استمرارية، فأحيانا ما كان يضمه مبنى يشى بهذه الخاصية صراحة، بل والأكثر من ذلك فإن أرشيفات المدن الكبرى بمفهومها الأوسع قد وفرت فى القرن الأخير وبشكل متزايد مكانا لحفظ ووثائق العديد من المؤسسات الخاصة فى المدينة؛ مما رفع كثيرا من شأن الأرشيف كمستودع لمعارف متنوعة لا تقدر بثمن .

بيد أن العديد من أرشيفات المدن الكبرى تمر بأزمة فى أخريات القرن العشرين؛ للافتقار لمعرفة قدرها، أو التمويل أو الوسائل المناسبة للوصول إليها، ولا تعتبر لندن خلوا من المشاكل، غير أنه قد أصبح أيضا من الواضح أن الأرشيفات الخاصة بالمدن البريطانية الكبرى تحظى بعناية ملحوظة على الإجمال فى شكل إسهامات فردية تقدمها العديد من الهيئات العامة؛ وقد يعبر عن ذلك كميات الوثائق المحتفظ بها، ونوعية الحفظ، وعدد العمالة المستخدمة لحفظها وإتاحتها للجمهور. ويعكس هذا الإسهام بشكل لافت للنظر الطابع التاريخى للندن كمدينة كبرى، لذلك كان من المناسب أن تكون لندن محل انعقاد مؤتمر دولى على أرفع الدرجات حول أرشيفات المدن الكبرى .

وقد كان هدف المؤتمر هو زيادة فهم دور هذه الأرشيفات فى حياة المدن الكبرى ومشكلات النهوض بأعبائها، كما يهدف أيضا إلى الكشف عن السياقات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى نشأت فيها تلك الأرشيفات وحفظت، على امتداد العالم ومنذ العصور القديمة حتى وقتنا الحاضر. ولما كان العديد من المدن الكبرى فى نفس الوقت عواصم دول، فقد كانت العلاقة بين الأرشيف المتروبولى والدولة هى أحد المحاور العامة، وعلى ذلك فلم يتم تناول أرشيف الدولة إلا عندما يلعب دور الحافظ للوثائق التى أنتجتها مجتمعات متروبولية، ولذلك تتناول الأوراق التالية موضوعات لها أهمية عامة وواسعة تتعلق بالمدن والدول والسلطة.

وحتى نساير الطبيعة الديناميكية للمؤتمر طبعنا الأوراق بترتيب ورودها، وتم تجميعها موضوعيا فى قائمة المحتويات. وكما يتوقع من تناول الجديد لمسائل الأرشيف والتاريخ المتروبولى، كان هناك عدد من الموضوعات التى لها طابع العمومية متناثرة فى العديد من الأبحاث، بغض النظر عن موضوعها فى تقسيم الكتاب الموضوعى، كما كانت مثار مناقشات متكررة. وقد لفت النظر بشكل خاص هذا التنوع فى الوثائق - من يوميات خاصة إلى مجموعات أو سجلات القوانين الرسمية - التى نجدها فى المجموعات المتروبولية والتى تعكس حالة من الانتقائية وعدم الانتظام حتى فى أفضل الأرشيفات انضباطا، وهى حالة تسعدنا وإن لم تكن دائما متعمدة؛ فالمؤرخ المتروبولى يستطيع - والحال كذلك - أن يتذوق طعم الاكتشاف وروح الغموض التى حررت كازانوفيا من محبسه فى ركام أتربة أرشيف البندقية، ويمكن أن يكون لمادة الوثيقة نفس أهمية شكلها ومحتواها من حيث أنها تعكس الأولويات الثقافية للمدينة الكبرى، ويتضح ذلك بجلاء فى تفضيل الورق مثلا أو الرق أو الحجر لإيصال كلمة السلطات المتروبولية، بالإضافة إلى أن الإجراءات التى تتبع للحفاظ على المادة الأرشيفية - فى أماكن مخصصة لذلك فى المصالح أو مع الأفراد الذين أنتجوها أو مع الموظفين القانونيين - تعكس أيضا طبيعة المسئولية وتوزيعها فى (وعلى) مجتمع المدينة.

ويتضح الطابع الأساسى للمدن الكبرى والثقافات التى نشأت تلك المدن فى كنفها من خلال هياكل أرشيفاتها وغناها، كما نجد مثلا فى المقارنة بين لندن وباريس، أو بين أمريكا الشمالية وأوروبا، أو بين شمال وجنوب أوروبا، كما توضح ذلك أبحاث الكتاب،

فالممارسة الأرشفية وترتيب الأرشيفات يبعدان عن أن يكونا وليدا الصدفة، وقد تقود دراستهما إلى استجلاء نقاط مهمة فيما يتعلق بالسيطرة على المدينة وإدارتها، والتي قد تكون مثلا موزعة كما هي الحال في أمريكا الشمالية، أو موحدة ولكن متنازع عليها كما هي الحال بالنسبة لباريس.

كما أوليت العناية أيضا لأهمية الأرشيفات المتروبولية في تلبية احتياجات بعينها، خاصة في أوقات الأزمات ، ففي مدن العصور الوسطى مثل جنوة ولندن ولوبك - على سبيل المثال - ظهرت المجموعات المنظمة كوسيلة لتوفير الاستمرارية الإدارية، وإثبات حقوق الملكية والالتزامات المالية. ومن الناحية العملية يمكن أيضا أن يثبت الأرشيف أنه مصدر غير مقصود للقوة والسلطة، كما يتضح في استخدامه في قبينا كدليل على نسب "أريان"، وفي استخدام وثائق المستشفى في ساو باولو لإثبات الهويات الشخصية والحقوق السياسية، وفي الكيفية التي يلجأ بها الأفراد والمؤسسات إلى أرشيف موسكو في أوقات التحولات الدراماتيكية ، وتبرز تلك الاستخدامات جوانب مهمة فيما يتعلق بمسئولية الأرشيفي والمؤرخ وغيرهما ممن يضعون سياسات الانتقاء والحفظ في الأرشيف.

لقد تولد عن فهم الاستخدامية والوعي بأنماط الاستفادة ، نشأة نظم الترتيب في الأرشيف وخلق وسائل الإتاحة: في جنوة في القرن الثالث عشر وفي لندن بعد ذلك بما لا يزيد عن جيل، وفي الحالتين صاحب تلك العملية وعى جديد بتاريخ وهوية المدينة، بينما كانت إعادة ترتيب أرشيف البندقية جزء من مشروع أيديولوجي أوسع للتأكيد على الصفات المعنوية والدور الوظيفي للجمهورية ، وقد كان وراء المبادرات المتعلقة بالأرشيفات المتروبولية في القرنين التاسع عشر والعشرين اهتمامات مماثلة، خاصة في الربط بين الإرادة الجمعية في كتابة تاريخ جديد أو "علمي" للمدينة وإصلاح أرشيفاتها. ويبدو أن هذا التقليد الأوروبي أصلا قد أثر على طوكيو أيضا، ولكن ربما مع تعديلات أملت ممارستها "كونفوشية" أقدم في حفظ الوثائق.

وعلى ذلك يمكننا أن نرى في الأرشيف المتروبولي حاويا لذاكرة المدينة على الإجمال ، سواء في الأعمال أو المؤسسات الخيرية أو الأفراد أو الأنشطة المحلية ، فقد أصبحت مكانا أو أمكنة (وتصح صيغة الجمع بالذات عندما تسود "التخصيصية الأرشفية" كما في حالة شيكاغو ونيويورك) يسبر فيها المواطن العادي

أكثر من المؤرخ المتخصص أغوار تلك الذاكرة بمهارة متزايدة ، ويتضح بالفعل عدم الميل الأكاديمي لاستخدام مادة مكتشفة حديثا ولكنها غير معتادة في عدد من الأوراق. وقد وضعت تلك التطورات - وبشكل أكثر إيجابية - الأرشفة في قلب ثقافة المدينة جنبا إلى جنب مع المجموعات والأنشطة الأخرى ، وعلى ذلك يمكن لموقع الأرشفة ومبانيه أن تلعب دورها في إعادة الخلق العمراني وإثراء الجدل حول طرزه، كما حدث في مرسيليا وبودابست على الترتيب.

وقبل كل شيء فقد تكونت طبقة واسعة من المهتمين بالأرشفة ، هم أمله في المستقبل ، وهو ما تعتبر حالة شيكاغو أبلغ تعبير عنه ، ويبقى أن نبحث فيما إذا كان الأرشفة هو الذي سيصبح حلقة الوصل بين كل مصادر الذاكرة والمعرفة في المتروبول ، بالرغم من أن هذه الرؤية قد ظهرت - ويا للعجب - من المدينة التي صنعت الفكرة الحديثة التي ترى في المتروبول مكان لتبادل المعلومات " أمستردام " .

الفصل الأول

أرشفات المدن الرئيسية من القديم إلى الحديث

أرشيفات العالم القديم: الحفظ، الوثائق، وأرشيف اليونان الحجرى

روزالند توماس

أستهل حديثى بحريق فى روما، فى القرن الأول للميلاد، أواخر حكم نيرون. فقد وقع آنذاك فى روما حريق دمر ما رُئى بأنه كان " أجمل وأقدم سجل للإمبراطورية " (Suet. Vesp. 8.5) تلك كانت الوثائق التى احتُفظ بها فى تلال الكابيتول، وكانت تتكون من مراسيم السناتو senatorial decrees ومراسيم وقرارات أصدرها الشعب الرومانى تتعلق بالأحلاف مع أطراف أجنبية، ومعاهدات وامتيازات لأفراد، ترجع كما يُعتقد إلى وقت إنشاء روما نفسها. إلا أننا قد ندهش من الوصف الشعرى الذى أطلق على تلك الوثائق " أجمل وأقدم سجل instrumentum للإمبراطورية " ، فهو وصف يعبر عن القيمة الرمزية والقوة القانونية لهذه الوثائق ، وقد لعب موقع تلك الوثائق فى القلب الرمزى والروحى لروما وبالتالى فى قلب الإمبراطورية نفسها دورا كبيرا فى إعطاء تلك الوثائق هذا الوزن. كما أن هناك أيضا وزنا بالمعنى الحرفى للكلمة لتلك الوثائق المدمرة والتى كانت على ما يبدو حوالى ثلاثة آلاف لوح برونزى عريضة الحجم فى أغلبها، كُتب عليها وكانت معروضة على أعين الناس فى الهواء الطلق .

ويبدو أن هذه الديمومة المادية والنشر المطلق للوثائق الحكومية ، لتعرض على كل من يرغب فى رؤيتها، كانتا فى قلب عملية "حفظ الوثائق" فى العالم القديم وخاصة فى العالم اليونانى. لقد كانت هناك أرشيفات بمفهومنا الحديث للكلمة فى العالم القديم، أى أنها مجموعات من الوثائق حفظت فى أماكن مخصصة لها ، وتتعلق بأحد أو مجموعة من الموظفين أو المدينة ككل، وحفظت بدرجة تزيد أو تقل من الترتيب، مدونة على المقابل القديم للورق، وهو البردى. إلا أنها كانت نسخا باهتة قليلة الغناء والقيمة لأصول أكثر غناءً وأعلى قيمة معروضة على أعين الناس فى الكابيتول والفورم

والأجورا والأكروبوليس الأثينيين، مدونة على مواد أسهل حفظا: من البرونز غالبا في روما، ومن الحجر أو الرخام في العالم اليوناني. وبعبارة أخرى فإن وضع ووظيفة الأرشيف كانتا على صلة وثيقة بتواجد المدونات المحفورة على الحجر أو البرونز في الهواء الطلق ، لقد كان العالم القديم على وعى كامل بالاحتمالية العالية لفناء البردي والخشب .

ويقودنا هذا إلى مثال تمهيدى آخر: وهو ما كان في أثينا الكلاسيكية في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد، في الفترة المتأخرة من الديمقراطية الراديكالية، بعد إرساء الديمقراطية بـ ١٣٠ سنة وبعد انهيار الإمبراطورية الأثينية بعدة عقود والتي شملت معظم العالم الإيجي ، لقد حاول الخطيب والسياسي " أيسخينس Aeschines " الغريم الذكي البعيد عن المبادئ لـ " ديموستينس Demosthenes " أن يقنع سامعيه بقيمة الأرشيف الأثيني ، وقد كان جمهوره شريحة من الشعب الأثيني، من المواطنين، أى ممن يمكن أن تلعب أصواتهم دورا حاسما في الجمعية التشريعية وفي ساحات القضاء حيث كانت تجرى معظم الأنشطة السياسية الأثينية. وقد كان أيسخينس يحاول أن يقنعهم بأن غريمه صار يقتصد في طريق الحق، وبنى حجته على بيانات مجمعة من الأرشيفات العامة الأثينية، ونعنى بذلك الوثائق المودعة في تلك الأرشيفات ، وقد نطن أن ذلك لا يثير الدهشة، إلا أنه كان كذلك في ذاك العصر. وهناك عدد قليل جدا من الساسة الذين ربما استفادوا من الوثائق في الأرشيفات استفادة كبيرة بعيدا عن استخدامها القانوني ، إن الأسلوب الذى أطرى به أيسخينس على الأرشيفات كدعائم ديمقراطية تنطق بأن استخدامه للأرشيف كان غير عادى :

– فإنك تحتفظ فى الوثائق العامة للشعب وعلى الدوام بالتواريخ والمراسيم وأسماء من صوتوا عليها (II.89).

– وبعبارة أخرى فإن منافسيه يسيئون تفسير تتابع الأحداث.

إن حفظ الوثائق العامة (demosia grammata) هو أمر جميل حيث أنها لا يعتريها تغيير (III.75).

– فذلك يعنى أن العامة يمكنهم أن يتخلصوا ممن كانوا أنذالا فى الماضى ويدعون الآن الشرف.

إن أسخينس قد هجاه منافسه بأنه "منكب على الوثائق" (Dem. XVIII 209). وقد كان أمين مجلس الشيوخ (Boule)، ويؤدي بنا كل ذلك إلى أنه هو الذي كان ، بألفته الكبيرة لمحتويات الأرشيفات، أول من توصل إلى قوتها العظمى ، فى دحض ادعاءات غريمه، وفى الخطابة الديمقراطية على حد سواء.

ونرى من هذين المثالين مسلكا مغايرا لمسلّماتنا فى التعامل مع الوثائق والأرشيفات، وسوف أركز فيما بقى من هذه الورقة على بعض خصائص الأرشيفات القديمة، وعلى الأخص الأرشيفات الأثينية، والتى يمكن أن تثير تساؤلات وتبرز موضوعات قد تكون ذات أهمية أشمل لدراسات الأرشيفات المقارنة. قد يكون من السهل ولكنه من المضلل جدا أن نتناول الأرشيفات القديمة (أو أرشيفات العصور الوسطى) على أنها كانت تؤدي نفس الوظائف التى تؤديها الأرشيفات الحديثة (الغربية)؛ وعلى النقيض من ذلك فإن طبيعة الأرشيفات القديمة وطرق حفظ الوثائق بشكل عام يمكن أن تحدد بشكل أدق تساؤلات قد نطرحها حول طبيعة ووظيفة الأرشيفات الحديثة فى المدن الكبرى. إن بعض الأوراق التالية فى هذا المؤتمر تهتم بأرشيفات المدن على أنها مخازن للماضى ومصادر للمؤرخ المتأخر. غير أن ذلك كان أبعد ما يكون عن وظائف الأرشيفات الأثينية أو الرومانية، والتى كانت على صلة وثيقة بوظائف الحكومة ؛ ولو حدث أنها أفادت المؤرخ المتأخر، فإن ذلك لا يعدو كونه منتجا ثانويا عفويا لحفظه.

أثينا الكلاسيكية

لم يكن لأثينا ما يمكن أن يطلق عليه "أرشيف دولة مركزى" أو ما يسمى "متروون Metróon" إلا فى فترة متأخرة نسبيا من تاريخها ، وربما لا نستدل على مثل هذا الأرشيف إلا فى العقد الأخير من القرن الخامس ق.م ، أى بعد خمسين سنة من تكون الديمقراطية الراديكالية التى أعطت قوة القرار إلى المواطنين ، والتى طورت إجراءات معقدة نسبيا وخطابات شديدة الجزالة ، وكان ذلك أيضا قرب نهاية الإمبراطورية الأثينية، والتى كان لها أسلوب غنى ومؤثر فى انتزاع احترام الحلفاء على امتداد العالم الإيجى وحتى شبه جزيرة "جاليبولى Gallipoli" - وكان من هذه الأساليب نظام دقيق

للتسجيل كتابية ، لذلك لا يمكننا أن نرجع غياب أرشيف مركزي إلى البساطة الشديدة للنظام السياسي .

أضف إلى ذلك أن الأرشيف المركزي عندما تأسس كانت وظيفته الأساسية على ما يبدو هي حفظ وثائق مجلس الشيوخ (Boule) (الهيئة الديمقراطية المكونة من ٥٠٠ فرد والتي كانت تعد أعمال مجلس الشعب) وكذلك وثائق مجلس الشعب نفسه، أي قرارات مجلسي الشيوخ والشعب وليس الإجراءات.. إلخ، والتي لم تكن تدون على الإطلاق ، وفي فترة لاحقة أوت أيضا نسخ من القوانين ومن المعاهدات الكبرى مع دويلات المدن الأخرى، بما في ذلك الوثائق الرسمية الأساسية للكيان السياسي المركزي، ولا شيء آخر بالإضافة لذلك. لماذا ؟

هناك عدة أسباب لذلك ، أولاً : كان الموظفون الرسميون يميلون لحفظ وثائقهم في مكاتبهم ، بالإضافة إلى أن الخط الفاصل بين الوثائق العامة الرسمية والوثائق الخاصة كان غير واضح ؛ فقد كان أرشيف الدولة في المتروون - بمعنى ما - مجرد غرفة حفظ للوثائق الرسمية الخاصة بالمجلسين أكثر من كونه مخصصا لكيان أعرض وهو دويلة المدينة.

ثانياً : كثير من الوثائق الرسمية التي كانت تنشأ وتحفظ دائما كانت لازمة لأداء وظيفة بعينها، ثم تعد من عمد عندما ينتهي العمل بها ، فعلى سبيل المثال كانت هناك قائمة بالمدينين للدولة محفوظة في الأكروبوليس ، وإن أردت أن تتحقق مما إذا كان شخص ما مدينا للدولة فإنك تتجه للأكروبوليس وتطلع على القائمة المدونة (ربما) على لوح خشبي ، وقد حاول أحد أعضاء الهيئة التشريعية أن يعثر على اسم غريمه في تلك القائمة ولكنه وجد بدلا منه اسم جده فرأى أنهما في اللعن سواء ، فقد كانت هناك قائمة واحدة وعندما كان الدين يسدد كان الاسم يمحي بالطبع . (كانت هناك قوائم عامة مماثلة للمتبرعين للدولة وللخونة) .

وكان الموظفون الماليون (poletai etc.) يحتفظون بوثائق على ألواح للضرائب وللعقود التي يحررونها، فقد يكتبون على اللوح الأبيض اسم الرجل الذي يستأجر الضريبة وقيمة الإجارة ويسلمونها لمجلس الشيوخ ، وعندما يدفع الرجل أقساطه الشهرية تمحي قيمة ما دفع من اللوح ، وبذلك يكون دليل الدفع هو الغياب التام للوثيقة المكتوبة (الوثيقة كانت مؤقتة) وتبقى حتى يتم دفع هذه المبالغ (الهامة) للدولة ،

وهو العكس تماما من مسلمائنا اليوم حيث نحتاج إلى دليل مكتوب على الدفع ، وقد خفّض ذلك التقليد القديم من كمية الوثائق بشكل كبير.

ويبدو أن نفس المبدأ كان مطبقا على الوثائق المالية الأخرى مثل إيجارات الضرائب، وحتى على الوثائق الهامة للحكومة مثل المعاهدات مع المدن الأخرى.

وهناك نقطة ثالثة تتعلق بتوزيع الوظائف والموظفين على ما يمكن أن نسميه "الدولة"، فموضع الوثائق المكتوبة والمادة التي تحفظ فيها وأسلوب ذلك الحفظ عادة ما تكون مؤشرات على كيفية تقسيم الحياة العامة ، وبدلاً من أن نهمل هذا النظام (أو اللانظام) لمجرد كونه بدائي ، ربما يكون من الأفيد أن نتناول توزيع التسجيلات من زاوية أخرى.

وقد يساعدنا المثال: نحن نعلم الكثير عن تكلفة وتفاصيل مباني وبنائى المعابد الكبرى فى الأكروبوليس؛ وذلك لأن هناك معلومات مفصلة للغاية عن تلك التكاليف تكبوا مشقة حفرها على الحجر - أحجار ضخمة ترتفع عادة لعدة أقدام - فعاشت بالتالى حتى أيامنا ، وهذا يعنى أنه على الأكروبوليس كانت هناك غابة من الكتابات التى تحمل تفاصيل مالية وقد كتبت بعناية. ولكن لماذا؟ إن هذا ليس مجرد علامة على توزيع الوثائق العامة، أو حتى على توزيعها على مبان وأماكن مختلفة مرتبطة بها ارتباطا وثيقا. فالمعروف أن أثينا القديمة (وفى أماكن أخرى أيضا) كان هناك ميل خاص لعرض ما يتصل بالآلهة: فالكتابات المنقطة تتكرر كثيرا بهدف تسجيل تفاصيل ثروات المعبد والهبات المتصلة به ، ويبدو كما لو كانت تلك الكتابات الكثيرة قد صنعت لأعين الآلهة اليونانية كما صنعت للمواطنين الأثينيين (ولنشر أيضا إلى أن التركيز على ما نون على الحجر أكثر من الوثائق الأقل قيمة المدونة على البردى أو الخشب). لقد كانت الجزية الضخمة التى تحصل عليها أثينا من إمبراطوريتها تكتب بلا شك على البردى أو الخشب لمجلس الشيوخ، ولكن الوثائق المهمة بحق والتى صرف عليها أموال أكثر كانت تلك المحفورة على الأحجار الضخمة والتى تسجل جزءا قليلا من تلك الجزية (1/60) والتى كانت مخصصة للإلهة أثينا. ولم تكن "قوائم الجزية" تلك تسجل مجرد المجموع النهائى للعشور، بل سجلت أيضا كل حليف ومنطقته، وتحت أى من الأحلاف حدد مبلغ الجزية، وحتى بالرغم من قلتها، حيث تمثل 1/60 مما ينبغى أن يقدم هذا

الحليف إلى ثروة أثينا (وفى بعض الأحوال كان يمكن أن يقدم الآلهة الإغريق قروضا من ثرواتهم) ، لقد كان ذلك نظاماً محاسيبياً مقدساً على نطاق واسع .

وهكذا نجد أن هذا التشرذم والتوزع الشديدين لمواقع مختلف أنواع الوثائق المتعلقة بالمدينة، يمكن أن ينطق برؤية الإغريق لمكان الآلهة فى المدينة وبالوثائق المكتوبة على حد سواء . ويجذبنا ذلك لماضى النقوش الحجرية فى اليونان القديمة .

والسبب الرابع الذى كان وراء بطء تطور الأرشيقات كما نفهمها ربما يرجع إلى كون النقوش الحجرية الضخمة كانت هى بالفعل أرشيف اليونان بأهم معانى الكلمة ، فمن المفترض أنها غير قابلة للتدمير (بالرغم من وجود العديد من حالات الكشط لتلك النقوش)، فقد كانت أكثر عرضاً للجمهور من أى أرشيف حديث، وسجلت موضوعات على أعظم جانب من الأهمية للدولة والمواطنين.

هناك بعض التناقض والتمويه على بعض المشاكل فى تلك الملاحظة ، فقد كان هناك بالفعل جدل حول ما إذا كانت لتلك النقوش بالفعل صفة الرسمية التى يعتمد عليها لعمل نسخ للمعاهدات أو الأحلاف أو القرارات التى تودع فى أرشيف إلى جانب حفظها منقوشة على الحجر ، وقد خولت تلك السلطة الرسمية فيما بعد بلا شك فى العصرين الهلينستى والرومانى للوثيقة الأرشيكية، ولكن ليس فى كل الأحوال. ونشعر بأن الدارسين المحدثين، والمعتادين على الوثيقة الورقية، يصعب عليهم أن يكونوا على وفاق مع الوثيقة الحجرية ، والحقيقة أن الساسة فى العصور الكلاسيكية وما قبلها اعتمدوا أكثر على النقوش الحجرية العامة أكثر من النسخ الأرشيكية.

وهناك قضية مشهورة كاد "أندوسيدس Andocides" أن يواجه فيها حكماً بالإعدام لعدم تقواه عندما أشار إلى " النقوش التى على قدميك " والتى كانت تقول أن العقوبة لم تكن على درجة عالية من الشدة (Andocides I. 116). وهناك حالة أخرى وردت فى M.N. Tod's Selection of Greek Historical Inscriptions ii (1948), 142 وهى محاكمة يحدد نصها أنه يجب أن ينقش على الحجر "حتى تصح الأيمان". والنتيجة الطبيعية هى وجوب تدمير نقوش المعاهدة التى تخرق أو تلغى ، وهناك نقش تشريفى من "إريثراى" فى ثلاثينيات القرن الرابع قبل الميلاد تشترط وجود نقشين " حتى يعلم الجميع أن الشعب يعرف كيف يقدم الشكر المناسب على الفائدة المرجوة منها " H. Engelmann and R.Merkelbach, Die Inschriften von Erythrai und Klazomenai (Bonn, 1972) , i, 21 وهكذا

نرى مرارا وتكرارا أن الكلمة المكتوبة العامة أى النقش الحجرى هو الذى يرجع إليه للملاحظة وهو الذى يبدو أنه كان يقوم بالوظيفة المعلوماتية للحكومة، والتأكيدية وحتى فى التأكد من صحة قرار أو مرسوم أو معاهدة، إن فكرة وجوب ذهاب الوثائق الأصلية للأرشيفات وكون الوثائق فى الأرشيفات لها من القوة القانونية أكثر من تلك التى تعرض فى أماكن مفتوحة هى ليست إلا فكرة حديثة.

وأود أن أختتم بنقطتين تمخضتا من هذا المفهوم، تتصل إحداهما بالديمقراطية والثانية بالنقوش الحجرية بادئة بتلك النقطة الأخيرة .

إن النقوش المعروضة على العامة فى الأماكن المفتوحة لها من القوة الرمزية ما يفوق بكثير ما للورق فى الأرشيف ، فيمكننا أن نرى ما يمكن أن يكون للنقوش من نوع من القوة "الشرطية الوظيفية" ، أو أنها تمثل نوعا من الرمزية وكذلك القوة القانونية، عندما ننظر إلى المراسيم المنقوشة التى أقامتها أثينا بعد ثورة أحد الحلفاء ، ومازال لدينا العديد من تلك النماذج، ومما يثير الضحك أو الفزع أن المجلس الأثينى قد يحدد أن يقام مرسوم العقاب الذى أنزل بالحليف المتمرد منقوشا على الحجر فى أثينا وفى مدينة الحليف المعنى. وكان على هذا الحليف أن يدفع تكلفة عمل نسخته، وينصب النقش الحجرى الذى يفصل العقوبة عادة فى قلب مكان عام ترتاده الغالبية، كالأجورا أو معبد الإله الأكبر للمدينة ، وتظهر هنا مزية للنقش تكمن فى كونه شيئا ماديا وبالتالي شديد التأثير، كما أن محله المكانى يضيف عليه معان أكبر.

وننتقل الآن إلى الديمقراطية. فالديمقراطية اليونانية قد ارتبطت بشدة بهيمنة القانون، أى القانون المكتوب، ويمكننا أن نقرر بشكل عام أن الديمقراطية، كمنقوض للأوليغاركية والطغيان، تميل إلى إفراز الوثائق المكتوبة بشكل لا يضاهيه ما تفرزه الدساتير الأكثر سرية ، وهكذا ربما كان ما أنتجته الديمقراطية الراديكالية لأثينا الكلاسيكية من وثائق عامة ورسمية أكثر مما أنتجته معظم دويلات المدن الأخرى . وقد كانت المراسيم الشعبية ، والتى تحمل قوة قانونية تكتب فى صيغ رسمية ، وكانت مراجعة القوانين عبارة عن مراجعة رسمية لنصوصها ، ولم يكن للقانون غير المكتوب أى قيمة . بيد أن أبرز ملامح إفراز الديمقراطية للوثائق المكتوبة إبان إنشاء المدينة لأرشيدها المركزى، والذى بدأنا حديثنا به، لم يكن الأرشيده نفسه، والذى كان يدار على أية حال بواسطة العبيد، ولكنها تلك النقوش العامة العظيمة التى تسجل

إرادة الشعب ، وتقرر المراسيم أنها يجب أن تنسخ على الحجر وأن تقام "حتى يستطيع أن يراها من أراد" .

إن الدلالات الديمقراطية أو القوة الديمقراطية للوثيقة المكتوبة تتضح بجلاء في الوثائق العامة والتي كانت بالنسبة للإغريق عامة بحق (أى أنها مثبتة على أحجار لا تبلى في المعابد الكبرى والأماكن الدينية وغيرها من الأماكن العامة في المدينة) لقد كان لتلك النقوش قوة قانونية ودوراً رمزياً في دعم هوية المواطن الأثينية، والوزن الكبير في الأيديولوجية الديمقراطية، مما يدفعنا ربما إلى ضمها اليوم لأرشفات المدن. لقد تفضلت د. روزالد توماس بتقديم نص هذه الورقة كما تليت، وإنى لأتقدم بالشكر لستيفن فريث على تحريرها للنشر في هذا الكتاب. ونظرا لغياب الهوامش من الورقة التي قدمت للمؤتمر، فقد تقدمت د. توماس بالبليوجرافيا المختصرة التالية :

(المحرر)

- A.L. Boegehold, 'The establishment of a central archive at Athens', American Journal of Archaeology, 76 (1972), 23 - 30 .

- A.K. Bowman and J.D. Thomas, Vindolanda: the Latin Writing Tablets (Gloucester, 1984) .

- A.K. Bowman and G.Woolf (eds.), Literacy and Power in the Ancient World (Cambridge, 1994) .

- F. Burkhalter, 'Archives locales et archives centrales en Egypte romaine', Chiron, 20 (1990), 191 - 216 .

- W.E.H. Cockle, 'State archives in Graeco-Roman Egypt from 30 BC to the reign of Septimius Severus', Journal of Egyptian Archaeology, 70 (1984), 106 - 22 .

- P. Culham, 'Archives and the alternatives in Republican Rome', Classical Philology, 84 (1989), 100 - 115 .

- S. Demougin, La Mémoire perdue: à la recherche des archives oubliées ou privées, de la Rome antique (Paris, 1994)

- S. Georgoudi, 'Manières d'archivage et archives de cités', in M. Detienne (ed.), Les Savoirs de l'écriture en Grèce ancienne (Lille 1988), 221 - 47 .

- E. Posner, **Archives in the Ancient World** (Cambridge, Mass., 1972) .
- R. Thomas, **Oral Tradition and Written Record in Classical Athens** (Cambridge, 1989) , ch. 1 on archives and documents.
- R. Thomas, **Literacy and Orality in Ancient Greece** (Cambridge, 1992) .
- W.C.West, 'The public archives in fourth-century Athens', **Greek, Roman and Byzantine Studies**, 30 (1989), 529 - 43 .

جنوه ولوبك : البدايات الكوميونية للحفظ فى اثنتين من المدن التجارية الكبرى فى العصور الوسطى^(*)

توماس برمان

قليلة جدا هى تلك المؤسسات السياسية التى يمكنها أن تعكس التغير الجذرى الذى حدث بين العالمين الرومانى والوسيط بوضوح، كما هى الحال فى ممارسات حفظ الوثائق ، فهنا فقط نجد التغيرات المتعلقة بالإدارة والكتابة والسيكولوجيا بين الثقافتين الأوربيتين - الرومانية البحر متوسطية والجرمانية السلافية بشمال الألب - تظهر بجلاء . وقد عبرت تلك التغيرات عن نفسها بشكل أساسى فى حقيقة أن معرفة الكتابة فقدت أهميتها بسرعة كأساس للإدارة المركزية، وقلت بالتالى ضرورة إنتاج وحفظ وثائق مكتوبة^(١) ، وبعودة انتشار الكتابة تدريجيا - ولكن بشكل غير مطرد - وامتدادها لوسط وشرق وشمال أوروبا^(٢) لم تعد مواقع المصادر التى تعيش طويلا هى المدن الرئيسة الكلاسيكية ولكن تلك الأماكن التى استقرت فيها معرفة الكتابة الآن بشكل شبه تام، وهى تحديدًا الكنائس والأديرة ، ولم يعهد بما كان يكتب فى بلاط العديد من حكام العصور الوسطى المبكرة والتى حفظت حتى ذلك الوقت إلى بلاط هؤلاء الحكام أنفسهم ولكن إلى الجماعات الكنسية التى كانت تلك المكاتب موجهة إليهم ويهتمهم حفظها ، فدخلت ممارسات حفظ الوثائق عهدا جديدا بتوسع مؤسسات الديانة المسيحية ، ومنذ ذلك الحين أصبح من الأسر على المؤرخين المعاصرين أن يتعرفوا على كيفية قيام الكيانات القائمة على حفظ الوثائق بحفظها ، وما كانوا يقررون نسخه ، أو مراجعته، أو مجرد حفظه فى مأمّن، وما كانوا يعتبرونه عديم القيمة^(٣).

والمرحلة الثانية من تاريخ انتشار الكتابة وحفظ الوثائق، والتى تعتبر أقل فى أهميتها ولكنها أبعد فى نتائجها، تؤدى بنا إلى العصور الوسطى العليا ، فيمكننا أن نلاحظ حدوث طفرة فى الإدارة بالكتابة ليس فقط فى البلاط الرومانى وبلاط الحكام،

ولكننا نلاحظها بشكل أعم في تطوير كتابات خاصة بالأشكال الجديدة للمجتمعات التي حكمت نفسها حكما ذاتيا^(٤) ، وأقصد بذلك، على المستوى السياسى، كوميونات المدن القديمة في جنوبى وغربى أوروبا والمؤسسة حديثا أيضا فى شمال وشرق القارة، فقد نشأت عادات مختلفة فى التوثيق القانونى (وهو مهم لموضوعنا) فى الأشكال المدنية الأوروبية الكلاسيكية أو تلك التى ترجع إلى العصور الوسطى على السواء ، أثرت فى ممارسات حفظ الوثائق فى العصور الوسطى وفى الوثائق التى عاشت حتى عصرنا الحالى. فعادة تسجيل الشئون القانونية عن طريق كاتب متخصص مؤهل (وهو الموثَّق) هى عادة ترجع إلى العصر الرومانى^(٥) ، وقد اتبعت تلك العادة فى جنوبى وغربى أوروبا كما أنها استمرت أيضا فى إيطاليا ، فنلاحظ فى كوميونات شمالى إيطاليا منذ الفترة الباكورة منذ منتصف القرن الثانى عشر، أن الموثَّقين لم يكونوا يوثقون ملكية الأرض فقط (كما كانت الحال فى العصور الأولى) ، ولكن أيضا المعاملات اليومية. وقد ازداد عدد الوثائق التى أفرزتها تلك الموضوعات القانونية بشكل سريع وبلغ حدا غير مسبوق ، وقد قُدِّرَ ما نتج من وثائق خاصة فى مدن مثل جنوه Ge-noa ، أو بيسا Pisa ، أو فلورنسا Florence بما بين 20 إلى 40000 فى السنة، فى أواخر القرن الثانى عشر^(٦) ، فقد حفظت 3679 صحيفة مدونة على الوجهين تخص موثق واحد من القرن الثالث عشر فى "لوتشا Lucca" على شكل سجلات، وهى لا تشكل إلا جزءاً من أعماله^(٧)، ويحتوى ليبرى ميموريالى Libri Memoriali ببولونيا Bologna، والذى لا يعدو كونه سجلات للمعاملات التجارية الخاصة أكثر من 3500 كراسة بها أكثر من مليون مدخل فى المجموعات الرئيسية والإضافية للفترة بين 1263-1399 فقط^(٨) ، بيد أن حقيقة كون المثالىين الأخيرين يمكن أن نستخدمهما اليوم هو مجرد ضربة حظ نادرة الحدوث بالنظر إلى افتقارنا الشديد للوثائق المكتوبة^(٩).

وعلى نقيض ذلك نجد أن مكتب الموثق فى شمال الألب فى مناطق وسط وشرقى وشمالى أوروبا، لم يحظ بأهمية مماثلة فى أواخر العصور الوسطى ، فالصفة المميزة للموثق (ما يطلق عليه الأداة التوثيقية) لم تكن مستخدمة هنا إلا فى حالات معينة ، مثل أغراض الكتابة المحدودة^(١٠)، فالمعاملات القانونية عادة ما كانت تسجل فى شكل آخر ونعنى به الوثائق المختومة sealed documents (والتي تقتصر استخدامها على دائرة اجتماعية صغيرة من حملة الأختام) ، أو أنها كانت توثق فى مجلس المدينة^(١١) ،

بيد أن أغلبية المعاملات القانونية التي أصبحت الوثيقة المكتوبة ملزمة قانونيا فيها بإيطاليا منذ العصور الوسطى العليا، لم تكن تسجل كتابة في شمالي الألب.

وعلى ذلك يمكننا أن نلاحظ وجود أسلوبين للتعامل مع الكتابة، فيما يتعلق باستخدام وحفظ المواد المكتوبة، وأود أن أعرفهما بإعطاء نموذجين محليين دالين: كانت جنوه أهم مدينة تجارية في غربي المتوسط، ويرجع تأسيسها إلى ما قبل العصر الروماني^(١٢)، ويبلغ عدد سكانها حوالي 100.000 نسمة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر^(١٣)، ولدينا في جنوه أفضل نموذج موثق لدستور شعبي مبكر منذ سنة 1100 وبعد خمسين عاما من أقدم سجل موثق كنسي عثر عليه في إيطاليا وأوروبا^(١٤)، ولوبك وهي أهم مدينة تجارية في البلطيق، والتي لم تنشأ إلا في أواسط القرن الثاني عشر، وكان عدد سكانها في أواخر العصور الوسطى حوالي 20.000 نسمة^(١٥)، وكانت لوبك من أقدم نماذج العالم الناطق بالألمانية في إنشاء دستور مجلس council constitution وأنتجت أقدم نموذج لما يسمى كتاب المدينة city book^(١٦)، وقد كانت كلاً من جنوه ولوبك بحق مدينة رئيسة، لقد كان المتروبول الليجوري هو المؤسس للعديد من المستعمرات في شرقي البحر المتوسط^(١٧)، وقد لعبت المدينة الرئيسية على نهر "تريف" دورا في تأسيس عدة مدن على شاطئ البلطيق وحظيت بسلطة واسعة كرأس أكثر ال 'Stadtrechtsfamilie' انتشارا في منطقة البلطيق^(١٨) ويحتوي أرشيف دولة جنوه اليوم على أكبر مجموعات تاريخ التجارة في غربي البحر المتوسط في العصور الوسطى^(١٩)، ويلعب أرشيف مدينة لوبك دورا مماثلا بالرغم من أنه على مستوى أقل بكثير، بالنسبة للبلطيق^(٢٠).

بيد أن هذه الورقة ليست عن مكانة الأرشفين اليوم، ولا عن تاريخ مجموعتهما، فقد فضلت أن أوضح الأساليب المختلفة للتعامل مع الكلمة المكتوبة وذلك بتوجيه سؤال بسيط: ماذا يعني مصطلح "حفظ الوثائق record-keeping"، مع الأخذ في الاعتبار أن مجتمعات المدن في ذلك الوقت كانت تبدأ لأول مرة في تطوير وتنظيم وثائقها المكتوبة؟ وينتج عن هذا السؤال، كيف أثرت تلك الأشكال الوليدة من حفظ الوثائق على انطباعنا عن الوثائق التي وصلت إلينا اليوم؟ وبما أن تلك المشكلة تتضمن أسلوبين مختلفين ولكنهما متسقين، فإن الفارق الزمني بين نشأة المدينتين في شمالي إيطاليا وشمالي ألمانيا يكون قليل الأهمية^(٢١). ويفصل بدايات دستور كوميو في جنوه (وترجع إلى عام 1099)^(٢٢) وأول إشارة مؤكدة للأرشف الكوميوني 1280^(٢٣)

حوالى مئتى عام ، وقد سُجِّل الكثير بالطبع فى إدارة المدينة خلال تلك الفترة وكان محفوظا ، غير أن المجتمع الآخذ فى التطور لم ير سببا لحفظ وثائقه المكتوبة فى أرشيف بمعناه الحديث، وبعبارة أخرى فى مكان آخر غير مبنى المدينة، واستمر ذلك الحال لفترة طويلة. ولم يستخدم القناصل، الذين كانوا ممثلى المدينة كُتَّابا خاصين بهم ، ولا ما يسمون كُتَّابا ديوانيين cancellarius وقد حدث ذلك لأول مرة عام 1122^(٢٤)، عندما (وهذه نقطة لم تأخذ حقها فى الاعتبار حتى الآن) تحولت المدينة إلى الانتخاب السنوى للقناصل ، ويمكننا أن نلاحظ أكثر من مرة فى الكوميونات الإيطالية أن تغير النظام خلال فترات قصيرة يحمل فى طياته متطلبات خاصة، وهى تحديدا انتقال المهارات الإدارية ، واندفاع نحو حفظ الوثائق المكتوبة ربما نشأ من هذه الممارسة^(٢٥)، إلا أننا ما زلنا نتعامل مع وثائق ديوانية chancery documents وليس وثائق أرشيفية ، أضف إلى ذلك أننا يجب ألا ننسى أن كوميون جنوه لم يكن فى حاجة ولمدة طويلة إلى أرشيف خاص ، مثله فى ذلك مثل باقى المدن فى شمالى إيطاليا، وذلك أن جمهرة كبيرة من وثائقه وملفاته كان يقوم على إعدادها باسم هذا الكوميون الموثقون المستقلون سالفو الذكر ، ويمكننا أن نطالع فى سجلات الموثقين الجنوبيين ، والتي دونت على الورق (وهى تمثل أقدم وأشمل مجموعات وصلتنا من أوروبا) مداخل منذ أواسط القرن الثانى عشر، وكانت تكتب على تعليمات كبار موظفى الكوميون ويمكننا أن نجد قرارات ومراسيم قناصل المدينة^(٢٦)، أى الوثائق التى نتوقع حفظها فى مجلس المدينة، بين الأنواع المتعددة من الوثائق الأخرى كصكوك البيع والدولة، والعقود التجارية ، وعقود التبادل أو التأمين (باختصار تلك الوثائق التى تجعل من تاريخ جنوه الاقتصادى فى العصور الوسيطة تاريخا فريدا)^(٢٧) والوصايا وعقود التوظيف والمهور (وهى مادة غنية لتاريخ جنوه الاجتماعى)^(٢٨)، ومن جانبهم كان الموثقون المستقلون يحفظون سجلاتهم بأنفسهم ويحتاط الكوميون لذلك بأن يعهد إلى زميل له بعد وفاته بهذه السجلات أو يعهد بها إلى مدرسة الموثقين college of notaries^(٢٩)، وظهرت بذلك أرشيفات مدارس الموثقين فى جنوه وفى عدد من المدن الإيطالية الأخرى منذ القرن الثالث عشر ، ولم تنتقل أرشيفات مدارس الموثقين إلى أرشيف الدولة المؤسس حديثا إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر^(٣٠)، واستمرت تلك الأرشيفات منذ ذلك الحين جنبا إلى جنب مع أرشيفات الكوميون والتى حفظ بها - كما سوف نرى - كما هائلا من الوثائق المكتوبة، قد يستحيل تقدير كميتها .

وبالرغم من ازواجية حفظ الوثائق في مجالس المدينة وفي أرشيفات الموثقين، والتي استمرت في جنوه لفترة طويلة وبشكل ملحوظ أكثر من المدن الأخرى^(٣١)، فإن عدد الوثائق التي أفرزتها إدارة الكوميون شهدت تسارعا في الزيادة منذ أخريات القرن الثاني عشر، لدرجة نبدأ معها في رؤية إجراءات خاصة لحفظ الوثائق في مكان معين لها لأول مرة، كأحد الأضرحة مثلا، كما كانت الحال في كوميون سافونا المجاور لجنوه^(٣٢)، وبالنسبة للميتروبول الليجورى *Ligurian metropolis* لا يمكننا، للأسف، أن نتوصل لمعلومات عن كم الوثائق المكتوبة في القرن الثالث عشر، سواء اعتمدنا على بقايا المصادر التي وصلتنا أو على الأدلة غير المباشرة^(٣٣)، ولو نظرنا إلى مخزون الأرشيف الكوميوني في بولونيا، والذي يعطينا أدق معلومات عن المنتج الوثائقي لتلك الفترة، لاتضح لنا أن آلاف من المخطوطات والمنتجات المكتوبة الأخرى كان يُفرز. فإنتاج بولونيا من الوثائق في عام 1290 يوضّح - وأود أنؤكد على هذه النقطة - أنه نادرا ما حفظت وثائق الأفراد، فقد احتوت *the cited libri and quaterni* على عدد من الملفات عن نفس الموضوعات^(٣٤)، ومن الواضح أن أهم وثائق الكوميون، والتي تتضمن المسودات الأصلية للامتيازات والعقود كانت تحفظ في مكان على درجة عالية من الأمن وهو غرفة مقدسات سان بيتر^(٣٥)، ويمكننا أن نعتبر النموذج البولونسي، والذي لا أستطيع أن أتبعه تفصيلا هنا، هو النمط السائد لمدن الشمال الإيطالي، وهو يوضح لنا على الأقل أن الوثائق الكوميونية كانت تحفظ في أماكن مختلفة تبعا لأهمية كل منها: في مجلس المدينة، وحجرات القصر الكوميوني، والكنائس، ولدى الموثقين المستقلين^(٣٦)، ونستطيع أن نتعرف على التشابه الكبير الذي جرت عليه الأمور في جنوه من خلال أول أرشيفي كوميوني والذي ظهر في أواخر القرن الثالث عشر هو جاكوب دوريا *Jacob Doria*، فقد بلغنا عنه أنه يقول: إن أهم الوثائق كانت محفوظة في غرفة المقدسات بكاتدرائية سان لورنزو، وكان يصعب الوصول إليها بشكل عام، بينما كانت الوثائق التي يحفظها الكوميون متاحة للجميع^(٣٧).

ولم يمثل حفظ الوثائق في لوبك في نفس الفترة الزمنية أي مشاكل مقارنة بما ذكرنا حتى الآن^(٣٨)، وقد أصبحت الكتابة ممارسة منتظمة في المدينة الواقعة على التريف *city on the Trave* في أواسط العقد الثالث من القرن الثالث عشر^(٣٩)، وبعد حوالي عشرين سنة من أول دليل على إنشاء مجلس، إلا أن وثائق لوبك مختلفة اختلافا بينا

عن وثائق جنوه ، فحكام لوبك لم يكن باستطاعتهم أن يعتمدوا على دعامة ثقافية من الموثقين تتواجد دائما، فاعتمدوا بدلا من ذلك على ثقافة الكتابة الكنسية بشكل كامل لخدمة أغراضهم ، وهذا هو ما يفسر الارتباط الطبيعي والوثيق بين العاملين في مجلس مدينة لوبك والطبقة الكنسية بالمدينة^(٤٠). إن جهود مجلس مدينة لوبك لتأمين تسجيل المعاملات القانونية الخاصة تحت سلطته منذ البداية تتضح أهميتها وتتجلى أكثر للفهم في سياق غياب نظام الموثقين ، وبعبارة أخرى فقد كانت تلك التصرفات القانونية التي سجلها موثقوا جنوه في سجلاتهم الخاصة - وهي في جنوه بطبيعة الحال أعظم عددا وتنوعا، ووصلتنا عن عدة طرق وسيطة وبنسبة فقد عالية - تُسجل بشكل منتظم بواسطة مجلس مدينة لوبك منذ البداية^(٤١).

وهكذا يتضح لنا كيف نشأت المجموعتان الرئيسيتان للوثائق البلدية للوبك ، والتي حفظت في معظمها حتى الآن: مجموعة الـ "أوبرشتادت بوخ" Oberstadt buch وقد سميت كذلك تبعا للمكان الذي حفظت فيه، في الدور العلوى لقاعة مدينة لوبك town hall ، وقد دخلت العقود العقارية في هذه المجموعة حتى عام 1818^(٤٢). والمجموعة الثانية هي Niederstadt buch وقد حفظت في بدروم قاعة المدينة وسجل في هذا السجل العديد من معاملات الديون حتى العصر الحديث^(٤٣) ، وهكذا حُفظت لنا العديد من وصايا مواطني لوبك منذ القرن الثالث عشر، حيث أن الكان يجب أن تكتب مسوداتها في حضور ممثلين عن مجلس مدينة لوبك وكان هذا المجلس هو الحافظ لها^(٤٤). غير أن غالبية المصادر التي تتعلق بلوبك والتي كتبت منذ العصور الوسطى وحتى العصر الحديث، أى أكثر من عشرة آلاف وثيقة وخطاب ومن بينها العديد من الوثائق الهامة بالنسبة للتاريخ الهانزى Hanseatic history لم تكن تحفظ حتى الحرب العالمية الثانية كمجموعة متصلة التسجيل عبر الزمن continuously-recorded series ، وقد حفظت الوثائق في حجرة خاصة داخل الكنيسة في قبو مجلس مدينة لوبك والمسمى التريسي Trese في كنيسة المجلس وهي كنيسة سانت ميرى^(٤٥)، وقد نرى في ذلك، لأول وهلة، وضعاً مشابها لما كان في جنوه. لقد كانت التريسي في لوبك والتي ظلت لوقت طويل أكثر حجرة أمنة في المدينة بأسرها، والتي نحتاج ، حتى في أيامنا هذه ، سبعة مفاتيح لدخولها^(٤٦) ليست فقط مكانا آمنا للأشياء الثمينة في العصور الوسطى، ولكنها كانت بالإضافة لذلك الأرشفة الفعلية للمدينة التي حفظت بها منذ ذلك الحين أيضا الوثائق المفردة للهيئات الكنسية الأخرى، ومن ناحية أخرى لم يكن الاطلاع العام على الملفات،

والذى كان شيئاً معتاداً فى جنوه وفى الأرشيفات الكوميونية فى العديد من المدن الإيطالية الأخرى فى القرن الثالث عشر^(٤٧)، ممارسة معتادة فى لوبك حتى القرن التاسع عشر^(٤٨).

وتبين استخدامية الوثائق داخليا الفارق بين المدينتين ، بشكل أوضح مما تبينه علميات تسجيل أو حفظ الوثائق نفسها، وتعتبر الليبرى إيوريوم Libri iurium أوضح مثال على ذلك^(٤٩)، فقد انتظمت فى تلك السجلات نسخ من أهم صكوك أفراد الكوميون ، كما يعكس الليبرى إيوريوم أيضا أقدم السجلات التى توضح كيف كان أفراد الكوميون يتعاملون مع ملفاتهم، وتحتوى السجلات المتتابعة فى جنوه على مادة شديدة الإفادة، لا تعكس فقط أصول المجموعات ولكنها تسمح أيضا بتتبع الطلب المتزايد للمعاصرين على سجلات الصكوك خطوة بخطوة، والأبعد من ذلك أنه قد أصبح من المستطاع تحديد القيمة المتزايدة لتلك السجلات بمقارنتها بالأصول التى وصلت إلينا، فقد بدأ المجتمع الجنوى فى تدوين نصوص وثائقه الهامة فى سجل واحد على الأقل منذ أربعينيات القرن الثانى عشر^(٥٠)، وبالرغم من أن هذا السجل بالذات لم يصل إلينا إلا أننا نستطيع التعرف على محتوياته من النسخ التى عملت عليه فى وقت لاحق ، ولدينا دلائل قوية على ذلك من معلوماتنا عن إعادة التنظيم الكبيرة التالية لمجموعة جنوه والتى حدثت عام 1229، وقد كان قرار إنشاء السجل تلبيةً لضرورة وجود نصوص الوثائق المتناثرة فى مكان واحد عند الحاجة إليها، وكذلك لحماية الأصول، وكانت نفس الأسباب خلف الخطة التالية للسجل عام 1253 مع إضافة أن المجموعة الجديدة يكون لها نفس الحجية القانونية للوثائق الأصلية^(٥١)، وقد استكمل السجل بالطبع فى العقود التالية^(٥٢) وحفظ لنا هو والسجلات التالية، وقد عملت نسخة طبق الأصل من هذا السجل بعد ذلك بعدة سنوات، أضاف لها الأرشييفى جاكوب دوريا Jacob Doria فيما بعد فهرساً والعديد من التوجيهات حول كيفية استخدام السجل حتى - كما يقول - "نستجمع كل ما له صلة بنفس الموضوع"^(٥٣) وقد وقع صراع عنيف فى المدينة عام 1296-97 دمرت فيه العديد من الوثائق، فعملت نسختان على النسخة الموجودة آنذاك للسجل، بهدف زيادة التأمين، وهى نسخة أفضل فى تنظيمها الموضوعى من سابقتها^(٥٤) ، وتتضح مكانة مجموعات السجلات، والتى كتبت بعناية فائقة واهتمام أكبر بحجيتها

القانونية ، فى النسخ المراجعة التى عملت فى فترة متأخرة فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر. ويبدو من خلال الصيغ القانونية ، أن الموثق الذى قام عليها يصف تلك النسخ المعتمدة بأنها أصول وجدها فى السجلات^(٥٥).

وقد حظيت سجلات الليبرى إيوريو بتقدير مماثل فى المدن الإيطالية الأخرى باعتبارها مجموعات من الامتيازات الكوميونية لها قوة قانونية، ونستطيع أن نؤكد فى نفس الوقت أن الوثائق الأصلية قد عانت فقدا عظيما فى العديد من الحالات، ليس من الكنيسة، ولكن من الأرشيات الكوميونية السابقة ، ويتضح هذا التناقص بشكل أكثر وضوحا فى جنوه أكثر من أى مكان آخر نظرا لأهمية مجموعاتنا من السجلات ، فمن بين 279 وثيقة مسجلة فى الجزء الأول لأقدم سجل محفوظ والتي ترجع إلى القرن الثانى عشر، لم يصل إلينا إلا ست وثائق أصلية فقط..^(٥٦) بينما لدينا ما بين ثلاث إلى ثمان نسخ من جمهرة الوثائق فى مجموعة السجلات^(٥٧)، ولا أريد أن أجزم هنا بأن السجلات قد أضحت لها أولوية على الأصول فى ذلك الوقت أو فى وقت لاحق، حيث إن أسباب فقد الوثائق الأصلية شديدة التعقيد ومن الصعوبة بمكان تحديدها^(٥٨)، ولكن ربما توفرت للسجلات ظروف أفضل حفظتها لنا^(٥٩) نجملها فى سببين؛ الأول : أن النسخ كانت تجمع معا فى السجل وبالتالي كانت أيسر فى التعامل معها وحفظها من الناحية العملية أكثر من الوثائق المفردة والتي عادة ما كانت تحفظ فى أكياس ، ومن المعروف أنه فى حالات عديدة تفضل هذه المجموعات الجديدة من الشواهد التاريخية، سواء أكانت فى شكل سجلات للوثائق أو مؤلفات تاريخية^(٦٠) على الوثائق الأصلية، والسبب الثانى : أن سجلات جنوه قد أسست (مثلها فى ذلك مثل سجلات مدينة لوبك) نظاماً استمر حتى بدايات العصر الحديث، ويمكننا بالتالى أن نرى فى النسخ الجديدة قيمة مماثلة للنسخ السابقة عليها .

لقد كانت لوبك بعيدة عن مثل هذا النظام لحفظ السجلات والذى كان يستلزم فحص الملفات الموجودة فى كل مرة. فقد كانت كل الوثائق التى تعود للقرنين الثالث عشر والرابع عشر والمحفوظة فى التريسي تقريبا وثائق وخطابات أصلية، فحتى وثائق الإمبراطور فردريك الثانى فى عام 1226 والتي أكد فيها امتيازات مدينة التريف the Trave city وهى الوثائق التى طالب شعب لوبك خلفاء فردريك مرارا وتكرارا بتأكيدهما^(٦١)، لم تسجل فى أى سجل^(٦٢) ، كما أنها أيضا غير موجودة

فى رجستروم 1298 registrum طبقا لتعليمات عضو المجلس والمستشار ألبرخت فون بارديوك Albrecht von Bardwik . وقد كان يسجل فى هذا الرجستروم وثائق المدينة الهامة منذ القرن الثالث عشر^(٦٣)، غير أن الصفحات الخالية العديدة بين الأقسام الموضوعية تدل على أن السجل قد أهمل بعد فترة قصيرة من بدايته، وعلى طرف النقيض ما كان يحدث فى جنوه، لم يكن للسجل على ما يبدو مكان فى العمل اليومي فى التشانسرى chancery وبالرغم من أن الوثائق المخطوطة واللفافات كانت مستخدمة فى الأغراض الإدارية فى لوبك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ فإنه لم تكن هناك حاجة لوجود سجل لها يحوى مستخلصات الهام من الوثائق المحفوظة فى أرشيفات المدينة، فإذا نشأت حاجة للنظر فى وثيقة بعينها أرسل كاتب المدينة إلى التريسى للبحث عن الوثيقة فى أحد الصناديق أو الأكياس^(٦٤)، وفى حالات الضرورة القصوى كانت الوثائق تلخص بواسطة رجال الكنيسة^(٦٥)، ولم تُستشعر الحاجة الملحة لسرعة العثور على وثائق قديمة بعينها إلا فيما بعد فى القرن الخامس عشر عندما واجهت امتيازات المدينة تهديدات غير مسبقة ظهرت معها الحاجة إلى وجود حماية مؤسسة على معلومات أكيدة، وقد جمعت قرارات وصكوك وخطابات تخص مجموعة المدن الهانزياتك فى مخطوط بلوبك عام 1404^(٦٦)، وفى عام 1455 أمر مجلس مدينة لوبك بترجمة وثائق المدينة المهمة من اللاتينية إلى الألمانية الوسيطة - الدنيا middle-low German وتدون فى سجل خاص بها حتى يسهل فهمها^(٦٧).

ولنلخص الآن النقاط الأساسية، لقد أظهرت مقارنة أشكال حفظ الوثائق فى جنوه ولوبك إلى عدد من النتائج المتباينة ، والتي تنبنى كلها على الفروق فى النظم المتبعة والأبعاد الثقافية ، ويبقى السؤال حول كيفية تأثير التعامل المعاصر مع الوثائق على صورة تاريخ المدينتين لدينا الآن ، وتختلف النتائج فى هذه النقطة أيضا، فبدون ممارسات الموثقين والهيئات الكنسية كان يمكن أن نرى تاريخ المدينة الليجورية فى العصور الوسطى العليا فقط من خلال عيون الجنوبيين المعاصرين، والذين كانوا، حتى فى ذلك الوقت، يسجلون فقط ما كانوا يعتبرونه هاما من الوثائق، فحتى التأريخ الفريد لجنوه نجد أنه قد ظهر فى إطار من مجلس المدينة الذى كتبت فيه الوثائق، وكان يمكن والحال كذلك أن تضطرب رؤيتنا وتختل أحكامنا على الحياة اليومية أكثر مما هى عليه، بتأثير التنقيح المزيج النابع من التركيز على الكلمة المكتوبة فى غياب الوثائق ،

ولربما زاغت أبصارنا أضعافا ثلاثة إن لم نكن قد عثرنا على نحو من منئى سجل كنسى (والتي كان هناك الآلاف منها)^(٦٨)، والتي توضح أن تجارة أعالي البحار كانت تمارس بالفعل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى جنوه والتي تعطينا أيضا فكرة عن الكم الذى فقد من الوثائق .

أما فى لوبك فتقدم لنا الوثائق التى وصلتنا، مقطعا عرضيا دالا (إن جاز التعبير) عن حالة الكتابة فى الكوميونات المعاصرة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بشكل أكبر مما توفره وثائق جنوه، فهنا فى لوبك ونظرا للكم الكبير للصكوك والخطابات والوثائق الأصلية من الملفات والاستمرارية التى ميزت سجلات المدينة قد تصعب مقاومة ألا نقع فريسة التسليم بأن كم الوثائق التى وصلتنا تعكس حجم الوثائق التى كتبت بالفعل آنذاك.... وهنا أيضا تتصحح الصورة بمحض الصدفة، وذاك أنه فى حالات استثنائية حفظت سجلات الجمارك^(٦٩) والتي توضح أن السفن كانت تبحر فعلا من ميناء لوبك. ولا نحصل هنا إلا على صورة محدودة من الداخل لطبيعة كل من جنوه ولوبك كمدينتين رئيستين فى التجارة ؛ إلا أن النموذجين يتكاملان لتوضيح معنى واحد وهو أهمية تفسير المصادر التاريخية المكتوبة للمجتمعات نصف المتعلمة فى سياق الأنماط الكتابية وأساليب حفظ الوثائق المعاصرة.

أنهى أمش

(*) أود أن أتوجه بالشكر لأريسون تيرنر منستر Alison J. Turner, Münster لمساعدتها في ترجمة هذا المقال.

(١) عن تدهور حفظ الوثائق العامة في العصر الروماني المتأخر انظر P. Classen, 'Fortleben und Wandel spätrömischen Urkundenwesens im frühen Mittelalter', in idem (ed.), *Recht und Schrift im Mittelalter*, (Sigmaringen, 1977), 13-54, in particular, 25, 42 and 50. وقد اعنتى كيلر بالطابع المضطرب للمسيحية المبكرة تجاه الكتابة الوثنية كأساس للتغير الثقافي في H. Keller, 'Vom "heiligen Buch" zur "Buchführung". Lebensfunktionen der Schrift im Mittelalter', *Frühmittelalterliche Studien*, XXVI (1992), 1 - 31, especially 7-13; ويحتوى هذا العمل أيضا على بليوجرافيا غنية.

(٢) انظر في استمرارية معرفة الكتابة في الطبقة العليا في الحقبة الميروفينجية Merovingian period I. Wood, *Administration, law and culture in Merovingian Gaul*, in R. McKitterick (ed.), *The use of Literacy in Early Mediaeval Europe* (Cambridge, 1990), 63-81. وعن التطور الحديث في المعرفة بالكتابة في الحقبة الكارولنجية Carolingian period: R. Schieffer (ed.), *Schriftkultur und Reichsverwaltung unter den Karolingern. Refreat des Kolloquiums der Nordrhein-Westfälischen Akademie der Wissenschaften am 17./18. Februar 1994 in Bonn* (Opladen, 1996), وهناك ملخص لبحث أجري في هذا الموضوع في M. Mersiowsky, *Regierungspraxis und Schriftlichkeit im Karolingerreich: Das Fallbeispiel der Mandate und Briefe*, *ibid.*, 109-166. especially 109-114. وممارسات حفظ الوثائق في الفترة الكارولنجية ، انظر H. Fichtenau, *Archive der Karolingerzeit*, in idem, *Beiträge zur Mediävistik. Ausgewählte Aufsätze. Zweiter Teil: Urkundenforschung* (Stuttgart, 1977), 115-125.

(٣) حول هذا الموضوع – وبالأذات الدور الحاسم الذي لعبه القرن الحادي عشر – انظر P. J. Geary, *Phantoms of Remembrance: memory and Oblivion at the End of the First Millennium* (Princeton, 1994).

(٤) Cf. In general H. Keller, 'Die Entwicklung der europäischen Schriftkultur im Spiegel der mittelalterlichen Überlieferung', in *Geschichte und Geschichtsbewußtsein. Festschrift Karl-Ernst Jeismann zum 65. Geburtstag*, ed. P. Leidinger and D. Metzler (Münster, 1990), 171-204, وأهم الأعمال بالنسبة لإنجلترا M.T. Clanchy, *From memory to Written Record. England 1066-1307* (1993), وبالنسبة لإيطاليا P. Cammarosano, *Italia medievale. Struttura e geografia delle fonti scritte* (Rome, 1991). وبالنسبة للدراسات العامة حول الموضوع انظر Pragmatic Literacy, East and West, 1200-1330, ed. R. Britnell (Woodbridge, 1997).

- Cf. In general M. Amelotti and G. Costamagna, *Alle origini del notariato italiano* (٥)
H. Schwarzmaier, *Lucca und das Reich bis zum Ende des ١١. Jahrhunderts. Studien zur Sozialstruktur einer Herzogstadt in der Toskana* (Tübingen, 1972), 262-334 .
- A. Esch, 'Überlieferungs-Chance und Überlieferung-Zufall als methodisches Problem (٦) des Historikers', *Historische Zeitschrift*, CCXL (1985), 529-570, especially 532-3.
- A. Meyer, 'Der Luccheser Notar Ser Ciabatto und sein Imbreviaturbuch von 1226/1227, (٧) Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken, LXXIV (1994) , 172-293 especially 172-3.
- M. Bertram, *Bologneser Testamente. Zweiter Teil: Sondierungen in den Libri Memoriali*, Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken, LXXI (1991) 195-240, especially 196-7.
- C. F. Th. Behrmann, 'Einleitung: Ein neuer Zugang zum Schriftgut der italienischen Kommunen', in H. Keller and Th. Behrmann (eds.), *Kommunales Schriftgut in Oberitalien. Formen, Funktionen, Überlieferung* (München, 1995), 1-14 especially 4, as well as *ibid.* Register, 'Überlieferungsverluste'.
- A. Wolf, 'Das öffentliche Notariat', in *Handbuch der Quellen und Literatur der neueren europäischen Privatrechtsgeschichte I: Mittelalter (1100-1500). Die gelehrten Rechte und die Gesetzgebung*, ed. H. Coing München, (1973), 505-514; *Notariado público y documento privado: de los orígenes al siglo XIV. Actas del VII Congreso Internacional de Diplomática*, Valencia, 1986 (Valencia, (1989), for England, cf. C.R. Cheney, *Notaries public in England in the thirteenth and fourteenth centuries* (Oxford, 1972) for Italy, however, cf. F. Magistrale (ed.), *I protocolli notarili tra medioevo ed età moderna. Storia istituzionale e giuridica, topologia, strumenti per la ricerca. Atti del Convegno Brindisi, Archivio di Stato, 12-13 novembre 1992* , *Archivi per la storia. Rivista dell'associazione nazionale archivistica italiana*, VI (1993).
- Cf. For example, M. Groten, 'Civic Record Keeping in Cologne 1250-1330'; in *Pragmatic Literacy, East and West*, 81-88; M. North, 'The records of Lübeck and Hamburg, c. 1250-1330, *ibid.*, 89-93.
- T. Ossian de Negri, *Storia di Genova* (Milano, 1969), 24-36. (١٢) وهناك دراسة أقيمت
St. Epstein, *Genoa and the Genoese 958-1528* لتاريخ مدينة جنوة في العصور الوسطى، انظر (1996).
- R.S. Lopez, 'Le marchand génois. Un profil collectif', in *idem Su eg giù per la storia* (١٣) di Genova (Genoa, 1975), 17-33, especially 17.

- H. Voltolini, 'Die Imbreviatur des Johannes Scriba im Staestarchiv zu Genua', *Mitteilungen des Österreichischen Instituts für Geschichtsforschung*, XLI (1926), 70-79; Epstein, *Genoa and the Genoese 958-1528*, 55-6.
- E. Hoffmann, 'Lübeck im Hoch- und Spätmittelalter: Die große Zeit Lubecks', in A. Graßmann (ed.), *Lübeckische Geschichte* (Lübeck, 1988), 79-340, especially 306.
- E. Isenmann, *Die deutsche Stadt im Spätmittelalter, 1250-1500 Stadtgestalt, Recht, Stadregiment, Kirche, Gesellschaft, Wirtschaft* (Stuttgart, 1988), 133, 166 Anm. 2
- R. S. Lopez, *Storia delle colonie genovesi nel mediterraneo* (Bologna, 1938). (١٧)
- E. Hoffmann, 'Der Aufstieg Lübecks zum bedeutendsten Handelszentrum an der Ostsee in der Zeit von der Mitte des 12. Bis zur Mitte des 13. Jahrhunderts', *Zeitschrift des Vereins für Lübeckische Geschichte und Altertumskunde*, LXVI (1986), 9-44, especially 41.
- M. Moresco and G.P. Bognetti, *Per l'edizione بالنسبة لوصف المجموعات ودراساتها انظر:* dei notai Liguri del sec. XII (Genoa, 1938), 13-20, S. Epstein, *Wills and Wealth in Medieval Genoa, 1150-1250* (1984), 1-5.
- Cf. A. von Brandt, 'Das Lübecker Archiv in den letzten hundert Jahren. Wandlungen, Bestände, Aufgaben', *Zeitschrift des Vereins für Lübeckische Geschichte und Altertumskunde*, XXXIII (1952), 33-80, especially 61, 72-75.
- On this theme cf. P. Moraw, 'Über Entwicklungsunterschiede und Entwicklungsausgleich im deutschen und europäischen Mittelalter. Ein Versuch', in U. Bestmann, F. Irsigler, and J. Schneider (eds.), *Hochfinanz, Wirtschaftsräume, Innovationen, Festschrift für Wolfgang von Stromer* (Trier, 1987), vol. 2, 583-622.
- E. Bach, *La cité de Gênes au XIIe siècle* (Copenhagen, 1955), 33. (٢٢)
- I libri iurium della Republica di Genova, Introduzione, ed. D. Puncuh and A. Rovere (Rome, 1992), 75-5. On Jacob's uncle, Obertus Doria, who, in 1233, was known as the keeper of the town privileges, see A. Rovere, 'libri iurium' dell'Italia comunale', in *Civiltà comunale. Libro, Scrittura, Documento. Atti del Convegno, Genova, 8-11 novembr 1988* (Genoa, 1989), 159-199, especially 171-2. G. Petti Balbi, *Caffaro e la cronachistica Genovese* (Genoa, 1982), 68-82.
- Annali Genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori dal MXCIX al MCCXCII* ed. L.T. (Belgrano (Rome, 1890), 17-18. (٢٤)
- Cf. Behrmann, 'Einleitung: Ein neuer Zugang', 10-11. (٢٥)
- G. Caro, *Genua und die Mächte am Mittelmeer 1255-1311 Ein Beitrag zur Geschichte des XIII. Jahrhunderts* (Halle, 1895, repr. Aalen 1967) vol. 2, 418-9; M. Moresco and G.P. Bognetti, *Per l'edizione dei notai Liguri del sec. XII* (Genoa, 1983), 4. (٢٦)

- Cf. For example, R. Doehard, *Les relations commerciales entre Gênes, la Belgique (٢٧)* et l'Outre-Mont d'après les archives notariales Génoises aux XIIIe et XVIe siècles (Rome, 1941) .
- Cf. For example, A. Haverkamp, 'Zur Sklaverei in Genua während des 12. Jahrhun- (٢٨) derts', in F. Prinz, F.-J. Schmale, and F. Seibt (eds.), *Geschichte in der Gesellschaft, Festschrift für Karl Bosl zum 65. Geburtstag* (Stuttgart, 1974), 160-215; Epstein, *Wills and Wealth*.
- Cammarosano, *Italia medievale*, 270. (٢٩)
- Ibid.; G. Costamagna, *Il notaio a Genova tra prestigio e potere* (Rome, 1970), 149- (٣٠) 249.
- Moresco and Bognetti, *Per l'edizione*, 25-6. (٣١)
- P. Koch, 'Die Archivierung kommunaler Bücher in den ober- und mittelitalienischen (٣٢) Städten im 13. und 14. Jahrhundert', in H. Keller and Th. Behrmann (eds.), *Kommunales Schriftgut in Oberitalien. Formen, Funktionen, Überlieferung* (München, 1995), 19-69, especially 22-3; A. Romiti, *L'Armarium communis della camera actorum di Bologna. L'inventariazione archivistica nel XIII secolo* (Rome, 1994), XXXI-II.
- Guida generale degli (٣٣) هناك دراسة حول مجموعات أرشيف دولة جنوة وكذلك بيليوجرافيا في: Archivi di Stato Italiani, II, F-M (Rome, 1983), 299-353; cf. Also G. Costamagna, *La conservazione della documentazione notarile nella Repubblica di Genova*, *Archivi per 'la storia. Rivista dell'associazione nazionale archivistica italiana*, III.1 (1990), 7-20.
- Cf. Romiti, *L'armarium communis*, 1-355. (٣٤)
- Koch, 'Die Archivierung Kommunalen Bücher', p. 25 n. 32, p. 35 n. 108, p. 36. (٣٥)
- Cf. For an overall picture ibid., 24-6, 33-37, 40. (٣٦)
- C. Imperiale di Sant'Angelo (ed.), *Annali Genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori (٣٧)* dal MCCLXXX al MCCLXXXIII (Rome, 1890-1929), vol. 5, 149: item quod eorum petitiones et oblationes ponantur in duobus scriptis; unum quorum sigilletur in maiori Consilio predictorum ambaxatorum, et ponatur in custodia archiepiscopi lanue, ut nihil posset addi vel minui, et aliud eiusdem tenoris remaneat apertum penes abbatem populi, ut quilibet de eo semper possit habere copiam.
- 1292، وقدموا عرضاً للجنويين (eorum petitiones et oblationes) في مقابل الدول في حلف ضد الملك جاكوب الثاني ملك أراجون؛ A. re- port by Jacob Doria about the discovery of a privilege of Innocent IV? Would seem to suggest that the custodia archiepiscopi might mean the sacristy of San Lorenzo; see: *Annali Genovesi*, vol. 5.13.
- von Brandt, 'Das Lubecker Archiv'; A : حول ممارسات حفظ الوثائق في لوبك انظر : (٣٨) Graßmann, *Von der Trese, der Schatzkammer des lübeckischen Rats*, *Zeitschrift des Vereins für Lubecker Archivbestände aus der ehemaligen DDR und UdSSr 1987 und 1990*, *Hansische Geschichtsblätter*, CX (1992), 57-70

W. Prange, 'Beobachtungen an den ältesten Lübecker Urkunden 1222-1230', in O. (٣٩)
Ahlers, A. Graßmann, W. Neugebauer, and W. Schadendorf (eds.), Lübeck 1226. Reichsfreiheit
und frühe Stadt (Lübeck, 1976), 87-96.

(٤٠) هناك دلائل على أن العديد من كتاب لويك المعروفين كانوا كهنة أو أصبحوا من ضمن كهنة كاتدرائية
المدينة: F. Bruns, 'Die Lübecker Stadtschreiber von 1350-1500', Hansische Geschichtsblätter, XI
(1903), 43-102, especially 49, 52, 55, 67, 75. وقد أوضحت دراسة هامة ولكنها غير منشورة
لسكرزيبيسزاك H. Skrzypczak أن غالبية كتاب المدينة كانوا من رجال الدين: Stadt und Schriftlichkeit
im deutschen Mittelalter. Beiträge zur Sozialgeschichte des Schreibens', Diss. Phil. University of
Berlin 1956, 126-132,

Cf. E. Pitz, Schrift- und Aktenwesen der städtischen Verwaltung im Sämittelalter. (٤١)
Köln- Nürnberg- Lübeck. Beitrag zur vergleichenden Städteforschung und zur spätmittelalterlichen
Aktenkunde (Köln, 1959), 311. ويعتبر عمل بتز Pitz رائداً في موضوع العلاقات الدبلوماسية
الكميونية في أواخر العصور الوسطى. وحول دور المجلس في تنمية المعرفة بالكتابة في المدينة، انظر أيضاً
B. Scheper, Frühe bürgerliche Institutionen norddeutscher Hansestädte. Beiträge zu einer ver-
gleichenden Verfassungsgeschichte Lübecks, Bremens, Lüneburgs und Hamburgs im Mittelalter
(Wien, 1975), 185-93

P. Rehme, Das Lübecker Ober-Stadtbuch. Ein Beitrag zur Geschichte der Recht- (٤٢)
squellen und des Liegenschaftsrechtes (Hannover, 1895), 21.

J. Reetz, 'Über das Lübecker Niederstadtbuch', Zeitschrift des vereins für Lübeckische (٤٣)
Geschichte und Alterumskunde, XXXV (1955), 34-56, especially 37.

A. von Brandt (ed.), Regesten der Lübecker Bürgertestamente des Mittelalters, I: (٤٤)
1278-1350 (Lübeck, 1964) 6-8; idem, Mittelalterliche Bürgertestamente. Neuerschlossene Quel-
len zur Geschichte der materiellen und geistlichen Kultur (Heidelberg, 1973).

Graßmann, 'Von der Trese'; cf. Also Die Bau- und Kunstdenkmäler der Freien und (٤٥)
Hansestadt Lübeck, II: Petrikirche, Marienkirche, Heil.-Geist-Hospital, ed. F. Hirsch, G. Schau-
mann, and F. Bruns (Lübeck, 1906), 157-9 A. von Brandt, Geist und Politik in der Lübeckischen
Geschichte. Acht Kapitel von den Grundlagen historischer Größe (Lübeck, 1954), 91.

Graßmann, 'Vn der Terse', 88. (٤٦)

Koch, 'Die Archivierung kommunaler Bücher', 45-48. (٤٧)

Von Brandt, 'Das Lübecker Archiv', 26. (٤٨)

Cf. Rovere, 'I "Libri iurium" dell'Italia comunale'. (٤٩) حول دراسة عن هذا الموضوع انظر:

Puncuh and rovere, I Libri iurium della Repubblica di Genova, Introduzione, (٥٠)
17-42, especially 26-7, 36.

Ibid., 45. (٥١)

Ibid., 68. (٥٢)

Ibid., 72-5,84 (quotation p. 75). (٥٢)

Ibid., 119-20, 128-9. (٥٤)

Ibid., 148-9; cf. Ibid., 165. (٥٥)

I Libri iurium della Repubblica di Genova, Vol, I/1, ed. A. Rovere (Rome, 1992), (٥٦)
no. 15 p. 23-5, no. 42 p. 66-9, no. 44 p. 71-2, no. 47 p. 77-81, no. 222 p. 320-1, no. 254 p. 367-8.

Eightfold: ibid., no. 42 p. 66. (٥٧)

Kock, 'Die Archivie- حول التدمير العمدى بدوافع سياسية لأرشفات مدن شمالى إيطاليا انظر-
rung kommunaler Bücher', 65. (٥٨)

A. Esch, 'Überlieferungs-Chance und Überlieferungs- حول هذا الموضوع العام انظر: Zufall als methodisches Problem des Historikers', Historische Zeitschrift, CCXL (1985),
(includes many examples from Italy)

Cf. J. W. Busch, Die Mailänder Geschichtsschreibung zwischen Arnulf und Galvan- (٦٠)
eus Flamma. Die Beschäftigung mit der Vergangenheit im Umfeld einer oberitalienischen Kom-
mune vom späten 11. Bis zum frühen 14. Jahrhundert (Münstersche Mittelalter-Schriften LXXII,
soon to be published), chapter IV, n. 151.

H. Boockmann, 'Das "Reichsfreiheitsprivileg" von 1226 in der Geschichte Lübecks', (٦١)
in Lübeck 1226. Reichsfreiheit und frühe Stadt ed. O. Ahlers, A. Graßmann, W. Neugebauer,
and W. Shadendorf (Lübeck, 1976), 97-113, especially 106-7.

Cf. The editorial remarks in : Hansisches Urkundenbuch, I (Halle, 1876), nos. 205- (٦٢)
6p.64 -5.

Cf., Codex Diplomaticus Lubecensis. Lübeckisches Urkundenbuch, 1. Abteilung : Ur- (٦٣)
kundenbuch der Stadt Lübeck, II (Lübeck, 1858), p. II-III (after p. 1196); on Albrecht von Bar-
dowik cf. Ptz, Schrift- und Aktenwesen, 315-7, 320, 348.

Cf., for example, Codex Diplomaticus Lubecensis VII (Lübeck, 1885), n. 820. p. 832 (٦٤)
(10-12-1439): dat Hermannus van Haghen, Juwe scriuer, ute beuele van iv vp juwer heren
treselige sokende heuet beuonden voste vele priuilegien.

Cf. For example, Th. Behrmann, 'Herrscher und Hansestädte. Studien zum diplma- (٦٥)
tischen Verkehr im Spätmittelalter', postdoctoral thesis, Münster, 1996, 251.

C. Junghans, 'Bericht über die Arbeiten für das hansische Urkunden- und Rezeß- (٦٦)
Buch', Historische Zeitschrift, VI(1861), 37-92 especially 58-64 (on the so-called Ledrabort-
manuscript).

Pitz, Schrift-und Aktenwesen, 419 (٦٧)

Caro, Genua und die Mächte am Mittelmeer, vol. 2, 419 (٦٨)

Cf. G. Lechner(ed.), Die hansischen Pfundzollisten des Jahres 1368 (Lübeck) (٦٩)

ذاكرة مدينة : أرشيف بلدية قيينا منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن العشرين

فردناند أويل

تاريخ الأرشيف

لقد اقترن نمو واتساع مدن العصور الوسطى منذ البداية بالأرشيفات الكوميونية^(١). ونستطيع أن نقول، مطمئنين، أنه طالما كان هناك دليل على وجود أرشيفات بلدية، فإن ذلك دليل دامغ على وجود نشاط مجتمع مدني، والعكس صحيح، فلنا أن نتوقع وجود أرشيف بلدي إذا ما تم التطور الدستوري لمدينة ما، وهو ما يعنى في السياق الأوروبي تأسيس الإدارة البلدية Ratsverfassung وينطبق هذا كله بطبيعة الحال على قيينا، فقد ارتقت المدينة إلى مرتبة العاصمة النمساوية^(٢) في القرن الثاني عشر، وتم نموؤها لتصبح بلدة بحق مع بدايات القرن الثالث عشر، عندما استقر القناصل وشيّد سور المدينة، وبالرغم من أن أقدم دليل على وجود أرشيف للمدينة^(٣) يرجع إلى القرن الرابع عشر فقط، إلا أن هناك إشارات، مثل تأسيس مكتب التوثيق المدني أو وجود قاعة المدينة^(٤) والذي قد يدل على أن بدايات هذا الأرشيف الحقيقية تعود إلى القرن السابق. وجاءت الخطوة الحاسمة مع ظهور ما يسمى Eisenbuch وهو السجل المركزي للمدينة بعد 1320 بوقت قصير. وقد استمر هذا السجل، والذي وصلنا، حتى بدايات القرن التاسع عشر، وهو دليل واضح على أن المدينة قد تضافرت جهودها لإيجاد وسيلة تلم بها بالصكوك والوثائق الأساسية، ولم يتوقف الاهتمام به على مر القرون، كعمل أساسي من أعمال أرشيفي المدينة.

وقد انعكست الروح الإنسانية والأكاديمية في تلك الجهود - التي سجلت لأول مرة في النصف الأول من القرن السادس عشر- للتأكيد على التعامل مع حفظ مخزون الوثائق المدنية بأسلوب يتبع قواعد منتظمة، غير أن تلك الجهود قد خبت بعد ذلك

بوقت قصير، وقد شهدت الفترة بين القرنين السادس عشر والسابع عشر بالفعل حالة ركود فى النشاط الأرشيڤى، حتى شُبّه تطوّر أرشيڤ مدينة ڤيينا خلال تلك القرون أحيانا بالجمال النائم.

وحتى فى بدايات القرن التاسع عشر كان العمل الأرشيڤى الفعلى لا يزال عملا جانبيا، قاعدته الاعتماد بشكل أساسى على مبادرات الأفراد، وكان من حسن الطالع أن تولّى العمل رجل متمكن فى التاريخ والفن والثقافة والفلكلور مثل فرانتس تشيشكا Franz Tschischka (1786-1855) ، ولم يكن تشيشكا على إتقان فى القيام بواجباته الأرشيڤية والتسجيلية فحسب، ولكن ينسب له أيضا عدد من المنشورات القيمة فى المجال من بينها Geschichte der Stadt Wien ، وهو على ذلك يستحق بالفعل أن يطلق عليها لقب أول "أرشيڤى مؤرخ"^(٥) .

ويعكس الاهتمام المتزايد بالتاريخ المدينى، كما تجسد فى شخص فرانتس تشيشكا، التيارات الثقافية التى ميزت تلك الفترة من الرومانسية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وفى عام 1853 وافق الإمبراطور على تأسيس الـ Alterthums-Verein zu Wien والذى أصبح منذ حينه قبلة البحث فى التاريخ المدينى لڤيينا، والذى بدأ فى العقود الأخيرة محاولات لإرساء أواصر اتصال قوية مع أرشيڤ مدينة ڤيينا.^(٦) وليس من المستغرب إذن والحال كذلك أن يقف الاهتمام العلمى وراء ازدياد أهمية الأرشيڤ، ولم يكن أيضا مصادفة أن ظهر فى نفس وقت ظهور الـ Verein المذكور ظهور أكاديمية العلوم عام 1847 و Institut für Österreichische Geschichtsforschung عام 1854 . وكان المعهد Institut هو مركز التدريب الرئيسى للأرشيڤيين النمساويين منذ ذلك الحين وحتى الآن^(٧) .

وفى أوائل ستينيات القرن التاسع عشر، كان مجلس مدينة ڤيينا مسرحا لموجة صاخبة من الانتقاد للأوضاع غير المقبولة فى الأرشيڤ، أدت إلى استقلال الأرشيڤ عن مكتب التسجيل المدنى فى عام 1863. وتقدم لشغل الوظيفة الوليدة "أرشيڤى ومؤرخ الأحداث اليومى للمدينة" ثمانية: كان من بينهم كتاب، ومدرسى نحو بالمدارس، وموظفين إداريين، ومؤرخين، ومحامين، ووقع الاختيار فى النهاية على كارل فيس Karl Weiss الذى كان مستخدما فى المدينة طيلة عشرين عاما.

وقد كان دخول فيس (1826-1895) الخدمة في المدينة عام 1843، وصنع لنفسه اسما عام 1856 بإعادة تأسيس مكتبة المدينة، وأدخل بتوليه الوظيفة الجديدة تاريخ أرشيف المدينة عهدا جديدا، وقد كان فيس منذ البداية مديرا أيضا للمكتبة، كما قاد خلال عقود ثلاثة من الخدمة تأسيس متحف المدينة التاريخي، ولم تكن أنشطته متعددة الاتجاهات فقط، ولكنها أدت أيضا لإنجازات بلغت الحد الذي يستحق وصف جهوده وطاقاته بأنها "عملاقة"^(٨)، ولم يكن من الممكن أن يعاد تنظيم المكتبة والذي كان في عام 1881 وتعيين موظفين آخرين، أحدهما للمكتبة والآخر للأرشيف، حتى قبيل الانتهاء من بناء قاعة المدينة في عام 1883، والتي أوت الأرشفة أيضا، ولم يكن تعيين كارل أوليرتس Karl Uhlirz (1854-1914) بمثابة السابقة الأولى التي تستخدم فيها المدينة مؤرخا جامعيا، ولكنه قد قرن ذلك أيضا بالتدريب في الـ Insitut für Österreichische Geschichtsforschung^(٩).

وفي ثمانينيات نفس القرن استقر الأرشفة في مبنى قاعة المدينة والذي بقي به حتى الآن، ونقصد بذلك مكوناته الأساسية، وقبيل تقاعده تقدم فيس برأيه الخبير في عام 1889 حول مستقبل تنظيم الأرشفة، وقد أجمل فيه نتيجة تجاربه التي راكمتها سنوات طويلة من الخدمة، واقترح تحرير الأرشفة وفصل المتحف والمكتبة، وقد وافق مجلس المدينة على هذا المقترح في نفس العام.

وقد خلفه كمدير للأرشيف - وهي وظيفة قد اقتصرت الآن، وبعد عدة قرون، على المهام المتصلة بالعمل الأرشفة فقط - كارل أوليرتس الذي ذكرنا أنفا. وقد علا نجم أوليرتس، بالأخص كباحث، باشتراكه في نشر العمل العظيم عن تاريخ مدينة قيينا، وكذلك بنشر ملخصات لوثائق العصور الوسطى المتعلقة بقيينا، في تعاون وثيق مع Altherthums-Verein، غير أن نقده لما ادعى أنه غياب الدعم من جانب إدارة المدينة لعمله، وكذلك تركه لقيينا على عجل عندما عين أستاذا في جامعة جراتس عام 1903، لم يكن بالطبع في صالح سمة الأرشفة في الأوساط الإدارية^(١٠). لذلك لم تكن مصادفة أن يكون من تولى الإدارة بعده، وهو هرمان هانجو Herman Hango (1861-1934) ليس مؤرخا ولكن موظفا إداريا، إلا أنه كان نؤوبا في عمله ومن نوى الخبرة. وقد واجه هانجو^(١١) خلال العشرين عاما التي قضاها مديرا، سلسلة من المشاكل المستعصية، فهناك أولا العدد الهائل من الوثائق الذي كان الأرشفة يستقبله مع اتساع المدينة^(١٢). كما ألفت الحرب العالمية الأولى منذ عام 1914 بظلالها على الأرشفة حيث استدعى

عدد من العاملين في الأرشفة للخدمة العسكرية، وفي النهاية وقرب أواخر عهد هانجو بالإدارة انفصلت قيينا عن النمسا السفلى وارتفعت لمرتبة المقاطعة (1922)، وهو ما زاد بالقطع من المسئوليات الجديدة المعهود بها للأرشفة^(١٣).

وقد خلف هانجو في عام 1923 أوتو شتوفاسر Otto Stowasse (1887-1934) والذي كان مؤرخاً مؤهلاً (وتصادف أن كل من شغل منصب المدير منذ ذلك الحين كان من المؤرخين)، وقد كان شتوفاسر، والذي عمل قبل ذلك مع الأرشفة القومية، قوة دافعة خلال الأحد عشر عاماً التي قضاها في الإدارة، وكان اهتمامه الأساسي هو تدريس ما يسمى Heimatkunde أو دراسة التاريخ المحلي، والذي اختصه مسئولو مدرسة قيينا بالتشجيع في عشرينيات القرن العشرين، وقد وضع مناهج محددة الأهداف لمدرسي قيينا ليتعلموا كيفية استخدام المصادر الأصلية في الأرشفة، كما كان هناك تركيز علمي أكبر خلال عمله على نشر سلسلة من المطبوعات نشرها أرشفة مدينة قيينا نفسه^(١٤).

ولم يكن للأوضاع السياسية أثر مباشر على مصير الأرشفة، حتى تغير ذلك الوضع في ثلاثينيات القرن العشرين، فقد توفي شتوفاسر فجأة في فبراير 1934 في نفس الوقت الذي صعد فيه نجم الراديكالية السياسية للجمهورية الأولى حتى وقعت البلاد فريسة الحرب الأهلية. ومع استتباب الأمر للحكومة المستبدة الجديدة وإزاحة الجمهرة الكبيرة من الفرق السياسية السابقة، كان لابد من تأثر أرشفة المدينة بالأحداث الجارية. وقد بدأ ريتشارد ماتيس Richard Mattis (1886-1946) عمله كمدير للأرشفة يملؤه التصميم على حل أزمة الأرشفة المزمنة، إلا أن جهوده خبت بعد قليل. وبعد ضم ألمانيا للنمسا عام 1938 أوقف ماتيس عن العمل، وتلاه ليوبولد سايلر Leopold Sailer (1889-1944)، الذي التحق بالعمل في الأرشفة عام 1922، وقد كان يعمل في الأصل لأرشفة النمسا السفلى. وبالرغم من اهتماماته بالسياسات الجديدة إلا أن إمكاناته الأرشفية لم يكن ليرقى إليها شك.

وقد ظهر التأثير المتبادل بين تطور المدينة وأرشفتها بجلاء في الفترة بين عامي 1938 و 1945 فقد كان جل ما أثر في نشاط الأرشفة في تلك الفترة وبحق مرآة لما يقع خارجه من أحداث. وكان أول تغير كبير هو الزيادة الهائلة في حجم العمل وتضخم حجم الأرشفة كأحد آثار اتساع مساحة المدينة في أكتوبر 1938^(١٥) بعد دمج التجمعات المحيطة بها في حدودها، ويعتبر الانتهاء من نقل المادة الأرشفية الناتجة عن ذلك في عام 1941 إنجازاً رائعاً بحق.

وقد كان على كل المواطنين النمساويين منذ عام 1938، أن يثبتوا أصولهم الآرية، أى أن يثبتوا أنهم ليسوا بيهود، طبقا لقوانين نورمبرج التى استنتها النظام النازى، ولم يكن هذا الدليل بالممكن إلا عن طريق الأرشفة، مما أثقل كاهل أرشفة مدينة قيينا بالعمل فى البحث عن توارىخ العائلات. وتطلب العمل الإضافى بطبيعة الحال عمالة إضافية، وكان مجموعهم من فبراير وحتى يوليو 1939 عشرة موظفين، بقى منهم سبعة من يوليو 1939 وحتى مارس 1940 يعملون فى ترتيب شهادات الوفاة أبجديا طبقا للوثائق منذ عام 1948.

بيد أن أعمق تأثير على نشاط الأرشفة تمثل بلا شك فى اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ فقد أدى ذلك من ناحية إلى تقليص عدد العاملين - تماما كما حدث بين عامى 1914 و 1918 لاستدعائهم للخدمة العسكرية، ومن ناحية أخرى - وهو جانب لم يتوفر للحرب العالمية الأولى - اعتمدت الحرب العالمية الثانية بشكل أكبر على العمليات الجوية، مما مثل تهديدا أكبر للمناطق المدنية بشكل أكثر مباشرة، وقد اتخذت منذ سبتمبر 1941 إجراءات أمن للحماية من الغارات الجوية أثناء نقل وثائق العصور الوسطى، باستثناء الصكوك، من أرشفة المدينة إلى دير كلوسترنبيرج Monastery of Klosterneuburg ، ولم تكن تلك الإجراءات سوى البداية فقط، حيث زاد الاهتمام منذ 1943 بالتركيز ليس فقط على كمية المواد التى يجب نقلها ولكن أيضا على الأماكن المستهدفة إيداعها فيها^(١٦). ومنذ مايو 1943 بُدئ فى نقل الوثائق إلى أماكن بعيدة عن قيينا، وشملت أبعد هذه الأماكن بيوت الدولة فى شتوكرن Stokern بالقرب من إجنبرج Eggenburg و بوخبرج Buchberg بالقرب من جارس أم كامب Gars am Kamp والاثنتان يقعان شمالى الدانوب على بعد حوالى 150 كم من قيينا فيما يسمى الآن النمسا السفلى. ومنذ أغسطس 1943 بدأت عمليات نقل الأرشفة تشهد آثارا سيئة على حفظ الوثائق، لم ينتبه إليها إلا بعد الحرب، فقد أدت إعادة تسكين الوثائق بهدف حمايتها إلى إخلاء أماكن تخزينها الأصلية التى كان يشغلها أرشفة قيينا، والتى استخدمت فى أغراض أخرى بمجرد إخلائها، حتى أنها لم تعد صالحة مرة أخرى للأرشفة بعد 1945.

وقد تركز عمل الأرشفيين فى السنوات الأخيرة للحرب، بطبيعة الحال، على حفظ الوثائق والمواد الأرشفية، وعندما قاربت المستودعات الثلاثة على الامتلاء فى عام 1944،

بدأت المدينة فى البحث عن مكان حفظ آمن جديد، وبعد فحص عدة مواقع فى جنوب الدانوب ، هذه المرة، فى غربى النمسا السفلى، اختار أباء المدينة أن يؤجروا غرفا فى مأوى للصيد بالقرب من رتز Rety (غير بعيد عن الحدود الحالية مع جمهورية التشيك) يسمى كارلسلست Karlslust . وقد جرت منذ عام 1941 وحتى عام 1945، 55 عملية شحن، جرى بعضها حتى فى شهور الشتاء التى كان يحمى فيها وطيس المعارك، وقد نقل ما جملته 60 بالمئة من وثائق أرشيف مدينة قيينا إلى مستودعات أمنة خلال سنوات الحرب.

ومن الصعب أن نشعر بجسامة المشاكل التى كان على موظفى الأرشيف أن يتغلبوا عليها فى تلك الأيام، وقد يكفى هنا أن نورد بعض التفاصيل الصغيرة لإلقاء الضوء على ثقل المئونة التى كان عليهم أن ينهضوا بها: ففى أكتوبر 1944 أضيفت المواد الأرشيفية فى أحد المستودعات من جراء هطول أمطار غزيرة، فوجب نقل الوثائق المبللة إلى قيينا بشكل مؤقت، ومما تقشعر له الأبدان أن هذا الوثائق جففت بالكى.

وتولى إدارة الأرشيف بعد الحرب رودلف جاير Rudolf Geyer (1891-1958) ، وقد كان من العاملين بالأرشيف منذ 1925، واضطلع بدور حاسم فى تخطيط وتنفيذ عمليات الإنقاذ التى بدأت فى عام 1941، وكانت المشكلة الملحة فى ذلك الوقت هى إعادة الوثائق التى ابتعدت عن قيينا لسنوات^(١٧)، وكانت النمسا تحت احتلال قوات الحلفاء منذ 1945 وحتى 1955، وكانت النمسا السفلى فى المنطقة التى يسيطر عليها السوفييت^(١٨)، وهناك أيضا مشكلة الانتقال، بالرغم من المساعدة التى لم تتأخر القوات المحتلة فى تقديمها للأرشيف ، وبدأت فى أكتوبر 1945 عملية واسعة النطاق لاستعادة الوثائق ، من أقرب المستودعات وهو دير كلوستنبرج، ونفذ العملية 110 شاحنة انتقلت بين الموقعين من 11 أكتوبر 1945 إلى 26 يونيو 1948 استغرق عملها الفعلى ما مجموعه 72 يوما، وكثيرا ما استوقفت الشاحنات من قبل القوات المحتلة لحمل أفراد من العسكريين والمدنيين على السواء.

وقد أفرز نجاح عودة الأرشيف إلى قيينا مشكلة أخرى، وهى نقص المساحة اللازمة للتخزين، وقد تم توفير أماكن تخزين جديدة فى أماكن متفرقة أوائل الخمسينيات حتى نجح رودلف جاير قبيل نهاية خدمته فى إدارة الأرشيف فى الحصول على الموافقات اللازمة لتأسيس مخزن مركزى خارج قاعة المدينة، وكان المكان المختار

هو مدرسة سابقة استُخدم مبنائها كمعسكر لإيواء اللاجئين المجرين عام 1956، وتم الانتهاء من البناء عام 1962 فى عهد إدارة ماكس كراتوشويل Max Kratochwill (ولد 1911، وتولى إدارة الأرشفة منذ عام 1957 وحتى 1976)، وكانت الفكرة تتمثل فى إمكانية استخدام المكان لحوالى عشرين سنة قادمة، ولكن هذا الطموح ثبت أنه محض أوهام، فمع زيادة كم الوثائق الجديدة وجب إيجاد أماكن تخزين جديدة منذ السبعينات، ويتوزع الأرشفة فى الوقت الحالى ، واسمه الرسمى Wiener Stadt-und Landesarchiv ومنذ أوائل السبعينيات على اثنى عشر موقعاً فى ستة أحياء مختلفة.

ويعتبر الأرشفة اليوم أحد الإدارات المحلية (Magistratsabteilung 8) ضمن إدارة المدينة، ويتبع سياسياً مستشار المدينة التنفيذى للشئون الثقافية، وإدارة الشئون الثقافية (Magistratsabteilung 7)، والمكتبة (Magistratsabteilung 9)، والمتاحف (Magistratsabteilung 10). وقد شهد الأرشفة زيادة هائلة فى مهامه ومسئوليته، نورد فيما يلى نظرة عامة عليها.

المسئوليات الأساسية للأرشفة

يأتى على رأس تلك المسئوليات وظيفة الأرشفة شبه الكلاسيكية والمتمثلة فى استقبال وحفظ وإتاحة الوثائق^(١٩) ، وقد كان الأرشفة مسئولاً منذ 1922 (عندما أصبحت مدينة فيينا مقاطعة قائمة بذاتها) عن كل الوثائق والسجلات التى تفرزها الإدارة المدنية، وكذلك عن تلك التى تفرزها الإدارة الفيدرالية التى تعمل على أراضى فيينا، مثل المحاكم بالذات، وبدون الدخول فى تفاصيل^(٢٠) أود أن أشير إلى أن الأرشفة يغطى الفترة منذ القرن الثالث عشر وحتى النصف الثانى من القرن العشرين ويحفظ ما مجموعه أطواله 35000 متر من الوثائق، وقد أوقعنا الازدياد الكبير فى حجم الوثائق والسجلات فى العقود الأخيرة فى مشكلات تخزينية – وقد ذكرنا أنفا توزع الأرشفة على عدد من أماكن الحفظ، وقد استمرت إتاحة الوثائق بالطرق التقليدية، بينما زاد استخدام معالجة البيانات إلكترونياً على شكل برامج محسنة لمعالجة الكلمات بشكل أساسى. وقد فشل حتى الآن استخدام برنامج (وهو على قمة الأولويات لعدة سنوات) لدعم إدارة وإنتاج المواد نظراً لضخامة كم البيانات، غير أن التخطيط مستمر، ونحن متفائلون بحذر بالنسبة للمستقبل^(٢١) .

وإلى جانب الوثائق التي نحصل عليها من الإدارات الجارية للوثائق، يجب أن نذكر أيضا المجموعات التاريخية الكثيرة ذات الطبيعة شديدة الاختلاف، وينصب التركيز على الهبات أكثر من الشراء بالنسبة للأرشيف. ومثال ذلك مجموعات الصور والخرائط، وتتضمن تلك الأخيرة خرائط ترجع إلى القرن السادس عشر وما يليه، وقد تم إنشاء مجموعتين أو على الأحرى توثيقين خلال العقد ونصف الماضيين: أحدهما طوبوغرافى والآخر بيوجرافى، ويحظى الأخير منهما باستخدامية عالية فى أرشيفنا حيث يشمل أكثر من 40000 سيرة للأفراد من الشخصيات السياسية والثقافية والاقتصادية لمدينتنا^(٢٢).

لقد لمست استخدامات المواد الأرشيفية، وهو ما يؤدى بنا إلى مجموعة من الموضوعات تتعلق بالخدمات التي تقدم للجمهور العريض، وهو ما يدخل أيضا فى صميم "المسئوليات الأساسية".

الخدمات المقدمة للجمهور العريض

هناك أدلة على استخدامات ووثائق إدارة الأرشيف منذ أواخر العصور الوسطى^(٢٣)، ومع تزايد الاهتمام بالبحث التاريخى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أضيف مجموعة جديدة من المستخدمين لعبت دورا رئيسيا حتى اليوم وهم الباحثون، ولا نميز هنا بين التخصصات، بل نجمل فى كلامنا كل من يقوم ببحث، ويشمل قطاع المستخدمين للأرشيف فى الواقع شريحة عريضة من الجمهور، من الدارسين المبرزين إلى الطلبة، إلى الباحثين فى التاريخ المحلى و متخصصى علم الأنساب، أضف إلى ذلك أن الأرشيف يعتبر مصدرا رئيسا فى التقاضى، وهو أحد الجوانب الهامة فى رؤية واستخدام الأرشيف من قبل الجمهور العريض، وفيما تشمله الأغراض التي من أجلها يبحث هذا الجمهور فى الوثائق نجد مسائل الملكية ودعاوى الحقوق فى أملاك الأسلاف أو ما يتعلق بالمعاش.

وحتى يستجيب الأرشيف لهذه الاحتياجات فإنه يدير قاعة اطلاع يجد فيها الباحثون العون والإرشاد، وتقع حجرة الاطلاع التابعة لأرشيف مدينة قيينا منذ منتصف الخمسينيات فى قاعة المدينة. وتشتمل على 14 منضدة وتقدم خدماتها

للجمهور لمدة 50 ساعة أسبوعياً^(٢٤)، وقد أوضحت الإحصاءات الأخيرة أن عدد مستخدمي المكتبة سنوياً يبلغ 6000 مستخدم/ يوم^(٢٥)، وتجلب المادة الأرشيفية، المخزنة في عدد من المواقع^(٢٦) إلى المستخدم في قاعة الاطلاع، على أن الاطلاع يخضع لبعض القيود المماثلة لما هو كائن في الأرشيفات الأخرى. ويشمل ذلك شرط مرور 30 سنة ليتم إتاحة بعض المجموعات (مثل ملفات خدمة الموظفين). إلى جانب وجوب احترام سرية البيانات وتشريعات الأحوال المدنية وكذلك مواد إعلان حقوق الإنسان الصادر عام 1958^(٢٧)، هذا إلى أن تلك القيود لم تعق الخدمات التي يقدمها الأرشيف حتى الآن، بالرغم من أن غياب تشريعات خاصة بالأرشيف في النمسا يجب أن يعتبر أمراً سلبياً^(٢٨).

يقع توفير المعلومات من الخدمات العامة التي يقدمها الأرشيف موقع القلب بلا شك^(٢٩)، ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر إنشاء "قسم التوثيق" في الأرشيف عام 1977. ويقع على عاتق هذا القسم فهرسة محاضر اجتماعات قيينا دايت (المجلس التشريعي لمقاطعة قيينا) ومجلس مدينة قيينا (المجلس التشريعي لمدينة قيينا)^(٣٠) وكذلك توثيق إصدارات الأحزاب السياسية والجمعيات وجماعات المصالح، والصادرة منذ إنشائه.

وبما أن هذا القسم يهتم أساساً بالحياة السياسية للمدينة وما يتعلق بها، فقد كان من الممكن أيضاً إنشاء قسم علمي في الأرشيف منذ عام 1977، وقد اشترك الأرشيف منذ ذلك الحين مع Ludwig-Boltzmann-Institut für Stadtgeschichtsforschung في إصدار أطلسين وهما: أطلس المدن التاريخية بالنمسا، والذي اتبع في إصداره شكلاً وموضوعاً إرشادات اللجنة الدولية لتاريخ المدن Commission Internationale pour l'Histoire des Villes والذي يضم الآن 29 مدينة نمساوية، وأطلس قيينا التاريخي، الذي حظى بمكانة دولية^(٣١).

ويرتبط دور الأرشيف المحلي كـ "خزانة لتاريخ قيينا" برباط وثيق مع (جمعية تاريخ قيينا) Verein für Geschichte der Stadt Wien، وتعتبر تلك الجمعية بأعضائها الـ 1800 هي الأكبر من نوعها في النمسا، ويدل هذا الرقم وحده على قدرتها على الوصول إلى جمهور عريض، وقد أثمر التعاون مع الجمعية خيراً كثيراً للأرشيف في الخمسين عاماً الماضية، وكذلك استفادت الجمعية أيضاً من هذا التعاون، ونخص بالذكر ذلك الإهداء الذي قدمت فيه الجمعية مكتبتها الضخمة إلى الأرشيف في عام 1963، وهو ما جعل من مكتبة المراجع في الأرشيف مؤسسة أكاديمية حقيقية. وكانت

تلك المكتبة قد ظهرت إلى حيز الوجود عام 1891 عندما أصبح الأرشيف إدارة مستقلة بذاتها^(٣٢). ولم يكن للدراسات التي يقوم بها العاملون بالأرشيف أو الباحثون أن تصبح ممكنة لولا المكتبة الغنية للأرشيف ومقتنياته من مادة غنية فيما يتعلق بتاريخ المدينة، وقد زاد حجم مطبوعات المكتبة ومخطوطاتها وعلت مكانة علمية، منذ أن حدث هذا التعاون، وكان كثير من ذلك نتيجة للتبادل الدولي.

ونظرا لانتماء أعضائه لشتى مجالات الحياة بما يعكس اهتمامات قطاعات عريضة من الجماهير، كان على الجمعية أن تقوم بواجباتها ليس فقط في اتجاه تلبية الاحتياجات العلمية والأكاديمية، ولكن أيضا الوفاء بواجب تقديم الخدمة التعليمية للجمهور، ولم تستجب الجمعية لهذا الواجب الأخير بمطبوعات فقط ولكن أيضا عن طريق المحاضرات والجولات المكفولة بالإرشاد، وهنا أيضا نجد لموظفي الأرشيف دورا هاما في تلك الأنشطة فيما يمثل وسيلة اتصال أخرى بين الأرشيف والجمهور، وقد أصبحت تلك الأنشطة التعليمية تقليدا في الأرشيف منذ عشرينيات القرن العشرين، غير أننا لا نجد محيصا من الإشارة إلى مشكلة أساسية تواجه مثل تلك الأنشطة في المدن الكبرى، فمن الصعوبة بمكان نشر المدلولات الثقافية للأرشيف والوصول لجمهور مدينة كبيرة، بما تضمه تلك المدينة من منشآت أخرى مثل المسارح والمتاحف والمكتبات، ودور الأوبرا والجامعات، والمعاهد البحثية ومراكز تعليم الكبار، وهذا أصعب من نشرها في مدينة صغيرة قد تتمحور أنشطتها الثقافية حول مؤسسة من هذا النوع.

غير أن الأرشيف لا يستطيع أن يتجاهل مثل تلك الواجبات التعليمية، والتي تشمل على الأخص المعارض، وهو موضوع نشط فيه الجدل بين الأرشيفيين منذ فترة^(٣٣)، فقد دأب أرشيف مدينة فيينا على تنظيم وإعداد المعارض لفترة تزيد على القرن من الزمان بالاشتراك مع مكتبة المدينة والمتحف التاريخي، غير أن المعارض التي نظّمها الأرشيف وحده لم تُقَم إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد أعطى سلفي فيليكس كزيك Felix Czeike (ولد عام 1926، مديرا في الفترة من 1989 - 1976) دفعة كبيرة في هذا الاتجاه^(٣٤)، فقد قام من ناحية بإنجاز المتطلبات الأساسية للبنية التحتية لأنشطة المعارض، كما أنه بدأ في طبع أدلة المعارض، مما أتاحها لجمهور أوسع.

غير أن معارض الأرشيف المحلى تحدّها حقيقة أننا لا نملك غرفة أو قاعة خاصة بنا للمعارض، وهو ما استحال معه القيام بإحصاء لعدد الزوار، وكان هذا السبب وراء

قرارنا بتصميم المعارض بشكل يمكننا من تقديمها فى مواقع أخرى، بمجرد عرضها فى قاعة المدينة، وقد ثبت نجاح هذا الأسلوب. فقد أقيمت معارضنا فى عدد من متاحف المناطق، وأيضا فى أماكن الكثافة العالية للجمهور مثل محطات القطار ومطار فيينا، كما تمكنا فى السنوات الأخيرة من إقامة المعارض فى دول أخرى مثل إيطاليا، وألمانيا، وسلوفينيا، وإسبانيا. وقد استطاع الأرشيف بذلك أن ينظم جمهرة من المعارض على نطاق واسع وقام تعاون فى بعضها بيننا وبين متحف مدينة فيينا التاريخى، والذى لا يتسم فقط بأنه المكان المناسب لمثل تلك الأنشطة ولكنه يمتلك أيضا البنية التحتية اللازمة .

ويجب أن نذكر فى النهاية العلاقات التى نشأت فى الخمسة عشر عاما الماضية مع وسائل الإعلام، وهو ما يتصل بمجال الخدمة العامة، ويشمل العلاقات مع الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وقد انعكس ذلك فى النواحي الإدارية بإنشاء قسم للعلاقات العامة بالأرشيف، وبالرغم من أن العمل بالقسم يقوم به موظف واحد، إلا أنه يوفر فرصا أساسية وقيمة للأرشيف للاتصال بال جماهير العريضة. ولا يقتصر دوره فقط على التأكد من إمداد الجمهور بالمعلومات عن نشاط الأرشيف، ولكنه أيضا يوفر فرصة للعلاقات العامة على مستوى متواضع من خلال المقابلات والبرامج القصيرة، وقد انفتحت للأرشيف نافذة جديدة على العالم على مصراعيها فى مايو 1996 بنشر أنشطة الأرشيف على الإنترنت^(٣٥).

المستقبل: نجاح أم عمل بالأسلوب المعتاد؟^(٣٦)

يواجه رجال الإدارة العامة فى الوقت الحالى نقدا محمودا من الجمهور بشكل عام من سوء الأداء الاقتصادى وتقلص التمويل، مما زاد من الرغبة فى تقليص النفقات الإدارية، والتوفير خاصة فى قطاع الخدمات الاجتماعية، غير أن ذلك الجدل لم يمس الأرشيف بعد، بيد أن فشلنا فى مواجهة ذلك، لو حدث، فسيكون ذلك قصر نظر منا^(٣٧). إن الالتزام الذى يقع على عاتق الأرشيفيين اليوم هو التزام بتقديم الدليل على نجاح أنشطتهم، فالوعى بأهمية الأرشيف القصوى فى التخطيط للإدارة لا يخفى على أحد، بالرغم من عدم كفاية هذا الوعى.

إن النظرة الحصيفة للمستقبل تنبئنا بمجالين أساسيين للمشاكل: فالأرشييفى اليوم مواجه من ناحية بالتطور السريع لاستخدامات الكمبيوتر^(٣٨)، وعليه فى ظل هذا الظرف أن يضمن حفظ الوثائق الإدارية للأبد. إن رؤية المستقبل الذى يبشر بقدوم عصر "المكتب اللاورقى paperless office" هو شىء خلاب لأول وهلة، والسرعة الهائلة التى تتاح بها المعلومة من ناحية، وتقليص كم الملفات والوثائق المكتوبة إلى أقصى درجة ممكنة من ناحية أخرى، وبالتالي حل كل مشاكل التخزين صورة يبدو أنها غدت قريبة، وهى أيضا صورة تبدو وكأنها لا تحمل إلا مميزات فقط، إلا أنها لم تطبع بعد اعتقادات الأرشييفيين حيث أنه لا يوجد وسيط تخزين طويل الأجل، وتقع على الأرشييفيين مسئولية لفت الانتباه بشدة لهذا الموضوع، وحتى لو حُلَّت هذه المشكلة، فهناك التطور اللاهث للأنظمة والذى يجب التعامل معه ، والذى لا يمكن إلا من خلال تحديث مستمر للأنظمة ، أما عن تكلفة هذا الأسلوب المؤتمن وهل هو بالفعل أقل من التخزين التقليدى ، فموضوع ما زال محل بحث، ومن الأهمية بمكان فى هذا الصدد، إدخال الأرشييف فى أى تخطيط مستقبلى على أى مستوى.

أما المشكلة الثانية فهى مشكلة ليست بالجديدة بحال من الأحوال، بالرغم من أنها غدت أكثر وضوحا فى الأعوام الأخيرة، وهى تتعلق بالتضارب الحادث بين متطلبات البحث العلمى والمهتمين بالوصول للمادة الأرشييفية الخاصة بالماضى القريب من ناحية، وبين متطلبات الحماية والخصوصية من ناحية أخرى. ولم يقابل أرشييف قيينا حتى الآن أى مشكلة من هذا النوع، ومرد ذلك إلى التشريعات الصائبة الخاصة بالقيود على الاطلاع على بعض المجموعات الخاصة والتى تتمتع بحماية لمدة 30 سنة، وهى مدة أثبتت فاعليتها على الجانبين. ومدة ال 30 سنة هذه تعكس أيضا حقيقة أن الوثائق المحفوظة فى الأرشييف لا ترجع إلى فترة أحدث من ذلك.

كيف يمكنك أن تخلق وعيا عاما لدى الجماهير بأن الأرشييف ليس فقط مُمهماً، ولكنه لا غنى عنه، كيف يمكنك التأكد من نجاحه التام؟ لقد حاول الأرشييفى الألمانى الشهير إيكهارت فرانكس Eckhart G. Franz الإجابة على هذا السؤال فى ورقة بحثية نشرت عام 1995 مقترحا "مفهوم بيت التاريخ" house of history concept^(٣٩) وقد ذكر فى بحثه نموذج أرشييف درمشتاد، فقد أصبح من الممكن بموجب القانون الهيسى للأرشييف والصادر فى 18 أكتوبر 1989 تقديم برامج لتفسير التاريخ فى المبنى الجديد

لأرشيف هيسه Hessische Staatsarchiv ، وقد أكد فرانتس فى هذا الإطار على أهمية العلاقات العامة (انظر ما سبق وذكرناه عن شكل وطبيعة قسم العلاقات العامة بقيينا).

وقد حمى وطيس الجدل الدائر، فى السنوات الأخيرة، بين الأرشيبيين الألمان حول هذا الموضوع، تتاجز فيه فكر مدرسة فرانتس مع رأى الآخر ، القائل بأن الأرشيف يجب أن يركز على البحث الأرشيفى والخدمى على وفى محفوظات الدار، على ألا يشكل البحث فى التاريخ المدينى والقومى جزءاً من أنشطته^(٤٠). وتشى النظرة الفاحصة على هذا التضارب فى الآراء بأنه ليس مجرد تضاد بين مبادئ، ولكن الأرشيف المحلى له بالفعل دور مختلف نسبياً فى النشاط، وأؤكد (بوصفى ممثلاً لأرشيف محلى) على أهمية النشاط العلمى والتعليمى فى واجباتنا الأرشيفية، وهو أمر ليس بالجديد تماماً، فتدريب الأرشيبيين وأخلاقيات عملهم تحملنا مسئولية الوفاء بتلك المتطلبات، ويعنى كل ذلك فى الواقع أنه يجب أن يكون هناك توازن بين مختلف الأنشطة فى الأرشيف، أى بين العمل المعتاد وتلك الأنشطة الثقافية^(٤١). إن دور العلاقات العامة الذى ينصب فى الأساس على تقديم البحث التاريخى المعتمد على المادة الأرشيفية الموجودة بالأقبية لفائدة الجمهور بشكل عام – هو الذى يمول، على أية حال، ويحافظ على الأرشيف – يجب ألا تهتز، هذا الصنف من العلاقات العامة الموصوف هنا، هو بلا شك أفضل تأمين لنجاح أى أرشيف فى مجتمع حديث يتصف بأنه "مجتمع معلوماتى"^(٤٢).

الهوامش

- (١) بالنسبة لتطور الأرشيفات في العصور الوسطى انظر K. Colberg, Archiv', in Lexikon des Mit- telalters 1 (München, 1980), 907 ff., و عن الأرشيفات المدنية انظر المرجع نفسه ، 910 ؛ ومن أهم الأعمال المتعمقة عن تطور الأرشيفات في المدن الإيطالية النامية في العصور الوسطى انظر P. Koch, 'Die Archivierung kommunaler Bücher in den ober-und mittellitalienischen Städten im 13. Und frühen 14. Jahrhundert', in Kommunales Schriftgut in Oberitalien. Formen, Funktionen, Überlieferung, ed. By H. Keller and T. Behrmann (München, 1995), 19 ff.; E. Pitz, Schrift- und Aktenwesen der städtischen Verwaltung im Spätmittelalter. Köln - Nümburg Lübeck (Köln, 1959). ؛ وكمعلومات عامة عن تاريخ الأرشيفات النمساوية انظر W. Goldinger, Geschichte des österreichischen Archivwesens (Wien, 1957).
- (٢) F. Opll, 'Die Entwicklung des Wiener Raumes bis in die Babenbergerzeit', JbWGStW (1979), 7 ff. ; idem, Stadtgündung und Stadtwerdung. Bemerkungen zu den Anfängen des Städtewesens in Österreichs Städte und Märkte in ihrer Geschichte (Wien, 1985), 13ff.; idem, 'Zum Hauptstadtproblem im babenbergischen Österreich', Mitteilungen des Museumsvereins Lauriacum-Enns, N.F.Heft 29 (1991), 14 ff
- (٣) W. Weinzettl, تأسيس حديثنا عن تاريخ أرشيفات مدينة فيينا بشكل كبير على الأعمال التالية: 'Beiträge zur Geschichte der Wiener Stadtkanzlei' (unpub. Dissertation at the Institut für Österreichische Geschichtsforschung, Wien, 1950); H. Tschulk, Die Entwicklung des Wiener Stadtarchivs zur wissenschaftlichen Anstalt. Von den Anfängen bis zum ausgehenden 19. Jahrhundert' (unpub. PhD. Thesis, Wien, 1980), as well as F. Opll, Geschichte des Wiener Stadt- und Landesarchivs (VÖWStLA, Reihe C, Heft 5, Wien, 1994) و به إشارات غنية لمراجع عن الموضوع.
- (٤) بالنسبة للتطور المبكر لقاعة مدينة فيينا ??? Vienna City Hall انظر Das älteste Rathaus von Wien', JbBGStW 46 (1990), 107 ff.
- (٥) لمناقشة أوسع عن هذا المصطلح والمصطلحات المشابهة انظر B. Ottnad, 'Das Berufsbild des Archivars vom 16. Jahrhundert bis zur Gegenwart', in Aus der Arbeit des Archivars. Festschrift für Eberhard Gönner ed. By. G. Richter (Stuttgart, 1986), 1 ff., H. Tschulk, Vom Archivar- und Administrator zum Archivorganisator. Zur Geschichte des Wiener Stadt- und Landesarchivs (WGBII., Beiheft 3, Wien, 1989).

(٦) عن تطور الـ E. M. Auer, '125 Jahre Verein für Geschichte der Stadt Verien انظر Wien' (WGBll., 33, 1978), ff.

(٧) يمكنك أن تجد نظرة سريعة على تطور التدريب الأرشيقي في أوروبا مع معلومات عن تأسيس مدارس في ميونخ (1821 / 1882)، وفي باريس (1821 / 1830)، وفي فيينا (1854)، وفي فلورنسا (1856)، وفي روما (1884)، وفي ماربورج/برلين (1894 / 1917 / 1930) في Rumschöttel (see footnote 36)، وفي O. Hageneder, 'Die wissens-liche Ausbildung der Österreichischen Archivare und das Institut für Österreichische Geschichtsforschung', Archiv für Diplomatik 27 (1981), 232 ff., as well as idem, 'Die wissenschaftliche Ausbildung der Österreichischen Archivare', Scrinium 36 - 37 (1987), 239 ff. هذا الحصول على الكورس لازما للتعين في منصب الـ Beamte des höheren Archivdienstes (كبير أمناء الأرشيقي) في فيينا بموجب قرار سناتو المدينة في 18 نوفمبر 1952.

(٨) نذكر هنا من بين أعماله العديدة Geschichte der Stadt Wien وتحريره للجزء الخاص بالوثائق القديمة الخاصة بتاريخ فيينا ، والتي نشرها Johann Adolf Tmaschek at Weiss 'instigation (2 vols 1877 and 1879), انظر أيضا Opll, Gischichte, 18 ff. (٩) انظر أيضا هامش ٧ .

(١٠) انظر على وجه الخصوص R. Perger, 'Die Affaire Uhlirz im Wiener Gemeinderat', JbVGStW 17/48 (1991-92), 371 ff.

(١١) لمزيد من المعلومات عن هانجو Hango والذي كان من وجوه الأدب أيضا انظر W. Leesch, 'Archivare als Dichter. Ein Beitrag zur deutschen Literaturgeschichte', Archivalische Zeitschrift 78 (1993), 177 ff.

(١٢) تميز تطور فيينا من ناحية المساحة منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى الماضي القريب بضمها لمجمعات تحيط بها: في عام 1850 انضمت إليها الضواحي (خاصة ما يشكل الآن الأحياء 2-10) ، وبين 1890-1892 انضم لها ما أصبح الآن الأحياء 11-19؛ وفي سنة 1900 انقسم الحي الثاني لينشأ منه الحي العشرين، وسنة 1904 انضمت منطقة إلى الشمال من الدانوب هي فلوريدسدورف أي الحي الواحد والعشرين، وفي سنة 1983 أصبحت فيينا الكبرى تضم 26 حيا بعد أن انضم لها 97 مما كان يشكل تجمعات النمسا السفلى، ثم في عام 1954 تم التراجع عن آخر هذه التحولات في معظمها، لكن بقيت في حوزة المدينة الأحياء 22 (Donaustadt) و 23 (Liesing) في شمالي الدانوب وجنوبي المدينة على الترتيب.

(١٣) منذ ذلك الوقت أصبح أرشييف المدينة مسئولاً ليس فقط عن الوثائق المدنية ولكن أيضا عن وثائق الهيئات الفيدرالية الواقعة في فيينا وبخاصة المحاكم الفيدرالية؛ ولم يعكس اسم الأرشييف هذه المسئولية الجديدة إلا في فترة متأخرة: وأطلق على الإدارة اسمها الجديد Archiv der Stadt und des Landes Wien سنة 1969، ثم استبدل هذا الاسم بعد ذلك بأربع سنوات باسم آخر أقل تعقيدا ويحمل نفس الدلالة هو Wiener Stadt- und Landesarchiv.

(١٤) وهي Studien aus dem Archiv der Stadt Wien. In 1929 O. Brunner's Die Finanzen der Stadt Wien appeared; in 1931 Die Wiener Ratsbürger des 14. Jahrhunderts by L. Sailer was published.

(١٥) عن تطور الأرشفة خلال فترة النازي وبعيد الحرب العالمية الثانية انظر أيضا الدراسة الحديثة
F. Opll, 'Das Wiener Stadtarchiv im Krieg und in der Nachkriegszeit', JbVGStW 51 (1995), 177 ff.

(١٦) Ibid. 182 ff حول عملية الإنقاذ الكبيرة تلك .

(١٧) Ibid. 191 ff. حول عودة الوثائق منذ 1945.

(١٨) عندما تم تحديد المناطق أهملت المناطق المنضمة سنة 1938 (انظر هامش 12 أيضا). وهكذا
وقعت المناطق الحضرية فيما قبل 1938 تحت سيطرة القوات الحليفة الأربعة، بينما بقيت المنطقة الداخلية من
المدينة والحي الأول تحت السيطرة المشتركة . واعتبرت المناطق التي كانت تشكل الأحياء 21-26 سنة 1938
جزء من النمسا السفلى وبالتالي وقعت تحت السيطرة السوفيتية.

(١٩) هناك أدلة مهمة على قدم هذه المهام الأرشفية الأساسية في E. G. Granz, 'What Makes An
Archives Successful? The "House of History" Concept', Journal of the Society of Archivists 16/1
71, (1995) في سنة 1309 عرف الملك الفرنسي فيليب العادل Philip the Fair في تعليماته لأمين وثائقه
بيير ديتامب Pierre D'Etampes: " عليه أن يحفظ ويفحص وينظم ويرتب في دواليبه كل الرسائل والوثائق
والدبلومات بهدف التأكد من حفظها على الوجه الأكمل وتسهيل إتاحتها عند الطلب".

(٢٠) لمزيد من المعلومات التفصيلية حول هذا الموضوع انظر دليل Archivalien aus acht Jahrhun-
derten. Ausstellung des Archivs der Stadt Wien (Historisches Museum der Stadt Wien, 15 th
special exhibition, December 1964 - February 1965) as well as in P. Csendes, Das Wiener
Stadt- und Landesarchiv. Ein F(h)rer (VÖWStIA, Reihe C, Heft 3, Wien, 1991), ولا يوجد سجل
مطبوع لكل الوثائق ، ولكن هناك الكثير المجموعات التي تم حصرها في قوائم منفردة ، انظر
البليوجرافيا في Opll, Geschichte, 17.

(٢١) حول الاتجاهات العامة في استخدام المعالجة الإلكترونية للبيانات في الأرشفة الأسترالي انظر
G. Marckhgott, 'EDV in der österreichischen Archive und die EDV', Historicum 34 (1993), 10, ff.

(٢٢) بُدئ في الجمع تحت إدارة ف. كزاك F. Czeike (1976-1989) ومن بين الأغراض التي خدمها
هذا الجمع المساعدة في الإعداد للموسوعة الشاملة لتاريخ فيينا الحضرى، والتي كان كزاك يعمل فيها آنذاك؛
Felix Czeike, Historisches Lexicon Wien. Vol. 1-4 (Wien, 1991-1995); ونشر الجزء الأخير منها
(الخامس) سنة 1996-97.

(٢٣) انظر أيضا الملاحظات في Tschulk, 'Entwicklung', and in Opll, Geschichte .

(٢٤) أيام العمل من الإثنين حتى الخميس من 8:00 ص. حتى 6:30 م. والجمعة من 8:00 ص.
حتى 4:00 م.

(٢٥) تشمل الأرقام الزيارات المتكررة لنفس المستخدم.

(٢٦) حيث إن الوثائق والكتب مخزنة بعيداً عن قاعة الاطلاع، وبالتالي يستغرق نقلها للقاعة وقتاً، فإن
ذلك يحدث مرة واحدة في الأسبوع يوم الإثنين، ونتيجة ذلك ليس فقط تأخر الخدمة للباحثين، ولكن أيضاً زيادة
العمل على العاملين، ويقضى العاملين في رحلاتهم بين قاعة الاطلاع وأماكن التخزين 200 ساعة في الانتقال
على مدار أربعة أسابيع.

- (٢٧) H. Schmitz, 'Archive Zwischen حول تأثير الإجراءات الأخيرة على عمل الأرشيفيين انظر Wissenschaftsfreiheit und Persönlichkeitsschutz. Anmerkungen zur Archivgesetzgebung in der Bundesrepublik Deutschland unter besonderer Berücksichtigung der Archivalienbenutzung', in Aus der Arbeit der Archive. Festschrift für Hans Booms, ed. By F. P. Kahlenberg (Boppard am Rhein, 1989) 65 ff.
- (٢٨) H. L. Mikoletzky, 1971: 'La législation archivistique. I. Europe 1 re partie: Allemagne - Islande', Archivum. Revue internationale des Archives vol. XVII, 1967 (1971), 53 ff.
- (٢٩) H. Rumschöttel, 'Die Archive an der Schwelle zu den 90er Jahren. Ein Lagebericht', Der Archivar 43 (1990), 229 ff.
- (٣٠) M. Seliger, 'Dokumentation des 20. Jahrhunderts - ein neues Referat im Wiener Stadt- und Landesarchiv', Scrinium 19 (1978), 17 ff.
- (٣١) A. Simms and F. Opll, 'Historic Towns Atlasses: Urban History through Maps (Complete List of Historic Towns Atlases, published under the auspices of the International Commission for the History of Towns and the patronage of the Crédit Communal de Belgique, Brussels, 1995). حول الوضع الحالي للأطلس التاريخي لدينا انظر بحث رينات بانيك شفيتسر Renate Banik-Schweitzer في العمل السابق .
- (٣٢) Opll, Geschichte, 42, as well as H. Wohlrab, 'Die Bibliothek des Wiener Landesarchivs', Scrinium 4 (1971), 31ff.
- (٣٣) E. Bräunche, M. Diefenbacher, H. Reyer, K. Wisotzky 'Auf dem Weg ins Abseits? Zum Selbstverständnis archivarischer Tätigkeit', Der Archivar 48 (1995), 433 ff.
- (٣٤) Opll, Geschichte, 70, for the Tätigkeitsberichte des Wiener Stadt- und Landes Archives.
- (٣٥) K. Uhde, 'Archiv und Internet', Der Archivar 49 (1996), 205 ff.
- (٣٦) B. Brachmann, 'Kontinuität und Wandel im Berufsbild des Archivars', in Aus der Arbeit der Archive, 178 ff. And H. Rumschöttel, 'Zur Aus- und Weiterbildung der Archivare in der Bundesrepublik Deutschland', in Aus der Arbeit der Archive, 187 ff.
- (٣٧) B.S. Smith, 'Archives and Government Policy', Journal of the Society of Archivists 9/4 (1988), 181 ff.
- A. Ogris, 'Zum Stellenwert der Archive in der heutigen Gesellschaft', Kärntner Jahrbuch für Politik (1994,) 175 ff.

(٣٨) بالإضافة للملاحظات (هامش 12) حول الوضع بالنمسا انظر أيضا M. Roper, 'Information Management: Threat or Opportunity', Journal of the Society of Archivists 12/2 (1991), 106 ff., W. Buchmann, 'Archive und die elektronische Datenverarbeitung. Ein Diskussionsbeitrag zu den Folgen der Einführung einer neuen Technologie für die Archive', in Aus der Arbeit der Archive, 243 ff., and H.E. Zorn, 'Automation und Archiv. Datenverarbeitung, Büroautomation, Bürokommunikation', in Bewahren und Umgestalten. Aus der Arbeit der Staatlichen Archive Bayerns. Walter Jaroschka zum 60., Geburtstag, hg. Von H. Rumschöttel und E. Stahleder (München, 1992), 330 ff.

Franz, 'What Makes an Archives Successful?'. (٣٩)

(٤٠) انظر المناقشات ملخصة في 'Auf dem Weg ins Abseits'. Bräunche, Diefenbacher, Reyer, Wisotzky

(٤١) نفس الموقف تبناه جاكوبي 'Zur Öffentlichen Funktion der Archive und zum beruflichen Selbstverständnis der Archivarinnen/Archivare', Der Archivar 45 (1992), 197 ff.

(٤٢) انظر أيضا Rumschöttel, 'Die Archive an der Schwelle'.

ثلاثة نماذج لأرشيقات المدن الكبرى بإسبانيا:

برشلونة - سيفيل - مدريد (*)

ميجيل-أنجل لادر دو كويسادا

هذا العمل هو عرض مختصر لتاريخ وخصائص ومحتويات الوثائق بثلاثة من الأرشيقات المحلية الإسبانية ذات الأهمية العظمى، والتي تكتسب كل منها أهميتها في منحى من المناحى، وتعتبر في إجمالها مثالا للأرشيقات الأخرى، ولدراستها بالتالى أهمية من حيث إيجاد فهم أقرب لواقع أرشيقات المدن الإسبانية، وقد حظيت أثناء إعداد تلك الورقة بالمعلومات التي قدمها كل من د. كارمن باتل Carmen Batlle التي عملت بالأرشيف التاريخى لبرشلونة لعدة سنوات، ود. ماركوس فرنانديز Marcos Ferández مدير الأرشيف المحلى لسيفيل، و دونا كارمن كايانو مارتين Dña. Carmen Cayetano Martín الأرشيافية بمجلس مدينة مدريد. وإنه لمن دواعى سرورى أن أعرب عن عظيم امتنانى لثلاثتهم لما بذلوه من تعاون مثمر.

الأرشيف التاريخى لمدينة برشلونة

يقع الأرشيف حاليا فى دار رئيس شمامسة دبلّا Casa del Arcediano Desplá "مبنى رائع الجمال من طراز العصور الوسطى وعصر النهضة أساسه فى سور المدينة الرومانية ومجرى العيون" يرجع لعام 1922⁽¹⁾، وكان ثمرة قرار للمجلس المحلى كان وراءه المؤرخ والسياسى فرانثيسك كارياس كاندى Francesc Carreras Candi

(*) أعدت هذه الورقة لتقدم للمؤتمر، إلا أنه لم يتم تسليمها نظرا لظروف قهرية، إلا أنها تقدم هنا كمساهمة قيمة فى موضوع المؤتمر.

من برشلونة^(٢). وقد قام بالتنظيم المتميز للأرشيف الحالى أجوستى دوران سانبييرى Agustí Duran Sanpere (ت. 1975) والذي أدخله فى إطار المعهد المحلى للتاريخ الذى تأسس عام 1943. وهناك وصف للعمل المكثف بالمعهد فى عمل شامل نشر مؤخراً بعنوان History of Barcelona^(٣) غير أن الجزء الخاص بالأرشيف بالرغم من طوله البالغ ما زال يفتقر لكثير من الوثائق (المتكاملات fondos) التى لم تحظ بالفهرسة الكافية (Germios, Taula de Canvi, etc).

تتكون مجموعات الوثائق فى الأرشيف التاريخى من الرق (2629 من القرن التاسع وحتى الثامن عشر)، وسبع سلاسل Series أهمها التى تخص مجلس المئة Council of a Hundred، الذى كان مجلساً لمواطنى المدينة، أنشئ فى أواسط القرن الثالث عشر وتوقف عن العمل فى بدايات القرن الثامن عشر. المعلومات التالية مأخوذة عن دليل Guia الأرشيف المنشور عام 1983:

١ - من مجلس المئة:

(أ) سجلات محاضر الاجتماعات (257 سجل).

(ب) التشريعات (ordenanzas) التى أصدرها المجلس بين عامى 1349 و 1714 (57 سجلاً).

(ج) المراسلات، من الـ Registros - صور من الصادر، وأصول الوارد (312 سجلاً).

(د) حسابات مكتب الضرائب المحلى (Clavaria)، وقد أعيد تنظيمها فى القرن الرابع عشر.

(هـ) سلاسل أخرى مثل Actas de Cortes (الوثائق البرلمانية)، والوثائق الخاصة بالجامعة Estudio General، والتعداد fotgages (36 سجلاً من 1374 وحتى 1649)، والمجلس التشريعى Dietario (49 سجلاً من 1390 وحتى 1839).

(و) تجميعات لصكوك الامتيازات privilegios بالمدينة مثل الأجزاء الأربعة لـ 'Libre Verd' والتى يرجع أولها إلى أواسط القرن الرابع عشر.

٢ - أنشأ أفراد الحكومة التنفيذية للمدينة المعروفين باسم **Consellers** سلاسل شديدة التنوع من الوثائق التي تغطي عددا من الموضوعات مثل (جباية الضرائب، الأعمال العامة، الميناء، الأساطيل، الدفاع، إلخ) بين عامي 1280 و 1701 (828 سجلاً، 118 صندوقاً، و 116 ملفاً).

٣ - شكل ما نقل من الأرشفة الإدارية سلسلة أخرى تحتوى على أكثر من ألف سجل و 4000 ملف تمثل التوثيق منذ القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

٤ - سلسلتين كاملتين من عام 1300 تتعلقان بالحبوب واللحوم، وكلاهما كان تحت احتكار إدارة المدينة.

٥ - وثائق من أرشيفات مواقع قريبة من برشلونة استولى عليها الأرشفة خلال توسع المدينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خاصة عام 1897.

٦ - سلسلة المتنوعات **Diversos** والتي تحتوى مثلاً على كل ما يتعلق بالأعياد العامة واحتفالات مجلس المدينة.

بالإضافة إلى ذلك، يحتوى الأرشفة التاريخي لمدينة برشلونة على سلاسل من مؤسسات عامة أخرى بالمدينة، وكذلك على وثائق خاصة مما يزيد من أهميته في كل أنواع الدراسات التاريخية الخاصة بكتالونيا، وفيما يلي أهم هذه السلاسل:

١ - **El Consulado de Mar** (قنصلية البحر): وثائق تخص هذه التجارة والمحكمة البحرية.

٢ - **Taula de Canvi** (البنك المحلى) : 890 سجلاً من عام 1401 وحتى القرن التاسع عشر.

٣ - **Royal Audience Chamber** (جهاز حكومي بين عامي 1714 و 1833)، الحاميات العسكرية في القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر. وثائق عن تأسيس الـ **Catastro** (تسجيل الممتلكات والأراضي المملوكة لأفراد) في كتالونيا منذ عام 1715.

٤ - أرشيفات طوائف ونقابات التجار والصناع **Guilds and Brotherhoods** منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن التاسع عشر: وهي أساسية في تاريخ المجتمع والعمل والديانة في المدينة.

٥ - أرشيف عمال الملك فى المدينة وما حولها والذين شغلوا وظيفتى Veguer, Batlle وهو ملء بالوثائق التى تعود إلى أواسط القرن الرابع عشر بما فى ذلك أيضا وظيفة Corregidor أو الممثل الرسمى للملك، والتى ورثت وظيفة Veguer منذ 1714 وحتى 1842.

٦ - سلسلة للوثائق المتنوعة للموثقين العموميين ، مشتتة ومهداة، فى الفترة من عام 1363 و حتى القرن التاسع عشر.

٧ - سلسلة وثائق خاصة، بعضها مشتتة وبعضها إهداءات، من بينها 4000 على رق ترجع إلى الفترة ما بين القرنين العاشر والتاسع عشر، وكذلك أرشيفات عائلية وأرشيفات شركات تجارية، أكثر من 300 ترجع إلى الفترة ما بين عامى 1440 و 1903.

٨ - أرشيفات مؤسساتية مثل تلك الخاصة بالـ Floral Games of Barcelona وأيضا الخاصة بالمعارض الدولية بين عامى 1888 و 1929.

٩ - وثائق مطبوعة تتضمن خطابات وأوامر ملكية، ومراسيم، وبيانات، ومذكرات مصنفة وعرائض، ترجع كلها إلى الفترة ما بين عامى 1389 و 1832.

١٠ - أكثر من ألف كتاب مخطوط، من بينها رسائل خاصة و Book of the Hours من القرن الخامس عشر.

إن هذا الأرشيف لا يعتبر فقط أفضل مثال لأرشيف محلى فى كتالونيا بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر؛ ولكنه يجمع أيضا بين جنباته وثائق من مؤسسات أخرى ومصادر خاصة، كلها تقريبا من برشلونة، وهو ما ينطبق بصدق على اسمه: أرشيف مدينة برشلونة ، وهو أيضا نموذج طيب لتجميع مواد وثائقية من مصادر متنوعة ، مبنية حول نواة الأرشيف المحلى ، بهدف أن تكون شاهدا على ومصدرا لدراسة تاريخ مدينة كبرى .

الأرشيف المحلى لسيفيل

"جرت العادة على اعتباره أهم أرشيف من نوعه فى البلاد"^(٤) تتعلق مادته الوثائقية بمدينة سيفيل والأراضى الشاسعة المعتمدة عليها فى العصور الوسطى والعصر الحديث (حوالى 120000 كم ٢ ، حوالى مئة قرية فيما يعرف الآن بمقاطعات

سيفيل، هويلفا، وكاديز)^(٥) وتقع في مباني المحاكم القديمة منذ عام 1987، وتتكون من 4500 متر من الوثائق في ستة مخازن. وقد كان مقر الأرشيف في الـ Chapter House منذ أواسط القرن السادس عشر، وهو أحد المواقع الأكثر قدما والتميزة بجمال العمارة، وقد كان مقره قبل ذلك أي في العصور الوسطى في كورال دي لوس أولموس Corrat de los Olmos بجوار الكاتدرائية، حيث كان يجتمع عادة المجلس المحلي للمدينة.

ويبدأ تاريخ الأرشيف بعد غزو فرناندو الثالث للمدينة في عام 1248 مشكلا جزءاً من تاريخ تنظيمها المحلي، وكان نواة الأرشيف هو (أرشيف الصكوك) Archivo de Privilegios المكون من الوثائق الملكية والقانونية المتعلقة بالأوضاع السياسية والقانونية للمدينة، ومن السجلات التي تحتوى على نسخ من تلك الوثائق، مثل سجل الصكوك المعروف باسم Libro de Privilegios، الذي جمع عام 1508، ومجموعة من نسخ الوثائق التي أرسلها إلى سيفيل الملوك الكاثوليك (Tumbo de los Reyes Católicos, 1474-1507) وقد كانت الوثائق التي أفرزها النشاط الإداري المحلي بحوزة من تولوا وظيفة موثق المجلس escribaías del Cadildo ولم تشكل جزءاً من الأرشيف المحلي حتى عام 1812، كما كان لممثلي الشعب المنتخبين Jurados أرشيفهم الخاص، منفصلاً أيضاً.

وقد كان Archivo de Privilegios (أرشيف الصكوك) محفوظاً في خزانات لكل منها ثلاثة مفاتيح، يحمل كل منها أحد الموظفين المحليين، كزيادة في احتياطات الأمن، ولم تكن لتفتح إلا لحاجة إدارية، بالرغم من أن مؤرخي المدينة أحياناً ما كان يسمح لهم بالاطلاع عليها، خاصة ديجو أورتيغ دي زونييجا Diego Ortiz de Zuñiga^(٦) وقد أجرى جرد للأرشيف أعوام 1519، 1538، 1626، 1702، و 1746، كما عملت نسخ لبعض الوثائق بين عامي 1741 و 1771، قام على عملها أرشيفي المدينة لويس جاكوبو فيلازكويز Luis Jacobo Velázquez.

وقد ظهرت وظيفة مدير الأرشيف في مجلس مدينة سيفيل منذ عام 1858، وقد قام د. خوزيه فيلازكويز سانشيز D. José Velázquez y Sanchez بين عامي 1859 و 1869 بكثير عمل في تصنيف وترتيب وترميم المواد الأرشيفية، مكوناً بذلك أساس التنظيم الحالي للوثائق التي ترجع لفترة ما قبل عام 1835، وقد أكملها خلفاؤه على مراحل، بدءاً من ل. إسكوديرو إي بيروسو L. Escudero y Peroso (1872 – 1897)، وتعكس المادة الوثائقية مظاهر الإدارة المحلية منذ العصور الوسطى وحتى الآن، من خلال عدد من

السلاسل التي أفرزتها مختلف الأجهزة التنفيذية: المجالس (المحلية ومجالس الجورادوس Jurados)، إدارة الحسابات، مجلس الموثقين، ومنذ بداية القرن التاسع عشر أقسام وإدارات مكتب سكرتارية مجلس المدينة.

وفيما يلي وصف لمختلف أقسام الأرشيف:

١ - أرشيف الصكوك القديم Archivo de Privilegios، مضافا إليه بعض الوثائق، معظمها ترجع للفترة ما قبل 1540.

٢ - أرشيف إدارة الحسابات Archivo de Contaduria، وثائق أفرزتها الإدارة الاقتصادية للمدينة تكمل 15 (أوراق خزانة Papeles de Mayordomazgo) تحتوى على وثائق من نفس النوع ترجع للفترة منذ القرن الرابع عشر.

٣ إلى ٦ - أرشيف مجلس الموثقين Archivo de las Escribanías del Cabildo. وتحتوى على أكثر من 18000 ملف فى 500 مجلد ترجع للفترة منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر.

٧ إلى ٩ - مادة وثائقية محلية ترجع للربع الأول من القرن التاسع عشر.

١٠ - وهى وثائق ذات أهمية تاريخية خاصة حيث تتكون من سجلات محاضر اجتماعات المجلس Actas Capitulares، ملف غير مكتمل من عام 1434 ولكنه كامل منذ 1557 وحتى الآن، وبه تفاصيل أحداث اجتماعات المجلس المحلى regimiento.

١٧ - (*) مجلس الجورادوس Cabildo de los Jurados وهو الأرشيف القديم لتلك المؤسسة المحلية التى يشكل أعضاؤها Jurados مجلسا منفصلا. هذه المجموعة غير كاملة: توجد وثائق ترجع للفترة ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر^(٧).

وأخيرا هناك - كما فى كل الأرشيفات - قسم خص بالتنوعات Diversos، 16، وتجرى له عمليات الفهرسة فى الوقت الحالى.

الأقسام من 11 إلى 14 تحتوى على مجموعات ووثائق من مصادر خاصة، مشتراة أو مهداة، تتعلق بعضها بمسائل تاريخ سيفيل، بينما يحتوى القسم 18 على وثائق تتعلق بالمعرض الإيبيرى الأمريكى الكبير فى عام 1929، وقد ضمت فى السنوات

* الأقسام من 11 إلى 16 سيأتى ذكرها فى السطور التالية. (المترجم)

القليلة الماضية الوثائق التى نتجت عن إعداد القاموس التاريخى لشوارع سيفيل Diccionario historico de las calles de Sevilla، ومن المأمول أن يستمر تدفق وثائق مماثلة.

بالإضافة إلى ذلك، هناك ملحق المكتبة التى تحتوى على أكثر من 20000 عنوان وهى "من أفضل المصادر الببليوجرافية عن الموضوعات المتعلقة بسيفيل".

نخرج من ذلك بأن الأرشفة المحلى لسيفيل هو من أروع الأمثلة على كيفية تكون وتنظيم أرشيفات المدن فى فترة حكم الملكية القديمة لقشتاله منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر وحتى التاسع عشر، وعن أنواع الوثائق والمعلومات التى يمكن أن نعثر عليها فيها، أضف إلى ذلك أنه أكمل أرشفة فى الأندلس وأحد أفضل الأرشفات فى البلاد؛ بالرغم من أنه ليس له مثل ثراء المصادر التى ترجع للعصور الوسطى التى لمسيه^(٨) على سبيل المثال، إلا أنه لديه الكثير الذى يماثل أو يفوق ما لأرشفات أخرى فى قشتاله مثل فالابوليد Valladolid^(٩) وبرجوس^(١٠) Burgos.

أرشفة مدينة مدريد

لقد كانت مدريد فيما بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر مدينة متوسطة الأهمية، يقطنها حوالى 4000 نسمة عام 1500، امتد سلطانها على أراض ليست بالشاسعة لا تضم أكثر من ثلاثين قرية، تحول معظمها إلى أملاك إقطاعية señoríos خلال الفترة ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر. وقد استقر بها بلاط فيليب الثانى منذ عام 1561^(١١)، ومنذ ذلك الحين بدأ تحولها إلى مدينة عظمى ثم عاصمة فى النهاية، ويعكس أرشفة المدينة فى تكوينه وملامحه الفترتين التاريخيتين.

وقد حفظت صناديق ووثائق المجلس arcas de privilegios فى العصور الوسطى فى دير سانتو دومينجو الريل Convent of Santo Domingo el Real تحت مسئولية أعضاء المجلس التشريعى regidores، وموثق المجلس، وبُدى فى تسجيل عهدها عام 1481، وقد كان هناك مشروع ظهر فى عام 1613 لإعادة تنظيم الأرشفة على نسق الأرشفة الملكى فى سيمانكاس Simancas، نظرا للزيادة الكبيرة فى أعداد الوثائق التى حدثت فى النصف قرن السابق، إلا أن هذا المشروع لم يمتز قدما، وقد جرى تحديث هذا

الأرشيف، مثله في ذلك مثل باقى أرشيفات المدن الإسبانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، فكان له تنظيم وتجهيزات جديدة، فعين له موظف رسمى عام 1748، ووضعت ضوابط استخدام الأرشيف منذ عام 1753، وتحول إلى مكتب خدمة عامة محلية عام 1781.

وفى عام 1868 سكن الأرشيف عدة غرف فى بيت الخبز La Casa de la Panadería، البيت الرئيسى فى الميدان الرئيسى Plaza Mayor وظل به حتى عام 1987 عندما نقل إلى المركز الثقافى بمجلس المدينة فى مقر كوند ديوك Conde Duque، وهو أحد المباني التى ترجع إلى القرن الثامن عشر وكانت مواصفاته مناسبة، ويضم موقعه هناك 16000 متر من الأرفف تحمل 35659 ملفاً و 38659 سجلاً و 800 خريطة و 3390 لفة ميكروفيلم، وتغطى وثائقه الفترة ما بين عامى 1152 و 1991.

وبدأ العمل بالنظم الحديثة فى التخزين والتسجيل عام 1871، تحت إدارة د. تيموتيو دومينجو بالاسيو D. Timoteo Domingo Patacio الذى نشر مجموعة أساسية لوثائق العصور الوسطى، واستكمل العمل بعده مدراء آخرون من أهمهم د. أجوستين ميلاريس كارلو D. Agustín Millares Carlo، وبدأت مجلة المكتبة والأرشيف والمتحف المحليين Revista de la Biblioteca, Archivo y Museo فى الصدور منذ عام 1923، وبالرغم من عدم ظهور دليل للأرشيف حتى الآن^(١٢) إلا أنه هناك عدد من أعمال الجرد التفصيلية غير المنشورة، تتبع التنظيم الذى بُدئ فى اتباعه منذ عام 1867، كما يتوفر للباحث أيضاً العديد من الفهارس الموضوعية المنشورة^(١٣).

وتتوزع الوثائق أقسام يتألف تحديدها من دمج معيارين لاختيار المحتوى وهما المصدر والموضوع يتم التصنيف داخلهما موضوعياً، ويفسر اختيار معيار المصدر تلك الضخامة فى حجم وثائق مكتب سكرتارية المجلس، الذى ورث مجلس الموثقين، ويعطى الجدول رقم 1 أسماء ومحتويات كل قسم.

وتغطى أسماء الأقسام أهم ملامح النشاط الإدارى المحلى: الإدارة السياسية للممثل الرسمى للملك Corregidor Real، تموين القمح، Pósito-Alhóndiga ضبط الموازين والمقاييس فى السوق وفى التجارة بشكل عام Repeso، إعانة الفقراء والعجزة Beneficiencia، المالية، الوارد والمنصرف، التعداد المحلى Estadística، مشاركة السلطة المحلية فى تعيين وتنظيم الجيش القومى، Milicia Nacional, Quintas.

يحتوى كل قسم على أقسام فرعية أو مجموعات وسلاسل، ومن أهم ما تجدر الإشارة إليه تلك التى تتعلق بالمسرح، بما تحويه من تقارير ونوادر عن المسرحيات التى قدمت فى مدريد منذ القرن السادس عشر، وتلك المتعلقة بالتمدين وما تحويه من ملفات عن تشييد المباني وفتح الشوارع والحارات منذ القرن الخامس عشر، ومحاضر جلسات المجلس *Libros de Actas del Concejo*، وممتلكات المجلس *propios* والضرائب غير المباشرة *sisas*، والضرائب المباشرة *servicios* التى يدفعها مواطنو المدينة ولها أهمية أيضا فى التاريخ الديموجرافى، والأعمال المحلية والملاحظات التى دونها موثوقو المجلس منذ القرن السادس عشر، والوثائق الملكية منذ القرن الثانى عشر وحتى الثامن عشر، .. إلخ.

ولا يعانى أرشيف مدريد من أى نقص فى المواد منذ الثلث الأخير من القرن الخامس عشر، إلا أنه لم يضم سوى عدد قليل من المصادر الأخرى الخاصة بالمدن المجاورة، فيما لا يقع فى نطاق أحياء المدينة الحالية، وأقل من ذلك بالنسبة للأرشيات الخاصة، وهو بذلك شاهد صدق على تاريخ المدينة وتطورها من المدينة البسيطة فى العصور الوسطى إلى المدينة الكبرى الحالية.

جدول (١) أسماء ومحتويات كل قسم من الوثائق

الاسم	الفترة التى تغطيها الوثائق	عدد الوثائق	عدد السجلات
مكتب السكرتارية	١٩٩١-١١٥٠	٢٣,٨٣٧	١٠,٦٧٠
الممثل الرسمى للملك	١٨٦٨-١٦٣١	٦٣٢	
الأعمال الخيرية	١٨٩١-١٥٩٨	٩٥٢	
الحسابات	١٨٨٧-١٥٢١	٤,٩٠٠	
الإحصائيات	١٩٦٥-١٨٤٠	٤,٥٧٩	٩,٠٠٠
الجيش	١٨٨٢-١٨٢٠	٣٢٧	
مخازن القمح	١٨٤٧-١٦٤٥	٥٣٩	
مجموعات الاحتياط السنوية للجيش	١٨٧٩-١٨١٣	٥٠٩	
الموازن والمقاييس	١٨٤٥-١٥٧٩	٤٨	

الهوامش

- (١) عن ملحوظة حول هذا الأرشيف قدمتها د. كارمن باتل من جامعة برشلونة .
- (٢) من أهم أعماله (1910) La Ciudad de Barcelona, (The City of Barcelona), وهو أول تاريخ كامل للمدينة، وكذلك مبادرته بنشر أهم وثائق هذا الأرشيف مثل Dietario or Manual de Novells Ardits (from 1390 to 1724) and the summaries of sessins or Rúbriques by E.G.Bruniquer, from the seventeenth century.
- (٣) Barcelona, 1991
- (٤) Fernández Gómez, 'El Archivo Municipal de Sevilla: Pasado y Presente', Bletín de la Asociación Española de Archiveros, Bibliotecarios, Museólogos y Dcumentalistas (ANABAD), 2/ 1995, 7-27, AND 'El Archivo Municipal de Sevilla' in Ayuntamiento de Sevilla, Historia y Patrimonio (Sevila, 1992), 119-141.
- (٥) انظر, F. Morales Padrón (ed.), Historia de Sevilla (Seville, 1976), خاصة vol. 3, M. A. Ladero Quesada, La Ciudad Medieval.
- (٦) انظر, D. ortiz de Zúñiga, Anales....de la Ciudad de Sevilla, (Madrid, 1677) (Sevilla, facsimile of the 1795 editin, with indices, edited by J. Sanchez Herrero). 1988,
- (٧) هذا المجلس Cabildos de Jurados كان له أمثلة فى مناطق أخرى من بينها قرطبة وطلليطة .
- (٨) انظر سلاسل الوثائق الهامة التى أعدها للنشر J. Torres Fontes: Colección de Documentos para la Historia de Murcia (Murcia, 1964 - in progress).
- (٩) F. Pino Rebolledo, Historia del Archivo Municipal de Valladolid (Valladolid, 1991).
- (١٠) J. A. Bonach(a Hemando and J. A. Pardos Martinez, Catálogo documental del Archivo Municipal de Burgos, Seccion Hist(rica)931-1515) (Junta de Castilla y León, 1983).
- (١١) A. Fernández (ed.), Historia de Madrid (Madrid, 1994); S. Madrazo, D. Ringrose, and C. Segura, Historia de Madrid (Madrid, 1994).
- (١٢) C. Cayetano Martín, 'El Archivo General de la Villa de Madrid', in Primeras Jornadas de Fuentes Documentales para la istoria de Madrid (Madrid, 1990), 93-104.

(١٣) على سبيل المثال - C. Cayetano Marín, La Documentación Medieval en el Archivo de Villa (Madrid, 1991). T. Domingo Palacio, Documentos del Archivo General de la Villa de Madrid (Madrid, 1881-1909). Libros de Acuerdos del Concejo Madrileño, años 1464 1505 (Madrid, 1932-1988) A. Millares Carlo, Contribuciones Documentales a la Historia de Madrid (Madrid, 1971). A. Millares Carlo and E. Varela Hervias, Documentos de Archivo de la Villa de Madrid, Segunda Serie (Madrid, 1932). C. Cayetano Martín, Documentos del Archivo de Villa. Reyes (1475-1479) (Madrid, 1992). E. Pastro Mateos, Catálogo de los Fondos del Archivo Católicos. de Villa Referentes a Gremios y Profesiones (Madrid, 1947), C. Rubio Pardo, Cédulas y Provisiones de Carlos I (1516-1526) (Madrid, 1985). F. Rújula and M. Crespo, Índice de Caballeros Hijosdalgo de la Nobleza de Madrid. 1330-1930 (Madrid, 1920). J. E. Varey and N. Shergold, Teatros y Comedias de Madrid. 1600-1687 (1971-75), and Los Titeres y otras Diversiones Populares de Madrid. 1758-1840 (1972).

أرشيف باريس: بتر، تقطيع أوصال، إعادة تكوين

فرانسوا جاسنو

باريس .. لمن؟

باريس لنا، هكذا يقول عنوان أحد أفلام الموجة الجديدة، ولكن مؤلفه جاك ريفيت Jacques Rivette يسارع بنفى ذلك ذاكرة عبارة أبولينير Apollinaire: باريس ليست ملكا لأحد.

أىكون إذن اتساع باريس بشكل أكبر من أن يكون تحت يد سلطة واحدة سببا فى ألا يحتوى أرشيفها إلا على جزء متواضع من ذاكرتها؟ أم نقنع بتفسير أبسط وبالتالي أكثر إراحة لنا؟ فالقاعدة أن أسماء الهيئات تشى بطموح لا يتناسب مع الواقع: فالاسم ينم عن هدف أكثر منه عن هوية، وبمعنى قريب من هذا المعنى أقدم لمؤسسة ثقافية نيط بها حفظ أرشيف السلطات الإدارية العاملة داخل حدود المدينة، والتي ورثت التقاليد الأرشفية التي يمكن تتبع جذورها حتى القرن الثالث عشر.

وتعتبر باريس فريدة فى أرشيفاتها الممتلئة نقصا والمتناثرة مكانا، وهذا النقص فى المادة الوثائقية التي ورثتها لتغذى بها الأبحاث حول تاريخها، هى نفسها ثمرة هذا التاريخ: فهي تمثل بذاتها مادة للتاريخ وتسهم فى إلقاء الضوء على الخط الفاصل بين المدينة البسيطة والمتروبول. ولعل من المناسب فى هذا المقام أن نذكر بأربعة عناصر حاسمة فى مسار تاريخ باريس، كان لها أثر مباشر بشكل أو بآخر على مصير الأرشف بصفة خاصة:

(أ) وجدت باريس نفسها تلعب دور العاصمة فى فترة مبكرة جدا.

(ب) الدولة التي أسلمتها لهذا المصير غدت فى الوقت نفسه الاتجاه المركزى، والذي بالرغم من تغير نظام الحكم يبدو أنه أصبح ملازما لها ومستعصيا على التحول السريع نتيجة للاتجاه الحديث إلى اللامركزية .

(ج) استمر توسع باريس منذ القرن الثامن عشر دون انقطاع يذكر على كافة المستويات: الديموجرافية، والمكانية، والاقتصادية .

(د) منذ نفس الفترة تقريبا، أصبحت باريس هي مقر التعايش أو المجابهة للقوى: الحاكمة، والمحلية، والدينية، والتجارية، والفكرية، والقضائية .

ونحن نعلم أن باريس لم تتوقف يوما عن تبادل صورتين: صورة العاصمة الأنيقة التي تتنافس فيها مظاهر السلطة لكل الاتجاهات على إظهار العظمة والأبهة، وصورة العاصمة الثائرة التي يقوم شعبها على الحكومة فتزلزلها أو تسقطها، كل أزمة من لدن إتيين مارسيل Etienne Marcel وبلدية باريس la Commune (*)، مروراً بالرباط المقدس la Ligue، والفرونديست la Fronde (**)، والثورات، زاد من قوة نظام الحكم المركزي وأضعف من إمكانات تحوله إلى سلطة بلدية أفرغت شيئا فشيئا من محتواها، وقد أدى تلاحم إدارة الدولة مع الإدارة المحلية، والذي لم يكن دائما بدوافع الحفاظ على النظام، إلى إخراج باريس عن النظام المعتاد ومهدد لتقطيع أوصال أرشيفاتها.

ومن المعروف أن نواة بلدية باريس نشأت في القرن الثامن عشر على يد طائفة تجار الماء، التحالف التجاري في باريس، وقد تزعم رئيس التجار المجلس، وشكل في القرن التالي مع القضاة البلديين الأربعة وأعضاء المجلس الأربعة والعشرين مكتب المدينة الذي قام قلمه فيما بعد بتجميع أول أرشيف، وقد عانت هذه المتكاملة التي ترجع للعصور الوسطى من الاضطرابات التي كانت علامة على عصر شارل الرابع: إلغاء رابطة التجار سنة 1382، وسرقة مجلس المدينة، تجميع الوثائق التي نجت في خزانة الوثائق، وإعادة البلدية بشكل غير كامل، وسوف يتكرر هذا المشهد، كما سوف نرى .

ومنذ 1412 وحتى 1789 لم تعرف نقابة التجار ولا مكتب المدينة فترة استمرارية، وقد اعتبر قلم المدينة هو المستودع الأرشيفي، بمجموعاته المكونة من سجلات المداوولات، وسجلات الحسابات، أو الأحكام القضائية، والأملاك والأراضي، غير أنه كان أرشيفا للأعمال الإدارية أكثر منه أرشيفا للقرارات، غير أن السلطة الفعلية كانت قد توزعت

(*) بلدية باريس في 1789 والتي أصبحت فيما بعد حكومة ثورية.(المترجم)

(**) العصيان الذي اندلع ضد مازارين والملكة آن ملكة النمسا تحت وصاية لويس الرابع عشر.(المترجم)

بالفعل بين عدة مؤسسات ملكية فى مقدمتها برلمان باريس le Parlement de Paris، ومنذ القرن السادس عشر وما بعده الولاية وشاتليه Châtelet والقائمقامية العامة للشرطة، بيد أن هذا التلاحم بين الجهات المختلفة استتبعه بالقطع اعتماد كل منها على الآخر بشكل ما، فالأمور المالية للبلدية كانت هى المهيمن على تمكين الملكية من التعامل مع المال العام من خلال مجلس المدينة، غير أن تقسيم السلطة على هذا النحو لم يكن بحال من الأحوال فى مصلحة الإدارة المحلية، وقد أثر ذلك أيضا على أرشيفها بالسلب.

أما الفترة التالية، والتي كانت أقصر بكثير (بين 1789 و 1815)، فقد كانت فترة حاسمة، حيث أنها تميزت باتجاه قوى لتسخير بل وإلغاء السلطة البلدية ولأنها وضعتها فى كادر مؤسساتى دائم، وأيضا لأنها - وبعد أن كسرت تقليدا أرشيفيا قديما - تأخرت فى استبداله بمؤسسة جديدة.

ومنذ اتحاد الولايات العامة كان مكتب المدينة هو مقر مجلس ممثلى العامة فى باريس، وقد تركت هذه البلدية المؤقتة مكانها سنة 1790 إلى الكوميون الدستورى: وعلى رأسه العمدة و 16 من المديرين والذين يشكلون جميعا المكتب، وتشكّل كيان البلدية من هؤلاء منضمّا إليه 32 من أعضاء المجلس البلدى ومضافا إليهم 96 من الأعيان فيما يسمى بالمجلس العام للكوميون، وكانت باريس آنذاك مقسمة إلى 48 قسماً بكل منها 16 مفوضاً ومفوضية شرطة ورثوا بعض امتيازات المفوضين فى شاتليه، وبعد 10 أغسطس 1792 وسقوط الملكية ترك الكوميون الشرعى مكانه للكوميون الدستورى، المكون من مفوضى الأقسام الـ 48 لباريس، وقد تم حل هذا الكوميون الأعلى بعد ترميدور -Thermidor (*) وأسندت إدارة المدينة إلى إدارة الدولة، وكانت المفوضيات قد حلت محل الوزارات التى تدير كل شأن من الشئون الباريسية، وقد تم تحويل كل أربعة أقسام إلى لجنة ثورية، (حولها مرسوم صادران فى شهر فونتوز ventôse (**)) "الأقسام التى

(*) هو الشهر الحادى عشر من تقويم الثورة الفرنسية، ويعادل (19 يوليه - 18 أغسطس)، هذا الشهر بالذات عندما يأتى ذكره منفردا، كما هو الحال هنا، يقصد به التاسع من ترميدور السنة الثانية من تقويم الثورة الموافق 27 يوليو 1794 وهو يوم القبض على روبسبير Robespierre وإعدامه. (المترجم)

(**) الشهر السادس من تقويم الثورة الفرنسية، ويعادل (19 أو 21 فبراير - 19 أو 21 مارس). (المترجم)

من العام الثالث من تقويم الثورة الفرنسية" إلى مجرد مكاتب دولة مدنية) قبل أن يحولها قانون 19 فونتوز العام 4 إلى دوائر قضائية، ويكمل الجهاز على المستوى البلدى وكيل قومي، نائب كوميون سابق، ومكتب مركزي مسئول عن الشرطة والتموين، ولم يبق بذلك إلا أن تقوم القنصلية بتحويل الواقع الكوميوني إلى كيان له حدود أسمى منذ العام الرابع من تقويم الثورة؛ إدارة السين: وقد كان ذلك بموجب قانون 28 بلوفيزو pluviôse في العام الثامن، وقد وضعت المدينة والإدارة كاستثناء من القاعدة العامة، تحت إدارة مزدوجة لوال ومدير شرطة كخلف للمكتب المركزي.

ماذا يهمنا إذن على المستوى الأرشييفي من هذا الخضم المؤسساتي؟ هناك على وجه الخصوص تلك القطيعة القضائية التي ميزت تحول مكتب المدينة إلى بلدية مؤقتة، وهي قطيعة تلت فترة توقف وظيفي طويلة تمتد من إلغاء الكوميون سنة 1794 وحتى تأسيس ولاية السين في مجلس المدينة سنة 1800، هناك فترات عديدة إذن كانت الأوراق فيها بلا صاحب ولا وريث: ومصيرها كان بشكل عام في يد القدر، وإن لم يقع لها حادث جلل.

لم يستثنِ العداء المستحكم للوثائق الخاصة بالنظام القديم، والذي عادة ما ترمى به على حق الثورة الفرنسية، الأرشييف البلدى للنظام القديم في باريس. غير أن وظيفة كاتب المحكمة اختفت من مكتب المدينة، وكذلك منصب أرشييفي الكوميون التي وجدنا دلائل عليها من سنة 1791 وحتى العام الثالث من تقويم الثورة، لم يكن إلا منصبا اسميا، وكان علينا أن ننتظر حتى العام السادس حتى يتولى مكتب إصدار الوثائق مسئولية حصر وتصنيف الوثائق القديمة التي كانت ما تزال في مجلس المدينة. فلم يكن هناك سنة 1798 إلا بلديات الدوائر القضائية، وانعدمت المكاتب المركزية للأرشييف من الوجود. وكان المكتب يعمل تحت سلطة أرشييفي الجمهورية، كامو Camus، وفي الإطار القانوني لقانون 7 ميسيدور messidor من العام الثاني الذي نص على تقسيم الوثائق التي يمكن أن تخدم التاريخ بين المكتبة الوطنية ومختلف أقسام الأرشييف القومي (الحكومي، القضائي،... إلخ)، وقد بذل أعضاء مكتب إصدار الوثائق كل ما في وسعهم حتى بعد إلغاء تلك الهيئة سنة 1801 في الأرشييفات الباريسية ومادتها الثرية التي أخذت طريقها في سنة 1808 إلى قصر سوبيز Soubise⁽¹⁾.

وليس لنا بلا شك أن نتزيد في الإرجاع لأسباب أيديولوجية بالنسبة لعمليات الضم التي جرت إلى الأرشييف القومي لأوراق مكتب المدينة، وولاية باريس والدائرة

المالية لها، والجامعة والكليات، والمطرانية، والمجالس الكهنوتية، والخورنيات(*)، والمدارس الإكليريكية، والأوامر، والجمعيات والهيئات الدينية، شاتليه باريس Châtelet de Paris وقضاء إيل دو فرانس Ile-de-France هو الضرائب العينية والمالية ومحكمة الترسانة، والمحكمة الأسقفية لباريس ولكل الأرشيات الحكومية في المدينة^(٢). ولم يكن انتزاع تلك الوثائق التي حرمت المدينة من ذاكرتها في عهد النظام القديم محض انتقام من البولة تجاه باريس، بل تميز بنزعة محافظة، حيث أنها حفظت هذا الماضي من وجهين: فبدون وضع تلك الوثائق في أيدي أفضل المتعلمين آنذاك، لم تكن تلك الوثائق لتنجو من حرائق 1871، كما أن الحديث عن مصادرة الوثائق يعنى الجهل بأن عدداً من المؤسسات الباريسية الخاصة بالنظام القديم بدءاً من البرلمان ، كانت تتخطى سلطاتها النطاق المساحي الضيق لتمتد للأمة ككل بوثائقها المختلفة^(٣).

وفي هذه الظروف ظهر قانون 5 برونير brunaire من العام الخامس من تقويم الثورة الذي يقضى بتجميع الوثائق والسجلات الخاصة بمستودعات الدولة في قسبة كل إقليم، وهو القانون الذي أسس للخدمات الأرشفية الإدارية والذي يستعد الأرشفيون الفرنسيون للاحتفال بمئويته الثانية. هذا القانون لم يكن ليدخل حيز التنفيذ في باريس إلا بوجود بقايا وثنائية متأخرة وقليلة الغناء. وكان لنا أن نقنع أيضاً بتفرد آخر؛ فقد نشأت شبكتان للأرشفيات بعد ترميدور اعتماداً على ما أخذ من المحليات القضائية التي كان بحوزتها أرشفيات الإدارات القديمة للأحياء والأقسام، والتي كانت تحتفظ بالوثائق المدنية للدولة: أولها فعله مكتب أرشيف ملحق بالمكتب القومي للإدارة منذ العام الرابع وكان يحتفظ بوثائق الملكية، والثاني هيئة أرشيف المكتب المركزي لكانتون باريس ، وبعد صدور قانون بلوفيزوز في العام الثامن أصبح مدير تلك الهيئة هو الأرشفى الأول لمفوضية الشرطة^(٤). أما بالنسبة لولاية السين فقد ألحقت اثنين من "حفظة الأرشف" gardes des archives بالمكتب التابع لقسم الأملاك الوطنية ويتبعان السكرتير العام ، يتولى أحدهما أرشيف القسم والآخر الإدارة المدنية لباريس. وقد صاحب اجتماع الخدمتين في مجلس المدينة عام 1805 عمليات فرز مدمرة نسبياً في الأرشفات الثورية في باريس السين.

(*) جمع خورنية وهي القرية التي يخدمها كاهن. (المترجم)

وقد تحمل أرشيف السين ضريبة فادحة فى المرحلة الثورية والإمبراطورية تمثلت فى تقطيع أوصاله وتفريقه (فمصلحة الأرشيف القومى) وتقسيمه (ولایتان، و 12 دائرة قضائية) واضطرابه (بلدة/قسم) ، ولم تغير الأحداث التى مر بها بين عامى 1815 و 1871 من مصيره. فبعد تجميعه فى هيئة واحدة سنة 1839 على مستوى المكتب، تم تقسيمه داخليا إلى أقسام ثلاثة: الأرشيف الإدارى، والدولة المدنية، وسجلات أملاك السين ومدينة باريس ، وقد تعاقب على رأس الأرشيف موظفون خلو من المؤهلات العلمية، ولم يأبه الحاكم بقرار 1850 الملزم بتفضيل الأرشيفيين الباليوجرافيين، وقد كان تحت إدارتهم مجموعات من أروعها السلسلة الكاملة لسجلات الخورنيات منذ 1525 وأرشيفات الشركات القديمة، ويضاف إليها اعتبارا من 1860 أرشيفات البلدان التابعة وسجلات الحالة الاجتماعية فى الدوائر القضائية الاثنى عشر والواقعة فى زمام ملتزمى الضرائب، وفى نفس الحقبة انتقلت هيئة الأرشيف إلى طريق فيكتوريا avenue Victoria فى ملحق بمجلس المدينة، وخصص لها ملحق فى طريق مورلان Boulevard Morland، وفى الرابع والعشرين من مايو سنة 1871 وفى قلب الأسبوع الدامى شب حريق فى مبنى طريق فيكتوريا أتى على أرشيف باريس.

وكان بعث الأرشيف على يد جوستاف سان جوني Gustave Saint-Joanny الأرشيفى بالسين من 1868 وحتى 1889، وتجسد هذا الإحياء فى مجهود جبار فى التجهيز وفى العمل التوثيقى، لم يسبق لهما مثيل، فشيد مبنى مخصوصا لحفظ ومعالجة المادة الأرشيفية والاطلاع عليها ليضم أرشيف البلدة وأرشيف الإدارة، وكان ذلك بين عامى 1876 و 1878 فى موقع ستنضم إليه فيما بعد هيئات من الولاية، ومن جهة أخرى وضع قانون وقرار صدرا سنة 1872 الأساس القانونى لإعادة تنظيم الأحوال المدنية و مناقشات المجلس البلدى لباريس والمجلس العام للسين: واستطاع فريق عمل بعد عشرين سنة أن يكرس نفسه لهذا العمل الضخم، مما أدى إلى النجاح فى إعادة تأهيل حوالى 2.666.000 وثيقة.

وقد كانت هناك بالفعل حاجة لبذل جهود إصلاحية جبارة تستطيع أن ترأب الصدعات بفاعلية. بيد أن توجهات تلك الجهود كانت استخدامية أكثر منها تراثية، وإدارية أكثر منها تاريخية: وهكذا فلم يتطور التعامل مع وثائق الحالة الاجتماعية بالفعل فى القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى بدأ فيها عدم الاعتداد قانونا بأى تصرف قانونى غير موثق، أما بالنسبة للمبنى فقد أخذ فى الاعتبار توفير مساحات لاستقبال المادة الأرشيفية الخاصة بالولاية فى المستقبل، بيد أن تلك المساحات كانت متواضعة ،

حتى أن سان جوني طالب بإجراء توسعات منذ 1889 ، ولم ير هو ولا خليفته المباشر (ولم يكونا من الوثائقيين بالرغم من أن بعض الأرشيفيين الباليوجرافيين عملوا تحت إدارتهما) هذا الأمل يتحقق حيث أن أرشيف باريس استمر في هذا الموقع حتى 1989 . وقد اجتمع للأرشيف ضعف الاعتراف العلمي بنهاية الإمبراطورية الثانية، مع كارثة 1871 ففقدت المؤسسة ولمدة طويلة كل تقدير أو اعتراف. واستمر الأرشيف في هذا الوضع الدوني بانعقاد اللواء للمكتبة التاريخية الملحقه بمتحف كارنفاليه Carnvalet، والتي بالرغم من تضررها الشديد سنة 1871، ظلت إدارة خدمات الأعمال التاريخية منوطة بها، وأضاف سوء موقعه عقوبة أخرى للأرشيف فترك الساحة تماما للمكتبة الإدارية التي امتازت عنه بتأسيسها في قلب مجلس المدينة والتي أصبحت هي الأمين على ذاكرة ولاية السين، وملفات اللجان البلدية العديدة والمهندسين الذين شيّدوا أهم المباني العامة في المدينة^(٥).

وقد أدى تشبع أماكن التخزين في أرشيف باريس إلى تهميش دوره عندما زاد قلق الرأي العام على مصير أرشيفات الوثائق عشية الحرب العالمية الأولى. وقد وضع قانون 14 مارس 1938 حدا للجدل العام بالتوصية بإيداع السجلات التي مر عليها أكثر من ١٢٥ سنة في أرشيفات الإدارات Archives départementales ، واستثنى منها الدراسات الخاصة بإدارة السين حيث تودع الأرشيف القومي، في إدارة أنشأت حديثا هي إدارة السجلات المركزية. ولا نستطيع أن ننسى في هذا المقام الرجل الذي كان وراء صدور هذا القانون وهو إرنست كويسك Ernest Coyecque المدير الأسبق لمكتب مكاتب ولاية السين والمدير الأسبق للمكتبة الإدارية لباريس (1913 - 24)، والذي بدأ حياته العملية كأرشيفي بالباليوجرافى في أرشيف السين تحت إدارة سان جوني.

قد زاد الأرشيف القومي من أهميته بعد أن قرر بعيد الحرب العالمية الثانية أن يستقبل أرشيف مكتبة رئاسة الجامعة وأرشيف جامعة باريس، بدعوى أن الأخير هو وريث الجامعة النابليونية والأول يحتفظ بوثائق إدارتها ، ويأتى قرار تشييب المؤسسة بدون مراعاة اعتبارات مثل المحدودية النسبية للدائرة الأكاديمية وبدون الرجوع لوالى السين، في إطار ما اعتاد عليه مكتب تسجيل العقود الذى سلك نفس المسلك مع برلمان باريس^(٦) ، إنه استمرار النظر لباريس على اعتبار أنها تمثل فرنسا كلها!

بعد مرور قرنين على نشأته من الناحية النظرية وبعد 25 سنة من حريق 1871 ، أين كان أرشيف باريس ؟

لقد تغير السياق السياسى- الإدارى الذى تطور فيه الأرشييف بفعل إصلاحات أربعة : إنشاء مقاطعة منطقة باريس (1961) ، وإلغاء إدارة لاسين (1964) ، وإعادة عمودية باريس (1977) ، واللامركزية (1986) . وقد نشأ عن الإجراء الثانى إدارات أربعة فى باريس شكلت ثلاثة منها ما أطلق عليه التاج الصغير ، وقد أجبر هذا الإجراء الثانى أرشييف السين على الانضواء تحت لواء أرشييف باريس ليصبح اسمه أرشييف باريس وإدارة السين القديمة Archives de Paris et de l'ancien département de la Seine ، غير أن هذه التسمية صارت شيئاً فشيئاً غير دالة بضمها إلى هيئة الأرشييف التى تمتلك إداراتها الجديدة وثائق من كل نوع تتعلق بالنطاق المكانى الخاص بها وأفرزتها هيئات تقع فى دائرتها ، وقد قلب الإجراءان التاليان موازين القوى فى العاصمة رأساً على عقب ، لمصلحة العمدة - الرئيس للمجلس العام وضد والى باريس : وكان الرهان فى أكثر تلك التغييرات تواضعاً على أن يقوم أرشييف باريس ، الذى كان ملحقاً منذ عشر سنوات بمكتب الأخير بتقديم خدمات ثقافية تحت سلطة الأول ، وبالنسبة للإجراء الإصلاحى الأسبق تاريخياً ، فبالرغم من أنه وسع النطاق الجغرافى لباريس بشكل كبير، فإنه كانت له آثار سلبية على الأرشييف : فقد كان يجب الانتظار، عملياً، تحول إيل دو فرانس إلى مجموعة إقليمية (1982) وليس تحولها من مقاطعة إلى إقليم (1972) ، ليظهر مفهوم الأرشييف الإقليمى وليتحمل أرشييف باريس بشكل فعلى مسئوليتها .

ولم يشهد مجال التراث مثل هذه التقلبات الشديدة . وما زالت الميول التى منعت أرشييف باريس منذ البداية من تأكيد مجرد الحلم بتوحيد الأرشييفات ضاربة بجذورها فى بنية الأرشييف ، وبالرغم من عدم وجود أى تشريع يؤدى لهذه الحالة إلا أنها أصبحت واقعا محتوماً، ولربما استطعنا فقط تنظيم استقلالية أرشييف إدارة الشرطة وأيضاً مستشفيات باريس (إدارة المساعدة العامة) ، وتنضم إليها مؤسسات باريسية هامة كغرفة التجارة والصناعة ومصلحة النقل المستقلة (وهى مشروع عام). هذا الشتات الوثائقى لا يسعد بالطبع الباحث، حتى وإن كان من أشد المتحمسين للمركزية الجمهورية، عندما يتعلق الأمر بظروف عمله كباحث ، وهو وضع يعكس امتداد الآلة المدنية، غير أنه من غير المتوقع أن يقلص هذا الشتات ولا أن يزداد، طالما أنه لا يرفع من التكلفة المالية فى قطاع من الصرف العام لا تقدم فيه المركزية وفراً يذكر.

وقد انقطع السياق المادى مؤخرا عن عادة التقتير التى تطفئ جذوة نشاط أشد المتحمسين ، فبعد الاقتصار طويلا على استثمارات هزيلة ومتفرقة لتغطية النقص الفادح فى ميدان مينار هنرى الرابع، سكن أرشيف باريس منذ أواخر الثمانينات ساحة عقارية تفى باحتياجاته فى المدى القصير ، وتتكون من مبنى رئيسى فى باريس يسع 25 كم طولى من الأرفف (متوقع أن يصل إلى 40 بنهاية القرن العشرين) ويحتوى على قاعة اطلاق تسع 60 فردا وملحق فى أحد الضواحي يضم ثلثى المجموعات (54 كم طولى)، وقد وفر تحديث التجهيزات إلى التمكن من تقديم خدمة على مستوى مرتفع فى كل المجالات الاستراتيجية: الجمع، واستقبال الجمهور، والنشر، والمعارض، كما أنه أظهر أيضا الإمكانيات الكامنة لمؤسسة فرض عليها حظها العاثر دائما سياجا من الوحدة والعزلة.

وبعد أن عانت قرنا طويلا (1861 - 1970) من الضيق، وحتى لو استثنينا بعض المجموعات الوثائقية الأقدم التى نجت من التبيد والدمار (إعانة الأطفال، واستشارات قضائية، وتسجيلات) تنتظر المتكاملات الأرشفية فى باريس الآن التمام شملها، وتوفر تلك المجموعات معلومات تاريخية هائلة عن موضوعين - فقط - ولكنهما أساسيين فى مجموعتهما: السكان، والعمران، فالباريسى (أى باريسى باستثناءات قليلة) متواجد على الأقل فى سجل، أو ملف، أو بطاقة، سواء كان ذلك فى شكل كيان إدارى كان عضوا فيه (المواطن، الناخب، المكلف، المتقاضى، المساعد... إلخ، دون أن ننسى الموظف) أو من خلال مروره بمجالات الحياة الاجتماعية المختلفة (الأسرة، المدرسة، الجيش، المكتب، أو المؤسسة)، ولا تقل البيانات العقارية أهمية عن تلك البيانات الشخصية: فهناك بيانات عن الحركة العمرانية، والمنشآت المعمارية، والعمامة، والرخاء ثم الأزمة فى المساكن، والانفجار فى المباني الإدارية، وتطور المساكن ومعمارها، فى كل تلك المجالات للباحث أن يطمئن على الحصول على مادة ثرية من أرشيف باريس.

وقد أثبت الأرشيف، بعد اغتياله مرتين (1789، 1871) أنه حى خالد، لأنه استطاع أن يمسك بتلابيب مصادر العظمة فى المتروبول الباريسى بامتلاكه عصارة التركيز السكانى والعمارة الأقوى من أن تهددها المدنية الحديثة أو تدخلها فى زمرة النماذج المتحفية، وينطق أرشيف باريس فى مجموعه بحيوية المدينة التى زعمت السلطة العليا دوما أنها مسيطرة عليها، فاستطاع على الأقل أن يستعيد حريره فى التعبير عن نفسه.

الهوامش

(١) وبشكل أقل إلى المكتبة الوطنية ومكتبة الترسانة Arsenal حيث ما يزال أرشيف الباستيل Bastille محفوظا هناك.

(٢) توجد أرشيفات هذه المجموعات أساسا فى سلاسل H, K, L et LL, M et MM, S, X et S, A ويجب ملاحظة أن السلطات القضائية الملغاة استمرت بعد 1800 فى إيل دو لا سيتيه Île de la Cité وهى تلقى معاملة مختلفة: فقد أودع أرشيف برلمان باريس فى الأرشيف القومى تحت مسمى ملكية يوليو-Monar-chie de juillet، بينما انتظرت أرشيفات التشريعات التجارية الجمهورية الثالثة لتسكن أرشيف السين، ومن أمثلة المجموعات التى احتفظ بها طويلا هناك سجلات ملجأ اللقطاء والتى ترجع إلى القرن السابع عشر، وقد احتفظت به الإدارة المختصة حتى منتصف هذا القرن.

(٣) انظر فى هذا الصدد تقرير ألفريد لامورو Alfred Lamouroux إلى المجلس العام للسين حول أوضاع الأرشيف (Paris, 1893) 71-72 حيث يشكل المصدر الأساسى لهذه الورقة.

(٤) احتوت تلك الهيئة على وثائق من فترتى النظام القديم والثورة نجت من حريق 1871، ويسرد لامورو فى تقريره سالف الذكر نسخ السجلات، والرايات وسجلات الوثائق الرسمية للدولة فى شاتليه، ودفاتر أحوال سجون باريس الرئيسية منذ 1564 وحتى 1799 (كونسييرجورى Conciergerie، شاتليه Châtelet، تورنيل Tournell، لا فورس la Force، بيسيتير Bicêtre، سان لازار Saint-Lazar، لو تومبل le Temple، إلخ)، وخطابات خبيثة القرن الثامن عشر ووثائق قضائية (سجلات أحكام جنائية (1725-1789)، سجلات محاكمة (1790-1794)، أحكام، وأوامر توقيف، ونقل وبراءة (1789-1797).

(٥) انظر Le catalogue des manuscrits de la Bibliothèque administrative de la ville de Paris (no 1 à 1253) par Pierre Casselle (Paris, 1988).

(٦) نفس السيناريو تكرر فى أواخر ستينات القرن العشرين مع الأرشيف القضائى الباريسى باستثناء فترة فيشى والتحرير (tribunal d'Etat, cour de justice et cambres civiques).

الفصل الثانى

أرشيفات غير حكومية

أرشيف الأعمال : المارد النائم لتاريخ المدن الكبرى

إدوين جرين

لطالما اقترنت الأعمال فى تاريخ التجارة بالمدن الكبرى اقترانا بلغ حد الترادف فى المعنى ، وفى المملكة المتحدة بالذات تدل كلمة « المدينة » على « الأعمال » كما أن تعبيرات مثل « أخبار المدينة » أو « الانخراط فى المدينة » تدل أكثر على عالم الأعمال بشكل عام وليس فقط على أسواق مدينة لندن .

وبالمثل فإن كلا من تاريخ المدن الكبرى وأرشيفات الأعمال بهذه المدن لها - أو يجب أن يكون لها - تلك الوشائج القوية التى تربط بين الأخلاء ، وهذا لا ينفى أهمية الأعمال فى الريف والأقاليم، ولكنها المدينة - وبالذات المدينة الميناء - هى التى قادت التاريخ الوثائقى للتجارة والصناعة ، وتشير هذه الورقة القصيرة إلى بعض المواضع فى تلك العلاقة ، والتى يمكن للمؤرخ أن يظفر فيها بموضوعات هامة . وتناقش الورقة أيضا احتياج حفظة أرشيفات الأعمال التجارية إلى دعم المؤرخين كمستخدمين وكأصحاب رسالة الحفاظ على قيمة هذه المصادر .

فما الذى أوجب لأرشيف الأعمال التجارية وصف « المارد النائم » ؟ لقد استخدم تعبير « أرشيف الأعمال » فى هذه الورقة على، أولا : المجموعات التى تمتلكها وتديرها شركات ومؤسسات خاصة أخرى ، وثانيا : المجموعات التى أودعت فى الأرشيفات العامة على المستوى القومى أو الأقليمى أو المحلى ، وفى الحالتين لا نشك فى ضخامة حجم تلك المجموعات ، فعلى سبيل المثال يحتفظ « بنك أوف إنجلاند Bank of England » والـ « بى بى سى BBC » بمجموعات يبلغ طولها لدى كل منهما حوالى 7000 متر ، بينما يبلغ طول ما بحوزة « يونيليفر ولكم Unilever Wellcome »

2000 متر لكل منهما ، وفي المستودعات العامة تضم مكتبة « جيلدهال » Guildhall Library مجموعة للأعمال يبلغ مجموع أطوالها 5500 متر حسب تقدير «ستيفن فريث Stephen Freeth»^(١) .

وتتميز العديد من هذه الكيانات الضخمة بالعراقة ، وترجع أقدم المجموعات الأرشفية غير المنقطعة لشركات الأعمال في المملكة المتحدة إلى أخريات القرن السابع عشر ، ونخص بالذكر مجموعات « كوتس بنك Coutts Bank » (1695) و « بنك أوف إنجلاند Bank of England » (1694) و « بنك أوف سكوتلاند Bank of Scotland » (1695) وشركة هاند إن هاند للتأمين (1696) Hand - in - Hand Insurance Company ، ومعظم محتويات تلك المجموعات تحمل الطابع المتروبولي ، في حين تقتصر مجموعة « هاند إن هاند » على هذا الطابع ..

وقد وصفت مجموعات الأعمال هنا بأنها مارد "نائم" إشارة إلى أن المؤرخين لم يقلقوها إلا قليلاً، ولا يرجع السبب في ذلك إلى قلة جهد القائمين على حفظ تلك المجموعات ، فقد قامت بعض قطاعات المجتمع الأرشفية بجهد وافر خلال العشرين سنة الماضية في الإعلام بمحتويات مجموعاتهم وتسهيل اطلاع الباحثين عليها ، فقدم السجل الوطني للأرشف (NRA) 25789 National Register of Archives مدخلا في شبكته لفهارس الأعمال، والمحملة على الكمبيوتر^(٢) ، كما نشر السجل الوطني أيضا أدلة لوثائق صناعات النسيج والصناعات الهندسية ، كما تقوم مكتبة جيلدهال Guildhall Library « والمسئولة عن مجموعة ربما تكون الأكبر لوثائق الأعمال التجارية في أوروبا » بنشر أدلة لمقتنياتها إلى جانب ما تضعه من استثمارات ضخمة في وسائل إتاحتها ، وقد نشط مجلس أرشيفات الأعمال التجارية Business Archives Council في القطاعين الخاص والتطوعي في مسح ووثائق صناعات بعينها - بالذات البنوك ، البيرة ، بناء السفن، الحسابات، و(حاليا) الصيدلة ، وقد تشارك عدد كبير من المداخل في كل من أكبر الدراسات المسحية للمجلس والخاص بتغطية أقدم الشركات المحدودة في إنجلترا وويلز مع تلك المشابهة والمتعلقة بالمدن الكبرى في المملكة المتحدة ، ومن بين الشركات التي ذكرها المسح والبالغ عددها 674 شركة نجد أن نصف هذا العدد قد أفرز ووثائق لها علاقة بلندن، و 83 منها متعلقة بليفربول، و 77

بمانشستر و 57 ببرمنجهام^(٢) ، وقد ساهمت كل تلك الأعمال المسحية سواء أكانت على مجموعات عامة أو خاصة بشكل مباشر فى تيسير الوصول إلى أرشيفات الأعمال بشكل أكبر؛ فقد قدمت كشفا جديدا وشجعت أصحاب الأعمال على إتاحة وثائقهم لجمهور أوسع .

ولا يرى حفظة تلك الوثائق - بالتأكيد - فى مجموعاتهم ماردا نائما ، فمعظم القائمين على أعمال الحفظ ينشطون فى حماس لوثائقهم مندفعين فى تنافس خلاق للوصول إلى مستخدمين جدد ، بيد أن هذا المارد النائم قليلا ما يقلق نومه المؤرخون الذين يمكن أو يجب عليهم أن يجدوا فى أرشيفات الأعمال قيمة كبيرة ، وإنها لصعوبة مستمرة لأرشيفات الأعمال التجارية : مثل من يقيم حفلا .. ولسوء حظه .. لا يصل أهم مدعويه .

وقد قمت أنا و مايكل موس Michael Moss الأرشيفى بجامعة جلاسجو Glasgow University بدراسة مؤخرا حول استخدام مجموعات الأعمال المحفوظة فى المستودعات العامة^(٤) . ولم يساورنا أى شك خلال الربع قرن الماضى حول قيمة واتساع استخدامية أرشيفات الأعمال التجارية ، إلا أن قلقنا أخذ يزداد إزاء اللامبالاة ، بل والعداء الذى تواجه به تلك المجموعات من قبل العديد من المؤرخين، بل والأرشيفيين أيضا. إن دراستنا لا تدعى أنها دراسة علمية ولكنها تقدم إشارة إلى أسباب عدم تناول المؤرخين لهذه المجموعات الضخمة .

وقد اتفق الأرشيفيون الذين استشرناهم على انخفاض استخدام مجموعات الأعمال التجارية بشكل مخيب للآمال^(٥) وقد ذكر « أرشيف أكسفوردشاير Oxfordshire Archives » الذى يحتفظ بأرشيفات « موريس موتورز Moris Motors » و«شركة إيرلى لمفروشات بوتنى "Early's Blanket Company of Witney" فى عام 1994 أن أقل من خمسة بالمئة من باحثينا استخدموا وثائق الأعمال التجارية على أى مستوى من التفصيل، وكثير من هؤلاء هم من مؤرخى تواريخ العائلات أو طلبة جامعيين". وقد أيد هذه النسبة أيضا كل من « مكتب سجلات مقاطعة مانشستر الكبرى Greater Manchester County Record Office » و « هيئة أرشيف غرب يوركشاير West Yorkshire Archive Service » والاثنتان يحتفظان بمجموعات هامة من وثائق الأعمال التجارية.

واكتشفت مكتبة جيلدهال - التى تحتفظ بأضخم وأهم وثائق الأعمال فى العالم - على ضوء دراسة أجرتها فى مايو 1993 أن تسعة بالمئة من المستخدمين كانوا يدرسون تاريخ الأعمال التجارية، مقارنة بـ 63.5 بالمئة يدرسون تاريخ الأسر ، وبالرغم من أن عدداً قليلاً من مؤرخى الأسر أحياناً ما تتطرق دراستهم لبعض نوعيات وثائق الأعمال - سجلات التدريب وسجلات الأجور - فإن معظم المستخدمين يبدو أنهم كانوا يبحثون عن معلومات عن منتج أو خدمة ما جذبت انتباههم ، وتتراوح الموضوعات من جمع ماركات علب البيرة، والبحث عن صور مراكب وقاطرات ، ودراسة موقع صناعى محلى، وتحديد هوية أو إصلاح منتج ، إلى إعادة إنتاج منتج معين أو رسم هندسى . وكثير من النتائج التى تنشر عن هذه الدراسات شديدة التخصص، يقوم عليها أكاديميون، ليسوا من المؤرخين بالضرورة ، يعملون فى الجامعات ومعاهد التعليم العالى. ويمكن لأرشيف الأعمال التجارية أن يدعم هؤلاء أكثر من غيرهم. وينطبق هذا على وجه الخصوص فى الدراسات المتعلقة بالمراكب والقاطرات والعربات ، حيث يشيع الاحتفاظ بالوثائق لمدة طويلة نظراً لاحتياجها لقطع غيار باستمرار . وقد دفع الاهتمام العام الأرشيفيين وأمناء المتاحف فى تلك المجالات لإنقاذ مجموعات عريضة، مثل وثائق « أبر كلايد شيببيلدرز - Upper Clyde Shipbuilders » فى كل من « مركز وثائق الأعمال فى جلاسجو Business Records Centre at Glasgow » و « أرشيف ستارثكلويد الإقليمى Strathclyde Regional Archives » .

ويقرر الأرشيفيون أن هذا الجمهور من المستخدمين هو أكثرهم حيوية وطلباً ، فقد كان 50 ٪ من القراء فى مركز وثائق الأعمال فى جامعة جلاسجو Business Records Centre at Glasgow University فى الأشهر الستة الأولى من عام 1994 يندرجون تحت هذا التصنيف ، بينما يذكر فرع ابسويتش لمكتب سجلات سافولك Ipswich branch of the Suffolk Record Office والذى يحتضن أرشيف جارتس ليستون Garretts of Leiston .

تركز استخدام الوثائق - أو على الأقل طلبات الاطلاع التى تلقاها المكتب - بشكل أساسى على المنتجات مثل محركات قاطرات الجر البخارية، أوناش أو قاطرات السكك الحديدية، مع اهتمام عام بالخصائص التقنية لماكينة معينة .

ولهذه الفئة من المستخدمين صفة مميزة أخرى - ذات طبيعة دولية - بما يعكس اختراق شركات الهندسة البريطانية للسوق في القرن التاسع عشر ، وينطبق نفس الأمر على « مركز التاريخ الريفي بجامعة ريدينج Rural History Centre at the University of Reading. » ، والتي تمتلك مجموعات ضخمة من الوثائق الفنية المتعلقة بالماكينات والأدوات الزراعية.

ولكن ماذا عن المستخدمين الأكاديميين، الذين يفوقهم الهواة عدداً؟ لقد أوضحت دراستنا أن هناك إجماع على أن القراء أياً كانت خلفياتهم يهملون المجموعات المالية الأساسية التي كانت تستخدم في ضبط وإدارة أى مشروع ، وقد علّق «أرشيفاتين ووير Tyne and Wear Archives» بالقول : " على الرغم من الأهمية التي نوليها للوثائق المالية الرئيسية إلا أن قراءنا على وجه العموم نادراً ما يظهرون اهتماماً بها« ، إن الأمر مرده إلى نقص الاهتمام بالوثائق المالية أكثر مما قد يبدو من تعقيد شرحها. لقد تركزت أبحاث تاريخ الأعمال خلال الأربعين سنة الماضية، كما وصفها بجلاء ألفريد شندرل Alfred Chandler على المنظمات التي تدار بشكل مركزي تتحكم فيه إدارة هرمية قوية^(٦) ، وقد اتبع نفس النهج مؤرخون في المملكة المتحدة مثل ليزلى حنا Leslie Hannah في محاولة لتفسير تحول الصناعة البريطانية (من هياكل متفرقة صغيرة في أغلبها، متنافسة، إلى هيكل مركزي تحكمه شركات كبيرة، عادة ما تكون احتكارية)^(٧) وطبيعي أن يكون محور اهتمام مثل تلك الموضوعات يدور حول ما يرد بساحضر الاجتماعات والأوراق والنماذج المستخدمة في ضبط العمل بتلك الإدارات الكبيرة .

وتتعدد أسباب انخفاض معدلات الاستخدام وتتعدد ، وبالرغم من كل ما بذله أرشيفيو هذا القطاع من جهود تحاول استشراف المستقبل، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى الصيغة السحرية التي تمكّن من إبعاد التخوف من كون هذه المجموعات غير متاحة، أو على الأقل يصعب إن لم يستحل فهمها ، ومن وجهة نظر المؤرخين، فهناك نقص حاد في فرص البحث وتمويله حيث تحتاج تلك الأبحاث إلى زيارات مكثفة إلى الأرشيفات المعنية.

ويترتب على انخفاض معدل الاستخدام - أياً كانت أسبابه - نتائج شديدة الخطر ؛ فقد يحجم الأرشيفيون في القطاعين العام والخاص عن قبول مجموعات

أعمال جديدة، بعد فحص سجلات الطلبات والمتريدين ، وطبيعى أن يؤدى ذلك بدوره إلى سحب عروض الإيداع، وبالتالي بتر المجموعات أو ضياعها ضياعا تاما ، فضخامة حجم مجموعات الأعمال، وارتفاع تكلفة النقل والتخزين، وضخامة الاستثمارات المطلوبة لحصرها، كلها عوامل تساعد فى صرف سياسات الجمع عن أرشيفات الأعمال .

وفى الظروف الحالية لا يتوقف الخطر عند المجموعات الجديدة ، فانخفاض معدلات الاستخدام يعنى ازدياد ميل الأرشيفيين لحجب أو حتى التخلص من السلاسل قليلة الاستخدام ، وهناك أمثلة فى القطاع العام لمستودعات تحاول إعادة المجموعات إلى ملاكها أو واهبيها الأصليين ، وقد ركّز مؤتمر عقد مؤخرا فى مينيسوتا Minnesota فى الولايات المتحدة حول أرشيفات الأعمال على الامتناع عن استقبال بعض أنواع وثائق الأعمال – ليس كتهديد ولكن كإجراء عملى يتم ترسيخه بهدف استبعاد الوثائق قليلة الاستخدام^(٨) .

وعندما يراجع الأرشيفيون السياسات التى يتبعونها مع المجموعات الموجودة بالفعل، والإضافات المحتملة، سيؤخذ انخفاض معدل الاستخدام كعامل فى تقرير الكم المراد الاحتفاظ به من الوثائق ، إلا أنهم سيتأثرون أيضا بنوعية الوثائق التى يجب أن يكون لها الأولوية فى كل مجموعة ، وهنا سيكون لبعض نوعيات مستخدمى أرشيفات الأعمال تأثير أكبر من الآخرين. وليس للمؤرخين أن يندهشوا، إن هم غابوا عن الأرشيف أو صمتوا، من أن تؤثر مجموعات أخرى أعلى صوتا، فى سياسات الاقتناء ، ومن الأهمية بمكان أن يؤثر أولئك الذين يُدرسون التاريخ فى الصورة أكثر مما يفعلون الآن ، فما لم يكن هؤلاء المؤرخون من مستخدمى مصادر الأعمال، فلن يشجّعوا تلاميذهم على اكتشاف المادة الأرشيفية فيها. وهو ما سيؤدى إلى استمرار انخفاض معدل الاستخدام لوقت أطول .

وبعد أن استعرضنا حجم أرشيفات الأعمال ودور المستخدمين تبقى النقطة الثالثة والأخيرة فى هذه الورقة وهى الفرص التى تقدمها تلك الأرشيفات لتاريخ المدن الكبرى ، ويمكننا أن نوضح تلك الفرص من خلال تجربتنا فى بنك ميدلاند Midland Bank حيث تقع علينا أيضا مسئولية أرشيف مجموعة إتش إس بى سى

HSBC Group^(٩) ، وتلك الأرشيفات لا تفتقر بالطبع إلى القراء ، فاستخدامية المجموعة عالية جدا، وكثيرا ما يقتبس منها، خاصة إذا ما قورنت بمعظم أرشيفات الأعمال الأخرى ، غير أنه خلال العشرين عاما الماضية، نادرا ما كان مؤرخو المدن الكبرى يترددون على أرشيفنا ، ومن الطريف أن الشخصيات التي قامت على جمع هذه المجموعة منذ 60 عاما (مؤرخى البنك ، ولفريد كريك و جون وادسورث Wilfrid Crick and John Wadsworth) كانوا على قناعة شديدة بأن الاستخدام الرئيسى لأرشيف البنك فى الأعوام التالية سيكون لدراسة الاقتصاد على المستويات المحلية والإقليمية والمتروبولية^(١٠) .

وقد وجد من استخدموا تلك المصادر فى التاريخ المحلى و المتروبولى تشابها بالذات فيما يتعلق بثروات الأعمال الصغيرة والمتوسطة فى البيئة المدنية ، ومثال ذلك عمل جويس بللامى Joyce Bellamy عن الاقتصاد والمجتمع فى ميناء هال Hull فى القرن التاسع عشر، وهو البحث الذى كان بحق سابقا لزمانه فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين^(١١) ، قى فترة متأخرة عن هذا العمل استخدمت لوسى نيوتن Lucy Newton المصادر البنكية لتحليل البنية والشبكات والنشاط المالى لصناعة الصلب فى شيفلد فى العصر الفيكتورى الوسيط – عندما كانت العناصر الصغيرة والمنشآت الخاصة هى التى تسيطر على ذلك العالم^(١٢) .

وربما يكون هذا الأسلوب فى تناول الموضوع ، مع بعض التغييرات، أفضل فرصة لمؤرخ المدن الكبرى فى أرشيفات الأعمال ، فقد اتبعت البنوك وشركات التأمين تلك العادة الحميدة فى الاحتفاظ بمعلومات مفصلة عن العملاء والعاملين وحملة الأسهم ، وينطبق ذلك على كل أنواع العملاء وليس فقط على الشركات والمؤسسات الكبرى ، وربما تكون المعلومات المتوفرة عن الأفراد والأعمال ذات الأحجام المتوسطة والصغيرة هى الآثار الوحيدة التى تركها هؤلاء على وجه الأرض. فعلى سبيل المثال، تشير قائمة بالقروض فى سیتی بنك City Bank تعود إلى ديسمبر 1861 إلى قروض تتراوح بين 100 جنيه إسترليني لتاجر كركم وتصل إلى 19.000 جنيه إسترليني لتاجر أخشاب فى لندن ، وتقدم القائمة أيضا تفاصيل التأمين والضمانات التى يقدمها العملاء مقابل القروض، وهو ما يوفر نافذة للمؤرخ على طبيعة أصول الثروات والممتلكات فى العاصمة ، وهناك قوائم نصف سنوية بالأرباح تغطى فترة تمتد إلى 40

سنة تصف كلها عالم الأعمال في المدينة الكبرى ، ذلك العالم الذي يظل - بدون تلك المعلومات - غامضا مفتقرا إلى التوثيق^(١٣) .

وتقدم وثائق الديون المدومة (ديون ألغاهو البنك لفشل العميل في تسديد قيمتها أو بعض قيمتها) في ميدلاند مثالا آخر على هذه الثروة من المعلومات ، فتشير وثائق أرباح فروع لندن في ديسمبر 1908 - على سبيل المثال - إلى وجود تنوع كبير بين العملاء وتنوع أيضا في المديونيات ، فتتراوح المديونيات من مبالغ صغيرة تصل إلى 26 إسترليني على خباز في فرع كالفام Calpham branch لتصل إلى 42.000 إسترليني على سمسار بورصة في شارع ثردنيدل Threadneedle Street ، وتتراوح نوعيات العملاء الذين تورطوا في ديون مدومة من محامين إلى تجار الهند الشرقية، ومن مصمم قبعات في سيرك أكسفورد إلى كاتب مسرحي في طريق شافتسبوري Shaftesbury Avenue^(١٤) ويمكننا تطبيق نفس أسلوب التحليل هذا على العديد من المدن الأخرى الواردة في مجموعتنا، ليس فقط في المملكة المتحدة، ولكن في مدن أخرى كان لمجموعة إتش إس بي سى نشاط فيها خلال ال 140 سنة الماضية - في هونج كونج وشانغهاى وفى المدن الشرقية من بومباي إلى طوكيو .

إن هذه الدراسة لا تدعى أن وثائق الأعمال تلك سوف توضح كل الحقائق حول هؤلاء العملاء ، ولكن مجموع هذه الوثائق يقدم بلا شك فرصة لمؤرخ المدينة الكبرى ، كما توضح أيضا أن أرشيفات الأعمال يمكن أن تظفر بالمنسى من الرجال والنساء والشركات والمؤسسات في مجتمع الأعمال ، وهناك فرصا مماثلة في المجموعات الباقية من أرشيفات الأعمال، ولكن الفرصة أكبر في أرشيفات البنوك والمؤسسات المالية الأخرى.

وقد حسنت التطورات التي شهدتها تكنولوجيا المعلومات من فرص الباحثين الراغبين في سبر أغوار تلك المصادر ، فتطبيقات قواعد البيانات والجداول الحسابية سهلت كثيرا الوصول إلى استنتاجات قابلة للقياس، وذات مغزى اعتمادا على تحليل عدد كبير من العمليات المالية والبيانات الأخرى ، فلم يعد التعامل مع هذا الكم الضخم من وثائق الأعمال المتعلقة بالمدن الكبرى كابوسا كما كان من قبل ، ويجب أن نتطلع في هذا المجال إلى مشروعات قواعد البيانات المشتركة التي يشترك فيها

الأرشيقيون ومؤرخو المدن الكبرى ، فهذا النوع من العمل متعدد التخصصات يوفر وسائل جديدة للإفراج عن هذه الوثائق الضخمة والتي تتسم عادة بالصعوبة.

ولا يعنى ذلك أن أسلوب التعامل مع أرشيفات الأعمال يقف عند حدود أساليب التحليل الدقيقة للأرقام ، فهذا هو كتاب يوسف قسيس Youssef Cassis عن مدينة لندن يوضح كيف يمكن استخدام أرشيفات الأعمال لإعادة بناء صورة تاريخية متعددة المستويات عن صفوة رجال الأعمال ، كما تشير دراسة دافيد كيناستون David Kynas-ton عن مدينة لندن والتي تقع فى ثلاثة أجزاء إلى كيف يمكننا استخدام اليوميات والمذكرات والمراسلات لاستحضار روح وسلوكيات مدينة كبيرة على مدى أكثر من قرن^(١٥) .

ويمكن أن تكون وثائق الأعمال أيضا شاهداً على تغييرات أكبر فى مجتمع المدينة الكبيرة ، ويجب ألا ينقص المؤرخون من قدر وأهمية مدير البنك بالنسبة لهذا النوع من القرائن. فقد كان بنك يورك سیتی آند كاونتى York City and County Bank وهو أحد البنوك المكونة لبنك ميدلاند، يطلب من مديري فروعهم أن يقدموا تقريراً سنوياً عن أعمالهم وتوقعاتهم ، وها هو جى. كينلوش جريج J. Kinloch Greig مدير فرع ليدز Leeds branch يقدم وجهة نظره فى ديسمبر 1885:

« فيما يتعلق بالتوقعات، فهناك نشاط ملحوظ فى تجارة الحديد والفحم ومن المرجح أن تشهد تلك التجارة تقدماً وازدهاراً فى الفترة القادمة ، بينما قل تقدم أعمال الأقمشة والجلود، ولدى انطباع بأن هناك قدراً كبيراً من عدم الاستقرار فى هذين الفرعين ، ولكن لو اقتصرنا نظرتنا على الشواهد المحلية ، فهناك ازدهار عام مناسب ، أما عن كيف ستتأثر الأعمال بالسحب الآخذة فى التجمع فى آفاق العملة فهو ما يستحيل التكهّن به . التزامات العديد من البيوتات الكبيرة فيما يتعلق بالقروض والمشاريع الأجنبية تسير بخطى وثيدة، ويقال أن بارنجز هاوس Barings house مثقل بهذه الالتزامات. إن فقدان الثقة فى أى من هذه البيوت سوف يثير موجة من الفرع كفيّلة بإفساد أى توقعات لتقدم التجارة ، ويبدو لى أنه يجب توخى الحذر فى الإقراض بضمانات فى بلدان أجنبية، خاصة فى دول أمريكا الجنوبية^(١٦) .»

إن هذه الوثائق لا تعتبر حلاً كاملاً لمؤرخ المدن الكبرى، ولكنها بالتأكيد توفر قرائن قيمة بين مجالات متقاطعة. فهي تضيف رؤيةً ولوناً وأبعاداً لنظرة المؤرخ للمدينة ، فإذا عرفنا لها هذا القدر فإن أرشيف الأعمال هو بالفعل « مارديستحق حياة نشيطة » . لقد كانت تماثيل العمالقة تحمل في احتفالات ومواكب الصيف في العصور الوسطى ، وأحياناً ما كانت تحرق ، لا يجب أن يدع مجتمع المؤرخين ذلك يحدث لأرشيفات الأعمال ، بالصدفة أو بالإهمال .

الهوامش

- (١) L.. Richmond and A . Tourton (eds.) , Directory of Corporate Archivists (1992) .
وأود هنا أن أتقدم بالشكر ألتسفين فريث على تقديره لحجم ما تضمنه مكتبة جيلدهال .
- (٢) من Sophie Bridges كان هذا العدد هو واقع الحال فى يوليو 1996 عندما تفضلت صوفى بريكز بتقديمه لنا Royal Commission on Historical Manuscripts اللجنة الملكية للمخطوطات التاريخية .
- (٣) L. Richmond and B . Stockford, Company Archives : the Survey of the Records of 1000 of the First Registered Companies in England and Wales (Aldershot, 1986).
- (٤) M.S . Moss and E. Green, " Reclaiming the history of business communities", in D.H Aldcroft and A. Slaven, Enterprise and Management : Essays in Honour of Peter L. Payne (Aldershot, 1995), 3 - 28 .
- (٥) Ibid., 17-19.
- الاقتباسات فى الفقرات التالية مأخوذة من مراسلات موس وجرين Moss and Green مع تقديم جيزيل الشكر لكل من جوناثان براون Jonathan Brown عام 1994 ، مع عدد مع الأرشيفين لجانيت برنهاوس Janet Burnhouse ومورين باتش Maureen Patsh ، ودافيد جونيز David Jones ، ستيفن فريث Stephen Freeth ومارك بريدي Mark Priddey ، وريتشارد بوتس Richard Potts .
- (٦) A.D. Chandler, and Strategy and Structure : Chapters in the History of Industrial Enterprise (Cambridge, Mass., 1962)
- (٧) L. Hannah, The Rise of the Corporate Economy (1976) .
- (٨) قامت الجمعية التاريخية لمنسوتا بسان بول ، فى أبريل بتنظيم The Minnesota Historical Society at St Paul records of American Business Symposium 1996 سيمبوزيوم « وثائق الأعمال الأمريكية » .
- (٩) E. Green and S. Kinsey, The archives of the HSBC Group', Financial History Review, 3 (1996) . 87 -99
- (١٠) W.F. Crick and J.E Wadsworth , A Hundred Years of Joint Stock Banking (1936, 4 Th ed). (1964) .
- (١١) J. Bellamy , " Some Aspects of the Economy of Hull in the Nineteenth Century with Special Reference to Business History " (unpub . Ph.D. thesis, Univ. of Hull, 1966) .

L. Newton, " The Finance of Manufacturing Industry in the Sheffield Area, C. 1850- (12)
C1885 (unpub. D. Phil. thesis, Univ. of Leicester, 1993)

Midlands Bank Archives , Acc 608 . (12)

Ibid., Acc 209 (12)

Y. Cassis, City Bankers (Cambridge, 1994) ; D. Kynaston , The City of London , 3 (10)
vols. (1994, 1995 and forthcoming) .

Midland Bank Archives, Y60/8 (16)

وثائق الآثار المتروبولية : مخلفات غير مرغوب فيها أم مصادر أولية ؟ (*)

تيك ميريمان

مقدمة

تعتبر الوثائق المنتجة خلال عمليات التنقيب الأثرى وثائق ذات قيمة عالية كمصادر لدراسة تطور العديد من المراكز المدنية - وهي في الواقع المصادر الوحيدة لبعض الفترات المبكرة - غير أنها ما زالت غير مستغلة وفقيرة التمويل نسبيا ، وتبحث هذه الورقة في كيفية نشأتها، وتلقى الضوء على بعض الإمكانيات التي تتيحها تلك الوثائق، كما تشير أيضا إلى بعض الصعوبات التي تواجهها حاليا ، وبالرغم من أن معظم الورقة سيتركز حول لندن إلا أن كثيرا مما سوف أقوله ينطبق أيضا على بقية أنحاء بريطانيا، وبعضها أكثر عمومية.

تطور الأرشيفات الأثرية

قد ارتبطت الكشف الأثرية في المراكز المتروبولية، ولأمد طويل بعمليات التطوير ، فمنذ 450 سنة مضت سجل أثريو لندن اكتشافات وقعت بمحض الصدفة لمقابر رومانية في ضواحي المدينة عندما كان يجري حفر أساسات مبان جديدة ، وقد كانت الصدفة وحدها هي التي تلعب الدور الرئيسي - حتى وقت قريب نسبيا - في اكتشاف معلومات عن التواريخ المبكرة للعديد من المدن ، وبالرغم من وجود محاولات

(*) أود أن أتقدم بالشكر لنينا كرامى Nina Crummy وماكس هيبديتش Max Hebditch لقراءتهما وتعليقهما على مسودة هذه الورقة .

منظمة فى بعض المدن لمراقبة التطورات الجديدة وإنقاذ أو تسجيل ما يعثر عليه كلما أمكن ذلك ، فى أخريات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، إلا أن التسجيل الأثرى لم يبدأ فى الاعتماد على أسس مرضية إلا بعد الحرب العالمية الثانية. وتمثل ذلك فى لندن فى إنشاء مجلس حفائر لندن الرومانية والوسيط Roman and Medieval London Excavation Council عام 1946، والذي وفر التمويل اللازم للحفائر فى المدينة لاستغلال الفرصة الفريدة التى خلفها القصف المكثف للمدينة وما نجم عنه من مناطق مفتوحة مترامية الأطراف. ومع تسارع عمليات التطوير، نضجت أيضا حركة إنقاذ الآثار 'Rescue Archaeology' وقادت حملة للتنقيب عن المواقع التاريخية قبل أن تدمرها أعمال إعادة التعمير. ولاقت الحملة نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، وبحلول السبعينيات من القرن العشرين كانت هناك شبكة من الوحدات الأثرية بامتداد البلاد، ركز الكثير منها على المراكز المدنية التاريخية، والتى تلقت تمويلا مباشرا من الحكومة للقيام بالأعمال الأثرية الأساسية ، وفى الثمانينيات من نفس القرن كان القائمون بأعمال التطوير أنفسهم يقومون بتمويل الأعمال الأثرية كشرط للموافقة على خططهم ، ومع انفجار أعمال العمران فى النصف الثانى من هذا العقد تقدمت الأعمال الأثرية بشكل كبير ، وكان تتويج تلك الجهود فى عام 1990 مع صدور 'المذكرة الإرشادية لسياسة التخطيط 16 الآثار والتخطيط Archaeology and Plannin Planning Policy Guidance note 16⁽¹⁾ 'والتي جعلت - وبشكل رسمى - من الآثار عاملا يجب أخذه فى الاعتبار عند القيام بعمليات التخطيط ، وهو ما يعنى أن احتمالات العثور على آثار فى أى موقع يراد تطويره يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند اتخاذ القرار فى عمليات التطوير وكيفية سير العمل بها. فلو لم يكن من الممكن الحفاظ على الآثار خلال عمليات التطوير، بموقعها الأصلي in situ فيلجأ إلى الحفاظ بالتسجيل، حيث يتم تدمير الآثار ولكن على أن تقدم الوثائق التى سجلت خلال عمليات الحفر المعلومات والخصائص المتعلقة باللقى الأثرية بما يمكن من إعادة تكوينها وإعادة تقييمها ، ويغضى المطور تكاليف الدراسات الأثرية كجزء من مبدأ 'الملوث يدفع' Polluter Pays ، ونادرا ما يدفع المطور تكاليف النشر، ولا يدفع مطلقا - تقريبا - تكاليف أرشفة الوثائق - وهو موضوع سآعود له لاحقا. إلا أن مبدأ الحفاظ بالتسجيل (والذى يعتبر الحل الطبيعى الوحيد فى المناطق المدنية، حيث يصعب الحفاظ على الأثر فى مكانه الأصلي، وتقوى الضغوط لتمكين التطور من

أخذ مجراه الطبيعى) يعطى - نظريا - دوراً أكبر لأرشيف تلك الوثائق لكونها مصدراً يعتبر هو المنتج النهائى فى العمل الأثرى.

والنتيجة النهائية لهذا التطور التاريخى للتنقيب الأثرى فى المدن ولنجاحه فى تسجيل المواقع قبل تدميرها، هو إنتاج أرشيف ضخم من اللقى والوثائق الأثرية ، وتتميز تلك الأرشيفات بالتعقيد والتنوع والضخامة ، فهى تتكون من مصنوعات صغيرة من المعدن، والفخار، والعظم، والحجر، وشقف الفخار، ومواد البناء، وعظام بشرية وحيوانية، وعينات من الحبوب، وحبوب اللقاح، وبقايا النباتات الأخرى ، ويتبلور كل ذلك فى التسجيل الورقى الذى يتم أثناء الحفائر وخلال عمليات التحليل التى تجرى بعد انتهاء الحفر ، ويشمل ذلك خرائط ومساقط للمحيط الأثرى مثل الحفر والآبار والجدران والمصارف، ووثائق تصف طبيعة كل موقع تم الحفر فيه، ووثائق لكل ما عثر عليه، صور أبيض وأسود وشرائح ملونة لمظاهر الموقع وما عثر عليه به (صور أشعة إكس للحديد الصدى مثلاً، ووثائق عن أساليب حفظ القطع ، إلخ ...) وبالإضافة إلى تلك الوثائق الملموسة، تزداد أهمية قواعد البيانات الإلكترونية، كأداة لإدارة مختلف عناصر الأرشيف والربط بينها، وكذلك بازدياد التسجيل الإلكترونى فى الموقع مباشرة، كمصدر أولى فى حد ذاته.

الأرشيف الأثرى للندن

أود الآن أن أنتقل إلى الأرشيف الأثرى للندن، كنموذج ملموس لموضوعات أكثر عمومية ، وهو موضوع ذو شقين؛ شق يتعلق بما يمكن أن نظفر به من معلومات شديدة الأهمية، ثم شق يتعلق بتوقف تطوير الأرشيف بسبب انخفاض التمويل .

يضم الأرشيف الأثرى لمتحف لندن لقى ووثائق من 2000 موقع ، يضمها 90000 صندوق من اللقى، و 400 متر مربع من الوثائق الورقية، وحوالى مليون شريحة ومليون تسجيلة كمبيوتر. ويحتل الأرشيف ككل مبنى مساحته حوالى 4000 متر مربع ، وهو الأكبر - بلا شك - فى المملكة المتحدة، وربما فى أوروبا ومحتمل فى العالم .

وقد أنتجت أكثر من عشرين عاما من الأعمال الأثرية فى لندن ، وفى المراكز المدنية الأخرى مثل يورك York وونشستر Winchester، وكانتربرى Canterbury

و كلوتشستر Clochester ، قواعد بيانات ضخمة، تلقى الضوء على التاريخ المبكر لتلك المدن، وكذلك على بعض مظاهر تواريخها المتأخرة أيضا والتي لم تغطيها التوثيقات الأخرى ، وقد صاحب معظم تلك البعثات التنقيبية برامج نشر ضخمة، ممولة عادة من قبل الحكومة، غير أن تلك البرامج لم تول عنايةها إلا لبعض البيانات فقط ، ففي لندن على سبيل المثال، هناك برنامج ضخم لنشر المواقع التي تم التنقيب فيها في السكوير مايل Square Mile التاريخي للمدينة بين عامي 1974 و 1982، وقد شارف على الانتهاء ، كما يجرى حاليا الإعداد لنشر المواقع التي تم التنقيب فيها في بقية أنحاء لندن الكبرى حتى عام 1990 ، ويعتبر كم ما نشر عن المدينة ضخم بالفعل : التطور الروماني المبكر للمدينة ، الساحة الرومانية والبازيليك، الساحل الروماني، المقابر الرومانية، الاحتلال الساكسوني المتأخر داخل المدينة المسورة ، تطور المباني والممتلكات في تشيبسايد Cheapside في العصور الوسطى ، مجموعة من الفخار المؤرخ في تسلسل زمني ويرجع للعصور الوسطى ، منشورات خاصة عن أنواع المصنوعات في العصور الوسطى مثل الأحذية والقباقيب، وتجهيزات الخيول ، وأدوات الزينة، والأقمشة وشارات الحج ، السواحل التي ترجع للعصور الوسطى، كنائس الأبرشيات ، بيوت دينية ترجع للعصور الوسطى؛ إلى جانب العديد من المنشورات عن المواقع الصناعية بعد العصور الوسطى وعن مظاهر أخرى للمحيط البيئي القديم للندن ، ويعتبر برنامج النشر للمواقع خارج المدينة أكبر من ذلك، حيث يشمل الحفائر في الضواحي التاريخية للمدينة مثل ساوثوارك Southwark ، والمراكز التاريخية القديمة مثل كنجستون و برنتفورد Kingston and Brentford والتي أصبحت الآن جزءاً من لندن الكبرى، وخرائط مساحية لمواقع ما قبل التاريخ، ودراسات عن موضوعات محددة.

وبالرغم من كل ذلك فلم يستغل من الأرشفة حتى الآن إلا نسبة ضئيلة ، فبرنامجي النشر لم يتعاملا إلا مع 30% فقط من المواقع المكتشفة، وبقيت مناطق كبيرة غير مكتشفة. فعلى سبيل المثال، لم يجر حتى الآن أى عمل جاد على المواقع التي اكتشفت في المدينة بين عامي 1982 و 1991، كما أننا لا نتوقع قيام مشروع نشر كبير قبل حلول القرن الواحد والعشرين ، أضف إلى ذلك أن هناك العديد من الموضوعات التي كان يجب أن يغطيها برنامجي النشر، ولكن لم تتم تغطيتها نظرا للقيود المالية.

وقد انتقلت مسئولية الأرشيف الأثرى من الوحدة الأثرية بمتحف لندن إلى إدارة تاريخ ومجموعات لندن المبكرة 'Department of Early London History and Collections'، وهى إدارة الحفظ بمتحف لندن والتي تتعامل مع تاريخ لندن حتى عام 1700، وأصبحنا بذلك قادرين - ولأول مرة - على الاحتفاظ بكل ما كان مبعثرا من الأرشيف فى مبنى واحد، لنبدأ فى تطوير الأرشيف كمصدر قائم بذاته، حيث كان فى السابق منجما لمنشورات الوحدة الأثرية أكثر من كونه خدمة متاحة للجمهور، وقد واجهت العديد من المتاحف فى البلاد مثل هذا التحدى، ولكن على نطاق أضيق، ثم كان علينا بعد ذلك أن نواجه المهمة الضخمة والتمثلة فى محاولة الوصول إلى الإمكانيات التى يمكن أن يقدمها هذا المصدر الأولى الضخم فيما يتعلق بدراسة لندن، وبينما انقضى معظم العامين الماضيين فى نقل هذه الأرشيفات وتجميعها، إلا أننا بدأنا أيضا العمل فى مشاريع تهدف إلى التعريف بمحتويات الأرشيف، بشكل أفضل للأكاديميين والجمهور العام على حد سواء.

وعند نقل الأرشيف أصبح واضحا أن الإمكانيات التى يمكن أن يقدمها غير معلومة لأن مدى ما يحتويه لم يتم تعريف المجتمع الأكاديمى به بشكل كاف، فمعظم الطلبات التى قدمت للاطلاع كان وراءها ما نشر بالفعل، وبالتالي تتبع أنماطا معروفة، مثل طلبات الاطلاع على المواد المنشورة وبالذات اللقى، وسوف تتضح الإمكانيات التى يمكن أن يقدمها الأرشيف لو تم التعامل مع المركز التاريخى للندن كموقع أثرى واحد كبير تتواجد الوثائق الأرشيفية فيه فى نقاط مختلفة، فالغالبية العظمى من الحفائر التى جرت فى لندن تمثل نقاط إضاءة قليلة المعنى إذا نظر إليها كل على حدة، ولكنها قادرة إن وضعت فى سياقها وقورنت بنقاط أخرى فى المحيط الأثرى العام للندن، على أن تقدم رؤى أعمق حول الكيفية التى تطورت بها المدينة، ولكن نظرا لأن ما يعرف بالفعل عن مقتنيات الأرشيف قليل جدا فإن فرص دراسة بعض الموضوعات العامة المتعلقة بطبيعة المدينة فى فترات مختلفة، أو دراسة موضوع معين (تطور المباني أو استخدام المساحة المعمارية مثلا) نادرا ما يدرس، ومن الجدير بالذكر أيضا أن الأرشيف لا يهتم فقط أولئك الذين يدرسون فترات تندر أو تتعدم فيها المصادر الوثائقية فقط، فجانبا عظيم من الأرشيف الأثرى لفترة العصور الوسطى وما بعدها يكمل ويوضح مظاهر الوثائق الموجودة بالفعل، فالوثائق

التي نشأت من الحفائر في مسرحى روز وجلوب Rose and Globe theatres على سبيل المثال ألفت بمزيد من الضوء على بنائهما وكيفية جريان العمل بهما. كما أن دراسة مواقع الإنتاج الصناعية التي ترجع لفترة ما بعد العصور الوسطى أظهرت العديد من الحقائق الجديدة حول صناعة الزجاج والسيراميك في لندن ، كما زادت دراسة أصناف المصنوعات من معلوماتنا حول موضوعات معروفة لنا من قبل مثل: الخزاف على أختام الملابس ، على سبيل المثال ، أوضحت تفاصيل أكثر عن أنواع الأقمشة المستوردة في لندن في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتغير أنماط الخزاف خلال هذه الفترة.

تحسين أرشيف لندن

ولذلك فقد رأينا أن الأولوية في نشر معلومات عن الأرشيف يجب أن تعطى لتقديم ملخصات عن كل موقع في الأرشيف بأسلوب المعاجم الجغرافية ، وتحفظ تلك الملخصات في شكل إلكترونى لتسهيل عمليات البحث والتحديث، كما يتم توفيرها في شكل مطبوع ، وقد قاربت تلك الجهود على الانتهاء وسوف تتوفر تلك المعاجم الجغرافية عن كل المواقع التي شهدت أعمال حفائر منذ عشرينيات القرن العشرين وحتى عام 1990.

ويتم هذا الجهد ببليوجرافيا، موجودة الآن بالفعل، عن كل الأعمال المتعلقة بمواقع لندن ، وهناك ببليوجرافيا أخرى وهي 'ببليوجرافيا آثار لندن الكبرى Bibliogra- phy of the Archaeology of Greater London' (BAGL) وهي تغطي القصاصات الصحفية، القديمة والحديثة، التي تشير إلى الآثار في لندن حتى عام 1991، وسوف نتاح للبحث المباشر on-line بالمتحف.

وقد قصدنا في هذا الإطار إلى إتاحة كم كبير من المعلومات في شكل إلكترونى سواء على أقراص أو عبر الإنترنت ، ويجرى العمل حاليا في إنشاء موقع على الإنترنت يتيح ملخصات عن المواقع التي تم الحفر فيها، وتقارير مفصلة عن مواقع مختارة، وقوائم ببليوجرافية وبيانات عن اللقى على اختلاف أنواعها والفترات التي ترجع إليها ، ويمكن الوصول إلى المعلومات عن طريق اسم الموقع، أو الكلمات الدالة،

أو عن طريق خريطة تفاعلية interactive للندن الكبرى ، وقد صممت تلك الخدمة بشكل يسمح بتلبية متطلبات غير المتخصص، الذى قد يهتم مثلا بما عثر عليه فى الحى الذى يسكنه، والمتخصص الذى يحتاج إلى مداخل على مستوى أعلى لأشكال معقدة من البيانات ، فبالنسبة للقى - على سبيل المثال - يمكن تحديد كل ما عثر عليه من مصابيح رومانية، وكذلك السياق الذى عثر عليها فيه، والمواد الأثرية الأخرى التى عثر عليها فى نفس الموقع، وكذلك الحال بالنسبة للأقمشة التى تعود للعصر الساكسونى المتأخر، والبلاطات التى ترجع للعصور الوسطى ، والأوانى المصنوعة بالقصدير من فترة ما بعد العصور الوسطى ، وأعماد السيوف الجلدية من العصور الوسطى، وأوانى الشراب الزجاجية من ما بعد العصور الوسطى وهكذا، وقد كان أملنا بالفعل أن نتيج تلك المعلومات بشكل شامل، ولكن يبدو أن هذا غير ممكن فى المستقبل المنظور، نظرا للقيود المالية.

وهناك مشكلة أخرى، تتمثل فى أن 600 موقع فقط هى التى تم إدخالها على الكمبيوتر بشكل كامل ويمكن البحث فيها بسهولة، بالرغم من وجود 1400 موقع فى بقية أنحاء لندن الكبرى على الفهرس البطاقى ، ويحتاج توفير كل المواقع مع معلومات شاملة عنها على الكمبيوتر إلى أعوام عديدة أخرى من العمل.

وصعوبة أخرى تتمثل فى أنه بالرغم من إمكانية البحث حاليا ومستقبلا فى اللقى فإننا لا نستطيع البحث فى السجلات الورقية أو الإلكترونية عن المباني مثل المعابد أو المباني العسكرية (وهى النوعيات التى تهتم العديد من الناس) ؛ لأن تحديد هوية بنية أعقد من حفرة أو مصرف أو بئر هو عملية تفسيرية على مستوى أعلى، غير متوفرة فى التسجيلات الأولية المتاحة حاليا، ولا يمكن توفيرها إلا فى مرحلة لاحقة ، ويتطلب توفير هذه النوعية من التفسيرات على مستوى الأرشفة ككل، أيضا العديد من سنوات العمل ، وحتى يأتى ذلك الوقت يستخدم الكمبيوتر حاليا كوحدة تخزين أساسية يقوم عليها موظف على درجة عالية من الوعى بهذا الموضوع، يرشد الباحثين بشكل فردي للوصول إلى ما يبتغون من معلومات .

وقد أدركنا أنه من غير الواقعى أن نفكر فى هذه المرحلة فى الشروع فى مشروع برنامج نشر ضخمة جديد، على غرار ما يجرى بالفعل فى مواقع مدينة

لندن الكبرى ، وأدركنا أيضا أن سرعة ومدى إنقاذ الآثار فى لندن تعنى أن الأسلوب التقليدى فى النشر بالموقع ، أو حتى بالموضوع أصبح غير واقعى ، فكما أشار جون شوفيلد John Schofield منذ عشر سنوات: إن فكرة النشر المحدد - فى الآثار المدنية، ذلك المبدأ الذى يزداد لا واقعية - يستبدل حاليا بتأسيس أرشيف بحث أثرى^(٢) ، لذلك كان قرارنا أن تكون الأولوية لإتاحة هذا الأرشيف بتحسين تسجيلاته، وليس بنشرها بأنفسنا.

ولن يمكننا اتباع أسلوب عابر للمواقع فى أبحاث الأرشيف الأثرى - بالطبع - إلا من خلال معرفة تفصيلية بسجلات الطبقات لنستطيع - مثلا - أن نحدد كل المواقف الرومانية التى ترجع للقرن الثانى، أو أن نقارن بين محتويات كل الحفر التى ترجع إلى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى فى مختلف المناطق ، ولا يتعدى المتاح حاليا من تسجيل كامل للطبقات (بما فى ذلك إدخال كل التسجيلات على الكمبيوتر) ما بين 50 إلى 100 موقع فقط ، وحتى نستطيع أن نقدم خدمة بحثية تشمل كل المواقع لابد أن يتم إدخال عدد أكبر بكثير من المواقع، بشكل كامل، على الكمبيوتر.

تشجيع المشاريع البحثية من الآخرين

نظرا لقلّة المعرفة بإمكانات الأرشيف - كما أشرت من قبل - نجد أن الأسئلة البحثية التى توجه للأرشيف، تستلهم - إلى حد كبير - الأبحاث التى أجريت ونشرت بالفعل ، وأحد طرق الخروج من هذه الحلقة يكمن فى تشجيع المؤسسات الأخرى على إجراء أبحاث فى الأرشيف، باقتراح موضوعاتها عليهم، وإرشاد الباحثين فى خضم الوثائق التى بحوزتنا ، وقد نشأ بالفعل تعاون بناءً بين خدمة الأبحاث الأثرية بلندن London Archaeological Research Facility و معهد الآثار بيونيفرستى كوليدج بلندن Institute of Archaeology of University College London ، فعمل بموجب هذا التعاون طلبة من يونيفرستى كوليدج فى مشاريع بحثية بالأرشيف فى أبحاثهم لنيل درجتى البكالوريوس والماجستير، وهناك علاقات أخرى تنشأ حاليا مع مؤسسات أخرى ، فنحن نسمح الآن - على سبيل المثال - لطلبة الدكتوراه بالتعامل مع مجموعتنا من العظام الحيوانية.

تطوير الإتاحة للجمهور غير المتخصص

نظرا لأن الأرشيف الأثرى يقع فى متحف يعتمد على التمويل العام، فقد شعرنا منذ البداية بأن هذا الأرشيف له دور يجب أن يلعبه، يتخطى توفير البيانات للباحث المتخصص ، وعلى ذلك فنحن نحاول توفير أساليب لتقديم المعلومات التى يحتويها الأرشيف لأفراد الجمهور المهتم « غير المتخصص » ، وفى هذا الإطار هناك مشروع تطوير ضم مخطط له أن يجرى على الموقع الرئيسى للمتحف بلندن وال London Wall ، ونأمل فى توفير التمويل اللازم لإنشاء مبنى سوف يضم مكانا لمجموعات طلبة المدارس والعائلات ليتمكنوا فيه من التعامل مع المادة الأثرية والتعرف على العمليات الأثرية، ومكان آخر بالمبنى سوف يكون به متحف على الخط المباشر On-Line museum سوف يحوى فيما يحوى نسخة محسنة من موقع الإنترنت الذى وصفته فيما سبق؛ ليتمكن أفراد الجمهور من التعرف على ما اكتشف فى محال إقامتهم فى لندن ، أو تتبع موضوعات بعينها فى المدينة مثل المواقع الرومانية، أو نماذج نوع معين من المصنوعات .

المصادر والتطوير المستقبلى

نخلص من كل ذلك إلى أن الإمكانيات البحثية التى يمكن أن يقدمها أرشيف لندن الأثرى إمكانيات ضخمة ، والصعوبة الأساسية التى نواجهها - وأشك أن الحال لتتطبق على معظم الأرشيفات الأثرية - تكمن فى أن هذا الشكل الأولى للبيانات يعنى أنه يحتاج إلى الكثير من العمل قبل أن يتمكن هذا الأرشيف من تقديم المعلومات التى يحتاجها الباحثون بسهولة ويسر، إذا لم يكونوا من المعتادين على التعامل مع الأرشيف، وهذا يتطلب استثمارات ضخمة لا نملكها الآن ، وينطبق هذا الواقع على كل الأرشيفات الأثرية فى البلاد، ولا تتلقى المتاحف فى بريطانيا - حاليا - إلا القليل من الإعتمادات الإضافية - هذا إن تلقتها أصلا - والمخصصة لإدارة أرشيف أثرى ، وهى فى الحقيقة وظيفة إضافية للأنشطة التى اعتادت عليها المتاحف ، فى كل التخصصات الأخرى غير الآثار - لا تجمع المتاحف سوى نخبة صغيرة من المادة الثقافية و العينات الطبيعية المتوفرة ، غير أنها فى الآثار يتوقع منها أن تقوم بعمليات

جمع شاملة ، وبعبارة أخرى فبالرغم من أن المتاحف ليس لها سيطرة على جمع المواد الأثرية التى تخضع لتخطيط وتنفيذ مجموعات العمل بالموقع، فإنه من المسلم به أنها ستقبل كل المواد التى تقدم لها، وحيث أن أرشيف كل بعثة حفائر ينفذ "الحفظ بالتسجيل" للموقع، فهناك رفض مسبق لأى حذف من الأرشيف أو استغناء عنه ، وظهر تأثير ذلك على المدى الطويل متمثلاً فى ورود كميات من المواد الأثرية للمتاحف - بكميات وسرعة - لا تجعل فى استطاعتها السيطرة عليها، خاصة تلك التى تقع فى مناطق مدينية حيث تجرى عمليات تنقيب كثيرة قبل إعادة التطوير، وقد أدى هذا الاحتياج لحفظ المواد إلى تقليص مناطق أخرى فى العمليات المتحفية، حيث يتوجه الجزء الأكبر من الميزانية لتمويل تخزين المواد الأثرية ، وما لم تتوفر مصادر إضافية لتمويل هذا الدور الإضافى للمتاحف، فأفضل الاحتمالات أن يسير نمو الأرشيفات الأثرية فى ببطء شديد، معتمداً على كوادر ومصادر غير ملائمة. أما الأسوأ فهو أن تتساعل السلطات المتحفية عن جدوى استمرارها فى المستقبل تحت ضغط العوامل المالية المترتبة على عدم وجود تمويل لها، وبالرغم من قدرات الأرشيف على اجتذاب جمهور من غير المتخصصين، فإن الغالبية العظمى من مستخدميهم هم من الأثريين المحترفين الباحثين عن معلومات محددة فى منطقة عملهم، وهم عادة على دراية بالنظام الأرشيفى، وهناك نسبة صغيرة نسبياً من طلبات الاطلاع يقدمها باحثون أكاديميون، وهم يستنفدون جزءاً عظيماً من وقتنا (على سبيل المثال استغرق توفير المواد والمعلومات المتعلقة بها لطلب قدم مؤخراً حول الفخار فى فترة ما بعد العصور الوسطى 53 ساعة عمل) ، إن الطبيعة التخصصية لمعظم طلبات الاطلاع وتكلفة الحفظ والعمالة فى الأرشيف (تبلغ 40000 جنيه إسترليني فى حالة لندن) يجعل منها هدفاً مفضلاً عندما تظهر الحاجة لتقليص الخدمات.

وقد أصبح تمويل الأرشيف - فى حالة لندن - مشكلة حادة فى السنتين الماليتين الماضيتين، بعد الخفض الكبير الذى شهدته ميزانيتنا، وليتمكن من التعامل مع هذا الوضع قرر مجلس إدارة المتحف التوقف عن قبول أى مواد أثرية جديدة، وخفض إتاحة الأرشيف بشكل حاد والاستغناء عن موظفيه ، ولن يتغير هذا الوضع إلا بتوفير تمويل مناسب للقيام بمهام دور الأرشيف الأثرى.

وأحد أسباب تعرض الأرشيف لهذه التهديدات يرجع إلى انخفاض ما يراه المجتمع الأثرى من قيمته ، فعلم الآثار ركز دائما على الشواهد الجديدة التي تخرجها الحفائر، بينما كان قليل الاهتمام بتطوير استخدام الأرشيفات الناتجة عن تلك الحفائر كمصدر معلومات للجمهور وللمتخصصين على حد سواء ، وحتى مذكرة السياسة الإرشادية للتخطيط 16 والتي تتحدث عن الحفظ بالتسجيل، لا تشير في موادها إلى حفظ هذا التسجيل.

إن عدم تقدير الأرشيف الأثرى حق قدره لم ينتج عنه فقط عدم وجود التمويل المناسب، ولكنه أدى إلى قلة استخداميته من قبل الجمهور والأكاديميين وبالتالي تعرضه لمثل تلك المشاكل في الأوقات التي توجد فيها قيود مالية، وهي الأوقات التي توضع فيها مدى استفادة الجمهور من أى مؤسسة تحت المجهر.

ولا تقتصر هذه المشكلة على لندن بالرغم من أن مدى مشاكلها في لندن أكثر من الأرشيفات الأخرى ، فها هي هيئة متحف نيوهام Newham Museum Service في شرق لندن تتوقف هي الأخرى عن جمع أى مواد من خارج منطقة نيوهام، بينما كانت في السابق تجمع من كل منطقة إسكس Essex الغربية، بل وتتخلص حاليا من المواد غير المتعلقة بنيوهام ، ومتاحف برمنجهام Birmingham ونورثامبتون Northampton والتي كانت تقبل مواد أثرية على أساس إقليمي، تقتصر الآن على أحيائها الضيقة فقط ، لقد امتلأت معظم مخازن المتاحف في البلاد، والعديد من الأرشيفات مخزنة في أماكن ظروف تخزين غير ملائمة، حيث أن سرعة الحفائر تتخطى قدرات المتاحف على التعامل معها .

وقد اعترفت إدارة التراث القومى Department of national Heritage الآن بأن المشكلة ضخمة بحق، وتعمل الآن الوكالات الحكومية للآثار والمتاحف، والتراث الإنجليزى English Heritage ولجنة المتاحف والمعارض Museums and Galleries Com-mission معا لتحديد حجم المشكلة أولا على المستوى القومى، ثم العمل على حلها، وأحد الخيارات الممكنة يتمثل في استخدام إطار المتاحف القائمة لإنشاء شبكة من المستودعات الأثرية على امتداد البلاد، تمول بهدف حفظ وتطوير تلك الأرشيفات، ومن وجهة نظرى سيتطلب ذلك بعض المساهمة من الحكومة على اعتبار أن الموضوع

له بعد قومي يتمثل في الحفاظ على تلك الوثائق التاريخية الأولية، ويمكن أن يساهم صندوق يانصيب التراث Heritage Lottery Fund بنصيب في ذلك أيضا .

وحتى يجيء الفرغ يبقى مستقبل أرشيف لندن غير واضح، وتحفظ الوحدات الأرشيفية حاليا بأرشيفات حفائرها حتى نصل إلى حل ، ولنا أمل ألا يتأخر هذا الحل لأن إمكانات هذا الأرشيف لتحسين فهمنا عن تاريخ لندن هي إمكانات عظيمة.

تنزيل

بعد فترة من عدم اليقين سعدنا كثيرا عندما علمنا أن الجزء الرئيسي في خطة تطوير متحف لندن (ديسمبر 1997) عبارة عن عرض بإنشاء « مركز وأرشيف مصادر لندن الكبرى الأثرية Greater London Archaeological Resource Centre and Archive » وسوف يوفر المركز حفظا طويلا للأجل للشواهد التاريخية على ماضي لندن كما تكشف عنها الآثار، مصحوبة بتوثيق الحفائر نفسها وأرشيفها الإلكتروني ، وسوف تتاح للدارسين والمهتمين بتلك المواد، كما تهدف أيضا إلى تشجيع وتسهيل البحث والتدريس والنقاش على كل المستويات ، وهو مشروع مثير وطموح يستحق كل الدعم ، فهو يعتبر - إن نجح - إضافة قيمة للمصادر الثقافية للمدينة الكبرى.

الهوامش

(١) إدارة البيئة ، المذكرة الإرشادية لسياسة التخطيط 16 الآثار والتخطيط (1990) Planning Policy

Guidance note 16 Archaeology and Planning

Jphn Schofield, “ Archeology in the City of London : Archive and Publication”, Ar- (٢)
chaeological Journal 144 (1987) , 424 - 33 .

السماعة الطبية ، والصرف الصحى ، وقرص الدواء : الوثائق الطبية للمدينة الكبرى

كريستوفر هيلتون

فى مؤتمر يعقد فى قلب لندن أجد من المناسب أن أستهل مناقشتى المختصرة للوثائق الطبية بنموذج مستمد من تاريخ لندن نفسها ، ففى عام 1854 عانت لندن من تفشى الكوليرا ، وكان رائد طب التخدير جون سنو John Snow قد أمضى آنذاك عدة أعوام فى محاولة للتوصل لنظرية عن كيفية انتشار الكوليرا، تُرجع سبب الوباء ليس للأبخرة المتصاعدة من الأوحال ومياه الصرف الراكدة - كما كانت رؤية العقيدة الطبية القديمة - ولكن بالأحرى لكائن حى دقيق يعيد إنتاج نفسه - بأكثيريا أو فيروس فى مصطلحنا الحديث - ينتقل من فرد لآخر عن طريق اشتراكهم فى الشرب من نفس الماء الذى تلوث ببقايا براز يحمل هذا الكائن الدقيق ، وقد حدد سنو فى وباء 1854 حالات فى دائرته فى سوهو ثبت أنها لأشخاص اعتادوا على استخدام صنبور مياه معين فى شارع برود ستريت Broad Street - لدرجة أن بعض الأشخاص الذين كانوا قد غادروا المنطقة ثم عادوا لنفس الشارع ثم استخدموا نفس الصنبور أصابهم المرض أيضا، واقتنع أعضاء مجلس الكنيسة بدائرة سوهو بحجة سنو وأخرجوا هذا الصنبور من الخدمة - وقد كان يستمد ماءه من بئر يبعد بضعة أقدام عن بالوعة صرف ، وعلى نطاق أوسع استطاع سنو أن يثبت أن مناطق المدينة التى تمدها شركة مياه ساوث وارك آند فوكسهال ووتر كومبانى Southwark and Vauxhall Water Company والتى تستمد مياهها من التيمز فى المنطقة المدنية أكثر عرضة للإصابة بالكوليرا من تلك المناطق التى تمدها شركة لامبيث ووتر كومبانى Lambeth Water Company ، والتى تستمد الماء من أعلى النهر بالمدينة ، ومن خلال تلك الدراسات استطاع سنو أن يوضح الأسلوب الذى يمكن به تفهم تفشى وباء الكوليرا والسيطرة عليه (شكل ١)^(١).

وتعتبر قصة صنبرور برود ستريت علامة بارزة فى تاريخ تقدم أسلوب التعامل العلمى مع وىاء معين، بل وفى أسلوب نمذجة انتقال الأمراض بشكل عام، ولكن الطب ليس علما مثل الرياضيات يتعامل مع المجردات: فكل الحالات الطبية لا تحدث فى الفراغ، ولكن فى الواقع، تحدث لأفراد يعيشون فى بيئة معينة. وقد كانت قفزة سنو العلمية حدثا مهما أيضا فى تاريخ لندن وفى تاريخ المدن الكبرى بشكل عام، ولكل مكان يعيش فيه الناس فى أعداد كبيرة فى مساحات محدودة وتوجد به مشاكل توفير المياه والتخلص من مياه الصرف، فبعد قبول أفكار سنو، أصبح توفير الماء النظيف والصرف الصحى الفعال حتى لأفقر طبقات المدينة يعتبر من البديهيات، وأحد اهتمامات كل سكان المدينة. إنه نموذج يثبت كيف أن الوثائق الطبية، لا يجب بالضرورة أن ينتجها جهاز إدارى محلى، ولكنها بالرغم من ذلك فإن التاريخ الطبى وتاريخ المكان دائما ما يتداخلان.

تلك هى النقطة الأولى الهامة التى أردت أن أتناولها فى هذه الورقة، فهناك ميل - على ما يبدو - لاعتبار التاريخ الطبى مجالا منفصلا، والنظر إلى الأرشيفات الطبية على أنها عبارة عن سلسلة من جرعات الدواء وتركيباته، غير أن الوثائق المتعلقة بالطب والصحة تتخذ فى الواقع عدة أشكال بعضها مألوف وبعضها ربما يكون أقل ألفة لنا، تفرزها لنا نوعيات مختلفة من الهيئات والأفراد. وبعد أن لمست طبيعة تاريخ الطب بشكل عام، أنتقل الآن للحديث عن الأرشيفات الطبية وأشكالها المختلفة، والتى عكس عنوان هذه الورقة طبيعة اختلافها.

وأكثر هذه الأرشيفات وضوحا - هى بالقطع - تلك التى أنتجتها المستشفيات وتركها الأطباء، سواء أثناء العمل فى هيئة الصحة القومية National Health Service أو قبل إنشائها فى المؤسسات المحلية مثل بور لاو بورد Poor Law Board، أو فى المجال الخاص، فالملاحظات الإكلينيكية الفردية تقدم وصفا لأمراض بعينها وكيفية علاجها، وأحيانا تعبر عن سلوك طبى معين؛ ويمكننا أن نجد فيها إذا تعاملنا معها ككتلة واحدة بيانات كمية عن المرض والعلاج وكيف تغير ذلك على مر السنين أو من مكان لآخر، وهناك بيانات تجميعية مشابهة يمكن الحصول عليها من السجلات التى أفرزتها المؤسسات والتى سجل فيها دخول وخروج المرضى. أما الوثائق المالية للأطباء والمستشفيات فتوفر نظرة شاملة تشير - على سبيل المثال - إلى المصادر

التي وفرتها الدولة للرعاية الصحية، أو في حالة العيادات الخاصة، المصادر التي كان المرضى مستعدون لدفعها في رعاية صحتهم ، كما أنها يمكن أن توثق موضوعات ثقافية أوسع مثل: ما يمكننا أن نجده في سجلات المصحات العقلية من تسجيل للحالات التي يفرض على المريض فيها قيود فيزيقية، كأحد أهم المصادر في تغيير أساليب التعامل مع المريض العقلي.

والسلطات المحلية تنتج الكثير من المواد على نفس هذا المستوى ، ويشمل ذلك ليس فقط تلك الأوراق المتعلقة بالمستشفيات والمؤسسات الطبية الأخرى التي تقع تحت إشرافها ولكن أيضا الطابع الطبي لبعض الأنشطة الحكومية المحلية: مثل وثائق وزارة التعليم التي يمكن أن توفر مادة عن صحة أطفال المدارس، وعن التدريس للمعاقين أو عن سيكولوجية التعليم ، وهناك أيضا موضوعات أكثر عمومية في مجال الصحة العامة مثل: الصرف والصرف الصحي، والصحة الغذائية، والصحة والأمن في العمل، والإشراف على المباني وغيرها.

وتتعلق الوثائق التي ذكرناها حتى الآن بالبيانات الأولية للأفراد الذين يتعاملون مباشرة مع المهن الطبية أو الأفكار الطبية ، وهناك أماكن أخرى تنتج الوثائق التي تحدثنا عن النظريات وراء هذه الممارسات: مخطوطات وملاحظات ومراسلات كبار الأطباء والطبيبات، ووثائق المعاهد البحثية، وأرشيفات المؤسسات المهنية مثل الكليات الملكية Royal Colleges لمختلف التخصصات الطبية ، فهنا نرى كيف ضببطت المهنة نفسها، وكيف كانت رؤيتها لإمكاناتها، وكيف تنامت تلك الإمكانيات. كوثائق التعليم الطبي في شكل محاضرات، أو وثائق تشريح، ويوميات مرور كبار الأطباء على أجنحة المستشفى، والوثائق التي تشهد على تطور طلبة الطب من الممارس العام إلى الطبيب المتخصص ، ففي بعض الأحيان نجد آراء شخصية في تلك الوثائق تتعارض مع ما استقر عليه رأى الطب في تلك المرحلة ، على سبيل المثال حصلت مؤسسة ولكم Wellcome Institute مؤخرا على يوميات طالب طب إنجليزي شاب مجهول، أمضى عاما في باريس في ثلاثينات القرن التاسع عشر، يصف فيها بشكل يومي أنشطته ورأيه في الممارسات الطبية الفرنسية بالتفصيل ، ومن بين ملاحظاته نجده متشككا حول الاختراع الجديد المتمثل في السماعاة الطبية: ويتوقع أن هذا الأسلوب مفيد، ولكنه

يشعر أن التشويش الذي يسمع في الأنبوب تجعل من الصعب تمييزها مما يؤدي إلى ألا تكون تلك الأداة عملية إلى حد كبير (شكل ٢) (٢) ..

هذه الأمثلة الأخيرة انتقلت بنا من الوثائق الإكلينيكية « الرسمية » إلى مجال الأوراق الشخصية ، وهناك مصدر آخر هام في مجال الأوراق الشخصية وهو لا يتعلق بالأطباء ولكن بالأفراد غير الطبيين ، فأحيانا ما تحتوى أوراق أولئك الذين ربما كانوا مرضى، على وصف للمرض والعلاج، سواء تفصيلي أو مقتضب ، فهناك في معهد ولِكْم أيضا خطاب من شخص يدعى هنرى نيومان Henry Newman يصف فيها زيارة له للطبيب المشهور سير هانز سلوان Sir Hans Sloane عام 1742 ، ويصف الخطاب في معظمه أسلوب حياة سلوان بعد تقاعده، كما يصف أيضا كيف أن كاتبه كان مجبرا على أن «أسأل سير هانز المشورة حول حالة الربو التي أصابتنى وتزداد ببقائى فى أدخنة لندن» (٣). كما أنها قد توثق للطب المنزلى الذى كان ومازال يمارس خارج الطب "الحقيقى" ، فكتب الوصفات الطبية التى ترجع للقرنين السابع عشر والثامن عشر عادة ما تحتوى على خليط مشوش من وصفات الطبخ والعلاج، وعلاج مزعوم للاستسقاء فى نفس الصفحة التى نجد فيها وصفة إعداد كعكة الزنجبيل (شكل ٤) (٤).

وأخيرا، قد تحتوى وثائق الأعمال - بالطبع - على محتوى طبي ، وقد تحدث إدوين جرين عن موضوع وثائق الأعمال (٥) ولا أنتوى أن أكرر ما قاله؛ ولكنى فقط سأشير إلى أن تلك الوثائق يمكن أن تغطى صناع الأدوات الجراحية أو التجبير، صناع الأدوية - من الكيميائيين المحليين إلى شركات الأدوية الكبرى - وربما الوجه الأكثر خداعا للموضوع، وثائق من يمارسون الطب من غير أهله، صناع العقاقير الرخيصة غير الشافية (أو الضارة) الذين هم جزء من الطب المنزلى ، ولا يخفى أن تنظيم تلك الأنواع المختلفة من الممارسات الطبية تفتح بالطبع موضوعات ثقافية أوسع، تتعلق بتدخل الدولة فى مقابل السوق المفتوح فى هذا المضمار.

وكما كانت الوثائق الطبية متنوعة، بين توثيق لظهور السماعه الطبية، وتأثير المصارف، وتسجيل العقاقير وكثير غيرها، كانت أيضا المستودعات التى حفظت تلك الوثائق مشابهة فى تنوعها ، فهى تغطى كل أنواع المستودعات الأرشيفية فى المملكة المتحدة: مؤسسات قومية مثل دار المحفوظات العمومية Public Record Office أو المكتبة

البريطانية British Library، أو المستودعات الطبية المتخصصة مثل الكليات الملكية Roy al Colleges المختلفة، أو مؤسستي أنا (معهد ولكم لتاريخ الطب Wellcome Institute for the History of Medicine) وشبكة نور المحفوظات المحلية ، وتتمثل تلك الأخيرة في لندن بدار محفوظات لندن الكبرى Greater London Record Office ، ودار محفوظات الكاونتيات counties المرتبطة بها ، ومكتبة جيلدهال، ومجلس دار محفوظات لندن Corporation of London Records Office، والتي تغطي السكوير مايل Square Mile بالمدينة ، والخدمات الأرشفية التي تقدمها معظم البلورو ال 32 بلندن London Boroughs، وكل أنماط تلك المستودعات هامة بالنسبة لنا ، فعادة ما تؤنق المستودعات المتخصصة رواد المهنة: ويجد مؤرخ المدينة الكبرى ، المهتم بالتوصل إلى الكيفية التي تطور بها تطبيق علاج ناجع لأحد الأمراض أو تقدم في أحد مجالات الطب، يجد نفسه مضطرا للجوء إلى نور المحفوظات المحلية للوصول للممارسات اليومية في هذا المجال.

إلا أن نفس المخاطر التي حذر منها إدوين جرين بالنسبة لوثائق الأعمال، تنطبق على الوثائق الطبية أيضا ، فقد تشكل تلك المادة [الطبية] نسبة ضئيلة من مقتنيات المستودع، وربما ينظر إليها باعتبارها مادة متخصصة بعيدة عن باقي المقتنيات، وقد يجهل الباحثون وجودها أو لا يفكرون في الاطلاع على محتويات هذا المستودع ، فلو لم يتم استخدام تلك المادة بشكل متواتر قد يلجأ المستودع – تحت ضغط الظروف المالية – وبالرجوع إلى عدد المطلعين إلى عدم إعطاء أولوية لمثل تلك المادة وربما تم التخلص من المقتنيات الموجودة والتوقف عن قبول مقتنيات جديدة من هذه النوعية ، فلو لم يع الأرشفيون أهمية تلك المادة الطبية ويؤثروا في المؤسسات والأفراد التي تنتجها، فهناك خطر يتمثل في احتمال أن تدمر تلك الوثائق بمجرد انتهاء دورها الإداري ؛ فحجم المادة التي تنتج الآن ضخم وسوف يقع الإداريون، الذين لا يتقاضون رواتبهم للاهتمام بالمنظور التاريخي، تحت ضغط الرغبة في خفض حدة مشكلة تخزين الوثائق .

بهذه الاعتبارات في الأذهان، شرع معهد ولكم في مشروعين يهدفان إلى تحديد مواقع المواد ذات الطبيعة الطبية، وتوفير مسح للمصادر الأرشفية المتاحة للباحثين ، كما يقوم حاليا مشروع قاعدة بيانات المستشفيات Hospital Records Database الذي يدار بالاشتراك مع دار المحفوظات العمومية ، بإنشاء بنك بيانات يضم

المعلومات المتوفرة عن مواقع وثائق المستشفيات فى المملكة المتحدة والتي يحفظها مكتب تسجيل record office أو يديرها أرشيفى هيئة صحية، أما مشروع مسح الأرشيفات والمخطوطات الطبية Medical Archives and Manuscripts Survey فيغطى مجالا أوسع، حيث يشمل كل الوثائق ذات الطبيعة الطبية^(٦). (فى الفترة بين 1600 و 1945)^(٧). المتاحة للباحثين. وقد غطت المرحلة الأولى من هذا المشروع الأخير المؤسسات اللندنية، وتم الانتهاء منها بشكل شبه نهائى؛ بالرغم من أن البيانات لم تفهرس أو تعد للنشر بعد (وهو الهدف النهائى) فإنه من الممكن أن يرجع لها الباحثون فى شكلها الأولى هذا فى المعهد، وقد أظهرت تلك الدراسة بالفعل مواد هامة، نذكر منها على سبيل المثال الأوراق الشخصية لهاستنجز ناثانيال ميدلتون Hastings Nathaniel Mid-dleton وهو أحد رجال البنوك، ويحتفظ بأوراقه أرشيف مدينة وستمنستر Westmin-ster City Archives، ويذكر فيها تفاصيل عن مرض والدته العقلى، وكذلك عن حالة كل من زوجته وابنه الصحية^(٨). ولا تتوقف أهداف المشروعين على توعية الباحثين بالمادة المتاحة، ولكن تتعدى هذا الهدف إلى توفير إطار يمكن الأرشيفيين الذين قد لا يكون بحوزتهم إلا مجموعة صغيرة من المادة الطبية يمكنهم وضع تلك الوثائق فيه، وبالتالي التمكن من تقدير تلك الوثائق حق قدرها.

وسواء أكانت تلك الوثائق الطبية تتحدث عن السماعه الطبية أو المصارف أو العقاقير المسجلة، فإنها تعتبر مؤشرا على نوعية حياة مواطنى المدينة الكبرى، وأيضا فى إطار ثقافى أوسع - مصدرا مركزيا لصورة المدينة الكبرى عن نفسها، عن وعى مواطنيها بأحوال جيرانهم وكيفية تواصلهم، وكيف يؤثر مرض أحد قطاعات المدينة على القطاعات الأخرى من سكانها، وكيفية تدخل المدينة أو الدولة فى تلك العمليات، لقد بدأت تلك الورقة بمثال من لندن، وأود أن أختتمها بمثال آخر من لندن أيضا، ويصعب أن نتحدث عن تاريخ لندن دون أن نذكر روايات تشارلز ديكنز Charles Dickens فى روايته Bleak House والتي نشرت قبل موضوع صنبور برود ستريت، خلق ديكنز حيا فقيرا فى لندن أسماه توم أول ألونز Tom-all-Alone's أطلق فيها اسم « توم » كتشخيص للمسكن وساكنيه. وكان من الممكن أن يسقط المنزل تحت ضغط المجتمع الثرى حوله، ولكن ديكنز :

لقد حصل [توم] على ثأره ، حتى الرياح كانت رسله، وفي خدمته فى تلك الساعات الحالكة. فكل قطرة من دم توم الفاسد تنشر العدوى والوباء فى مكان ما ، سوف تلوث هذه الليلة التيار...

ويمكننا من خلال الوثائق الطبية، أن نتتبع كيف حدث ذلك، وكيف عرفت المدينة ما فعله بها مواطنوها - بشكل فردى أو جماعى - ومدى أثر هذا العمل ، إن كتابة التاريخ الاجتماعى لمدينة كبرى حديثة بشكل موضوعى دونما الرجوع للوثائق الطبية للوصول إلى إجابات عن تلك الأسئلة، لهو أمر مستحيل .

الهوامش

(١) من بين أهم أعمال سنو عن موضوعات الكوليرا والصحة العامة - On the Mode of Communication of Cholera (1849) ; On the pathology and mode of communication of cholera, London Medical Gazette, XVIV (1849) . 730 , 745 , 923 ' On the communication of cholera by nimpure Thames water, Medical Times and Gazette, new ser, IX (1854), 365 - 6 ; Cholera and the water supply in the South District of London' British Medical Journal (1857), 864- 5; and' Drainage and Water supply in connection with the public health, Medical Times and Gazette, new ser, XVI (1858) , 161 , 189.

(٢) Wellcome Institute Library, Western Manuscripts Department, MS. 7147, f. 23

Ibid., WMS/ ALS : Sloane (٢)

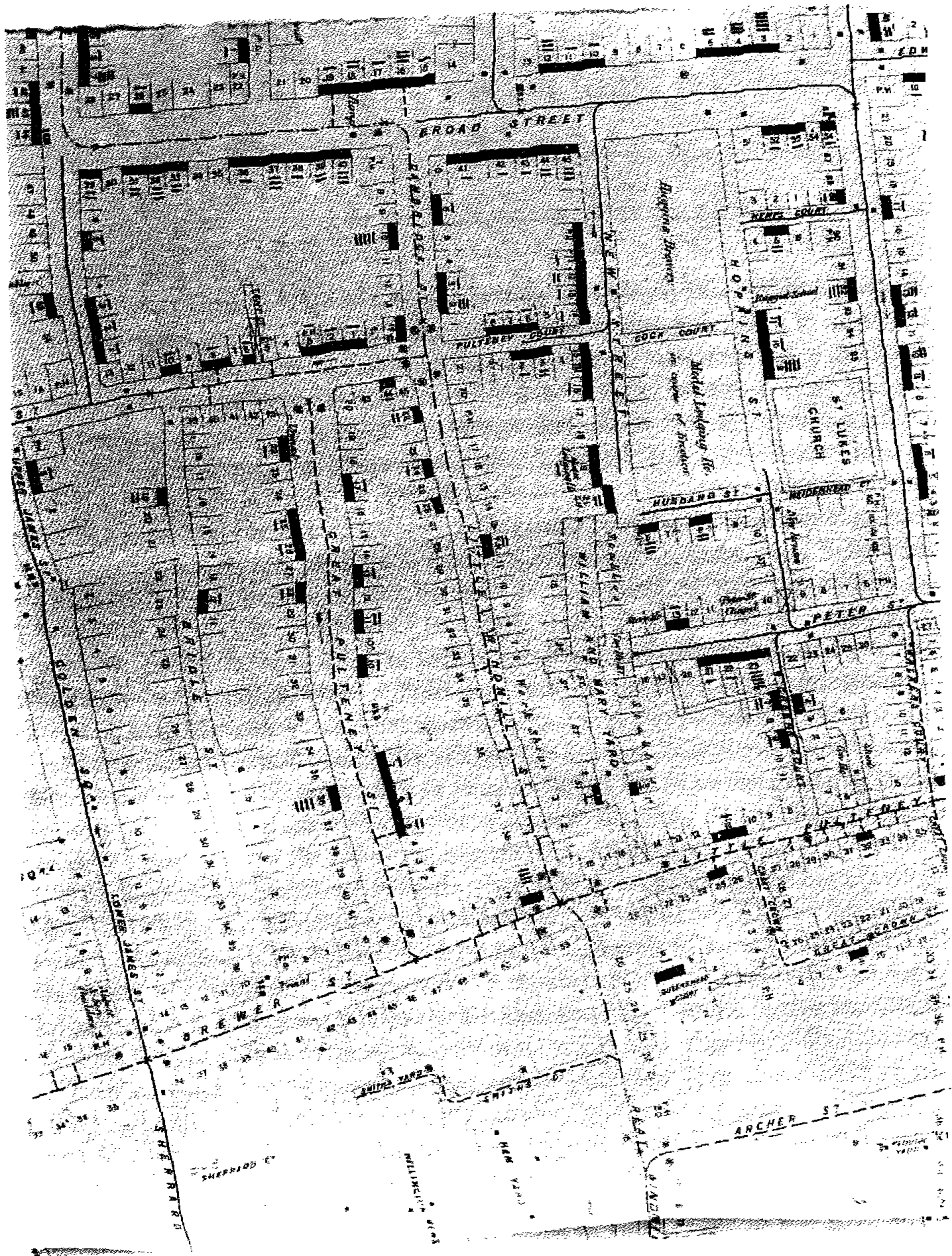
(٤) انظر على سبيل المثال .ibid., MS > 7102, f1

(٥) إدوين جرين « وثائق الأعمال : المارد النائم لتاريخ المدن الكبرى » فصل سابق في هذا الكتاب .

(٦) يجب التفريق بين نوعين من وثائق الأعمال ، فقد سجل المسح الوثائق المودعة بالفعل في المستودعات العامة ، بينما لم يغطِ الوثائق التي ما زالت بحوزة الشركات التي أفرزتها ، حيث تتضمن هذه النوعية الأخيرة مسح قام به مجلس أرشيفات الأعمال Business Archives Council .

(٧) وقد اتبعت دراسات مسحية أخرى نفس الفترة التاريخية ، ومن أهمها (لقربها من موضوع مشروعنا) G.D.R. Bridson, V.C. Phillips and A.P. Harvey, natural history manuscript resources (1980) in the British Isles ، وقد كان التناغم مع تلك المشروعات نصب أعيننا عند البدء في مشروعنا ، وقد كان عام 1600 مناسباً كتاريخ لبداية الفترة محل الدراسة لأنها تمثله حيث أنه تقريبا الوقت الذي بدأ فيه استخدام العامية في النصوص من هذا النوع ، فلم تعد النصوص بالتالي من اختصاص دارسي العصور الوسطى فقط، أما اختيار عام 1945 ليكون نهاية الفترة التي مسحها الدراسة فلأن المواد الأحدث ربما ما زالت بحوزة المؤسسات التي أنتجتها و / أو هناك قيود على الاطلاع عليها ، ويعتبر إنشاء هيئة الصحة القومية National Health Service بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات نقطة تحول ، والوثائق التي أفرزت بعد ذلك ربما لا زالت بحوزة منشئها كوئائق شبه جارية .

(٨) Westminster City Archives , Acc. 967.



شكل (١)

Wednesday 17th Went to La Pitié this morning - no autopsy -
 am paying some attention to the stethoscope again - find I have
 forgotten the majority of the sounds, I knew, when in Edin^{burgh}. I
 fear, the use of this inst^{ment} will never be so extensively diffused, as
 its immense importance requires, for this reason, that persons,
 not in the constant, almost daily habits of employing it, will
 forget, all, but the most characteristic & well-marked sounds. Thus,
 when a person has once heard, will ever remain afterwards firmly
 fixed in his mind - but I defy, a man with moderate opportuni-
 ties of observation, to distinguish between a loud mucous rale & a
 "gargouillement". The differences may be laid down in books, but
 in many cases, they approach each other so closely, that it is always
 impossible to say, where one ends & ~~the other~~ ^{the other} begins - These observations
 are prompted by the consideration of a case in Andral's ward, in which
 "gargouillement" is present, in the upper part, & a loud mucous
 rale almost precisely similar is heard throughout the right lung -
 in the upper part of the left, there is a loud rumbling respiration, which
 in one spot, was thought, by some to be cavernous - The disposition
 in this case will be very interesting - I heard today, of a case, in
 the H. Infants Malades, in which the "Bijoulets" were completely
 out - a little child was considered, labouring under the third stage
 of pneumonia in both lungs - a friend of mine saw day, when
 there, told the Internes - he certainly heard gargouillement - but the
 latter said, c^{est} he no such thing - On examination - in this case,
 there was found an immense cavity, three or four smaller
 excavations throughout the two lungs, & an immense develop-
 ment of tubercles - surely such a mistake, as this, must have
 arisen from some difference on the part of the medical attendants.
 I did not go to the H. Louis this morning, & consequently, they
 had some admirable cases. One of congenital Ichthyosis.

1. Take 2 ounces of bay leaf 2 ounces of white pimperence and a handfull of sorrelage make ym into a plaister and apply to y^e breast of both arms 2 hours before the sweat come they must take Germanander tea for a month 3 tea cups all a time both morning and afternoon fasting an hour after it it must be made very lye.

2. Seed powder for wind
 Take coriander caraway fennel and anise seeds of each one ounce leaf sugar 4 ounce make all into a fine powder take of it at any time will oppress with wind once a fortnight take a quarter of an ounce of senna in powder mixt with it is easy of the wind more effectually its excellent and never fails.

3. A very good medicine for an asthma
 Make syrup of the juice of fells y^e before they bud for flower take 2 pound full in a gill of hot ale morning an hour after dinner and an hour after supper its an excellent medicine.

4. To make powder excellent for the green sickness
 Take one ounce of prepared steel nutmegs cinnamon elecampane anise seeds of each half an ounce leaf sugar one ounce make all into a very fine powder take every morning and at 4 in the afternoon 2 thinne belly drinking a gill of wormwood wine or ale after it fast one hour doing exercise forbearing milk and cheese take it for a month this never fails to cure an create a most delicate complexion.

5. Consumption or sore cough
 Take 4 ounce of white sugar candy as much of raisins of the sun 8 ounce of conserve of roses beat all together add 24 drops of oil of sulphur 32 drops of oil of vitriol beat it in it beat a crinson colour take y^e quantity of a nutmeg fast in y^e morning and last at night.

6. To make Steel pills
 Take 2 ounce of steel prepar^d with vinegar 4 ounce of blue-cura beat ym to a conserve mix y^e steel with ym make of it into pills with powder of liquorice take 4 every morning and night purge once a week with some easy purge.

7. To make York Gingerbread.
 Take a pound and quarter of grated bread a pound of sugar cinamon and red saunders of each an ounce 3 quarters of an ounce of ginger mace and nutmegs of each half an ounce a few cloves put your sugar and spices into a pan with brandy and ale of each a gill set it over a gentle fire till it boyl yn put in half your bread stir it well let it boyl again put y^e rest of your bread into a boyl pour your stuff to it work it into a past with a quarter of a pound of flaxseed almonds cut into peices make it into prints you must keep a little of your spice out to print with.

8. Receipt for a dropsie
 Take a gallon of strong roost red sage ramoses Germanander of each a great handfull boyl ym till half the liquor is consumed.

الفصل الثالث

لندن فى العصور الوسطى والفترة المبكرة من العصر الحديث

الوثائق وحفظها فى لندن فى العصور الوسطى

جيفرى مارتين

استمرت العصور الوسطى أكثر من ألف عام ، شهدت لندن بزوغها وعاشتها وشهدت أيضا رحيلها^(١). وقد كان المجتمع اللندنى خلال تلك الفترة مجتمعا مرموقا تشابهت أوضاعه وأدواره بشكل كبير مع ما ميّز هذا المجتمع فى العصور التالية، وأنتج سكانها وحفظوا خلال القرون الأخيرة كمًا ضخما من الوثائق ، غير أن تعداد المصادر التى تشي بتاريخ المدينة عمل شديد الإضناء كما أن محاولة مناقشتها كلها ضرب من العبث ، فقد امتصت لندن فى العصور الوسطى ساوثوارك Southwark وعاصرت وستمنستر Westminster ، وضمت أكثر من 120 كنيسة أبرشية ورقما قياسيا من الكنائس الكلية ودور العبادة^(٢). وضمت طوائف صناع المدينة وثروات العديد من الشركات التى تدير مصادر تمويل خاصة بها^(٣). وقد أولى الملك اهتماماً كبيراً للتجارة فى المدينة ولثروات مواطنيها ، متابعاً أدق تفاصيل تلك التجارة وهذه الثروات ، لقد كان فى استطاعة مواطنى المدينة إدارة أعمالهم من جيلدهال بأقصى حرية ممكنة ، واعتمد كل ذلك على الوثيقة المكتوبة كأداة للتذكرة ، والإعلام والإرشاد فى إدارة الأعمال .

وفى خضم هذا الزخم الكبير من الوثائق تبرز أهمية البدء بوضع حدود للموضوع ، ويكفى لخدمة هدفنا أن نقتصر على المدينة نفسها، بالرغم من أن المجال الصغير نسبيا يستقطب الاهتمام العام، كما أنه ينعم بتوثيق بعض الكيانات التى يضمها. وتصور أول المصادر عن لندن بعد العصر الرومانى تلك المدينة كمركز تجارى برى وبحرى، ومركز للإدارة المدنية ، فهى أولاً مقر عرش الملوك الساكسونيين الشرقيين الذين اعتمدت قوتهم على ما يبدو على سيطرتهم على الشاطئ الشمالى

للتيمز، بما يحمله ذلك من إمكانية توسيع حدودهم فى سوراي Surrey^(٤) فقد أصبح ميلليتوس Mellitus رفيق القديس أوجاستين أسقفا للندن ورفع القديس بول على لودجيت Ludgate، ولكن تم ترحيله من البلاد بعد أن ارتد الساكسونيون الشرقيون إلى الوثنية، ولم تصبح لندن أبدا المقر الرئيسى للكنيسة كما أراد لها البابا جريجورى^(٥). وبحلول أواخر القرن السابع كان ملك كنت يجمع الضرائب فى لندن، وكانت تبعية لوردية^(*) لندن وثرواتها بعد ذلك تتبع السيطرة على الجزيرة، فكانت أولاً لمرسيا Mer-cia ثم - وسيكس Wessex بالرغم من أنه بعد الحرب الإسكندنافية الثانية استقر رأى على إبقاء مقر العرش الملكى والخزانة فى ونشستر Winchester حتى عصر أنجفين Angevin، ويبدو أن التجارة خلال تلك القرون قد انتقلت لفترة ما إلى شاطئ النهر حول ألدويتش Aldwych، بالرغم مما اكتُشف فى عام 1988 من أن الحى اليهودى فى سانت لورانس وجيلدهال بنيا على حافة المسرح الرومانى، وهو ما يحتمل معه مقارنة بما كان فى أرس Aries وجود تقليد غير واضح من وجود سلطة ما داخل تلك الأسوار، وبحلول القرن الحادى عشر أصبح من الواضح أن المدينة المسورة قد صارت مقر الثروة والقوة، ويشهد على تلك الحقيقة البرج the Tower فى الشرق، وقلعتين أصغر هما قلعتى بارنارد Barnard ومونتفيتشت Montfitchet فى الغرب، كما يشهد عليها أيضا استمرار استخدام الفاتح Conqueror لمقر الكونفسور Confessor فى وستمنستر Westminster^(٦).

ويعتبر التسجيل المفصل الوحيد لتنظيم مدنى فى لندن فى فترة ما قبل الغزو النورماندى هو تنظيمات طائفة لحفظ السلم، أى لمطاردة اللصوص^(٧). وتدل مشاركة الأسقف فى هذا المشروع على ضخامته، حتى أننا يمكن أن نتوقع وجود كل الأعيان فيه، ولكنه لا يعطينا أى إشارات عن المظاهر الأخرى للحكم، وهى المعلومات التى يمكن أن نستقيها من كتاب ويليام الأول^(**) William I الذى يؤكد فيه للندنيين استمرار عاداتهم القديمة خاصة فيما يتعلق بالميراث.

(*) المقاطعة الخاضعة لسلطة لورد (المترجم) .

(**) تسجيل الأراضى الإنجليزية الذى تم عام ١٠٨٦ بناء على أوامر من ويليام الأول .

وكان من الممكن أن نأمل في أكثر من ذلك (وليس كل ما يتمناه المرء يدركه) من معلومات عن المدينة في كتاب دومسداي Domesday Book والذي يبدأ بصفتين خاليتين في الجزء الخاص بميدلاسكس Middlesex^(٨) ولا يعنى ما أسقط من عائدات هنا، والذي قابله إسقاط من عائدات ونشستر من هامبشاير، أنه لا يوجد شيء يمكن أن يتعلق بلندن ، بل إنه يدل على حقيقة أنه في إطار القيود التي كان يجري فيها المسح الذي تم كانت البيانات أكثر من أن يستطيع مندوبو الملك أن يهضموها، ولكنه يحرماننا من فرصة التعرف على الوثائق التي كان المواطنون يحوزونها في نهاية القرن الحادى عشر. وتؤكد عائدات كلوشستر Clochester ووصول مواد مشابهة في شكل نسخ متأخرة في أماكن أخرى. أن حكام لندن قد كتبوا مذكرات عنها حول فترة 1086، كما أن غياب لندن من المسح يزيد من احتمالات وجود مواد أكثر للدراسة^(٩).

وقد تبدو حقيقة أن الوثائق البلدية للندن ليست الأولى من نوعها مفاجئة لنا للوهلة الأولى، إلا أن ذلك يتماشى مع تلك المؤشرات الأولية، فلندن ليست مجتمعا بل عدة مجتمعات، وهذه الوضعية الشديدة الخصوصية لإنجلترا هي أحد أقدم ملامح الحياة بالمدينة، فقد كان هناك مجلس شعب في المدينة ينعقد في كنيسة سانت بول، وتم إحيائه في فترة النشاط السياسى في القرن الثالث عشر، ولكن قاعته الرئيسية كانت هاستنج Husting ، كانت هاستنج ساحة للاجتماع تحت سقف واحد، وكانت تقابل ال بورتموت portmote في فترة ما قبل الغزو النورماندى أو قاعة بورو حرة لها امتيازات، ومارست سلطة ملكية مفوضة في المدينة ، وكان لها اسما اسكندنافية ربما له أصول قبل اسكندنافية^(١٠). وكان لها الهيمنة على جمهرة من المحاكم الخاصة pri-vate courts ، ربما يسهم عددها في تصعيب وصف لندن في عام 1086، ولكن كان هناك أيضا محكمة في كل دائرة من دوائر المدينة يرأسها نائب الملك للدائرة، وقد حفظت أيضا أدلة الملكيات^(١١). ولم تصلنا وثائق أصلية من محاكم نواب الملك، ولكن هناك آثار لأنشطتها في لفائف هاستنج وفي أماكن أخرى أيضا.

وتعتبر أقدم الوثائق التي وصلتنا عن إدارة المدينة بنفسها (تمييزا لها عن الصكوك الملكية وبعض المذكرات الثانوية)^(١٢) هي اللفائف التي تسجل العقود الخاصة المسجلة والوصايا الموثقة في Husting court^(١٣). وتبدأ المجموعة بعام 1252، وبالرغم من وجود فجوات بها الآن، فإن الوثائق المتأخرة تظهر أنها كانت في الأصل

كاملة على الأقل منذ ذلك التاريخ ، وقد استمرت طيلة العصور الوسطى ومازالت قائمة حتى الآن فى شكل أبسط، حيث أن المحكمة مازالت مختصة بشكل رسمى بتسجيل بعض نوعيات عقود مجلس المدينة.

ولا يوجد دليل على أن أول لفافة فى مجموعة هاستنج هى الأولى من نوعها، بل وهناك دلائل متأخرة على وجود لفائف أخرى مبكرة عنها^(١٤). ومن ناحية أخرى فقد تطورت الوثيقة بشكل ملحوظ خلال العقود القليلة التالية، فمن بداية اللفافة نجد تسجيلاً لمثل طرفى العقد فى المحكمة وقراءة العقد عليهما وقبولهما بشكل رسمى له. وكذلك الشهود يقرأ عليهم نص شهادتهم ويؤكدوها (يطلق على ال deed كلمة charter عندما يكون مجرد تسجيل لإقطاع، ويطلق عليه scriptum عندما يسجل تنازلاً أو تعديلاً للملكية) وتحدد الملكيات موضوع تلك الوثائق بواسطة الباريش أو الباريشات التى تقع فيها تلك الملكيات^(١٥)، بالشارع أو الأماكن العامة التى تواجهها، وكذلك العقارات المتاخمة لها. وقد استمرت العقود deeds تصاغ فى كل مرة تكتب فيها لعدة عقود، غير أن ورود ألفاظ مثل meum أو nostrum للدلالة على suum أحيانا تدل على أن الكاتب كان ينقل من وثيقة أمامه^(١٦)، وهناك تصرفات أخرى كان يشار إليها كثيراً وبتركيز وهى التفويضات الرسمية بالتملك وتنازلات النساء المتزوجات عن مهورهن عندما يتنازلن عن ممتلكاتهن لأزواجهن ، وكان يقيد بهامش الوثيقة أطراف العقد والرسوم التى دفعت فى المحكمة وكذلك الضمانة أو مبلغ المهر عند ورود أحدهما فى العقد.

وأول ما يجب ملاحظته فى مجموعة يمثل هذا الثراء الأرشيفى والتاريخى هو أن التسجيل هو توثيق للملكية record of title، لا يفصله عن انتقال الملكية الفعلى سوى خطوتين ، ففى إطار القانون العرفى فى القرون الوسطى كانت الملكية تنتقل عندما ينقل الواهب ملكية العين إلى الموهوب له فى وجود شهود، عن طريق فعل رمزى بقى أثره فى الطرق على باب الكنيسة التى يملك فيها أحد الموظفين الإنجليكانيين مصدر دخل جديد علم ذلك أم لم يعلم ، وبحلول القرن الثالث عشر كانت كتابة تصرف انتقال الملكية قد أصبحت تقليداً راسخاً، ولكن الوثيقة charter كانت دليلاً فقط وليست ناقلة للملكية ، بمعنى أنه بالرغم من أن الوثيقة كانت تسمى deed إلا أنها كانت فقط تسجيلاً لل deed.

إن عملية انتقال الملكية تشي بما اعتاد عليه أهل القرون الوسطى بمجتمعهم البسيط، من افتراض دراية كل عضو فيه بأعمال جاره^(١٧)، هذا إلى أن احتياج التصرفات العامة لقوة الوثيقة، في المملكة على امتدادها، وحيث تسود المجتمعات الصغيرة حجماً، كان في جزء منه نتيجة للزيادة في عدد أفراد المجتمع، وتعقد العلاقات فيه، كما أنه يعتبر من جانب آخر مؤشراً على نمو المهن القانونية الذي صاحب هذه العملية، بدورها الرئيسي في تلك الظروف. وقد أدى حجم المجتمع والتحول في تركيبته للميل للاحتياط في البداية ثم للشعور بضرورة هذا الاحتياط، ويمكننا أن نرى ضغوط القانون العرفي في اهتمام الكتبة بإعلانات ضمان الخلو من العيوب، كما يذكرنا اهتمامهم بنصيب المرأة في ميراث زوجها ليس فقط بالحماية التي كانت تتمتع بها جداتنا في العصور الوسطى بقوة القانون والتقاليد، بشكل يفوق ما تتمتع به حفيداتهن، ولكن أيضاً بأن مستودع رأس المال الأمثل كان في الممتلكات الثابتة في هذا المجتمع التجاري، فعادةً ما كانت الزوجة تعمّر بعد وفاة زوجها وكثيراً ما تتزوج مرة أخرى. لذا كان من المهم بل ومن الضروري بذل أقصى جهد لتأمين وثيقة ملكية سليمة.

وقد كانت تلك الظروف سائدة في كل البورو الحرة، التي كانت هي التجمعات الوحيدة التي لها محاكم خارج وستمنستر هول تستطيع أن تسجل تنازلاً نافذاً عن المهر^(١٨)، وقد كان مجتمع لندن يتميز بتعدد علاقات مجتمعه وكثرتها، وبما أن محكمة البورو قد حوت الذاكرة الجمعية لمواطنيها، فقد كان من المتوقع أن يضمن الحفاظ على تلك الذاكرة بحلول القرن الثالث عشر عن طريق الاحتفاظ بوثائق مكتوبة، وقد كان للندن الفرصة والإمكانات لتحفظ بوثائق أفضل من تلك التي كانت للمدن الأخرى، غير أن حجم العمل في ذلك الوقت كان مشكلة في حد ذاته.

لقد كان للفائف هاستنج دور محدد عام 1252 واستمرت على اختصاصها بتسجيل الوثائق، ولا توجد لفائف لقضايا في هاستنج حتى عام 1272، حيث ظهرت لفائف القضايا في هذا العام وتلاها بعام لفائف قضايا الأراضى. ومرة أخرى لا يوجد ما يدل على أن « أن أياً من الصنفين هو الأول من نوعه »^(١٩). والصنفان قد سجلا قضايا، من الواضح أنها بدأت قبل بدايات هاستنج، سواء بنفس الأسماء أو بأسماء أخرى، كما أن تسجيل الملكية كان بأحد المعاني مكماً لقضايا الأراضى. ولنا أن

نتصور أن لفائف العقود والوصايا كانت أسبق في الظهور، والاحتمال الأكبر أنها كانت منفصلة عن تسجيل أكثر شمولية، ومن المحتمل جدا أيضا أنه لو كان توثيق الأعمال مزدهرا فإن قضايا الأرض، والتي كانت تصرفات حقوق بدأت بالأوامر الرسمية، تكون قد تمايزت قبل - وليس بعد - القضايا العامة التي هي تصرفات شخصية. إن نمط اللفائف التي وصلتنا لا يعنو كونه نتيجة الصدفة التاريخية (بقايا نظام كانت الأعمال تسجل فيه في هاستنج دون تمييز لطبيعتها) ولكنها انقسمت في النصف الأول من القرن إلى مجموعتين، ثم إلى ثلاثة أو ربما إلى ثلاثة من البداية، وإن مجموعة الاعتراف بالملكية والتي هي أفضل المجموعات من حيث الشكل وحالة الحفظ، كانت تحفظ بشكل منتظم منذ تاريخ مبكر عن المجموعتين الأخريين.

وتقدم لفائف الملكية والوصايا إشارات حول أسباب استمرارها ، فهوامش تلك اللفائف تقدم وصفا مبسطاً لمحتواها، حيث نجد فيها أسماء الأطراف، ونوعية الوثيقة المسجلة، وبعض بنود الوثيقة والرسم المدفوع ، وهذه الهوامش كانت وظلت تساعد الكاتب عند انتقاله من صياغة النص إلى مرحلة كتابته كاملا، وهو الأسلوب الذي ظل متبعاً منذ 1298 ، ولا بد أن أكثر ما كان يدفع للرجوع لمداخل بعينها هو التأكد من صحة الملكية والتعامل عليها، غير أن ذكر الضمانات قد يظهر فيه بعض الاهتمام بالنوعية. وقد كانت هناك بالتأكيد مسحات أخرى من هذا النوع، حيث أن الأراضي الموقوفة على إقامة قداس على روح الواقف كان يشار لها بانتظام في الهامش، واستخدمت علامات كثيرة لتمييز الأملاك الأكليريكية عن الأوقاف الدينية الأخرى^(٢٠).

هناك وثائق أخرى ظهرت لأول مرة أثناء وجود لفائف هاستنج ، فهناك حوليات عن موظفي الدولة والأحداث البارزة وسن التشريعات "Liber de Antiquis Legibus" والذي ربما كان واضعه هو نائب الملك أرنولد فيتز ثدمار Arnold fitz Thedmar في بدايات سبعينات القرن الثالث عشر^(٢١) ، وهناك أيضا سلسلة كتب الحروف Letter Books، وقد أطلق عليها هذا الاسم نظرا لأنها عنونت فيما بعد بالحروف الأبجدية A - zz والذي بدأ عام 1275^(٢٢) ، ونجد في كتاب الحروف "A" بعض الملاحظات حول تعيين موظفين غير أن استخدامه الأساسي كان في تسجيل صكوك الدين والتي وجدنا واحدا أو اثنين منها فقط مسجلا في لفائف هاستنج أيضا، لسبب غير معلوم ، وكان في تلك الكتب مذكرات، كما أنها استخدمت أيضا كسجل لمحكمة نواب الملك

ومحكمة مجلس العموم^(٢٣) . ويبدو أنها أُلِّفت في وقت سابق، بالرغم من أن كتاب الحروف "A" ربما يكون فقط أقدم ما بقي منها، حيث أن لفائف هاستنج كانت سجلا ناجحا في تخصصه، وله وظيفة خاصة متميزة، ولأن وثائق الدين - بالرغم من أهميتها في وقتها - إلا أن عمرها قصير ، ولو كان ذلك كذلك بالفعل فقد اجتذبت مواد أخرى ثم أصبحت السجل الرئيسى للهيئات الإدارية والتشريعية الرئيسية فى المدينة .

وفى نفس هذا الوقت ظهرت وثائق أخرى متخصصة: تسجيل الديون أمام رئيس البلدية منذ 1285، ولفائف التحقيق فى الوفيات المشتبه فيها منذ 1300، وأقدم وثائق تتعلق بنظر المدينة فى قضايا التاج، ووثائق محكمة رئيس البلدية، والتى بدأت ككيان ملحق بهاستنج - يلتئم يوميا - للنظر فى كل القضايا التجارية منذ 1298^(٢٤).

وهناك سلسلة عظيمة من التجارب الأرشفية التى بدأت حوالى 1312، وعلينا أن ننظر إليها من خلال تلك الخلفية من التجديد الشامل والتراكم الكبير للوثائق. وقد جمعت قائمة بكل التسجيلات فى هاستنج، غالبا تحت إشراف أندرو هورن Andrew Horn، أمين خزانة المدينة، ودونت فى مجلد عنوانه Numerus cartarum et scriporum inrotulatum in Guyhalda Londonie واستمرت حتى 1321^(٢٥) وترجع أهمية هذا العمل الخاصة إلى أنها توضح أن الكتاب لم يكونوا على دراية بأى لفائف قبل لفافة هاستنج 1 التى تعود لعام 1252، غير أنهم كانوا يتعاملون مع العديد من اللفائف التى تحمل حوالى 200 مدخل فقدت منذئذ.

وقد رتبت قائمة ال Numerus باسم الطرف الذى كان وراء إخراج تلك الوثيقة فى المحكمة وطلب تسجيلها ثم اسم الواهب ، كما سجلت فيها الوصايا باسم الموصى، وكانت عادة ما تنسب العقود التى يبرمها منفذ الوصية إلى الموصى^(٢٦) . وقد كانت محتوياتها مقسمة برأس الموضوع الفرعى فقط حتى 1313 مؤرخة بسنة الحكم، ثم بدأت يعد ذلك فى التأريخ بتاريخ المحكمة، مشيرة إلى ما إذا كانت الحالة قضية أرض أو قضية عامة . وربما بدأ فى هذه النقطة التعامل مع الوثيقة الجارية. ومن الملاحظ أيضا أنه بينما كان أسلوب تدوين لفائف هاستنج حتى ذلك الوقت أسلوبا ديوانيا، كان أسلوب ال Numerus يتبع نفس أسلوب دفاتر الحسابات، بمعنى أن

النص يجرى فى رأس الصفحة على الوجه والظهر، واتبعت لفائف هاستنج نفس الأسلوب منذئذ ، وقد كانت اللفائف السابقة تتطلب مجهوداً أضخم فى التعامل معها لأى سبب حيث بلغت بين 70 و 80 قدماً طولا، مما كان يستلزم الفض والطي مراراً وتكراراً للاطلاع عليها، وهو ما يحتمل معه وجود أسلوب أفضل لتمثيلها^(٢٧).

وقد توقف استخدام ال Numerus سنة 1332 ، ولكن تلاها دليل آخر ، وكان من الورق وأطلق عليه الحوليات القديمة 15 "Ancient Calendar " ، ويبدو أنه بُدئ فيه فى أوائل الخمسينات من القرن الرابع عشر اعتماداً على اللفائف الأصلية وليس على ال Numerus.28^(٢٨). تؤرخ بالمحاكم منذ 1303 - 4 ، أى قبل ال Numerus بعشر سنوات، وبها ملاحظات وتصويبات تشير إلى اللفائف مباشرة ، وقد دونت فى عمودين كتبت مداخلهما بالأحمر والأزرق تبادلياً حتى 1353 ثم استخدم الأحمر فقط حتى 1386. وبما أن النص كان يكتب باكتراث أقل منذ 1353 فربما يشير ذلك إلى أن تلك السنة هى النقطة التى بُدئ فيها التعامل مع الوثائق الجارية، وتستمر النصوص حتى حكم إيوارد الرابع عندما تقلص عمل المحكمة بشكل كبير.

وبعد بداية الحوليات بوقت قليل أدخل عليها تحسين تمثل فى أداة بسيطة وهى الفهرس الأبجدى، بالحرف الأول من اسم الموهوب له فى الهامش، و صليب للإشارة إلى الوصايا ، وقد قلل ذلك من المجهود اللازم للعثور على مدخل بعينه، بالرغم من بدائيته إلا أنه كان أكثر الأساليب تقدماً فى وقته^(٢٩). ويدل استخدام العلامات واللون للتدليل على المداخل على إعمال الفكر فى عمليات استرجاع المادة من هذا الكم الهائل من الوثائق .

وقد زيد فى استخدام الفهرسة فى سبعينات القرن الرابع عشر ، فقد احتوت الحوليات القديمة Ancient Calendar على قائمة بالوصايا المسجلة منذ 1252 مرتبة أبجدياً باسم الموصى بدءاً من حرف A وحتى حرف Y بترتيب تسجيلها التاريخى داخل الحرف ، وحيث أن المداخل كلها كانت مؤرخة فقد كان من السهل إضافة التواريخ لبعض العناصر التى سجلت فى Numerus والحوليات القديمة 15 من واقع وثائق فقدت الآن ، ويعتبر هذا النص نقلاً أميناً لحوائى 40 مخطوطة ورقية بلا أخطاء تذكر. وقد كان استخدام الورق غير شائع فى هذا الوقت، غير أنه لم يكن نادراً،

وربما تدل دقة النص إلى احتمال كتابة المادة على ورق أولا ثم فهرستها، وهى مزية لم ينعم بها من يرتب البيانات على الورق المرتفع الثمن .

وقد انتشرت الوثائق خلال وبعد القرن الرابع عشر ، وإلى جانب لفائف الحروف المشار إليها آنفاً^(٣٠) هناك وثائق جلسات المحاكم للنظر فى قضايا الضرائب الصغيرة منذ 1301^(٣١) ولفائف جلسات المحاكم للنظر فى قضايا الملكية والأيلولة منذ سنة 1340^(٣٢). ومما يشير إلى خطورة التكهّن بأصول أى مجموعات وجود لفافة منفصلة لمحكمة العمدة بين عامى 1318 - 20 ، أى تسبق أول وثائق تالية لمحكمة بحوالى قرن^(٣٣). وترجع وثائق حسابات أمناء الجسور *bridgemasters* للفترة ما بين 1380 و 1405، ثم حفظت الحسابات السنوية بعد ذلك مع الإيجارات والتي بدأت منذ 1404 واستمرت حتى القرن العشرين، غير أن أرشيف عقارات بريدج هاوس *Bridge House* يبدأ بوثائق ترجع لأواخر القرن الثانى عشر^(٣٤). وقد سجلت جلسات محكمة نواب الملك ومحكمة مجلس العموم فى سلاسل من الحوليات منذ 1416، بالرغم من أن وثائق نواب الملك نقلت إلى مجلدات أطلق عليها *repertories* منذ 1495 ، ومازال الاثنان مستخدمين حتى الآن^(٣٥). أما وثائق الشركات العاملة فى المدينة والتي بدأت بعد ذلك بقليل فهى تتبع نفس النمط والطبيعة بشكل عام^(٣٦).

وقد استمرت التجارب الأرشيفية بالطبع ولكن بميل أقل للتجديد ، فقد تم توسيع الحوليات القديمة 15 بالحوليات القديمة 3 منذ 1461 وحتى 1560 ، والحوليات القديمة 2 التى أصابها الكثير من التلف وهى غير كاملة، تمثل محاولة لتوسيع فكرة الحوليات القديمة 1 لتشمل العقود المسجلة ، وهى تغطى الفترة منذ 1280 وحتى 1376، ولكنها كتبت فى القرن الخامس عشر، وربما أريد بها أن تغطى - وربما نجحت فى ذلك بالفعل فى الأصل - فترة أطول ، وقد كانت أفضل بكثير من فهرس الوصايا، ولكن التجديد الوحيد الذى ظهر فيها كان تقسيم المادة إلى فترات قصيرة نسبياً، وربما أدى ذلك لتسهيل جمعها وفهرستها ولكن على حساب صعوبة أكثر فى الاستخدام، أصعب من نموذجها الأصلى ، الحوليات القديمة 1^(٣٧)، وقد تشير تلك الأعمال إلى قوائم اللفائف التى شملها كتاب الحروف D ربما فى بداية حكم إدوارد الرابع، والتى تشير إلى وجود لفائف هاستنج منذ العام الثامن عشر لحكم هنرى الثالث (1233 - 4) ،

ولا توجد فيها إشارات أدق لنوعية تلك اللقائف، وعلينا أن نخمن ما إذا كانت تلك اللقائف الأقدم تخص العقود والوصايا أو تخص أعمال عامة في هاستنج^(٣٨).

ومن اللافت للنظر في أدوات الاسترجاع التي وصلتنا من أرشيفات لندن في العصور الوسطى أنها لا تمت بأدنى صلة لما كان سائدا في الحكومة المحلية للمدينة آنذاك ، فقد تم تحسين لقائف هاستنج في فترة كانت لندن فيها بيد أمين ملكي، ولكن لا يوجد ما يدل على أن كتبة الملك لعبوا أى دور في إدارتها. فقد كان للكاتب العام حرية أكبر من ذي قبل مكنته من أن يصنع لنفسه مهنة سياسية^(٣٩)، وقد اعتمد نائب الملك هورن Horn على الأرشيف ليؤلف Liber Horn ضد الخلفية الممزقة لتنافس إدوارد الثانى مع اللوردات وغيرهم^(٤٠)، وهناك إشارة في Numerus إلى إجمالى الرسوم التى كانت تدفع فى المحكمة منذ 1314 برىما نتيجة لتطبيق أمر مالى صادر سنة 1311^(٤١) ، لكن الانطباع العام الذى نخرج به أن السياسة قلما أثرت على حفظ الوثائق.

وتدل تلك القوائم والفهارس على الكم الهائل للوثائق وترقيمها منذ القرن الثانى عشر والحاجة المستمرة لتنظيمها واستخدام المعلومات التى تحتوى عليها ، وقد شهد عصر إدوارد الثانى أول محاولة كبيرة لتنظيم الوثائق العامة الخاصة بالتاج، وكان وراءها الأسقف والتر ستابليدون Walter Stapledon والذى كانت مكافأته - كسياسى وليس كأرشيفى - هى الاغتيال فى شيبسايد Cheapside على يد فرد من الغوغاء فى لندن^(٤٢) ، وهناك دلائل على وجود جهود أخرى متفرقة لتصنيف وتلخيص الوثائق. وهو أمر لا يثير الدهشة فى حد ذاته، ولكن يبدو أن القرن الرابع عشر - أى أواخر أول فترة نمو اقتصادى واجتماعى كبيرة فى أوروبا - قد أفرز أيضا اهتماما عاما بالوثائق أدى لظهور أساليب جديدة للعناية بها. فقد كان المجتمع مازال مطبوعا بالشفاهة أكثر من الكتابة، غير أن الكلمة المكتوبة لم تعد فى هذا الوقت محصورة فى حيز ضيق بل توسعت ونادت باستخدامات جديدة فى عملية يسبقها تاريخ طويل.

الهوامش

- (١) انظر : Ox- M.D. Lobel (ed). , The City of London from Prehistoric Times to c. 1520 (Oxford, 1989, 2nd edn., 1991) C.N.L. Brooke and G. Keir, London, 800 - 1216: The Shapiney of a City (1975) P.E. Jones and R. Smith, A Guide to the Records in the Corporation of London Records Office, and the Guildhall Library Muniment Room (1951)
- (٢) هناك دراسات قيمة لمجتمعى ساوثورك ووستمنستر فى D. J. Johnson, Southwark and the City (Oxford, 1969) و G. Rosser, Medieval Westminster, 1200 - 1540 (Oxford, 1989) .
- وتوجد نماذج متعلقة بالكنيسة فى The Cartulary of Holy Trinity, Aldgate, ed. G.A..J. Hodgett, London Record Society (= LRS) VII (1971) ; The Church in London , 1375 - 29, ed. A. Mc Hardy, LRS xii (1977) 'and Westminster Abbey Charters , 1066 - c. 1214 , ed . E. Mason, LRS XXV (1988) .
- (٣) بالنسبة للشركات انظر . G. Unsin, The Gilds and Companies of London (2nd edn. 1936).
- (٤) انظر (J.E. B. Gover, A. Mawer and F. M. Stenton, The place - Names of Surrey Cambridge, 1934) , xii - xvii .
- (٥) انظر, C.N. L. Brooke, The earliest times to 1485; in A History of St Paul's Cathedral , ed. W.R. matthews and W. M. Atkins (1957) , 2 - 6 .
- (٦) انظر C.N.L. Brooke, The central Middle Ages' و M. Biddle, A city in transition , 400 - 800 in Lobel , City of London, 20 - 29, 30 - 41 .
- (٧) For the text of the Jucidia civitatis Lunonie, se W. Stubbs (ed.) Select Charters and other Illus tration of English Constitutional History (9th edn., Oxford, 1913), 75 - 7.
- (٨) انظر G.H. Martin, Domesday London, in the Middlesex and London Domesday , ed. A. Williams and G.H. Martin (1991) , 22 - 32 .
- (٩) انظر G.H. Martin, Domesday Book and the boroughs ! in Domesday Book : a Reas- sessment, ed. P. Sawyer (1986) . 157, 161 .
- (١٠) انظر P. Nightingale, The origin of the Court of Husting and Danish influence on Lon- don's development as a capital ciy, English Historical Review (HER) , CIV (1987) , 562 - 3 .

(١١) لم تكن هيمنة هاستنج نتيجة لتنافسها المباشر مع المحاكم الخاصة ولكنه نجم عن أصولها وعن التطورات الاجتماعية وغيرها ، بما فى ذلك نمو القانون العلم الذى عزز من ارتباط أفراد المجتمع ، وقد لاحظ جى ايه وليامز G.A. Williams مظاهر مشابهة فى تطور ward court فى أواخر القرن الثالث عشر G.A. Williams, Medieval London : From Commune to Capital (1963) , 32 - 3 > For the socks,ieval Lon see Martin, Domesday London, 27 - 8, and for the natable status of Portsoken Ward , ibid, 28

(١٢) تلقت المدينة أكثر من 60 صكا ملكيا قبل 1500 ، وجمعت 50 أخرى منذ ذلك الحين . انظر jones and Smith, Guide , 18 -22 وبالنسبة لتجميع المذكرات الإدارية التى تعكس الطبيعة الفردية الظاهرة للموظفين المدنيين ، وربما تشرح اختفاء العديد من الوثائق المبكرة ، انظر M. Bateson, A London munic- ipal collection of the reign of John, HER, XVII (1902) , 480 - 511, 707 - 30.

(١٣) انظر G.H . Martin , The Husting Rolls of Deads and Wills, 1252 - 1485 ; Guide to the Microfilm Edition (Cambridge, 1990) ; and R.R. Sharpe, Calendar of Wills proved and enrolled in the court Court of Husting , London, 1258 - 1688 (1889 - 90).

(١٤) عنوان الدرج الأول (37 henry III, 1252 - 3) Annus tricesimus septimus ، وهى صيغة ربما تدل على أنه كان هناك عنوان أكثر تفصيلا فى موضع أسبق ، حول وجود لفائف منذ 1233 انظر أواخر هذه الورقة .

(١٥) وضع طبيعة المداخل أن الداشرة parish كان ينظر لها باعتبارها أرضا محددة معروفة الحدود ، أكثر من كونها مجموع الأراضي التى يجمع ملتزمها عشورها ، كما كانت فى الواقع .

(١٦) ونلاحظ وجود ممارسة مشابهة فى وثائق capciones ، أو الالتزام بالعقد recognizances of title فى عشرينات القرن الثالث عشر فى والنجفورد Wallingford ، وهى أقدم وثائق وصلتنا من نوعها : انظر G. H Martin, The registration of deeds of title in the medieval borough, in the study of Medieval Records : Essays in honour of Katheleen major, ed. D. A. bullough and R. L. Storey (Oxford, 1971) , 155 - 8.

(١٧) نشير هنا إلى الهوة بين النظرية والتطبيق ، حيث أن منفذى النصية كان ينظر إليهم على أنهم يستولون على الممتلكات التى يذكرها لهم الموصى على فراش الموت ، وهو ماصعب تنفيذ in extremis ولم تكن الهوة فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى وقت آخر ، ولكننا رأينا التركيز عليها حيث أن كثيراً من القرائن التى نعتمد عليها تستند إلى القانون ومنفذه . انظر M > M> Sheehan, The Will in Medieval England, from the Conversion of the Anglo - Saxons to the End of the Thirteenth Century (Toronto, 1963) , 270 - 79 .

(١٨) انظر . G.H. Martin, The registration of deeds of title in the medieval borough, 153 - 4 .

(١٩) انظر هامش 14.

(٢٠) ومن أمثلة ذلك الإحصاء للوثائق كان مسح الأملاك الإكليريكية الذى جرى عام 1392 ؛ انظر A. K. Mch Hardy (ed.) The Church in London , 1375 - 92, LRS XII (19677) , xv - vi , 39 - 77.

(٢١) انظر T. Stapelon (ed.) , De Atiquis Legibus Liber :Chronica Majorurn et Vicecomit- um LondoniLandoniarum , 1188 -1274 (1846); and G. A . Williams, London, 20 - 21, 40 - 41 .

(٢٢) يوجد على الإجمال 50 جزءاً من كتب الحروف ، نشر منها محتويات الحروف A - L ملخصة :

R.R. Sharpe (ed.), Calendar of Letter Books preserved among the Archives of The Corporation of the Letter Rolls: See هناك تسجيل تال للمراسلات المدنية فى City of London , 1275 - 1498 (1899 - 1912).

R. R Sharpe (ed.) , Calendar of Letters of from the Mayor and Corporation of London , 1350 - 70 (1885) ; and Jones and Smith , Guide to the Records, 31 - 2.

(٢٣) انظر Jonrs and Smith, Guide to the Records, 30, For the composite charter of the early Letter Bookds, see C. Keene and V. Harding, A Survey of Documentary Sources for Propey Holding in London Before the Great Fire, LRS XXII (1985) , 3.

(٢٤) Ibid.m 60 (coroner's rolls) , 64-5 (mayor's court and plea and memorandoa rolls) , 68 nirecogn rols) . the first nine mayor's court rolls were published by A. H. Thomas (ed.) , Calendar of Early Mayor's Court Rolls, 1298 - 1307 (Cambridge, 1924) , followed by A. H. Thomas and P.E> Jones (eds.) , Calendar of Plea and Memoranda Rolls, A.D. 1323 - 1482 (Cambridge, 1926 - 61).

Corporation of London Records Office, Ancient Calendar 16. (٢٥)

(٢٦) انظر هامش 17 .

(٢٧) انظر للمزيد فى هذا الموضوع Martin, Histing Rolis , 12 - 14

(٢٨) Ibid, 14 - 16 .

(٢٩) Ibid , 15 - 16 and n'; and Alphabetization rules, in International Encyclopaedia of In-formation and Library Science (1996) .

(٣٠) انظر هامش 22 .

(٣١) انظر Jones and Smith, Guide to the Records, 68' and H.M. Chew and W. Kellaway (eds.), The London Assize of Nuisance, 1301 - 1431 -: a Calendar, LRSX (1973)

(٣٢) انظر Jones and Smith, Guide to the Records , 59; and H. M. Chew (ed.) , London Possessory Assizes : A Calendar, LRS I (1965).

(٣٣) انظر Jones and Smith, Guide to the Records, 66 .

(٣٤) انظر Jones and Smith, Guide to the Records, 56 - 8; وكذلك المادة الرابعة فى Guildhall Art Gallery, To God and the Bridge :The Story of the City's Bridges (1972).

(٣٥) انظر Jones and Smith, Guide to the Records, 30 - 31 .

(٣٦) بالنسبة للشركات بشكل عام انظر Guildhall Library, City Livery Companies and related Organization : A Guide to their Archives in Guildhall Library (3rd edn., 1998); and Unwin, The Gilds and Companies.

(٣٧) للمزيد فى هذا الموضوع انظر Martin, Husting Rolls , 16 .

Ibid. 17. (٢٨)

Williams, Medieval London, 243 - 63 انظر (٢٩)

N. R. Ker , Medieval Manuscripts in British Libraries, voll : London انظر Liber Horn عن (٤٠)
(Oxford, 1969) , 27 - 34, and J . Catto , Andrew Horn : law and history in fourteenth - century
England in J. M Wallace - Hadrill and R.H.C. Davis (eds.) 'The Writing of History in the Middle
Ages : Essas presented to R. W . Southern (Oxford, 1988) , 367 - 91.

.Williams, Medieval London, 270- 71 انظر (٤١)

V.H. Galbraith,' The Tower as an Exchequer record office in the reign of Ed- انظر (٤٢)
ward II in 'A. G . Little and F.M. Powicke (eds.), Essays in Medieval History presented to
Thomas Frederick Tout (Manchester, 1925) , 231 - 47.

من مدينة صغيرة إلى متروبول مركب : وثائق حول تاريخ لندن (1500 - 1720)

فانيسا هاردنج

كثيرا ما يشار إلى غرابة وضع لندن في أواخر القرن العشرين بين المدن الكبرى ؛ حيث أنها ليس لها سلطة متروبولية مركزية ، ويعزى ذلك مباشرة - بالطبع - إلى السياسات التي اتبعت في العشرين سنة الأخيرة، وإلغاء مجلس لندن الكبرى Greater London Council ، غير أن مظاهر البنية الحالية لحكومة لندن تضرب بجذورها في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ حيث أن التوترات السياسية لتلك الحقبة والدور الفاعل الذي لعبته مدينة لندن في معارضة التاج في ثلاثينات وأربعينات القرن السابع عشر، ثم مرة ثانية في ثمانينات نفس القرن، أثرت في كيفية تطور الحكومة المتروبولية فيما بعد. ولا يوجد أرشيف حكومي أو إداري يغطي بمفرده كل الفترة المبكرة من لندن الحديثة، على غرار ما يقوم به الأرشيف البلدي من تغطية، إلى حد كبير، في فترة العصور الوسطى ، فالوثائق المتعلقة بحكومة لندن الحديثة في الفترة المبكرة موزعة الآن بين دار محفوظات مجلس مدينة لندن (الوثائق الخاصة بحكومة المدينة)، وقسم المخطوطات بمكتبة جيلدهال (وثائق الباريش، والوارد، ونقابات الصنائع وأصحاب الحرف، بين وثائق أخرى، تغطي منطقة المدينة بشكل عام)، ودار محفوظات لندن الكبرى (الأبرشيات والهيئات الدينية الأخرى، بالإضافة إلى وثائق إدارية متعلقة بالمتروبول الحديث)، الأرشيفات المحلية (وتشمل مدينة وستمنستر، وبعض البورو مثل هاكني Hackney التي ورثت وثائق عن أسلاف إدارية أخرى)، ودار المحفوظات العمومية (وثائق نشاط الحكومة القومية)^(١) .

ومن الجدير بالذكر هنا أن حقيقة امتلاكنا لهذا الكم الذي بين أيدينا مرجعه إلى أحد السمات الهامة في تاريخنا المحلى والقومى: الغياب النسبى للقلق أو الكوارث الأهلية، والاستقرار السياسى الواسع ، وبالرغم من وقوع بعض أعمال الشغب والإخلال بالنظام بتوجيهات سياسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - فإن المشاركين فيها لم يعمدوا إلى الهجوم على الأرشيف البلدى بنية التدمير كما حدث فى مجلس مدينة باريس عام 1871 ، وحتى الحريق العظيم الذى شب عام 1666 لم يصحبه انهيار للنظام العام، ولم يفقد إلا عدد قليل من الوثائق ، وحتى العاصمة المستقرة للدولة القومية فلم تنتهك حدودها أبدا، حيث لم تمر لندن بأى غزو أو احتلال معادى ، ولم يختبر وضعها كعاصمة لإنجلترا وبريطانيا اختباراً جاداً ، هذه الأحداث أو بالأحرى غيابها قد ساهمت بالفعل فى حفظ وثائق عصرها الحديث المبكر ووصولها إلينا .

وما يعترض طريقنا فى دراسة لندن فى الفترة بين حوالى 1500 و 1720 يعكس تحول هوية لندن وتغير طبيعة الحكومة فى تلك الحقبة ، وأول ما يعترضنا يمكن الإشارة إليه ببساطة ، فنحن نعلم أن لندن كانت فى عام 1500 مدينة « صغيرة » منظمة تنظيماً جيداً ومتماسكة، وأصغر نسبياً مما كانت عليه قبل الوباء الأسود، ولكنها كانت تملك تقاليد عريقة لحكومة مستقرة ومؤسسات قوية البناء كان يبدو أنها تستطيع أن تتكيف بسلام نسبى مع التغيرات عندما تقع ، وكان تعداد سكانها حوالى 50.000 نسمة يعيش ثلاثة أرباعهم على الأقل داخل الأسوار أو فى الضواحي المتاخمة لها ، تحت سلطة العمدة ونائب الملك فى جيلدهال ، ووراء تلك الضواحي كان هناك شريطان يتطوران، ومستوطنتان تابعتان هما ساوثوارك Southwark ووستمنستر Westminster يبلغ حجم كل منهما حجم مدينة إقليمية متوسطة ، وكان لكل منها سلطته المركزية، حيث كان لساوثوارك حقوق ووضع البورو ولكن تحت وصاية المدينة، ووستمنستر تحت الحكم الإقليمى للآبوت Abbot وتوضح صور الخرائط التى ترجع للقرن السادس عشر هذه المحدودية فى الحجم وطبيعة الاحتواء العمرانى؛ فالمدينة الكثيفة البنيان تقع فى تقابل واضح وسط الحقول الخضراء حتى يمكن أن نرى إجمالى المنظر كهوية، ليست طوبوغرافية فقط، ولكنها أيضاً فكرية^(٢) .

وقد تغير كل ذلك فى نهاية القرن السابع عشر ، فالنمو السكانى فى البلاد، والهجرة الكثيفة من الأقاليم إلى لندن، والنمو الاقتصادى غير المسبوق كل ذلك أدى إلى نمو عدد سكان العاصمة لأكثر من نصف مليون ، كما نمت المدينة جغرافيا أيضا: فالتحمت المدينة مع وستمنستر بالتحام مبانيهما، وما كانت من قبل قرى ومستوطنات بدأت تتواصل جغرافيا مكونة وحدة حضرية ناشئة واحدة. وأصبحت لندن الآن متروبول يتمدد وتنوع مراكزه، ممتدا من بيكاديللى Picadilly إلى لايمهاوس Limehouse يتمتع بتنوع شديد فى الثراء المحلى، والطبيعة الاجتماعية والبيئة ، وأحد المظاهر المحورية فى هذا التطور هو أن عمدة المدينة ونواب الملك استمروا يحكمون نفس المناطق الجغرافية التى كان يحكمها أسلافهم: فالمناطق الحديثة النمو فى المتروبول تتميز بتنوع بنية الحكومات وضعفها، لها طبيعة خاصة. وقد خضعت المنطقة المركزية من ساوثهوك إلى سيطرة أكبر للمدينة عام 1550، بينما حلت محكمة سكان البورو Court of Burgesses محل المحكمة الإقليمية ، بينما لم يبق فى مناطق أخرى إلا بقايا القضاء الإقليمى والإقطاعى، وقضاة الصلح، وعاملين بالأبرشيات لخدمة قانون إعانة الفقراء (٣).

لماذا لم تمتد الهوية القضائية للندن لتشمل المناطق الجديدة التى استعمرتها العاصمة؟ من الصعب أن نجد إجابة على هذا السؤال، ولكن جزء من هذه الإجابة هو أنه فى القرن السادس عشر نظرت سلطات المدينة والحكومة المركزية (مجلس شورى الملك Privy Council) للتطور والنمو السريع فى السكان والمناطق المبنية فى لندن بعين الحذر والعداء، ولكنهم أيضا اعتقدوا، وربما بسذاجة، أن هذا يمكن أن توقفه التشريعات، مثل التشريعات المتكررة ضد البناء حول حدود المدينة وتقسيم البيوت القائمة لتستطيع أن تؤوى عددا أكبر من السكان ، لقد قاومت المدينة ومجلس شورى الملك قبول حقيقة وجود نمو واستحالة تراجعه، فأبطأوا بالتالى فى الاهتمام بإجراء تغييرات على بنية الحكومات القائمة والحدود القضائية ، ويمرور الوقت ازدادت الحاجة للاستجابة للتطورات الجديدة إلحاحا، وكانت العلاقات بين المدينة والحكومة المركزية فى القرن السابع عشر تشهد توترا كان من المستحيل معه الوصول لاتفاق حول إعادة هيكلة التنظيم الإدارى والقضائى ، وكان على المدينة أن تتكبد تكلفة فادحة فى إدارة الضواحي التى كانت فى مجملها أكثر فقرا وأقل تنظيما من مركز

المدينة القديم . ولم يشأ التاج أن يرى حكومة متروبولية تتمتع بسلطات متزايدة ، وحاول تشارلز الأول أن يحل المشكلة بإنشاء مؤسسة سلطوية منافسة للمدينة، ونظر إلى ضم الضواحي على أنه عمل عدائي بالمدينة، وشأنها شأن المحاولات الأخرى لإعادة هيكلية الحكومة المحلية بدوافع سياسية، كانت تلك المحاولة باهظة التكلفة وغير ناجحة^(٤).

وكانت النتيجة أنه، بينما تمتعت المدينة بنظام حكومي فعال إلى حد كبير، افتقرت الضواحي في القرنين السادس عشر والسابع عشر لمثل هذا النظام تماما ، وكانت المحاكم الإقليمية مثل تلك الخاصة بستيبنى Stepney في الضواحي الشرقية تعين وكلاء كنائس ومسئولى أمن، ولكن تعداد سكان منطقة أبرشية ستيبني كان يقارب عدد سكان مدينة إقليمية كبيرة ، وقد كانت كل من قراها الصغيرة الثمانية أو العشرة مرشحة لأن تصبح مستوطنة حضرية، بيد أن أياً منها لم يكن له البنية الأساسية الإدارية لأى بورو أو قرية إقطاعية قديمة. ويزداد دور الأبرشية كوسيط لنشاط الحكم المحلى زادت الفوارق بين الموارد والمسئوليات فى الأبرشيات الضواحي.

واستمر هذا الوضع بل وأصبح مؤسساتيا فى القرن الثامن عشر ، فقد احتفظت المدينة بحدودها القديمة، وموظفيها ، وممثليها ، وإدارتها الفعالة والمدعومة جيدا، بينما نمت فى المناطق الجديدة بنى حكومية نشأت حول المجالس الكنسية أو لجان الحكم الخاصة بالأبرشيات، تدعمها وتخولها السلطة قرارات البرلمان، وتستكملها نظم الكاونتى للقضاة وقضاة الصلح ، وقد اتسع دور القضاة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، من مجرد تطبيق العدالة ليشمل أيضا وظائف إشرافية وتشريعية وتنفيذية وإدارية تهدف فى مجملها لحفظ النظام الأخلاقى والسياسى ، ولكن كانت المشاركة أو التعاون بين مختلف العناصر المحلية بهدف إيجاد إدارة متروبولية شاملة مفتقدة إلى حد بعيد حتى القرن التاسع عشر ، فقد خلقت إصلاحات القرن التاسع عشر سلطات حكومية، ومساعدة للفقراء، وشرطة وسلطات صحية لها صلاحيات واسعة على الجزء الأعظم من لندن، ولكن مدينة لندن قاومت الانصواء تحت لواء تلك المؤسسات وخلفائها، وظلت عنصرا فردا فى بنية حكومة لندن المركبة^(٥).

وتعكس الوثائق المتوافرة لدراسة الفترة المبكرة من لندن الحديثة التقابل بين المدينة القديمة والمتروبول الجديد ، فهناك تقابل بين كم وكيف الوثائق الإدارية الخاصة

بالمدينة، وبين تفرق وقلة وثائق الضواحي ، فأرشف حكمة المدينة ومجلسها كثيف العدد، جيد الحفظ، يمكننا من التعرف على ممارسات الحكومة، والموظفين الحكوميين، واتخاذ القرار، والمالية البلدية، وإلى حد أقل الإدارة المحلية من خلال الدوائر ، وقد اختلفت طبيعة الحكومة والإدارة في الضواحي المنشأة حديثاً من مكان لآخر تبعاً لحجم المجلس الكنسي المحلي، وقدرته، وفاعليته، ولكنها كانت بشكل عام أقل شمولية وتنظيماً من مركز المدينة، وكانت وحدات مستقلة بشكل أساسي . وحتى تم جمع وثائق تلك الوحدات الإدارية المحلية بواسطة هيئات متتالية لم يكن هناك أرشيف متكامل لتلك المناطق على الإطلاق ، كما بقيت شذرات من وثائق المحاكمات العادية والعاجلة ، وقد أجمع المؤرخون المحدثون من المهتمين بالفترة المبكرة من تاريخ لندن الحديث على أن الاهتمام يجب أن يوجه إلى الضواحي، بعد أن اطمأن الرأي التاريخي لدى التمكن في حكم المدينة، وبدأ بعضهم بالفعل في اتباع هذا الاتجاه^(٦). غير أن الافتقار النسبي لوثائق الضواحي مقارنة بالثراء العريض الذي تتمتع به وثائق المدينة ظل هو المعوق الأساسي.

وهناك عامل آخر مهم ألا وهو تغير طبيعة الحكومة نفسها في العصر الحديث ، ولو أردنا أن نتفهم تطور الحكومة في لندن في الفترة بين 1500 و 1700 فعلياً أن نأخذ في اعتبارنا عدد من الأرشيفات الأخرى، غير البلدية أو الإدارية ، فحتى في داخل المدينة نفسها كانت قدرات الحكومة المحلية محدودة حيث كان لمؤسسات أخرى – بالذات الكنيسة ونقابات الصنائع والحرفيين – مسؤوليات مهمة، بينما كان لاتجاهات ونوايا الحكومة المركزية أهمية كبيرة ، وبالتالي فمن الصعوبة بمكان أن نفصل «مجالس المسؤولية» حيث أننا نجد في التطبيق كثيراً من مسالك الحكومة تأخذ في الاعتبار: التاج كمحرك أول، وربما حكومة المدينة كوسيلة تنفيذ، وهيئة غير حكومية كوسيط .

وقد كان يحكم مدينة لندن مجلس أو بلاط مكون من 26 نائب ملك، أحدهم يشغل منصب 'اللورد العمدة Lord Mayor' لمدة عام واحد فقط يمثل فيه المدينة في كل المناسبات الاحتفالية ، وكان 'مجلس نواب الملك Court of Aldermen يجتمع عدة مرات في الأسبوع ، وكان يأتي في المرتبة التالية له مجلس أوسع هو مجلس العموم الذي يضم أكثر من 200 عضو، يجتمعون عدة مرات في العام، وبالرغم من أنه كان خطوة

فى طريق هيئة نواب الملك إلا أنه كان تجمعاً هاماً فى حد ذاته ، وكان نواب الملك وأعضاء مجلس العموم يرأسون أيضاً عدداً متزايداً من اللجان المشتركة والمجالس الحكومية ، وكان نواب الملك يختارون مدى الحياة، ويتبوءون العمودية بترتيب الأقدمية ، وكانوا نخبة ثرية قوية، وإلى حد بعيد من التجار، تربطهم علاقات المصاهرة والشراكات التجارية ، بينما كان أعضاء مجلس العموم، بالرغم من كونهم مواطنين مهمين، أصغر سناً أو أقل فى الوضع الاجتماعى، وكانوا ينتمون إلى شرائح أكثر تنوعاً من الناحيتين الاجتماعية والوظيفية ، وكان لكلا الفريقين دائرة انتخابية محلية، هى أحد الدوائر الـ 26 التى قسمت لها المدينة.

وقد كان نفوذ وقدرة المدينة كبيرين، بدءاً بالنظام والدفاع عن المدينة، والضرائب المحلية والشئون المالية ، وتنظيم البناء وتنظيف الشوارع ، والتمويل والإشراف على الأغذية وأسواق الجملة ، وكانت محاكم المدينة الرئيسية تنظر فى القضايا المدنية بما فيها بعض القضايا التجارية والتعديت البسيطة على الأملاك ، أما محكمة الأيتام فى المدينة فقد كانت هى حامية الأيتام لآباء أحرار فكانت ترعى أملاكهم حتى يبلغوا السن القانونية ، وكان خلف أنشطة الحكام المنتخبين للمدينة بيروقراطية قوية تتخذ من جيلدهال قاعدة لها: أمين الخزانة، وكاتب المدينة، وضابط النظام العام، ومسئول الشئون القانونية ، ولكل منهم طاقم من الكتبة الموظفين الأقل درجة ، وبفضل هذه البيروقراطية أصبح لدينا سلسلة كاملة لوثائق اجتماعات مجلس نواب الملك ومجلس العموم فى تلك الفترة، كما تعتبر المجموعات Repertories وسجلات اليومية Journals مصدراً مركزياً للقرارات التى اتخذت فى معظم الشئون البلدية. وهناك العديد من مجموعات الوثائق المكتملة خاصة تلك المتعلقة بالمخاطبات مع الحكومة المركزية، بيد أن النقص الأكبر فى وثائق تلك الفترة يتمثل فى وثائق الحسابات المالية المفصلة للمدينة، ربما بسبب حريق وقع فى فترة لاحقة، ولكن فى المجل تمتعت الوثائق بوفرة وحسن حفظ على يد منشئها وخلفائهم.

ومع تغير طبيعة الحكومة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أصبح علينا أن نستكمل حتى وثائق البلديات من مصادر أخرى لتكتمل الصورة أمامنا ، وفى بعض الأحيان كان يناط ببعض المؤسسات الموجودة بالفعل القيام ببعض الوظائف

بالنيابة عن الحكومة المدنية ، وفى أحيان أخرى كان ظهور بعض المشاكل الجديدة أو ظهور مسئوليات جديدة يؤدى لظهور ترتيبات تتلاءم معها .

ومنذ القرن الرابع عشر كان ظهور جمعيات الحرفيين والتجار ، الذين ستتكون منهم بعد ذلك نقابات الصنائع وأصحاب الحرف، هى الوسيلة التى انتقلت بها عملية التوظيف إلى كيانات من المواطنين أنفسهم، وذلك من خلال السيطرة على التدريب والتمويل والقبول فى مجتمع الأحرار. وقد استمرت هذه الوظيفة كوظيفة هامة ، وبحلول القرن السادس عشر، كان كل مواطن فى لندن عضوا فى أحد نقابات الصنائع وأصحاب الحرف التى زاد عددها عن المئة ، بينما كان كل عضو من أعضاء مجلس نواب الملك ومعظم أعضاء مجلس العموم عضوا فى النقابات النخبوية الاثنتى عشرة ، وكانت النقابات نفسها منظمة داخليا تنظيما جيدا، ولها تقاليد فى النشاط الجماعى والحكم الذاتى، وبنية داخلية للسلطة ، وقد كان ذلك سببا فى تمكين الحكومة البلدية المحلية من استخدام النقابات بشكل عام كوحدات فرعية لها فى الإدارة المدنية والضرائب، واستخدام بعض النقابات، على الأخص 'ال 12 الكبار' كنواب عن تلك الحكومة فى المسئوليات المدنية مثل توفير الحبوب والإشراف على الأسواق ، بالإضافة لذلك كان لتلك النقابات آليات لضمان التزام الأعضاء، وكانت تتعامل مع العديد من الشئون الداخلية، مثل العلاقة بين المعلم والصبى فى الصناعة، كما كانت تساعد أيضا فى حل النزاعات من أى شكل آخر بين أعضائها، وتضمن حلها خارج محاكم المدينة^(٧).

وقد تأثرت النقابات بتوسع المدينة خارج النطاق القضائى لها، فنقل بعضها إنتاجهم وأنماطهم الصناعية إلى الضواحي، ولكن كان إسهامهم بشكل عام موجهًا للحكومة واحتياجات المدينة أكثر منه للمتروبول بشكل عام ، وكانت معظم أنشطة تلك النقابات جيدة التوثيق، حيث كانت تحتفظ بحساباتها وتفاصيل أعمالها، وكذلك وثائق الملكية ، وكان لمعظم تلك النقابات سجلات رائعة عن التدريب والعبيد المحررين الذين اكتسبوا عضويتها، وتزداد قيمتها إذا علمنا أن وثائق تسجيل تحرير العبيد المركزية عانت من سوء الحفظ والفقد مع الزمن وجريان حوادثه عليها ، وبالتالي فوثائق النقابات تعتبر مصدرا هاما لتاريخ حكومة لندن، حتى وإن كانت فى الأساس وثائق هيئات خاصة، وليست - بأى معنى من المعانى - أرشيفا لإدارة بلدية ، وقد حفظت

فى حالة جيدة، بشكل عام، فى كنف النقابات نفسها حتى القرن العشرين ، وقد فقدت بعض النقابات وثائقا فى الحريق الكبير عام 1660، وأخرى خلال الحرب الأخيرة، وعدد قليل فى مناسبات أخرى، كلها بسبب الحرائق ، ولا تحتفظ الآن إلا حفنة قليلة من النقابات الكبرى بأرشيقاتها، بينما أودعت الغالبية وثائقها فى مكتبة جيلدهال.

هناك مصدر آخر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لجوانب المجتمع والحكم فى الفترة المبكرة من لندن الحديثة، وهو تلك الجمهرة الهائلة من الوثائق التى أفرزتها كنيسة إنجلترا ، وتتنوع تلك الوثائق من سجلات أبرشيات إلى تأدييات المحاكم الكنسية وأنشطة الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، كما تشمل أيضا محاكم الوصايا التى كانت تثبت فيها صحة الوصايا وتسجل ، ولم تستمد الكنيسة - بالطبع - سلطتها من الإدارة المحلية كما كانت حال النقابات، ولكن من الإنصاف أن نرى فيها - من بين وظائف أخرى كانت لها - أداة للحكومة والسيطرة الاجتماعية فى الفترة المبكرة من العصر الحديث ، فقد ارتبطت السلطة المدنية مع السلطة الكنسية بشدة خلال فترة الإصلاحات Reformation ، كما تلازم الخروج على السلطتين أيضا ، فقد كان نظام التأديب الكنسى - بالإنذار، أو الجزاء، أو الحرمان، أو المقاضاة - جزءاً أساسيا فى تأسيس الإصلاحات، كما أنه كان يدعم سلطة نظام تيودور Tudor ، فكان يمكن أن يكون منبر الكنيسة هو المتحدث الرسمى باسم الدولة العلمانية، كما أصبح القيام على الوفاء بالمتطلبات الكنسية (مثل الحضور للكنيسة ودفع العشور) من مهام القضاة العلمانيين.

وقد عاشت المحاكم الكنسية زمن الإصلاحات، واستمرت فى سماع العديد من الشكايات، معظمها متعلق بالشئون الكنسية مثل السلوك الإكليركى ، بيد أن بعض اهتمامات الكنيسة - كدعوى الزواج، والخطبة، ودعوى القذف - كانت تهدف إلى تحقيق مصالح المجتمع العلمانى ، فقد كانت المحاكم الكنسية تقدم الحل، أو على الأقل حسن الاستماع، للعديد من النزاعات التى لا تجد لها محلا آخر، فكانت بهذا المعنى تقدم إسهما رئيسيا فى شبكة الآليات الرسمية وغير الرسمية التى تهدف إلى الحفاظ على السلم والاستقرار الاجتماعيين ، وربما كانت هذه الوظيفة على درجة عالية من الأهمية فى الضواحي ، وكان العديد من الموظفين الكنسيين يستمعون لقضايا، وبما أن أسقفية لندن كانت تضم كل ميدل سكس Middlesex ، فقد كان من

الطبيعى أن نجد نسبة عظيمة من المادة التى وصلتنا منشؤها من خارج المدينة ، وقد بدأ المؤرخون مؤخرا فقط فى استغلال هذا الثراء فى وثائق المحكمة الكنسية، التى زاد من قيمتها عادة استدعاء الشهود لرواية شهادتهم على الواقعة بأنفسهم، وتدوين السيرة الذاتية والأدلة وعدم أخذها فى الاعتبار إلا إن كانت مكتوبة^(٨) ، وقد دخلت وثائق المحاكم الكنسية عهدة المستودعات العامة فى دور المحفوظات وبالذات فى دار محفوظات لندن الكبرى Greater London Record Office، وأيضا مكتبة جيلدهال، كما توجد وثائق إدارية أخرى تخص إقليم كانتربرى Canterbury فى مكتبة قصر لامبث Lambeth Palace Library بينما توجد وصايا اللندنيين فى كل تلك المستودعات وفى دار المحفوظات العمومية Public Record Office .

وقد كان سلطان المحاكم الكنسية فى الغفران ممتدا على الأسقفيات والمقاطعات، بيد أن المكون الأصغر من البناء الإكليركى وهو الأبرشية أصبح يلعب دورا أساسيا فى الإدارة العلمانية ، فقد كانت الأبرشيات ولدة طويلة مجتمعات تقع عليها المسئولية الجماعية لإصلاح الكنيسة والاعتناء بخدماتها، واختيار الأعضاء العاديين فى الأبرشية ليقوموا بدور ممثلى أو وكلاء الكنيسة فى القيام بالمهام الإدارية بالنيابة عن مجتمع الأبرشية^(٩) ، وقد قدمت الأبرشيات بذلك بنية جاهزة للاستخدام فى جمع المعلومات والأموال نيابة عن هيئات ومؤسسات أخرى.

وقد أدخلت الحكومة القومية الأبرشيات فى مجالها الإدارى بداية من عام 1538 عندما أمرت بتسجيل التعميد والزيجات ودفن الموتى بشكل منتظم ، وحتى قبل ذلك لجئ إلى الأبرشيات للإمداد بمعلومات حول أى وفيات وبائية فيما عرف بأول حصر للوفيات 'Bills of Mortality' ، كما كان هناك وحدات جمع ضرائب علمانية وإكليريكية فى العصور الوسطى ، غير أن خبرة الأبرشيات فى تقدير وجمع المبالغ من أعضائها لرواتب الكتبة وخدم الكنيسة هى التى جعلت منها الخيار الأفضل لتصبح وحدة تقدير وجمع الأموال والإدارة لنظام إعانة الفقراء الإلجبارى المحلى.

لقد كان لمدينة لندن نظاما محليا فى إعانة الفقراء منذ أواسط القرن السادس عشر، ولكن التشريعات الوطنية فى عامى 1598 و 1601 هى التى جعلت منه مبدأ عالميا ، ومنذ ذلك الحين كانت الأبرشيات تعين مشرفين على شئون الفقراء يوكل إليهم

تقدير كل النفقات التى تحتاجها الأسر التى تتبع الأبرشية وجمع المبالغ اللازمة من أجل إعانة فقراء الأبرشية ، وعلى عكس المحاولات السابقة توافرت فى تلك المجموعة من التشريعات الجوانب العملية والمرونة الكافية لتقدم إطار عمل، بالرغم من كثرة مساوئه، استمر قرابة القرنين ،^(١٠) وبالرغم من أنه لم يقصد بتلك التشريعات أن تكون تشريعات خاصة بالحكومة المحلية، إلا أنها أثرت، بطبيعة الحال، على توزيع السلطات والمسئوليات. فالسيطرة على مبالغ وجهات الصرف على الفقراء حسنت كثيرا من وضع الأبرشية كوحدة إدارية، خاصة فى ضواحي لندن الواسعة ، واعتمادا على الأهداف المتواضعة المتمثلة فى جمع وتوزيع الأموال تبعا للحاجة ، أصبحت الأبرشيات من المخططين الاستراتيجيين وصناع السياسة ، فكان عليها أن تتخذ القرارات فى الاستثمار والتسليف وأفضل الطرق لإدارة رأس المال، بما يتخطى بطبيعة الحال حدود مجرد الأحكام الشخصية فى استحقاق الأموال والحاجة إليها ، وكما ذكرنا من قبل، أصبحت المجالس الكنسية بأبرشيات ضواحي لندن هى ممثل الحكومة المحلية فى القرن الثامن عشر ، وبناء على خبراتها كوكالات لإعانة الفقراء، حصلت الأبرشيات على سلطات شرعية جديدة كاستجابة للاحتياجات التى استجدت فى مناطق خارج حدود مسئوليتها، كما حدث عام 1600 . ناهيك عن الفترة السابقة.

وبالتالى فعنوان « وثائق الأبرشيات » يشير إلى مادة شديدة الثراء فى معلوماتها وأهميتها عن تطور الحكومة المحلية فى لندن، من تسجيل الأحداث الحيوية إلى إدارة النظام المعقد لإعانة الفقير ، ولكنه لم يكن من السهل تمييز الوثائق الكنسية للأبرشيات من تلك المتعلقة بالسلطة المدنية ، فتاريخها الأرشيفى ومستقرها يتوقف على المنطقة الجغرافية العريضة التى انتمت إليها تلك الأبرشيات - المدينة، أو ميدل إيسكس Middlesex، أو سوراى Surrey، وأيضا على تاريخ الفترات التالية فيما يتعلق بقوانين الفقراء والحكومة المحلية للمنطقة ، وبشكل عام توجد وثائق أبرشيات المدينة فى مكتبة جيلدهال، وتلك الخاصة بأبرشيات الضواحي فى دار محفوظات لندن الكبرى Greater London Record Office، ولكن مع وجود بعض الاستثناءات.

وقد كانت قوانين إعانة الفقراء الإليزابيثية ناتجة - فى جانب منها - عن القلق المتزايد من نفقات وتوابع نمو رأس المال ، كما أنها تعتبر أيضا، مثالا هاما على كيفية تضافر الجهود القومية، والبلدية وجهود السلطات المحلية الصغيرة والمؤسسات

فى حكم لندن ، ولكن حتى صورة مساعدة الفقراء الأبرشية، مع تقيدها لن تكتمل حتى نأخذ فى الاعتبار عوامل أخرى، مثل المسئوليات التى كانت تختص بها البلديات ودور المؤسسات الخيرية الخاصة أو التى تعتمد على الوقف ، وقد وجدت المدينة نفسها مسئولة بشكل مباشر عن توفير الخدمات الاجتماعية عندما تحملت مسئولية المستشفيات بعد الإصلاحات فأضحت منذ خمسينيات القرن السادس عشر مسئولة عن دار أيتام ومدرسة (مستشفى المسيح Christ's Hospital) ودار إصلاح وتوظيف (برايدول Bridewel)، وكذلك مستشفيات للمرضى والمعاقين (سانت بارثولوموز St Bar-tholomew's، سانتتوماسز St. Thomas'، وبيتلم Bethlem) ، وقد كان مستشفى المسيح يتلقى دعما جزئيا محددًا من أبرشيات المدينة، كما كان أحد الأماكن التى يمكن أن يقدم التعليم لأطفال الأبرشية ، وكانت الهيئة التى تتولى إدارته، مثله فى ذلك مثل المستشفيات الأخرى، معظمها من أعضاء مجالس المدينة ، غير أن المستشفيات وجهود إعانة الفقراء التى كانت الأبرشيات تقوم بها، كانت مدعومة أيضا جزئيا من الجهات الخاصة، والتبرعات التلقائية والأوقاف الخيرية ، وبمرور السنوات كان لمعظم أبرشيات المدينة هباتها التى مكنتها من تخفيف العبء على المبالغ المقررة لها أو من تقديم خدمة أرقى بدون إضافة رسوم جديدة ، وكان من المعتاد أن تقدم مساعدات على شكل أموال أو طعام أو فحم ، كما كانت بعض الأبرشيات تمتلك منازل إما لاستخدامها فى إدرار ربح أو لإيواء الفقراء فيها ، وكانت بعض تلك الأوقاف يعهد بها إلى الأبرشية أو المستشفى، وبعضها الآخر يدار من جهات خاصة، وبعضها الثالث تديره نقابات الصناع والحرفيين ثم يعطى الربح لجهات الصرف، فيما يصور مرة أخرى دور المنظمات غير الحكومية فى تقديم خدمات شبه حكومية.

وقد تناثرت أرشيفات تلك المجموعة من المؤسسات ، ويجب أن ينظر لبعضها على أنه أرشيف هيئة خاصة، غير أن العديد منها قد عاد مرة أخرى للمجموعات العامة ، فأرشيف مستشفى بارثولومو مازال فى عهدة المستشفى نفسه ، بينما أودع أرشيف مستشفى المسيح مكتبة جيلدهال، كما كانت أيضا حال معظم أرشيف برايدول ، أما وثائق مستشفى سانت توماسز فقد أودعت دار محفوظات لندن الكبرى، فى حين تحتفظ بوثائق بيتلم المؤسسة التى ورثتها خارج لندن^(١١).

ولو كانت أنشطة الحكومة فى الأوقات العادية تشتمل على اهتمامات وهيئات خارج البلدية، فهى فى الأوقات غير العادية بهذا المسلك أولى ، ومن ذلك ما كان عند وقوع حدثين، الأول هو التعامل مع الطاعون، والثانى هو إعادة بناء لندن بعد الحريق الكبير فى عام 1660 ، ولم يكن أى من الحدثين لحسن الحظ مما لا يستطاع التعامل معه فى الفترة المبكرة من العصر الحديث، غير أنهما فرضا تحديا حقيقيا لبنية صناعة القرار والقدرات الإدارية ، وتصور كيفية التعامل مع الحدثين تلك العلاقة المركبة بين المشاركين فى الحكم المحلى فى لندن فى الفترة المبكرة من العصر الحديث.

فقد شهدت لندن انتشارا وبائيا للطاعون خمس مرات بين عامى 1550 و 1665، كما انتشر الطاعون أيضا ولكن بشكل أقل حدة عدة مرات فى نفس الفترة ، ولعل من أشدها وطأة من حيث عدد الوفيات التى خلفها -حوالى 20٪ - طاعون 1563 وطاعون 1625 ، غير أن عدد الوفيات سجل أعلى رقم له فى الطاعون الأخير عام 1625 (ربما 80.000). وكانت الوفيات التى تقع بسبب الوباء تستغرق ستة أشهر على الأكثر، من أوائل الصيف وحتى أواخر الخريف، وكانت مركزة بشكل متزايد فى المناطق الأكثر فقرا فى ضواحي العاصمة ، وكان رد فعل الحكومة الوطنية يبدأ بجمع المعلومات (قائمة الوفيات، مع قوائم أسبوعية عن الوفيات الوبائية من الأبرشيات)، ثم جمع آراء الخبراء، ثم وضع خطة عمل، بإصدار أوامر أو تشريعات خاصة بالوباء ، ثم كان على حكومة المدينة أن تنفذ تلك التعليمات، والتى كان بعضها وحشيا بشكل غير منطقي أو شديد التكلفة، كما كان لها أيضا أن تتعامل مع هذا الوضع بمبادرات تقوم بها تشمل إنشاء مناطق دفن جديدة أو تنظيم اجتماعات أو صلوات عامة تشمل المدينة بأسرها ، بيد أن العبء الأكبر كان يقع على الأبرشيات، التى كان عليها التحقق من شخصيات الضحايا، ودفنهم، وعمل حجر صحى على البيوت الموبوءة وإعانتها وإعانة العدد المتزايد من المعدمين ، ولذلك كان طبيعيا أن تتفرق الوثائق الخاصة بتاريخ أوبئة الطاعون فى لندن بين الأرشيفات القومية والبلدية والأبرشية، مع الوضع فى الاعتبار أن قوائم الموتى كانت تطبع، وبالتالي لم تدخل فى التصنيف الأرشيفى من الأساس^(١٢).

وقد أتى الحريق الكبير عام 1666 على معظم المدينة المسورة ، وعلى جزء عظيم من الضاحية الغربية، وتقع كل المنطقة فى النطاق القضائى لمدينة لندن، وتصور آثار الحريق ثانية مجموعة من الاهتمامات المتنافسة والمتداخلة، غير أنها توضح فى الآن

نفسه التفاعل المثمر بين الهيئات القومية والبلدية ، فقد كانت البلدية تريد أن تتعامل مع الحدث ، غير أنها تفتقر السلطة الشرعية اللازمة لتتمكن من رفع الأنقاض، ووضع الشوارع والمنشآت تحت الملاحظة، والفصل في المنازعات، ناهيك عن المال اللازم للقيام بكل هذا وقد كان لاهتمام تشارلز الثانى بالمسألة أثره فى اتخاذ قرارات استراتيجية فى مرحلة مبكرة، شملت تعيين مندوبين ملكيين لإعادة الإعمار ، وربما كان اهتمامه أيضا وراء تمرير القرارات الأساسية التى أقرها البرلمان والتى مكنت من فرض ضريبة على الفحم الوارد للندن لتمويل جانب كبير من عمليات إعادة بناء المباني العامة والتعويضات، وإنشاء محكمة الحريق Fire Court وهى محكمة مستقلة أنشأت لسرعة الفصل فى النزاعات على الملكية بشكل فعال ، وقد أودعت معظم وثائق إعادة الإعمار الأرشفة البلدى، بما فيها المناقشات، والحسابات المالية والمذكرات الخاصة بالشوارع والأعمال العامة ، وهناك نسخة واضحة من قرارات أو أحكام محكمة الحريق فى دار محفوظات مجلس المدينة، وكذلك رسمان لاثنتين من القضاة - ربما التقدير الوحيد الذى حصلوا عليه - فى جيلدهال، وعدد آخر فى أماكن أخرى، ولكن هناك مجموعة أكمل من قرارات محكمة الحريق مدونة على ورق وصلت المكتبة البريطانية فى القرن الثامن عشر من شخص كان يملكها. وكان النواب الملكيون المعنيون بشئون الإعمار يعملون جنبا إلى جنب مع مشرفى المدينة فى مسح المدينة، وأثمر عملهم خريطة مسحية للمدينة كانت هى الأساس فيما بعد لنسخة مطبوعة منها ، ونظراً لطبيعة التعاقد مع معظم المساحين فى المدينة حيث كانت عقودا خاصة، فقد تفرقت وثائق أنشطتهم ، وقد وصلتنا بعض تصاريح بناء المنازل التى استخرجت لبعض الملاك بين وثائق الملكية ، وقد كان المساحون يحتفظون بتدوين كامل لقراراتهم، بالرغم من أنه يبدو أنها فقدت كلها الآن ، وتوجد مجموعتان من المخطوطات من أصل ثلاثة ترجع إلى القرن الثامن عشر فى مكتبة جيلدهال ، وكان السجل الذى تسجل فيه المبالغ التى تصرف للمساحين فى عهدة أمين خزانة المدينة، وهو الآن فى الأرشفة البلدى^(١٣)

فوثائق تاريخ لندن، إذن، فى الفترة المبكرة من العصر الحديث تروى قصة بنفسها ، قصة تعقيد وتنوع يتزايدان لم تكن البلدية فيه - بالرغم من أهميتها القصوى - اللاعب الوحيد ، وتتوازى قصة الأرشيفات مع قصة المتروبول، كما يحدث فى العديد من المدن، وفهمنا لأحدها يعنى الغوص فى أعماق الأخرى .

الهوامش

(١) ما لم يذكر خلاف ذلك، فمحتويات ومواقع الأرشيفات المذكورة في هذه الورقة موصوفة في الأدلة التالية أو في أدلة متخصصة بشكل أكبر، أصدرتها المستودعات المرتبطة بها:

An Introductory Guide to the Corporation of London Records Office, ed. H. Deadman and E. Scudder (1994); (A Guide to Archives and Manuscripts at Guildhall Library, compiled by J. Bullock-Anderson, C. Clubb, and J. Cox (1990) City Livery Companies and Related Organisations: a Guide to their Archives in Guildhall Library, 3rd edition (1989); A Guide to the Greater London Record Office (1994); D. Keene and V. Harding, A Survey of Sources of Property Holding in London before the Great Fire, London Record Society XXII (1985); (J. M. Sims, London and Middlesex Published Records, a Handlist (1970)

M.D. Lobel (ed.), British Atlas of Historic Towns : London from prehistoric times to (٢) c 152 (1990) . F. Braker and P. Jacksm The Histoir of London in Maps (1990) includes most of the contemporary views.

John Stow, A Survey of London, ed. C. Ic Kingsford (Oxford, 1908 , reprinted 1968) ; ' V (٣) Harding, The population of early modern London : a review of the published evidence, London Journal XV (1990) ; N.G. Breet- James, The Growth of Stuart London (1935)' M.J . Power , The Social geography of Restoration London, in A.L. Beier and R. Finlay, London 1500 - 1700 , the Making of the Metropolis (1986).

(٤) ويناقش ضم الضواحي Brett-James, The Growth of Stuart London, ch. 9.

G. Rude, Hanoverian London 1714 - 1808 (1971) . Ch.7.F. Sheppard, London (٥) 1808 - 187 : the Internal Wen (1971), ch. 1.

Ph.) E.g. M.J. Power, The urban development of East London, 1550-1700' (unpub (٦) D. thesis, Univ. of London, 1971)' J. Boulton Neighbourthod and Community, a London Subrub in the Seventeenth Century (Cambridge, 1987), A study of Southwark.

S. Rappaport, Worlds , World' Structures of Life in Sixteenth - Century London (Cam- (٧) bridge, 1989) : I, Archer, The Pursuit of Stability : Relations in Elizabethan London (Cambridge, 1991).

(٨) من أنفع الأعمال حول المحاكم الكنيسة انظر R.. Wunderli, London Church Courts and Society on the Eve of the Reformation (Cambridge, Mass. 1981).

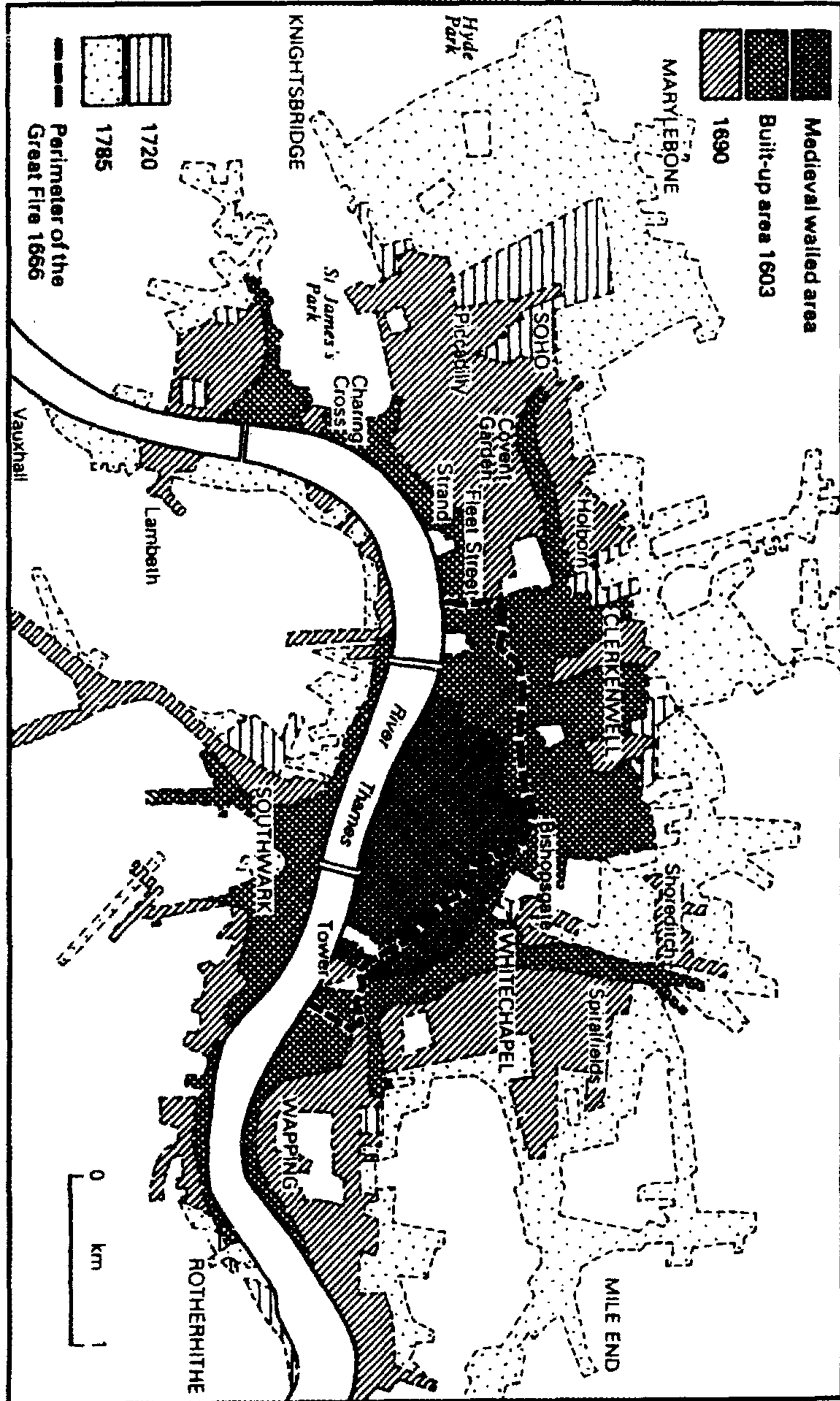
(٩) Cf . B. Kümin, The Shaping of a Community : the Rise and Reformation of the English Parish, c. 1400 - 1560 (Cambridge, 1996).

(١٠) P. Slack, The English Poor Law, 1531 - 1782

(١١) Keene and Harding, Survey of Sources, nos. 100, 102, 226, 404, 409. The Bridewell records (409) deposited in Guildall Library after the Survey was published.

(١٢) P. Slack, The impact of Plague on Tudor and Stuart England (1985) : J. A. A Champion London's Dreaded Visitation : the Social Geography of The Great Plague in 1665 (1996). Bills of Mortality in Guildhall library (Printed Books Section) and CLRO are listed in Guildhall Miscellany 11.7 (1965) , pp. 306 -17 and II. B (1966) , pp. 367-8.

(١٣) Keene and Harding , Survey of Sources, no. 11. T.F. Readdy . The Rebuilding of London after the Great Fire (1940).



شكل (١) نمو لندن الحديث في بدايته (بتصريح خاص في موج كلوت Hugh Clout)

الفصل الرابع

المباني ، والتأثيث ، والاستخدام

المباني ، والتأثيث ، والإتاحة ، والاستخدام ، وأمثلة من أرشيف مكتب محفوظات البندقية ، من العصور الوسطى وحتى العصر الحديث

كلوديا سلامنى

مقدمة

يرتبط تاريخ أقدم أرشيف للبندقية - كما هي الحال عادة - بتاريخ المباني التي أوتته ، فهو يرتبط بشكل خاص مع تاريخ قصر الدوجز Doges' Palace وجزئيا أيضا تاريخ كنيسة سانت مارك St. Mark's church .

وقصر الدوجز هذا هو فى أعين من يراه الآن المقر القديم للسلطة السياسية ولحكومة الدوج ومجلسه، وأحد المؤسسات السياسية لدولة البندقية، ولما كانت ملامح الفن والعمارة برمزياتها السياسية هي الأكثر شهرة، فقد أصبحت أكثر حجرات القصر استقبالا للزوار تلك التي استخدمت فى اجتماعات المجلس العظيم Maggior Consiglio الخاص بالكوليجيو Collegio والسناتو Senato^(١) .

هناك قسم آخر فى القصر تم افتتاحه للجمهور فى الفترة الأخيرة، وهو وإن كان أقل فى جمهره، إلا أنه لا يقل أهمية عن القسم الآخر. وهو ما يوصف فى الدلائل الإرشادية بـ"برنامج الزيارة السرى"، حيث تزار فيه الأماكن التي كان يجرى فيها العمل المكتبى فى جمهورية البندقية ، وخلف القاعات الرسمية الرائعة الجمال نرى المكاتب الصغيرة المظلمة للمكتبة، والممرات، والسلالم الضيقة، ومكاتب المحفوظات، والدواليب التي كانت تحفظ بها الوثائق العامة^(٢).

هذا الجانب الآخر غير المتوقع لقصر الدوجز يعكس وجود ونشاط مكتب محفوظات البندقية ، أحد مصالح الدولة الهامة، والذي كان يعمل بالتوازي مع السلطة السياسية التي تمارسها طبقة النبلاء.

بيد أن هناك طريقة ثالثة للنظر إلى قصر الدوجز، وهى مكمله ومتصلة بالعالم البيروقراطى لمكتب المحفوظات ، فتحت القباب، وفى الأسطح، والأدوار العليا، فى قصر الدوجز وكنيسة سانت مارك، رقدت كمية ضخمة من الأوراق والوثائق لعدة قرون ، وأنتوى هنا أن أتكلم على قصر الدوجز وإلى حد ما أيضا عن سانت مارك من ناحية الحفظ المادى للوثائق.

من الطبيعى أن يسكن الأرشيف فى كل الأماكن غير المطروقة فى مبنى القصر، وكذلك فى الحجرات والمكاتب والممرات فى مختلف طوابقه ، وقد كان هذا الكم الهائل من الأوراق والملفات والوثائق المكسدة فى تلك الحجرات، سواء حسن نظامها أو سوء، لافتا لنظر كل من تجول فى المنطقة المعروفة الآن « برنامج الزيارة السرى ». وقد كان الأرشيف الذى أنتجه وحفظه قصر الدوجز عظيم الحجم بلا شك، ويشهد على ذلك ما بقى منه محفوظا الآن فى أرفف تقاس بالكيلومترات فى أرشيف الدولة بفرارى Frari ، بيد أن هذا الجانب من الأرشيف أهمل إلى حد كبير فى الدراسات التى أجريت حول القصر^(٣).

سوف أتناول هنا الحجرات التى استخدمت للمحفوظات، والمستودع الرسمى للأرشيف القديم والحديث منذ العصور الوسطى وحتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، وسوف أتناول أيضا الأماكن الأخرى التى استخدمت لتخزين أكداش الورق غير المنظمة، ثم أتطرق إلى المشكلة المتكررة المتمثلة فى استكمال وإعادة ترتيب سلاسل كاملة من الأرشيف ، وسأضرب بعض الأمثلة على إجراءات التأمين، وأشكال الحفظ، وبعض الإجراءات الاستشارية ، وسوف أشير باقتضاب إلى بعض الفترات التى كانت فيها كنيسة سانت مارك (والبروكوراتورى porcuratori المسئول عن شئونها الإدارية) تشترك مع قصر الدوجز فى القيام بمهمة إيواء أرشيف الدولة . والواقع أنه كما جرت عادة المدن الإيطالية والأوربية الأخرى فى العصور الوسطى، فقد كانت كنيسة سانت مارك تستخدم كخزانة، ليس فقط لكنوزها ورفاتها، ولكن أيضا لأكثر الوثائق الأصلية للدولة قيمة وأهمية ، وقد استمرت تلعب هذا الدور حتى بعد العصور الوسطى، وحتى أواسط القرن السابع عشر^(٤).

إن مجرد وجود وثائق عامة يؤكد وجود قوة عمل فى مكتب المحفوظات يتابعون القضايا ويكتبون الوثائق ، وهناك دلائل مؤكدة على النشاط الكبير الذى كان كتبة

المكتب يقومون به فى القصر، إلى جانب الأدلة المادية كالوثائق المحفوظة على شكل رسومات، والنقوش، والمذكرات واليوميات ، ومن بينها نخص بالذكر الملحوظة التى دونها جوته، كأشهر مراقب أجنبى للبندقية فى It alienische Reis لدى زيارته للقصر لمتابعة نتيجة دعوى قضائية :

فى أحد جوانب القاعة الفسيحة لقصر الدوجز جلس القضاة فى نصف دائرة... ثم قرأت كل الوثائق المؤيدة والمعارضة، بالرغم من أنها كانت مطبوعة بالفعل^(٥) ، واستعد مستشار رث الثياب أسودها ممسك بدفتر ليشرع فى القراءة... ويستطيع من استمع إلى تلاوة الوثائق فى الدواوين [ونستطيع أن نتخيل الراحة التى يشعر بها الكاتب إن استطاع أن يتجنب تلك المهمة الثقيلة] أن يتخيل كيف جرت القراءة ، سريعة، لا تنعيم فيها، ولكنها فى نفس الوقت واضحة سليمة النطق^(٦) .

وبالرغم من أن إنتاج وتخزين الوثائق يؤدى - بطبيعة الحال - إلى نشأة الأرشيف، إلا أن الوثائق القديمة التى تشهد على وجود مكتب المحفوظات بالبندقية قليلة جدا، وغير مباشرة، ونتجت عن إشارات جاءت مصادفة فى عدد من التصرفات^(٧) ، قد ظهرت كلمة Cancellarius لأول مرة فى الوثائق العامة بالبندقية أواخر القرن الحادى عشر. ولكن من غير المعروف متى تم إنشاء مكتب محفوظات فعلى بشكل رسمى^(٨) . وهناك مجموعة من الأدلة ترجع لبدايات القرن الثالث عشر، فمنصب كبير كُتَّاب مكتب المحفوظات Cancellier Grande أنشئ عام 1268، لإضفاء الشكل الرسمى على عمل قائم بالفعل ، وكان صاحب هذا المنصب مسئولا عن قسم بأكمله، مما يدل على أن مكتب المحفوظات كان يضم بالفعل عددا لا بأس به من الوظائف^(٩)، وفى تلك الفترة لم يكن هناك مكتب محفوظات عمومية واضح المعالم، بيد أنه وجد أرشيف لأوراق مكتب المحفوظات parva cancellaria منذ أواسط القرن الثالث عشر، بالرغم من أننا لا نعرف على وجه التحديد مكانه فى القصر.

ولم تكن وثائق الدولة تحفظ فى العصور الوسطى وبشكل أوسع فى العصر الحديث فى مكان واحد ، فهناك أولاً مكتب المحفوظات الذى كان يحفظ فقط أهم وثائق مجالس الدولة، والوثائق الدبلوماسية، والوثائق الأخرى، ولم يكن يحفظ الوثائق التى تفرزها العديد من الهيئات الحكومية، التى كان على كل منها أن ينظم ويحفظ الوثائق التى ترد إليه أو ينتجها ، ولذلك لم تكن معظم الهيئات الحكومية تسلم وثائقها

لمكتب المحفوظات ولكنها كانت تنشئ أرشيفاتها الخاصة التي تتكون من الوثائق الحديثة الورقية وأيضا من الرق الذي كتب عليه في قرون سابقة ، وقد كان هذا تقليدا متبعاً - ليس فقط في مكاتب قصر الدوجز - ولكن أيضا في كل الهيئات الحكومية الأخرى - بما في ذلك المالية منها - والمنتشرة عبر المدينة خاصة في منطقة رياتو Rialto.

وثانياً كان هناك أكثر من مكتب حفظ داخل قصر الدوجز (المكتب الأصلي القديم وآخرين منفصلين أضيفا في العصور الوسطى) ، وكانت فروع مكتب المحفوظات الثلاثة تلك مختلفة في منشئها ووظيفتها، وفي نوعية الوثائق التي تحفظها ، وفي مقارها ، فهناك مكتب المحفوظات السفلى Lower Chancery ، نسبة لوقوعه في غرفتين بالطابق الأرضي من القصر، وكان يستخدم لحفظ وثائق الدوجز، ووصايا مواطني البندقية، ووثائق الموثقين ، وهناك مكتب محفوظات الدوجز -Doges' Chan-cery والذي كان يحفظ أهم وثائق المجالس الحكومية ووثائق أخرى^(١٠) ، وكانت تنقسم إلى قسمين: مكتب محفوظات الدوجز، ومكتب المحفوظات السري Secerta (صورة ١)^(١١) ، من الواضح أنه كان يحفظ الأوراق التي لا يحق الاطلاع عليها إلا لأشخاص معينين.^(١٢) ، وقد حدثت تغيرات وانتقالات للأرشيفات الثلاث عبر القرون، ومن شبه المستحيل حالياً أن نحدد مواقعها بتأكيد، خاصة أن القصر أعيد تنظيمه عدة مرات قبل أن يصل إلى وضعه الحالي.

وكما ذكرت آنفا كانت أهم وأثمن الوثائق في العصور الوسطى محفوظة في كنيسة سانت مارك، مع خزانة الدولة والرفات المقدسة ، كما حفظت في نفس المكان وصايا المواطنين قبل إنشاء مكتب المحفوظات السفلى ، وفي تلك الفترة كانت الوثائق المكتوبة على الرق تحفظ عادة في Procuratori di San Marco de Supra أهم مكتب في إدارة الكنيسة والمنطقة المحيطة ومبانيها: وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم ميدان سانت مارك ، وعلى ذلك فقد استخدمت الكنيسة آنذاك كمستودع لأقدم وأهم جزء في الأرشيف العام.

ومنذ البداية لم تكن علاقة القصر بكنيسة سانت مارك قاصرة على النواحي الدينية والسياسية، ولكنها شملت أيضا تاريخ حفظ الوثائق ، وتاريخ الكنيسة والحرائق التي دمرتها عدة مرات، هو أيضا تاريخ الوثائق التي حفظت فيها. ويبدو

أن كل الوثائق احترقت فى حريق 976 : *cunctas cartas esse ab igne cernatas* وبعد قرنين تقريبا ، وفى عام 1200 لقيت الوثائق نفس المصير : *reliquias plures et ducalia privilegia concernavit* ^(١٢) . وقد كان للحرائق التى شبت بقصر الدوجز أثرها المدمر على الوثائق المحفوظة فيه بطبيعة الحال، كما أنها لم تقتصر على العصور الوسطى وإنما وقعت أيضا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ولكن بالرغم من الدمار الذى لحق بها عبر القرون إلا أن الجزء الأعظم من أرشيف البندقية فى نهاية عصر الجمهورية عام 1797 قد بقى على قيد الحياة ، ويرجع السبب فى ذلك جزئيا إلى حقيقة أن البناء السياسى للبندقية نعم بالاستمرارية؛ حيث لم يعان من غزو خارجى أو ثورات، إلى جانب العناية التى كانت تولى لحفظ الوثائق ، وقد كانت هذه العناية أكثر أهمية فى دولة تطبيق النظام القديم *ancien régime*، والتى كان كل قانون جديد فيها يجب أن يعتمد على قانون أقدم وعلى عادات راسخة ، ويبدو أنه حتى الوثائق الأرشيفية الأقل أهمية لم يكن يتخلص منها، وهناك نصوص تذكر العقوبات الرادعة التى كانت تنتظر من يخرق القاعدة العامة لحفظ الوثائق ، فبدلا من التخلص منها كانت الوثائق التى تنتهى أهميتها تحفظ فى الأسطح أو المخازن.

إن تاريخ الأرشيف فى البندقية ليس فقط تاريخ الحفظ الدائم للوثائق؛ ولكنه أيضا تاريخ الاهتمام الجاد والدائم بالحفاظ على الوثائق العامة، إنه تاريخ القرارات السياسية والإجراءات العملية التى اتخذت لحفظ حقوق الدولة وتاريخها عبر العصور ، وهو أيضا تاريخ عدم اتباع تلك الإجراءات وبالتالي المحاولات المتكررة لإعادة تنظيم واستنقاذ الوثائق التى عانت إهمالا مؤقتا .

هذا التاريخ يمكن إعادة بنائه جزئيا من خلال الوثائق الإدارية، مثل الفاتورة التى دفعت للنجارين الذين استخدموا لعمل دوايب حفظ جديدة ليس فقط داخل مكتب الحفظ ، ولكن أيضا خارجه ، فى أماكن مناسبة لحفظ الوثائق القديمة وأعيد تنظيمها لهذا الغرض ، ويمكن أيضا تتبعه من خلال المبالغ التى دفعت للكتبة الذين أعادوا تنظيم الوثائق وجردها .

وهى لم تكن فقط مجرد عملية إعادة ترتيب ونظافة، ولكنها فى أوقات ما كانت محاولات إعادة تنظيم عامة وجذرية فى القوانين والدولة ، وبعض تلك المشروعات كان

يقوم بها مكتب المحفوظات نفسه، وكانت تتخذ بعض الإجراءات لاستعادة بعض الوثائق القديمة من Procuratori di San Marco ونقلها إلى الأرشيف السرى Secreta فى قصر الدوجز.

ويمكن تتبع الاهتمام بحفظ وتأمين الوثائق من خلال القرارات التى اتخذتها أعلى الهيئات المؤسسية لتحقيق تلك الأهداف ، ومنها على سبيل المثال:

- ١٠ - اختيار المواد التى تكتب عليها الوثائق .
- ٢ - تخزين الوثائق فى (أجولة، صناديق، دواليب) .
- ٣ - إجراءات التأمين ، وعادة ما ترتبط بالنقطتين الرابعة والخامسة .
- ٤ - سجلات جرد وفهارس الوثائق .
- ٥ - إتاحة الوثائق، وضبط عمليات الاطلاع عليها وإعادةتها للمخزن .

اختيار المواد

فى عام 1291، استن المجلس العظيم أهم هيئة فى كوميون البندقية قانوناً يلزم الكتاب بتسجيل التصرفات العامة على رق بدلا من الورق ، وهو ما يعكس الانتباه للمشاكل المتصلة بعمر الورق والحاجة لحفظ ال publica fides لقرون ، وقبل ذلك بستين سنة كان الإمبراطور فردريك الثانى قد أظهر اهتماما مماثلا فى صقلية عندما منع استخدام الورق فى توثيق العقود^(١٤) ، وربما لم يكن لهذا الاحتياط ما يبرره، ولم يلتزم بالقوانين فى كلتا الحالتين ، والنتيجة أن هناك وثائق ورقية ترجع للقرن الثالث عشر عاشت حتى الآن فى صقلية والبندقية^(١٥) .

التخزين والحفظ

هناك أدلة على أن هناك تاجر من البندقية قد أودع أهم وثائقه عام 1157 والمحفوظة فى saccadellus كنيسة سان ماركو دى تيرو Church of San Marco di Tiro^(١٦) .

وتوضح الوثائق التي ترجع لبدايات القرن الرابع عشر أن الوثائق في البندقية كانت تحفظ في *capsella* (صناديق صغيرة) وفي *capsitula cpsae magna* (صندوق داخل صندوق أكبر)، وفي *sacho* (أكياس) ، وكانت الأكياس هي الأكثر استخداما في العصور الوسطى، ولكن القليل منها فقط وصل إلينا، وهو أمر معتاد في الأشياء التي تستخدم استخداما يوميا ، وحتى القرن الثامن عشر كانت الوثائق ، والتي عادة ما كانت مفردة وعلى الرق، تخزن في أكياس بمختلف الأحجام، مخطط بها رقعة يدون عليها بيانات مختلفة - أرقام وعناصر أخرى - لتحديد هوية الأوراق داخل الكيس، ولتسهيل الوصول إليها بعد تخزينها على أرفف الدواليب.

وربما كانت تلك الأكياس تشبه ذلك الكيس القماش الأزرق الذي حفظت فيه وصية النبيل البندقي فرانشيسكو ماريا مالببييرو Francesco Maria Malipiero عام 1585 (صورة 2) ، sser Antonio ، وهناك رقعة أخرى مخططة فوق تلك الرقعة تحمل إعلان التوثيق، Cesare Ziliol 1585 5 adi di dicembre وهناك ختمان حملا شعار النبالة وحرفي F و M الحرفين الأولين من الاسم الأول واسم العائلة لصاحب الختمين^(١٧) وقد كان مالببييرو من النبلاء وكان ذا منصب مالي مهم وكثيرا ما كان Savio alla Mercanzia ، وزير الدولة المسئول، ليس فقط عن التجارة ولكن أيضا عن الصناعة بما فيها الأقمشة، وربما يفسر ذلك روعة اختيار الألوان التي صنع منها كيسه^(١٨) .

وكانت الأكياس الأكبر المستخدمة في حفظ الوثائق مجمعة ومرتبطة تصنع من مادة أقوى وأخشن، ومثال ذلك الكيس القماش الذي يرجع للقرن الثامن عشر والمحفوظ في أرشيف الدولة في البندقية (صورة 3)^(١٩) ، وتحمل الرقعة المخططة رقم الحظ والمحتويات « كيس رقم 37، تبادل ممتلكات، إيصالات فواتير إدارية لثلاثة حقول ». وكانت الأكياس الأصغر توضع في صناديق أو على أرفف الدواليب، وهناك عدد قليل جدا من الصناديق والدواليب وصلنا من العصور الوسطى بالذات^(٢٠) ، في أوائل القرن الرابع عشر أقر المجلس العظيم المصروفات اللازمة لتأسيس أرشيف في مكتب المحفوظات السفلى: the Procuratori di San marco were to facere aptari et fieri banchos et alia laboreria oportuna pro conservacione intrumentorum et cartarum notariis moriencium et aliarum scripturarum^(٢١) . وبعد بضعة سنوات أصاب سقف القصر ومكتب المحفوظات ارتشاح، ف اتخذت الإجراءات اللازمة لحماية المبنى ومحتوياته ،

وتوجه الاهتمام إلى تأثيث مكتب المحفوظات. وقضى قرار صدر بتاريخ 1402 بأن تعدل الكراسى والمكاتب والدك فى مكتب المحفوظات حسب رغبة الدوج، والمستشارين ورؤساء الكارانتينا Quarantina^(٢٢) ، وبعد ذلك بعشرين سنة تم تعديل الكراسى والدك مرة أخرى لتوفير خصوصية وراحة أكبر، وتم توسيع النوافذ للسماح بنفاذ كمية أكبر من الضوء فى الحجرات^(٢٣). ut melius videri possit ad legendum et scribendum.

وبعد عدة تغييرات وترميمات وإعادة تأثيث وصل مكتب المحفوظات لحالته الحالية ، وتمتد الدواليب التى ترجع لأواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر على طول الجدران كلها تقريبا منذ آخر تنظيم ، وبداخلها الأرفف التى رصت فيها الوثائق أفقيا ، وعلى الجانب الداخلى لأبواب الدواليب كانت هناك قوائم ورقية طويلة بما يضمه كل دولا، بعضها مازال فى أرشيف الدولة ، وتزين شعارات النبالة للعديد من كبراء الكتاب Cancellieri Grandi الأجزاء العلوية للدواليب.

ويشبه الأرشيف السرى Secreta الحجرات الأخرى فى القصر المستخدمة كمكاتب وليس للأعمال العامة ، فهى صغيرة ومنخفضة السقف، صغيرة النوافذ وأحيانا مستديرة كالكوة ، وتغطى الحوائط ألواح خشبية وكذلك أجزاء من السقف ، وهى كلها سمات نجارة بحرية ، ويشبه الأرشيف السرى فى الواقع شكل ظهر السفينة وبها جزء مرتفع فوق المدخل المربع ومنطقة منخفضة تحتوى على أهم وأكثر وثائق الدولة سرية محفوظة فى الدواليب.

والدواليب هنا تشبه تلك التى صنعت للأفوجاريا دى كومون Avogaria di Comu ، ويختلف الدولا،ب المحتوى على السجلات الذهبية libri d'oro عن باقى الدواليب حيث يظهر فيه حسن الاعتناء بالصناعة، وكان يستخدم فى حفظ السجلات المشتملة على بيانات مواليد وزيجات النبلاء فى البندقية ، وكانت هى المصدر الرسمى الذى يعتمد عليه الذكور لعضوية المجلس العظيم ولتبوء المناصب السياسية ، والمدهش أن تلك السجلات - على خلاف سجلات أخرى عديدة فى مكتب المحفوظات - كانت عادية فى مظهرها: فكانت مصنوعة من الورق بون زخرفة مجلدة بشكل بسيط. ، ولم تضاف الزخارف لتلك السجلات إلا فى فترة لاحقة.

إجراءات التأمين

لدينا قرارات حول حماية الأرشفة منذ أواخر القرن الثالث عشر ، وقد أمر ال 'ماجيو كونسيليو' أن تنسخ أهم الوثائق التي تثبت حقوق الدولة في سجل خاص بها ، بينما كانت الوثيقة الأصلية تحفظ في صندوق في ال 'بروكوراتيا' وكان هناك مفتاح يحفظ في Procuratia di S. marco والآخر يحفظه موظفو ال Rason vecchie وهو أحد الهيئات الهامة ، وقد تم تجديد هذا القانون - تقريبا بنفس الصيغ - بعد قرن من الزمان، أي أواخر القرن الرابع عشر (٢٤). وكان هناك تمييز واضح بين النسخ التي تستخدم في مكتب المحفوظات والوثائق الأصلية التي تودع المكتب الذي يحتفظ بخزانة الدولة.

وقد كانت الحاجة للسرية وبالتالي للتأمين، هي التي أدت لإنشاء ال 'سيكريتا'، حيث كانت القيود في البداية شديدة الصرامة ، فكانت المفاتيح في عهدة الموثقين المسئولين، وفي أواسط القرن الخامس عشر صدر قرار بأن يكون الكاتب المسئول عن الأرشفة السري جاهلا 'nescias literas'، بالرغم من صعوبة تصديق الالتزام بهذه القاعدة ، فهناك دلائل بالفعل على أن القواعد كانت تطبق بشيء من الصعوبة يعكسها تكرار صدورها.

وهناك شكل آخر متعارف عليه في التأمين وهو تأمين السجلات المتاحة للجمهور بالجنازير، فهناك قرار منذ القرن الثالث عشر ينص على أن الوثائق يجب أن *alligata* "in bancho ubi sunt scripta"، وهو نظام كان شائعا في أوروبا، كما كان أشهر الأنظمة المتبعة في مكاتب الإنسانيات لحفظ الوثائق المتاحة للاطلاع ، كما كان هناك قرار يرجع لأوائل القرن السادس عشر ينص على وجوب عمل ثلاث نسخ من كل سجل: يودع أحدها في مكتب أختام الدوجز، حيث كان يلف بالجنازير، والآخر يودع مكتب المحفوظات للاطلاع العام (٢٥).

الحصر

من المعتاد في الأرشفات بصفة عامة وفي مكتب محفوظات البندقية بصفة خاصة، إجراء عمليات إعادة الترتيب وحصر وتسجيل القوائم في سجلات ، وتوضح

قراءة فى القرارات الصادرة فى هذا الشأن أن هناك بحث دائم عن حل نهائى لتلك المشكلة ، وكانت الأوراق أحيانا ما تترك مهمة وبلا ترتيب، وحتى فى أيامنا هذه، هناك أكداً من الأوراق المنسية التى نكتشفها عندما نفتح أبواب الدور العلوى أو الدوايب.

وعادة ما كان هناك ارتباط وثيق بين الإجراءات التى تتخذ لإعادة ترتيب الوثائق وبين عمليات مراجعة القوانين واللوائح ، ومن أروع الأمثلة على ذلك صفحة العنوان فى سجلات Venetian Pacta (صورة 4):

قائمة أو فهرس بالمعاهدات المشتمة عليها هذه الأجزاء التسعة التى كانت قابضة من قبل فى ظلام دامس تعاني إهمالا تاما ، وبعد عدة قرون هاهى الآن ترى النور لتستخدمها جمهورية ودولة البندقية / على مسئولية أحكم الأمراء أندريا جريتي An-drea Gritti ، من خلال المستشار العالى أندريا فرانشسكى / Andrea Franceschi بواسطة موظف مكتب المحفوظات السرى بييترو بريسبان Pietro Bressan ، فى عام الرخاء ألف وخمسمئة وثمانية وثلاثين.

وقد أظهرت دراسة قام بها مانفريدو تافورى manfredo Tafuri و جايتانو كوتزى Gaetano Cozzi أن الدوج أندريا جريتي Doge Andrea Gritti كان رجلا مرموقا قام بجهود عظيمة للحفاظ على هوية البندقية كما قام بإصلاحات جذرية فيها ، فقد ساند مشروعات تجديد دفاعاتها . (Securitatis renovatio) (٢٦) . وتجارب تصميمات سفن جديدة (renovato scientiae) (٢٧) إعادة تخطيط ميدان سانت مارك (renovatioo urbis) (٢٨) وإعادة تنظيم وتدوين القوانين (renovatio scientiae) (٢٩) .

وهناك إصلاح آخر بالرغم من أنه يبدو قليل الأهمية إلا إنه فى الواقع كان عملا جليلا ووثيق الصلة بال renovatio iustitiae وهو إصلاح الأرشفة renovatio archivii ، وهذا المشروع قليلا ما تذكره دراسات الفترة ومازال ينتظر المزيد من الدراسة ، ومن الناحية الرسمية كان الراعى الرئيسى لهذا المشروع هو كبير الكتبة Cancellier Grande أندريا فرانشسكى Andrea Franceschi ، وكان غزير العلم ورسمه تيتيان Titian مرتين (٣٠).

وقد أعطى فرانشسكى دفعة قوية لترتيب الأرشفة ، ونجد كتابات بخط يده على عدد من الوثائق - حصر محتويات السيكريتا وأشكال جديدة لتسجيل العقود - كما

لو كان مصرّاً على تأكيد حفظ كل وثيقة، وتشى كتاباته بتعليمه الإنسانى Humanistic بكل تأثراته اليونانية (وقد اعتاد بالفعل أن يكتب كلمات يونانية واستخدم الحروف اليونانية عادة فى ال nomina sacra) ، وحقيقة أن موظف رسمى على المقام مثله قد اشترك بنفسه فى عمليات إعادة ترتيب الأرشيف يدل على أنه كان مشروعاً ثقافياً مهماً يعكس فى الوقت نفسه سياسة التجديد الشاملة التى اتبعها الدوج جريتي، كما تشير أيضاً إلى العلاقة مع الأوساط الثقافية المهتمة بتطوير الآداب والفنون والعلوم، والمتمثلة فى عالم باولو راموسيو Paolo Ramusio وأبناء ألدو مانوزيو Aldo Manuzio وفيتور فاوستو Vettor Fausto.

وتوضح صفحة من سجل vacchetta الصغير^(٣١) . أن فراننشسكى كان يسجل بنفسه أسماء النبلاء أو الكتاب الذين يستعيرون وثائق أو ملفات من مكتب المحفوظات (صورة 5)، ثم يضيف كلمة restituit عند إعادتها أو يلغى التسجيلة كلها ، (وهنا دليل آخر على استخدام الأكياس الصغيرة فى التخزين : in saculum scripturarum) habuit material MARANI وتوضح أيضاً اسم الكاتب بيترو بريسان Pietro Bressan ، الموجود أيضاً على صفحة عنوان ال Pacta ، والذي أخذ على عاتقه القيام بالمهمة الشاقة المتمثلة فى نسخ سجل ال Commemoriali .

وربما كان اشتراك أندريا فراننشسكى بنفسه من صميم مهام وظيفة كبير الكتبة كما يوضح نظام العمل فى مكتبه الصغير ، وكان موازياً لغرفته مكان (ممر) تصطف على امتداده الدواليب الخشبية البسيطة ، وربما يكون هذا هو المكان الذى كان يحتفظ فيه كبير المكتبة بأرشيفه الشخصى وبالوثائق التى يعمل عليها ، حتى لا يضطر إلى تكرار الذهاب إلى سياق السجلات المحفوظة على أرفف مكتب الحفظ.

وتعتبر صفحات العنوان المزخرفة دليلاً رسمياً على العمل الطويل المضنى والمتكرر الذى كان يجرى لإعادة الترتيب ، والفهرسة والتصنيف ، وتوضح المناقشات الافتتاحية للكابيتولارى capitolare والماجيور كونسيجليا والسيناتو فى تلك الفترة أهداف المشروع، مشيرة إلى تعقيد عمليات إعادة ترتيب المواد ومراجعة القوانين، التى تسبق كتابتها الفعلية ، وهى وثائق ترجع لنفس الفترة وتعكس نفس الحماس كما هى الحال مع فهرس الباكتا المشار إليه آنفاً: المناقشات واسعة وتشمل عناصر أرشيفية وقانونية وثقافية وفنية.

لقد كان هناك ميل عام لإحداث تغييرات كبيرة وتجديد المؤسسات والإجراءات وأساليب التنظيم، ويتضح هذا الميل مرارا وتكرارا حتى فى أدق التفاصيل ، فعلى سبيل المثال أطلق الكانسيليير جراندى على سجل مناقشات المايجيور كونسيجليو (أعلى مصادر التشريع) أثناء توليه هذا المنصب ، وقد كانت تلك وسيلة لربط السجل بالاسم الأول للموظف المسئول عنه (Stella, Deda) (٣٢) . ويرجع سجلان للفترة بين عامى 1529 و 1552 عندما كان أندريا فراننشسكى يتولى منصب الكانسيليير أسمى أولهما « ديانا Diana » على اسم والداته ، والثانى والذى كان يحتوى على قوانين الدولة والإصلاحات الكبرى التى أدخلها بريسبان والكابيتولارى Capitolari الخاص بالمايجيور كونسيجليو والسنوات - أسماه « نوفوس Novus » ربما ليعكس الجهد الضخم الذى بذل فى التجديد .

ويجب أن نضيف أن هذا الجهد الهائل الذى جرى فى بدايات القرن السادس عشر لإدخال تجديدات فى القوانين والأرشيف، لم يكن ليعنى بحال من الأحوال الانقطاع عن الماضى ، فى بعض الأحيان كان ذلك يؤدى إلى إنشاء سلاسل جديدة وسجلات أفضل تنظيما، ولكن محتوياتها تبقى مشابهة لسابقتها ، وقد يبدو ما سأقول متناقضا، ولكن التجديد والاحتفاظ بالقديم كانا دائما سمة مزدوجة لتاريخ البندقية، وقد كرّسا الاستمرارية حتى فى أكثر الفترات انشقاقا ونزاعا ، وهو ما يعتبر سببا آخر لتكرار نفس الصعوبات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .

والواقع أنه بالرغم من كل الجهود ظلت هناك كميات كبيرة من الوثائق تتكدس دون نظام فى الأدوار العليا ، ويسجل أيضا أحد السجلات الصغيرة لأندريا فراننشسكى (بخط أحد خلفائه) أن سكرتير الكونسيجليو جى كيتشى Consiglio dei Dieci كان لديه سجل بالوثائق المخزنة فى الدواليب بالعلوات، ويصف جياكومو كازانوف (Giacomo Casanova) الذى كان مسموحا له بالسير فى علوة بجوار زنزانته فى سجن بيومبى (Piombi) يصف وضعها يبدو أنه كان معتادا:

« فى نهاية العلوة التى ترعى فيها الفئران رأيت كمية من الأثاث الملقى على الأرض على يمين ويسار صندوقين وأمام كومة هائلة من السجلات ، فأخذت عشرة سجلات أو يزيدون اثنين وشرعت أقرأ فيها لأتسلى ، وكانت كلها عن قضايا جنائية، وهو

ما كان تسليية رائعة بالنسبة لى حيث أنى كنت أقرأ ما كان فى عصره شديد السرية... ويرجع بعضها لقرنين أو ثلاثة مضت، مما زاد من استمتاعى بأسلوبها وعاداتهم لعدة ساعات. ومن بين الأثاث رأيت مقلاة، وغلاية مطبخ، و جاروف مدفأة، وملقط، وشمعدانات ذات شعب قديمة، وأنية خزفية وحقنة من القصدير». (٣٢)

وقد عانى تخزين وثائق الدولة من مشاكل مشابهة فى أرشيف كنيسة سانت مارك، حيث كان تقليد حفظ الوثائق الأصلية للدولة الذى كان متبعاً فى العصور الوسطى قد توقف قبل ذلك بقرون، واختلطت الوثائق العامة القديمة بوثائق البروكاتورى ونُسياً معاً، غير أن الدور القديم للحفظ الأرشيفى الذى كان قد ربط بين المنشأتين العظيمتين - كنيسة سانت مارك وقصر الدوج - قد تجدد بين القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأتاحت إعادة ترتيب الوثائق المكتوبة على الرق والخاصة بالبروكاتورى قراءة الكتابات غير المفهومة للوثائق القديمة التى لا تنتمى للمجموعة، وهكذا اكتشف أن كنيسة سانت مارك لم تتوقف عن لعب دورها الأساسى فى العصور الوسطى كخزانة للوثائق *trésor des chartes* لجانب من أقدم الوثائق العامة التى غاب وجودها عن الذاكرة.

وليس من السهل أن نحدد بدقة أماكن حفظ تلك الأوراق؛ فنحن نعلم فقط أنها كانت فى جزء علوى من المصلى أو الجيزيولا *giesiola* (٣٤) بجوار البروكوراتيا *procuratia*. ثم نقلت *plures capse marcide cum pluribus scripturis corrosis* إلى مكان آخر، إلى مخزن فى البروكوراتى *Procuratie* على الجانب الآخر من ميدان سانت مارك بالقرب من المبنى السابق لسانتا ماريا ديل بروجليو *Santa Maria del Broglio*، والمدخل الحالى لمتحف الكورير *Correr Museum*، حيث حفظت هناك كيفما اتفق مع حماية قليلة أو معدومة. وبالصدفة البحتة، كان سانسوفينو *Sansovino* يعمل فى نفس الغرفة فى ظروف شديدة البؤس وذكر مشاهدته لسجلات مهمة وحالتها متدهورة (٣٥).

وكانت هناك أوراق أخرى مازالت قابضة فى كنيسة سانت مارك، سواء فى قدس الأقداس الذى يؤدى إلى الخزانة أو فى الغرفات العلوية، وتحكى الوثائق من مختلف القرون وجود هذا الكم الهائل من الوثائق غير المرتب، كما كانت هناك محاولات عديدة لإعادة تنظيمها. وفى خلال القرن السادس عشر وحده صدر اثنا عشر مرسوماً بهذا الخصوص: مرسوم فى كل من أعوام 1563 و 1565 و 1574 و 1580

ومرسومين فى أعوام 1585 و 1586 و 1587 و 1588 و 1590 واثنين فى 1615 و 1634 والأخير عام 1722 (٣٦) .

وفى عام 1590 وبعد القرارات العديدة بترتيب الوثائق، كانت هناك محاولة لاستخدام الأماكن الجديدة فى المبنى المنشأ حديثاً للبروكوراتى نيوفى -Procuratie nu- ove بجوار الزيكا Zecca أو دار الضرب ، ونقلت إليها كل مقتنيات البروكوراتورى دى سوبرا Procuratori de Supra التى كانت محفوظة فى قدس الأقداس وفى أماكن أخرى، باستثناء الوثائق العامة التى كان يجب أن تنقل إلى السكريتا وتحفظ فى علب حديدية. وقد ورد - فى وصف عمليات النقل - ذكر علب فضية كبيرة، وكؤوس مذهبة كبيرة، وكؤوس فضية إلى جانب الصناديق وكل الأوراق فى الدواليب.

وفى عام 1634، وبعد أربعين سنة من عملية التنظيم تلك - عُثرَ على أكداس أخرى من الوثائق فى غرفة فى كنيسة سانت مارك. وعين فورتوناتو أولو Fortunato Olmo أحد رهبان دير مونتيكاسينو Montecassino لترتيبها، وأمضى فى هذه المهمة ست سنوات ، وكتب فى ذلك يقول: « وأنشأت أستخرج فى سعادة وثائق قيمة من النفائات... وقد تعفن معظمها» (٣٧) ، ويذكر أولو أيضا أن هناك كم لا بأس به من الوثائق قد تم التخلص منه: ' ولم يكف حمل مركبين للتخلص من النفائات (٣٨) ، وفى تقرير آخر يصف أولو الظروف التى كان يعمل فيها ، وكيف أنه ترك الغرفة «مغطاة بالأتربة ورأسى مشتعل» (٣٩) ولم يكن كافيا « أن أستخرج ما رأيت من تحت التراب والنفائات. ولكنى وجدت أيضا... وثائق أبلغ فيها المطر عمله وحوادث آخر حتى وكأنها تحجرت هباء ، وقد كانت تلك أيضا من وثائق البروكوراتورى دى سوبرا وخاصة وثائق الدولة الهامة القديمة » وقد ذكر معاهدة دولية ترجع لعام 1107، برومسيونى promissione من إنريكو دانولدو Enrico Danoldo إلى الدوج فى 1192 ، مع ملحوظة بأن « الوثيقة لم يعثر عليها فى السكريتا»، وبروميسيونى من بييترو زيانى Pietro Ziani فى 1205، ولم يعثر عليها أيضا فى السكريتا. وهذا يؤكد ما ذكرته مصادر العصور الوسطى: إن أقدم الوثائق الأصلية لم يحتفظ بها كلها فى التشانسرى، ولكنها كانت تعطى للبروكوراتورى وتحفظ فى كنيسة سانت مارك ، وطوت السنون والقرون محتويات الوثائق من الذاكرة، حتى اعتبرت شديدة الوطأة عددا، عسيرة على الفهم، فعاملوها على أنها من النفائات.

الإتاحة

لقد أصبحت مسألة تأمين الوثائق العامة والحاجة لإتاحة القوانين للجمهور من المسائل الخطيرة في البندقية في أوائل القرن الخامس عشر ، وهناك أعمال تصف بكل دقة أشكال إتاحة تلك الوثائق، وأقل ما يقال عنها أنها كانت تتميز باللامبالاة: « وقيل إن الوثائق والخطابات خرجت من التشانسرى بنفس السهولة التي كان الموثقون والنبلاء والمهتمون يدخلون به^(٤٠) ، من المفضل أن يحتفظ بها سرا حيث أنها تحتوى على كل أعمالنا » .^(٤١)

ويعتبر سجل أندريا فرانشسكى الصغير أو الألفابيتون Alphabeton الذى ذكرناه أنفا مصدرا مهما للمعلومات المتعلقة بنوعيات الأشخاص والنبلاء والكتاب الذين كانوا يستعيرون الوثائق الأرشييفية ، وهو أيضا تسجيل مهم نعرف منه أى الوثائق كانت تستعار، وهو ما يمكننا من أن نتوقع لماذا كانت تستعار.

وهناك نوع آخر من الملفات، يرجع لأواخر القرن السابع عشر يوفر لنا معلومات، ليس فقط عن من كان يطلع على محتويات السكريتيا، ولكن أيضا يقسم أعمال الاستعارة أو الاطلاع على السلاسل الأرشييفية إلى فترة صباحية وأخرى مساءية ، وقد كان كل سناتور يختار ليوفد إلى سفارة أجنبية يدرس كل الملفات التى تحمل مراسلات سلفه ، ويبرز من بينهم من يؤرخ بالصدفة .^(٤٢)

وتوضح شذرات الوثائق التى حفظتها القرون بمحض الصدف - أكثر مما توحى به المصادر الأخرى - أن الاطلاع على المادة الأرشييفية كان أيسر وأكثر لمن خول هذا الحق ، والأكثر من ذلك أنه من المعروف - وهو مما يؤسف له حقا - أن وثائق التشانسرى كانت تتبادل خارج التشانسرى بشكل رسمى نوعا ما .

ولذلك فقد كانت واقعة رأس الكونسيجليو دى ديتشى، رانيير زين Ranier Zen استثناء، ويمكن إرجاعها إلى الجو شديد الاضطراب الناتج عن المعارضة السياسية فى هذا الوقت ، ففي أوائل القرن السابع عشر أراد زين أن يقوم بالبحث اللازم لدعم تفسيره لامتيازات المايجيور كونسيجليو ، ولدى طلبه الاطلاع على بعض السجلات أبدى المسئولون معارضة وامتناعا سلبيا، فما كان منه إلا أن توجه بنفسه للسكريتيا

و « بنفسه مخاطرا بحياته ومستقبله، أخذ السلم ووضعته حيث تحفظ السجلات ، وعليه ثياب رأس الكونسيجليو دى ديتشى، صعد السلم ثم نزل مغطى بالأتربة» (٤٣) .

الخاتمة

بسقوط جمهورية البندقية أواخر القرن الثامن عشر، أصبح أرشيفها، بالطبع، يخص دولة لم يعد لها وجود، وهذا الانقطاع بين النظام القديم والعصر الحديث شديد الوضوح فى الأرشيف ، وفى عام 1807 عندما أصبحت البندقية جزءاً من مملكة نابليون فى إيطاليا تم توحيد الأرشيفات السياسية فى مبنى واحد: السكولا جراندى دى سان تيودورو. Scuola Grande di San Teodoro ، ولكن كيف انتقلت الوثائق من قصر الدوج فى تلك المناسبة؟ كان كارلو أنطونيو مارين Carlo Antonio marin مسئولاً عن أرشيف البندقية فى الفترة النابليونية (وكان أيضاً جد الكاتب المعروف إيبوليتو نيفو Ippolito Nievo وظهر فى روايته الرائعة اعترافات إيطالى Confessioni di un Italiano حيث صورته فى شخص الكونت رينالدو دى فراتا Count Rinaldo di Fratta المتعلم شارد الذهن)^(٤٤) وقد وصف مارين ما حدث: « لقد نقل الأرشيف السياسى وأوراق الحكومة من الغرف العلوية بقصر الدوجز ، وقد تمت عملية خروجها بشكل أسرع وأرخص بإنزال الصناديق من النوافذ » .

وفى مبنى سان تيودورو سكنت الوثائق الطابق الثانى باستخدام نفس المواد وتصميم النظام طبقاً للموضوع كما كان فى قصر الدوجز ، وقد تكررت نفس فكرة « عادة إنشاء » نفس النظام القديم فى مبنى جديد بقدر الإمكان عند انتقال أرشيف البندقية إلى دير فرارى Frari ، حيث تم حفظ الوثائق بنفس الطريقة التى نجدها عليها اليوم ، وقد قام بهذا المشروع الطموح إياكوبو شيودو Iacopo Chiodo أول مدير لأرشيف الدولة فى عصر الإحياء ، وكان أيضاً مسئولاً عن إعادة بعض الوثائق التى خرجت من البندقية فى بدايات القرن التاسع عشر إلى المدينة مرة أخرى.

ومنذ ذلك الحين تجمعت وثائق مختلف الهيئات فى أرشيف فرارى ، وهكذا انتهت العلاقة المضطربة بين جمهورية البندقية وماضيها، والتى لازمتها منذ البداية ، ومن عجب أن حل تلك المشكلة المزمدة لم يأت إلا فى اللحظة التى لم يعد للجمهورية وجود فيها .

الهوامش

(١) هناك بيبليوجرافية ضخمة للموضوع ، لذا فسانكر هنا فقط أحدث الأعمال والتي تحتوى على مراجع كثيرة: (U. Franzoi, R. Pignatti, W. Wolters, Il Palazzo Ducale di Venezia (Treviso , 1990) W : Wolters, Storia e politica nei dipinti di Palazzo Ducale . Aspetti dell'autocelebrazione della Repubblica di Venezia nel Cinquecento (Venezia, 1987).

(٢) هناك دليل يحتوى على العديد من صور المكاتب ، والحجرات ، والنوايب وتفاصيل مساحات حفظ الوثائق فى ' (U. Franzoi, Itinerari segreti nel palazzo Ducale di Venezia (Treviso, 1995) والوثائق الموصوفة فيه مأخوذة أساسا من G.B. Lorenzi, Monumenti per servire alla storia del Palazzo Ducale di Venezia, ovvero serie de atti publicai dal 1253 al 1797 che variamente lo riguardano tratti dai veneti Lorenzi archivi e coordinati, Parte, U, dal 1253 al 1660 (Venezia, 1868) . أما الجزء الثانى من كتاب Lorenzi والمخصص للقرنين السابع عشر والثامن عشر فلم ينشر ، وهو بحث علمى منظم ودقيق يحتوى على ملخصات ونشر جزئى أو كلى للمصادر الأرشيفية الأساسية لتاريخ القصر ، حتى أنه الآن هو نقطة البداية لأى بحث حول هذا الموضوع . وقد قامت الدراسة الحالية على مسلمة مؤداها أن العديد من الدراسات حول القصر ستمكن من تحديد استخدامية ومكان المكاتب ، كما هى الحال فى الدراسات التحليلية لولترز Wolters وستوريا Storia المذكورة آنفا ، وفى دراسة L. Moretti, Ambienti do- 249- 284 (Venezia, 1983) I dogi (ed.) G. Benzoni ومن الواضح أن المعروف عن الحجرات الأصغر أقل بكثير ، خاصة مع التغيير المستمر فى استخداميتها والترميمات العديدة التى أجريت للقصر .

(٣) باستثناء بعض الأرشيفيين . كمصدر عام ، انظر الدراسة المفصلة T. Toderini and B. Cecchetti, Il R. Archivio generale di Venezia (Venezia, 1873) M.F. Tiepolo, 'Introduzione أيضا انظر chetti, to "Venezia, in Ministero per I Beni Culturali E Ambientali- Ufficio Centrale per I Beni Archivistici, Guida generale degli Archivi di Stato (Roma, 1994) , 869 - 881, especially 869 - 870' P. Selmi, " Riflessioni archivistiche', in S. Marcon (ed.) , I libri di San Marco. I manoscritti liturgici della basilica marciana (Venezia, 1995) , 47 - 51(in particular 48) . Concerning the documents of the Procuratoori di San Marco stored in the room of St Mark's Church near the four horses, see State Archive of Venice (= ASVe) , Procuratori di San Marco de supra , reg. 158 (= Rerminazioni, 34) c. 18 r' and in the Catalogue, file 72, This refers to a manuscript of the Abbot of San Giorgio Maggiore, Fortunato Olmo in Biblioteca Nazionale Marciana di Venezia, cod. Lit VII, 347 (7781) F. Omom, Scritture per la procuratia de supra' E. Guiffridia Introduzione agli inventari della Curie di palazzo , in انظر أيضا المخطوط غير المنشور

ASVe, والذي يتحدث عن مرحلة مهمة من fraudulent dispatch of scritture vecchie di Palazzo ولا توجد دراسة تفصيلية عن هذا الموضوع ككل ؛ هذا المقال هو مجرد دراسة مختصرة أولى فيه .

(٤) لقد كانت عادة الاحتفاظ بالوثائق العامة في الكنائس والأبيرة شيئا معتادا في العديد من المجتمعات في العصور الوسطى ، وكثيرا ما نصت قوانين بعض المدن على ذلك صراحة : وهناك العديد من الأمثلة ، انظر مثلا المتعلق ب Statuti di Cittadella , Veneto, G. Ortalli, G. Parolini, M. Pozza (eds.) , XIV (Roma, 1984) , Liber Secundus, 53, 54 firmum scripneum factum cum duabus bonis seraturis et duabus bonis clabibus, qui scripneus debeat permanere et conervari in cancellaria communis vet in secreta ecclesie vel alio loco securiurissimo, et in Item de .. eo teneantur et ponantur omnes libri et instrumenta iurium communis et omnes rationes nacione Citadelle eligantur in consilio duo boni viri et legales, quorum nus teneta unam calven et alter .. alliamm, et numquam possit apere scripum sine licencia domini potestatis vel eius vicarii P. W. Edury , Law and Custom in the Latin شرقى البحر الأبيض المتوسط : انظر مثلا جيدا على ذلك East. |Les Letter dou Sepulcre, Mediterranean Historical Review, 10 (Studies in the honor of David Jacoby 1 -2 (1995) , 71 - 79 ' For all the assises and good usages and good customs, that is to say any usage of great authority ' were written down and kept in the Holy Spulcre, and people called them the " Letter of the Sepulcre "

(٥) يشير جوته إلى العديد من stampe in causas المطبوعة في البندقية للمحاكمات المدنية .

(٦) ترجمة الكتاب من Goethe, Viaggio in Italia (Milano, 1983, trans. E. Castellani) تعليق H. Bom Einem, 80, 82 واعتماد على التاريخ وبعض التفاصيل في النص ، استطعنا أن نحدد المحاكمة التي حضرها جوته . وقد أكد وصف جوته رسم من القرن الثامن عشر ، رسمه الرسام البندقي جابرييل بيللا Gabriele Bella وكثير من تلك الرسومات تقدم دليل أيقونوجرافيا على الأنشطة التي كانت تجرى في القصر وتصور مناظر ممارسة النشاط في حجرات ال Senato وال Collegio وال Avogaria وال consiglio dei Dieci.

(٧) مسألة أول شاهد وثنائى على وجود مكتب المحفوظات درسها M. Ponzza in the essay La cancelleria, in G. Gracco and G. Ortalli (eds)., Storia di Venezia . II, L'età del comune, 349-369, especial وفي كتابين لنفس المؤلف : Gli atti originali della cancelleria veneziana, I, 1090- 1198 , 363, (Venezia, 1994) and Gli atti originali della cancelleria veneziana, II, 1205 - 127 (Venezia, 1996).

(٨) الوثائق الأولى التي بونها dilecuts ducis cancellarius ظهرت بين عامي 1095 و 1099 ، وهناك إشارة بعد ذلك بعشر سنوات تشير إلى وجود علاقة حقيقية بين سانت مارك ومكتب المحفوظات بالوجز في -a notarius ca- ' 3 - 12 , 1, Gli atti originali, Pozza, Ducis capellanus et cancellarius' pellae curitis palatii, ibid.

(٩) M.P. Pedanti Favris, Veneta auctoritate notarius . Storia del notariato veneziano في أحد الهوامش يقول المؤلف إن لم يكن من الممكن تتبع .. 22- 23. (Milano 1996) (1797) 1514

مناقشات 15 يولييه 1268 ، بالرغم من كثرة ترداد عبارة « فيما يخص تأسيس مكتب كبير الكتاب Cancellier Grande.

(١٠) وثائق الدولة بعبارة أخرى : مناقشات ال *Maggior Consiglio of the Senato* (والتي تنقسم إلى سلاسل ستة تسمى *Terra, Mar, Arsenal, Militer* الخ) ، وقرارات ال *Signoria* ، ووثائق *Savio Se gretario alle voci* و *cassier* انظر 44 - 45 *Toderini - Cecchetti, Il R. Archivio generale*

(١١) يرجع تأسيس مكتب المحفوظات السري إلى ال *Maggior Consiglio* عام 1402 ، 23 أبريل ، *A. Baschet, ASVE Maggior Consiglio , Deliberazioni (Leona) , reg . 21 , c. 125 r* *Souvenir d'une mission : les archives de la sérénissime République de Venise (Paris, 1857)* انظر بيليجرافيا كاملة في 879 - 881 *M.F. Tiepolo, Introduzione* وعن الفروق الدقيقة بين الأقسام المختلفة انظر *Pedani Favris, ' Veneta auctoritate notarius, 23.*

(١٢) كان ال *Secreta* يحفظ *patti, the Commemoriali* ووثائق *Senato: Misti, Secreti, Corti* *Rettori, Roma, Reggenze africane: Esposizioni Roma e Prinsipi and the Dispacci degli ambasciatori;; the acts of te Provvenditori da terra e da mar, of the Sindici inquisitori, the Lettere prin-* of the Camera dei Confini *cipi, the opinions of the Consultori in Jure, the documents and plans* انظر *Toderini-Cecchetti, Il R. Archivio generale*.
Ibid., 8 (١٢)

(١٤) وقد تم منع استخدام الورق عام 1231 بواسطة فردريك الثاني في *Liber Augustalis* (ولكنه استمر مستخدما في مكتبة للمحفوظات لعشر سنوات تالية) *G.R. Cardona (ed.) Charata Dal papiro* (*al computer* (Milano , 1988) , 93' وعن منع استخدام الورق في كتب محفوظات البندقية انظر *L. Lanfranchi, " Prefazione, to E. Favaro, Cassier della bolla ducale. Crezi Novus liber (1299 - 1305)* (Venezia, 1962) , *M.F. . Tieplo, " Pergamena e cartta, . Una scelta politica, in Cardona (ed.) Charta , 166.*

(١٥) وأقصد أقدم سجل عام وصلنا من البندقية *the Liber Plegorum of the Maggio Consiglio*
Codice diplomatico veneziano, Luigi Lanfranchi, 1157 , aprile, Tiro (doc. Stairs n. (١٦) 227800, doc . Isis n. 1390).

(١٧) *ASVe, Notarile, Testamenti, b.1265* وأود أن أعبر عن خالص امتناني لماريا بيا بيداني فابريس *Maria pia Pedani Fabris* على ذكر هذا المرجع .

(١٨) *ASVe, Segretario alle voci, database on the sixteenth-century elections.*

(١٩) *ASVe, Archivio privato Pesaro, b. 37.*

(٢٠) هناك وثيقة على جانب عظيم من الأهمية في أرشيف الدولة في بولونيا ، وهي مكونة من ثلاث رسومات (1290 - 1303) تمثل الصندوق والبولاب الصغير الذي يحتوى على وثائق الكوميون : انظر : *Ministero per I Beni Culturali e Ambientali, Ufficio Centrale per I Beni Archivistici, di Statio di Bologna (Giesole, 1995) , 19.*

ASVe, Maggior Consiglio, Deliberazioni, Clericus-Civicus, reg.12, c. 55. (٢١)

Ibid., (Lecona) , reg. C. 125 r. (٢٢)

ASVe, Collegio, Notatorio, reg.5, c. 196r. (٢٣)

G. Penzo Doria and S.: *Chioggia* هناك حالة مشابهة في مدينة شيوخيا بالقرب من البندقية (٢٤)
Perini(eds.) Statuti e capitolari di Chioggia del 1272 - 1279 (Venezia, 1993) especially: :
CLIII- omnes quaternos et cartas michi datos in ... Capitulare massariorum communis Clugie
S. Perini (ed.) : quibus scripte sunt rationes, comunis Clugie, et illos in quibus in sex mensibus
presentibus rationes et. iura comunis Clugie scribentur, flideliter conservabo in scrineo, qui est
cum duabus clavibus in camera .. comunis Clugie.

Che la ditta taxa, seu tariffa, se ne habbi ad far tre [originally due"] copie ad litteram (٢٥)
ordinatissimamente in membranis, una delle qual stii de continuo alla bolla ducale, attaccata li
cum una cadenella ferma, in facult(de tutti che la vorano veder, et un'altra simile precise in la
can éllaria nostra, publica ad ognuno, et una terza sia conservata nel conseio nostro di X ad-
cioch (ciaschaduno intendi quanto li toccher(, sen(a difficult(alcuna: et tutto quello sar(pagato
alla cassetta per ciaschaduna littera o altra expeditione ut supra, sii annotato per il capsier in-
ferius de epsa littera sotto la data, come si observa in corte et per tutto, per evitar ogni fraude
et suplicatione, sicome etianè etian) stato statuito per questo conseio', ASVe, Segretario alle
voci, 'Universi'. Serie moderna, reg.5, c.1.

J.R. Hale, *Industria del libro e cultura militare a Venezia nel Rinascimento* in Storia (٢٦)
della cultura veneta 2, II, 245 - 88.,

E. Concina, *Navis. L'umanesimo sul mare* (Torino , 1990) (٢٧)

M. Tafuri, *Venezia e il Rinascimento. Religione, scienza, architettura* (Torino, 1985) (٢٨)
, 162 - 169 and M. Tafuri (ed.) *Renovatio urbis. Venezia nell'età dei Andrea Gritti* (1523 -
1538) (Roma, 1984).

G. Cozzi, *Repubblica di Venezia e Stati italiani . Politica e giustizia dal secolo XVI* (٢٩)
al Secolo XVIII (Torino, 1982).

(٢٠) وصلتنا ثلاث بورتريهات لأندريا فرانشسكي ينسب اثنان منها لتيتيان ، أولها في معرض الفن
القومي في واشنطن National Gallery of Art in Washington ، ضمن مجموعة الكونت ويميسس
بجوسفورد هاوس باسكوتلاند . Count Wemyss at Gosford Hous in Scotland والثاني بمجموعة فياردوت
Viardot في معهد الفن في ديترويت Insitute of Arts in Detroit . ومن بين البورتريهات الكثيرة لمن تقلدوا
هذا المنصب يوجد أحدها بالمجموعة الملكية بهامبتون كورت Royal Collection at Hamptn Court نرى فيها
فرانشسكي بين تيتيان وصديق تيتيان الحميم . والبورتريه الثالث متأخر عن الآخرين وهو في مجموعة جي .
أتش . إيه كلوز G.H.A. Clowes Collectioon بانتديانا بوليس , (Milano, 1969) F.Vacanover, Tiziano
107, nn. 155, 156, 157: see also La presentazione di Maria al Tempio, في موقعها الأصلي في

البندقية : Sala dell' Albergo della Scuola Carità dell' Accademia وقد أمكن تحديد صورة أندريا فرانشسكي بين الأشخاص إلى اليسار ، إخوان سكيولا Scuola في ملابسه الرسمية ، Ibid., n. 184 , and H. E. Wethey, The paintings of Titian, li The portraits (1971), 34, 35, X - 39, X- 103 وأعمال أندريا فرانشسكي انظر (birrief entry by S. Zamperetti, Dizionario Biografico degli Italiani,) , 36, 24 - 26' brief mention is also made in G. Cozzi , La donna, under D for De Franceschi) , 36, 24 - 26' brief mention is also made in G. Cozzi, La donna, يذكر زامبرتي وجود علاقة بين فرانشسكي وتيتيان , Tiziano e Venezia (Vicenza, 1997) , 47-63, in particular 60, n. 78 لماركو فوسكاريني Marco Foscarini فإن أعمال إعادة ترتيب وتنظيم الأرشيف التي أشرف عليها فرانشسكي قد أفادت نيكولو كونتاريني Nicolò Contarini في إعادة ترتيب أرشيف السيرينسيما Serenis- 255 - 247 - 28 in Dizionario Biografico , G . Cozzi, Nicolò Containi di Zuan Gabriel , in 255 - 247 - 28 أن المقولة التي تقلل إلى حد ما من دور Cancellier Grande تحتاج إلى إعادة نظر .

(٢١) ASVe , Indici della Secreta (s. n.)

(٢٢) Stella :Zuan Piero Stella ; Deda : Gerolamo Deda .

(٢٣) G. Casanova, Storia della mia vita. Vol. II (1756 - 1763) , Piero Chiara and F. Roncoroni (eds.), (mondadori, 1984), 28. G. Casanova, History of my Life (trans. W.R. (trask) , (1968) . 225

(٢٤) R. Gallo, Il tesoro di S. Marco e la sua storia (Firienze, 1937) ,23 .

(٢٥) Susy Marcon (ed.) I libri di San Marco, P. Selmi, Riflessioni archivistiche, 47 - 51, (F. Olmo, in particular p. 48 . See Catalogue, scheda n. 72 . (في هذه الورقة) .

(٢٦) ولم يقتصر الإهمال والنسيان على الوثائق ولكن امتد أيضا لرفات القديسين نفسها ، انظر بخصوصه . R. Gallo, Il tesoro di S. Marco, 49 - 52- 1617 ويخصوص تتابع الإجراءات لإعادة تنظيم الأوراق أنظر 62 proc. , 73 , Chiesa , ASV , Procuratori di San Marco de supra ,

(٢٧) Pozza, Gli atti originali I,17

(٢٨) Ibid في الإشارة التي كتبها أولمو والمعنونة le quali Inventario di quelle scrit ure pubbliche sono state ritrovate da me Fortunato Olmo abbate cassinense nel camerone sopra la chiesa di S. Marco, insieme con altre scritture della detta Procuratia وفيما يتعلق بالتخلص من الوثائق وصف الصراع الداخلي مع ضميره لاتخاذ القرار بالتخلص من أوراق أنتجها متوفون ، خوفا من أن يكون في ذلك إظهار لعدم احترام أرواحهم .

(٢٩) ASVe, Inquisitori di stato, b. 927 تقرير أولمو في

(٤٠) Lorenzi, Monumenti 59 - 60 , nota al doc. 151

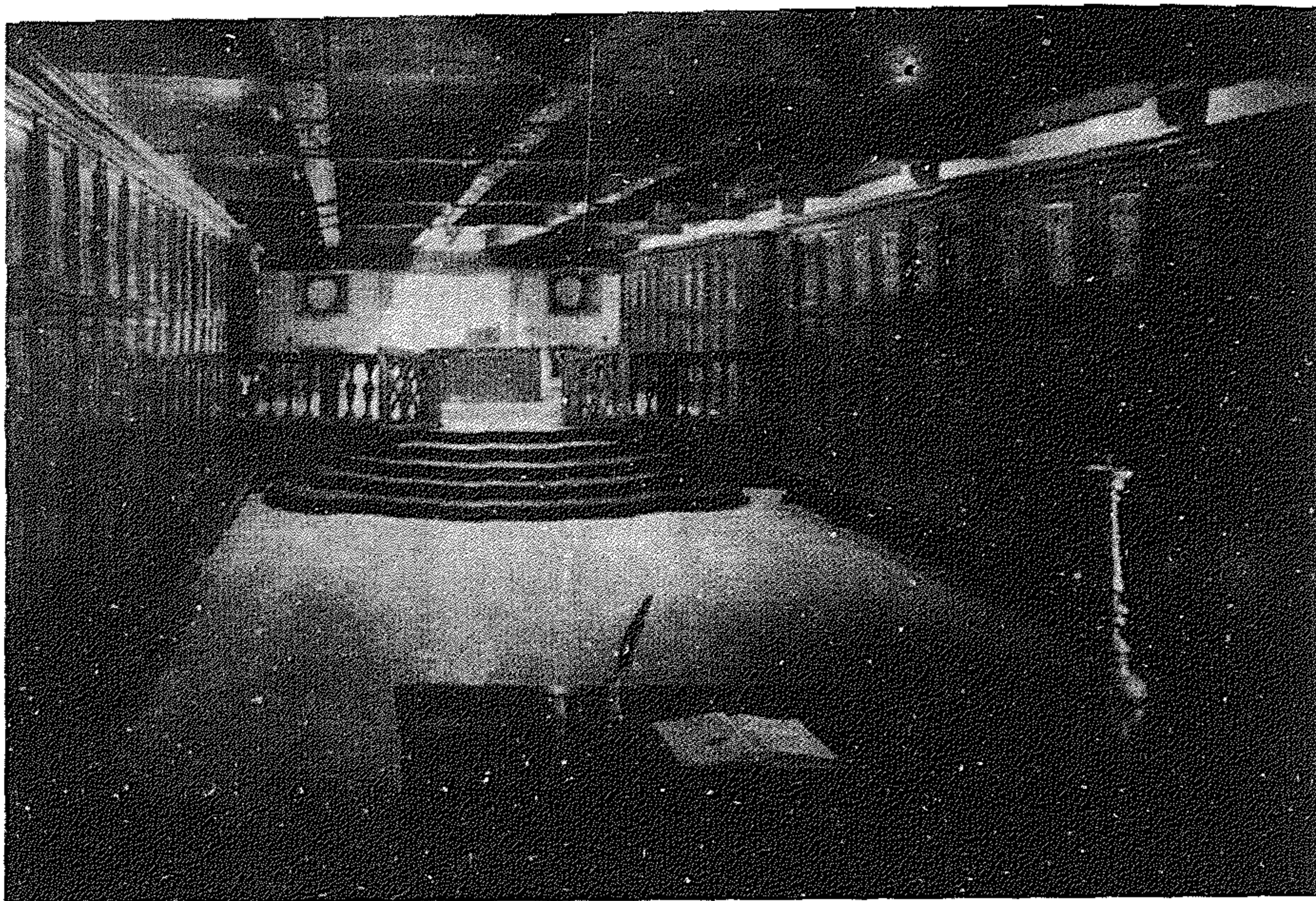
(٤١) ASVe, Maggior Consiglio, Deliberazioni (Leona) , reg . 21, C. 125 r ., 1402 , aprile 23.

(٤٢) ASVe, Inquisitori di Stato , b. 924: Nota de Senatori che sono stati a legger in Se-

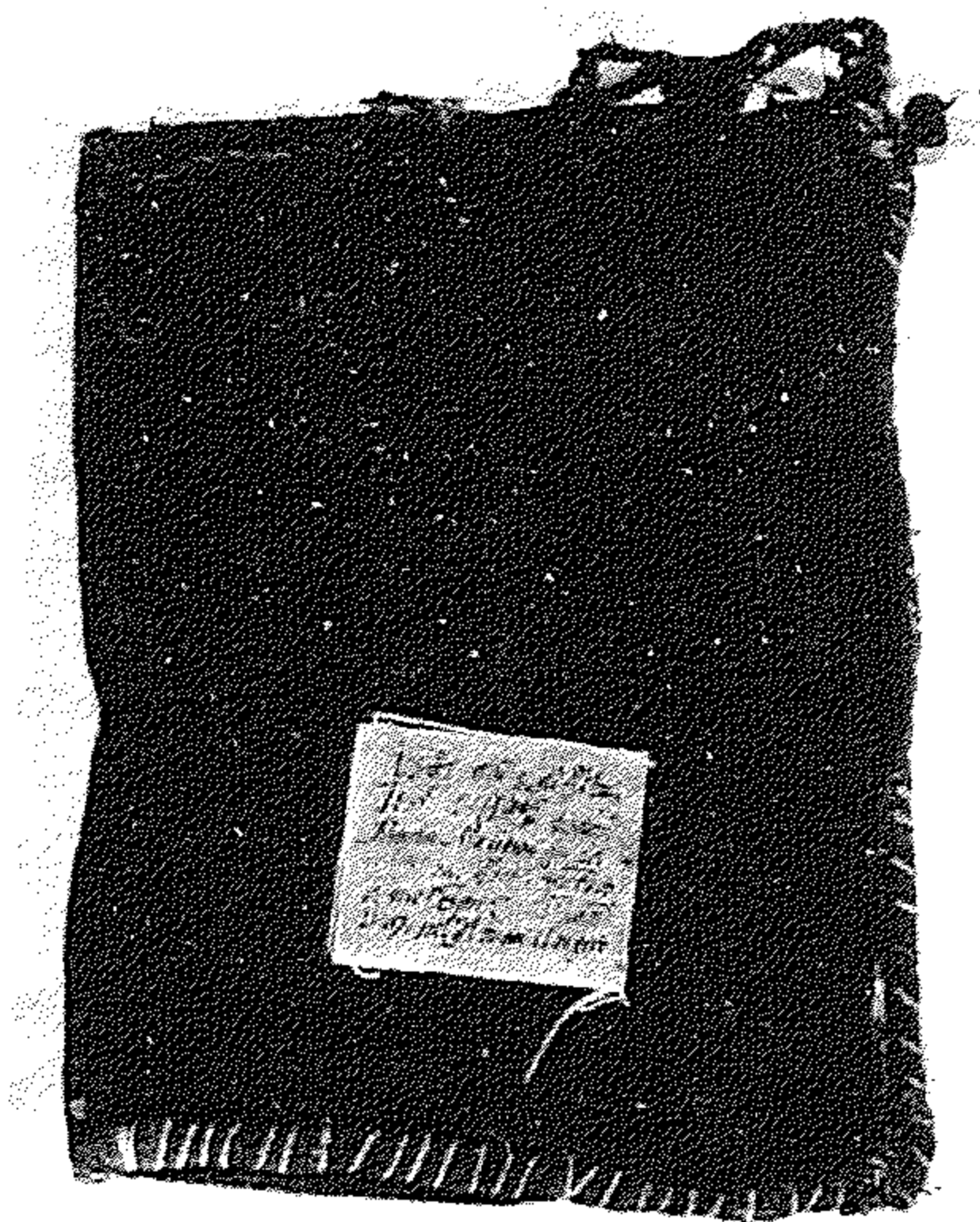
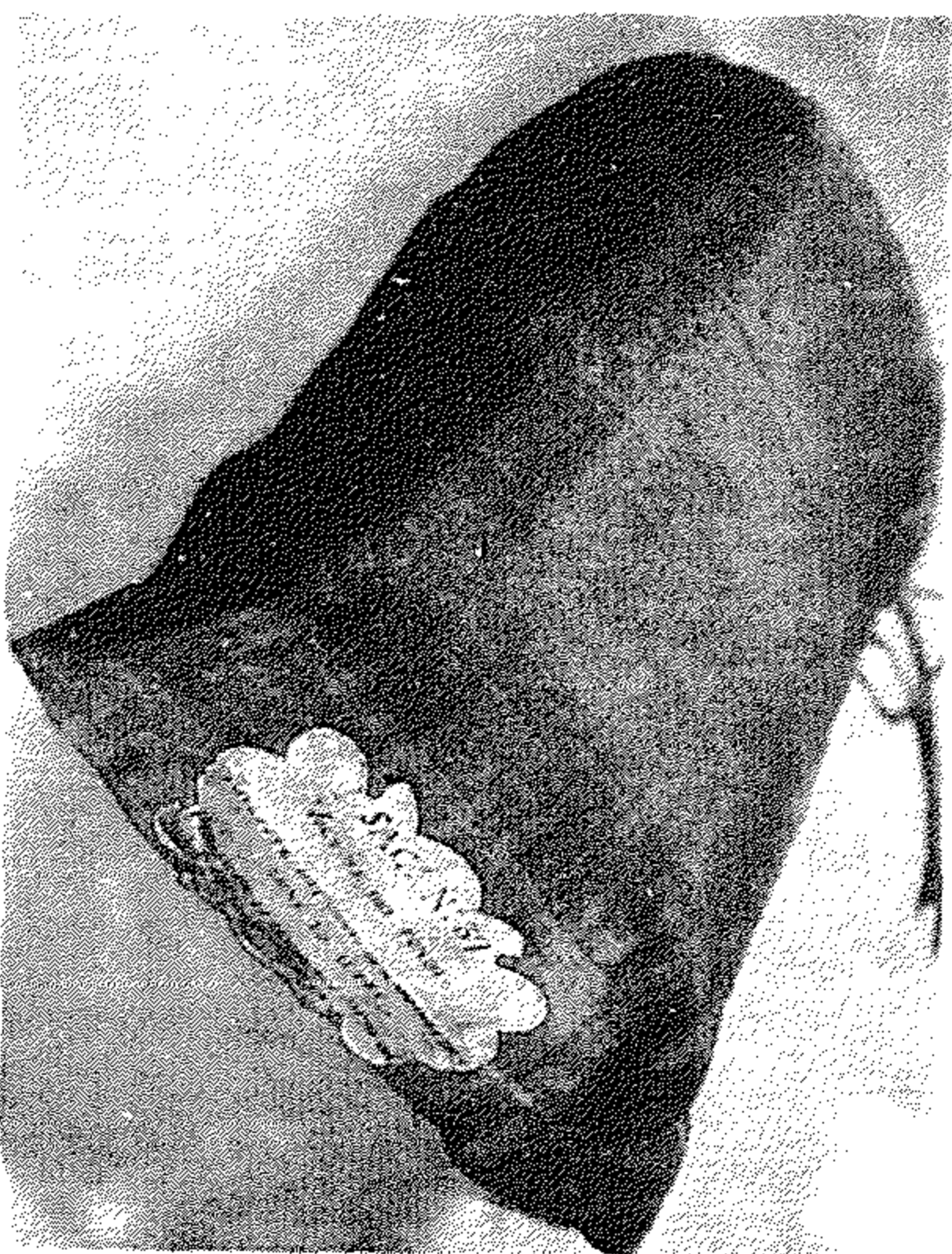
creta il mese di settembre 1689 ويستمر السجل حتى فبراير 1700.

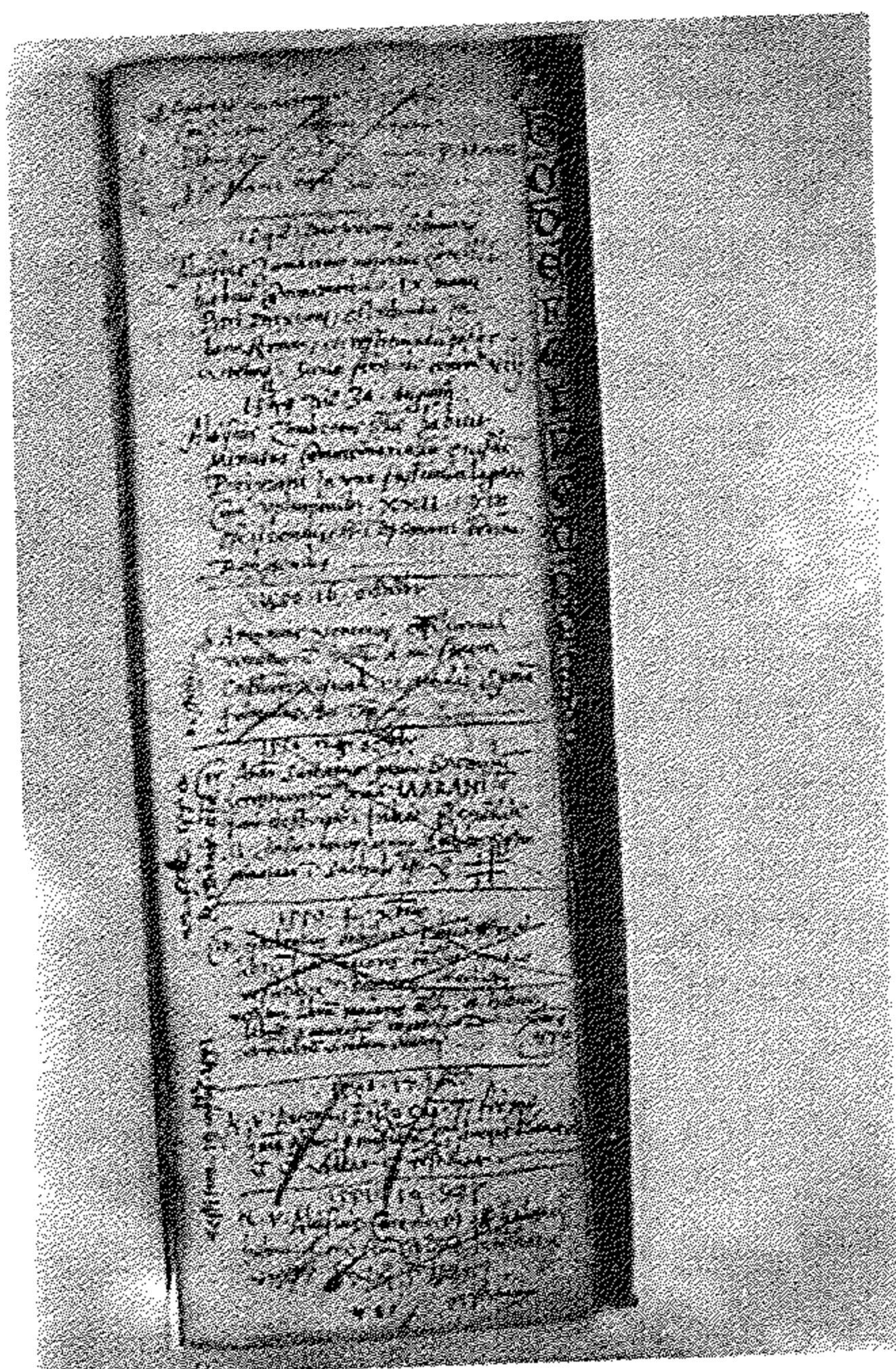
F. Ventura, Politica del diritto e amministrazione della giustizia nella repubblica (٤٣)
veneta, Rivista Storica Italiana, XCIV (1982) , 596.

istoria civile dei commerce de' Veneziani (Venezia, 1798 - وقد كتب مارين أيضا : (٤٤)
1808) : M. Gorra Cecconi, Nievo a Venezia (Venezia, (s.d) , 9.

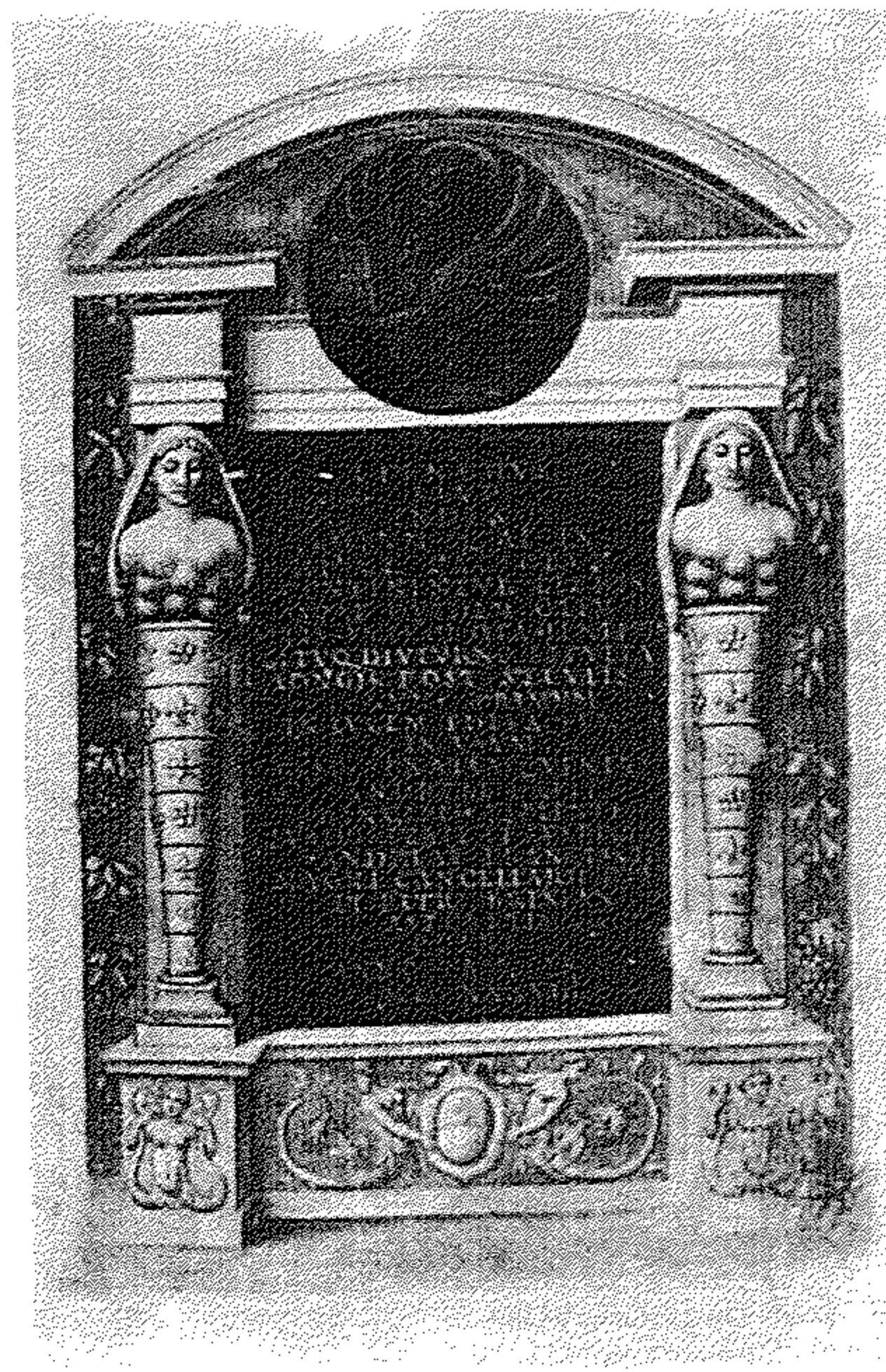


شكل (١) مكتب المحفوظات السرى





شكل (٥) فهارس Secrela



شكل (٤) فهارس الأجزاء التسعة الأولى
Pacta

أرشفيف بلدة مرسيليا، إشكالية موقع

دانييل بن عزوز

مقدمة تاريخية

كان يعهد بحفظ الملفات في مرسيليا منذ القرن الثالث عشر لسكرتير إداري أو أحد الوجهاء ، ولم تعين البلدية أرشفيفيا archivaire إلا عام 1593 وكان أول من تولى هذا المنصب هو روبير روفى Robert Ruff وكان مسئولا عن الترتيب وتحرير قوائم الحصر ، وفي عام 1973 استقرت الإدارة البلدية مع أرشفيفها في دار البلدية الجديدة ، في صيوان بوجيه Puget حيث تتابعت عدة أجيال من الأرشفيفيين ، وفي عام 1963 نقل جزء من الأرشفيف إلى كلية العلوم الجديدة ، وبقي جزء آخر في دار البلدية ثم انتقل إلى شارع سانت Sainte في كنيسة مدرسة أكلول إيه لا ماجور Accoules le La Major ، وفي النهاية وبوصول المدير الجديد أرنو رامير دو فروتانييه Arnaud Ramire de Frotnier في يناير 1969 وإلحاق مبنى مكتبة البلدية بميدان كارلي Carli استطاع الأرشفيف أن يستجمع نفسه مرة أخرى. وانتهت عملية الانتقال وتجديد الحجرات عام 1973 ، واستقر الأرشفيف بذلك في قصر مهيب صممه إسبيرانديو Espérandieu عام 1864 ليأوي مدرسة الفنون الجميلة، والمكتبة وخزانة العملات والميداليات والتي ظلت في الغرفات ، وبذلك تم استيفاء اللازم لعمليات الحفظ، واستقبال الجمهور والاطلاع على الوثائق في قاعة الاطلاع .

وإن كان الأرشفيف القديم قد وجد مسكنه، فالأرشفيف الحديث مازال قابعا في الآكول ، لذلك أنشئ ملحق جديد عام 1985 بشارع كداسيونى Codaccioni على بعد أربعة كيلومترات من المستودع المركزى ، بيد أن هذا الموقع الجديد غير مجهز بقاعة

اطلاع ، كما أن هناك جزءاً مهماً من الوثائق غير متاح، وفي أغسطس 1995 أجبر الأرشيف على الهرب ، تحت خطر انهيار المبنى المركزى الذى يحتوى على أربعة كيلومترات من المادة الأرشفية ، ليستقر بعد عملية هجرة استغرقت خمسة أشهر ، فى مستودع قديم مساحته 800 متر مربع على بعد سبعة كيلومترات من قلب المدينة .

كل تلك المباني المشبعة بالأوراق ، وتباعدها، والطلب المرتفع على الوثائق المتاحة للاطلاع والاهتمام بالحفظ المثالى للوثائق زاد من صعوبة الوفاء بالخدمات الأرشفية على وجهها الأكمل يوماً بعد يوم .

وقد أصبحت هيئة الأرشيف البلدى فى مرسيليا عام 1996 تتألف من 28 من العاملين ، و 10 كم من الأرفف ، و 20 ألف كتاب ، وخزانة للعملات والميداليات تحتوى على 2500 عمل مطبوع وعلى مجموعة من الدوريات يرجع أقدمها لعام 1830 و 20 ألف قطعة عملة وميدالية ، و 12420 طلب اطلاع ل 1129 مستخدم مسجل ، وهو ما يوضح النشاط المتنامى بالرغم من الإغلاق الذى استمر خمسة أشهر العام الماضى (*).

اختيار الموقع

منذ عدة سنوات، وبنشاط رئيسة الأمناء، إيزابيل رامبو Isabelle Rambaud ، استطعنا الحصول على مسكن جديد للأرشفيف ، وفى 21 نوفمبر 1994 صدق المجلس البلدى على اقتناء العقار التابع لمصنع الأدخنة القديم سيتا SEITA ، لينتقل إليه الأرشفيف البلدى وخزانة العملات والميداليات .

وقد جاء اختيار مصنع وإعادة تهيئته فى حى شعبى وصناعى بعد تفكير عميق ، فمن بين كل المواقع المقترحة ، كان هذا الموقع فقط هو الذى تتوافر فيه أكبر مجموعة من الشروط اللازمة لإنجاح عملية نقل أهم مستودع أرشفيفى بلدى فى فرنسا (بعد باريس) .
□ الموقع الجغرافى : لقد ظل حى بيل دو مى Belle-de-Mai حياً صناعياً وشعبياً حتى السنوات الأخيرة ، وهو يقع بالقرب من قلب المدينة، ومن محطة سكك حديد سان

(*) المقصود بالعام الماضى سنة ١٩٩٦ حيث إن المؤتمر عقد عام ١٩٩٧ . (المترجم)

شارل Saint-Charles ومن الجامعة، وسوف يستعيد ديناميكيته في المستقبل القريب ، بالرغم من إغلاق المصانع .

□ حالة المبنى : شيده المعماري ديزيريه ميشيل Désiré Michel بين عامي 1862 و 1868 ثم تمت توسعته على نفس الطراز حتى عام 1940 ، ثم أغلق المصنع أبوابه في أواخر ثمانينات القرن العشرين ، وقد كانت تجرى عمليات صيانة مستمرة للبناء من الداخل والخارج وكذلك لسقفه بشكل منتظم وحالته جيدة.

□ المشروع العام : في نفس هذا الموقع يسكن، إلى جانب الأرشفة، المركز الإقليمي للحفاظ على تراث الأمة وترميمه Centre Interrégionale de Conservation et de Restauration du patrimoine والمعمل التابع له، وهو معمل الدولة لتوثيق الدراسات حول ترميم الأعمال الفنية laboratoire d'Etat de documentation d'études sur la restauration des oeuvres d'art وكذلك مخازن متحف مارسيليا، وذلك على مساحة 1500 متر مربع ، وهكذا مع وجود معرفة دولية بالمكان، قائمة بالفعل ، والانفتاح الثقافي على العالم الخارجي (قاعة محاضرات ، وقاعات معارض ، وصالة إنترنت...) سيكون الموقع مركز جذب ثقافي قوى .

□ المساحة: 10.000 متر مربع على أربعة مستويات هي نصيب الأرشفة في هذا المجمع، مع وجود إمكانية للتوسع مستقبلا (قاعة معارض وقاعة لاستقبال المادة الأرشيفية) ، ومدخلين (للتسليم والجمهور) ، ومكان انتظار سيارات واسع ، ومسكن للحارس وجهاز كمبيوتر للأمن ، ومسكن للأمن.

المؤكد في هذا المشروع

أخيرا سيتم اجتماع كل الأرشفات البلدية، مما سينتج عنه توفير الوقت في عمليات الاطلاع على الوثائق (تستغرق اليوم بين عشر دقائق وثلاثة أيام بعد تقديم الطلب) وإمكانية استقبال العاملين بالهيئات المودعة للوثائق بهدف توفير فهم أفضل للمجموعات قبل حفظها (فرز وإعدام بالاشتراك مع الأرشفيين) ، بالإضافة إلى أن اجتماع كل الوثائق مع العاملين عليها في موقع واحد يوفر فرصة أفضل للتعامل مع

المشاكل الفعلية وكذلك تصور الوضع الأمثل للعمل ، واستقبال الباحثين والانفتاح على شرائح جديدة من الجمهور، وربما حتى توقع الموضوعات البحثية والتفكير فى دور أرشيفى المستقبل .

بالإضافة إلى ذلك فقد كرس العاملون فى الأرشيف ، منذ يناير 1995 أنفسهم لمشروع الانتقال هذا، وقد استهلوا ذلك بالاشتراك فى إعداد دراسة عن الاحتياجات والبرنامج حتى يستطيع المهندسون أن يتعرفوا على الاحتياجات الخاصة بهيئة الأرشيف ، هذا الاشتراك فى دراسة إعادة تأهيل مبنى صناعى تغير من الصورة الثقافية للأرشيف حيث أنها تدخل فيها ملامح علمية وفنية ، فعلى سبيل المثال يوضح الالتزام بالشروط المناسبة للحفظ فى المخازن مع تطبيق المعايير، والاستجابة لمتطلبات حفظ مختلف المواد الأرشيفية (ورق، كتب، بطاقات، خرائط، مقتنيات ، عملات ، ميداليات...) وجوب إمعان النظر قبل تطبيق التشريعات القائمة على مواقع لم تنشأ أصلا لتأوى تلك الوثائق.

كما أن توفير وتركيب تركيبات الاتصالات المعلوماتية مع العالم الخارجى ، مثل الاتصال بقواعد البيانات مثلا ، يمكن أن يتم بشكل أسهل فى مبنى غفل من أى تركيبات ، وسوف توفر تلك الوسائل التى لا غنى عنها للانفتاح على العالم الخارجى فرصة للباحثين لاستكمال معارفهم .

وبإطلاق المسابقة المعمارية على المستوى الأوروبى، سوف يدخل الأرشيف البلدى فى مرسيليا مجالا كان قاصرا حتى الآن على المراكز القومية والإقليمية، وسوف تسهم تلك المسابقة، بلا شك فى إثراء صورة هذا المركز الأرشيفى وأمله فى توفير الثقافة والتقنية العالية للجميع .

المجهول فى هذا المشروع

ويأتى المظهر الصناعى لبيل دو مى فى إطار مشروع أعلن أنه مشروع قومى: أوروبى - بحر متوسطى ، هذا المشروع العمرانى والذى بدأ عام 1991 تجرى عليه دراسات حالياً، وهو يمتد على مساحة 310 هكتار من قلعة سان جون Fort Saint-Jean إلى ميدان أرونك Arenc ، ومن محطة سكك حديد سان شارل إلى بيل دو مى .

أهداف المشروع : تحسين نوعية التحضر عن طريق العقارات ، وحسن تنظيم المساحات العامة، وتنفيذ البنية التحتية للطرق ، وزيادة وسائل النقل العامة لتحسين الانتقال ، وتحسين المساكن ، وإنشاء مرافق عامة، وتنمية نسيج المشاريع والمصانع الصغيرة والمتوسطة.

أما بالنسبة لتمويل مجمل المشروع، فبالرغم من أن الدولة تقدم 50% من التمويل ، إلا أن تمويل بناء الأرشفة البلدي مازال متروكا للظروف، فإدارة الأرشفات الفرنسية ووزارة الثقافة لا تقدم العون إلا نادرا، ولكن أمام ضخامة المشروع وقيمة وشهرة المجموعات الفريدة للميراث الثقافي في مارسيليا، وتطور العقلية، ستكون مساعدة الدولة وأوروبا أيضا لتمكين عمودية مارسيليا من إنجاز هذا المبنى في أسرع وقت ممكن.

ولكن مع كل تلك الآمال ، هناك عنصر يجب أن يؤخذ في الاعتبار (الجمهور) فقد اعتاد الجمهور منذ عام 1973 ارتياد قاعة الاطلاع المزينة بالزخارف الخشبية التي تعود للقرن التاسع عشر، ذات السقف المزين و الباركيه اللامع للمبنى الفخم الذي يقع في ميدان كارلي، وهو ما أجبر هيئة الأرشفة على النجاح في سياسة خدمة الجمهور، ولكن لو لم تتم البنية الأساسية للسيتا SEITA وبناء محطة سكك حديد تى جى فى TGV وتطوير حى بيل نو مى فى فترة متزامنة، سنلاقى صعابا جمة فى إقناع القراء من خارج مارسيليا بالمجىء لاستخدام الأرشفة.

والخلاصة أن إعادة استخدام وتحويل موقع صناعى بهذه الضخامة يستلزم سنين عمل تسبقه ، للقيام بالدراسات ومحاولات التوفيق بين الاحتياجات العملية والتجهيزات والعمالة ، ولن يؤتى هذا العمل ثماره إلا إن أحسن اختيار هذا الموقع الجديد، فكثير من هيئات الأرشفة التى شيدت على مر السنين خارج مراكز المدن قد أثارت استياء العاملين فيها وكذلك المستخدمين الذين يعانون المشقة فى الوصول للمكان ، وتسكين الأرشفة البلدي لمرسيليا فى السيتا SEITA ، فى هذا الحى الذى يشهد تطورا شاملا ، يمثل تحديا لكل العاملين ومديرتهم الجديدة سيلفى كلير Sylvie Clair ليدخلوا به - بنجاح - القرن الواحد والعشرين .

التخطيط لمقر جديد لأرشييف مدينة بودابست

آندراس جى . هورفاث

ربما لا تقابلنا فى تاريخ أرشييفات المدن الأوروبية حالات كثيرة يتوجب على الأرشييف فيها أن يقاتل حتى يحصل على مكان مستقل، ولكن هذه هى الحال مع أرشييف مدينة بودابست .

وربما تكون اضطرابات تاريخ بودابست أكثر إثارة للأفكار إذا نحن درسنا تاريخ أرشييفها، فمع التغيرات العنيفة التى عانتها المدينة كان على الأرشييف أن يستنقذ وثائق المدينة إلى أى مكان (قبو عفن كان أو غرفة علوية أو إسطبل، أو مبنى مصنع، أو هيكل كنيسة) ، ولم تشهد عاصمة فى القارة بأسرها ما شهدته بودابست من تغيرات حادة فى مسلك قاعة المدينة مع الأرشييف ، من تجاهل تام للأرشييف إلى مشروع باهظ التكلفة، بدون أى تمويل حقيقى .

وقد شهد أواخر القرن التاسع عشر أول محاولة لإيجاد مكان ملائم لأرشييفنا، عندما تحرر الأرشييف من أى وظيفة عملية، وتركزت مكاتبه ومجموعاته فى ما يعرف الآن بقاعة المدينة، والتى كانت الأضخم فى المنطقة الشرقية من وسط أوروبا آنذاك ، غير أن المسئولين عن المدينة آنذاك كانوا على دراية بطبيعة المادة الأرشييفية ومولعين بقيمتها التاريخية ، حتى إنهم لم يهتموا بالمجموعات التى سترد فى المستقبل، فكان أن امتلأت المخازن تماما قبل الحرب العالمية الثانية، وكان ينظر للأرشييف على أنه "متحف للوثائق"، لذلك كان مهما الحفاظ عليها. وقد تم نقل أهم نوعيات المادة الأرشييفية إلى بدروم كاتدرائية المدينة بين عامى 1943 و 1944 بينما ظلت باقى المجموعات فى قاعة المدينة، حيث أصابها ضرر شديد أثناء حصار بودابست .

وبعد الحرب تغيرت النظرة من الاهتمام بالمكانة والأبهة إلى نظرة مختلفة تماما تصفها كلمات النائب الشيوعي الجديد للعمدة، والذي أعلن، عندما سمع بعودة الوثائق من الكاتدرائية إلى مكانها الأصلي قائلا "ماذا، الأرشييف - اللعنة (فلتدمر) وهكذا حفظت الوثائق حتى عام 1989 في مكان درجة حرارته 8 مئوية ونسبة الرطوبة 80 بالمئة ، ونسبة أول أكسيد الكربون عشرة أضعاف المسموح به .

وقد تغير هذا الاتجاه نسبيا في أواخر الستينات من القرن العشرين في فترة ما أطلق عليه إصلاحات خروشوف وكادار، عندما انتقلت الأرشييفات المحلية التي كانت قد أصبحت مركزية سنة 1950 ، إلى المجالس المحلية.

وبينما كان الاتجاه في الماضي، وخاصة في الخمسينات ، معاديا وسلبيا من الناحية الأيديولوجية تجاه أرشييف المدينة، إلا أنه منذ السبعينات بدأ المكتب السياسي للمدينة يكتشف أن الأرشييف يمكن أن يكون له قيمة عملية، حيث بدأوا يستخدمون التاريخ المدني لإضفاء شرعية على النظام ، ففي عام 1973 وبمناسبة الاحتفال بالعيد المئوي لتوحيد المدن الثلاثة ، نظر إلى هذه الوحدة بروح أيديولوجية أخرى ، حيث أبرزت كإرهابية تاريخية للتطور الاشتراكي؛ فبرز تاريخ المدينة على أنه ماضي الانتصار للاشتراكية المجيدة الحالية.

وفي هذا السياق ، لم يكن هناك من بد من إنهاء الظروف القاسية السابقة، فأصدرت حكومة المدينة قرارا في عام 1972 يضع الحاجة لتأسيس مقر للأرشييف ضمن قائمة الأولويات ، وكان يجب أن تتواءم الخطة إلى حد بعيد مع النظرة الاشتراكية المبالغ فيها في تخطيط المدينة التي كان يعتقد أنها على الطراز الحديث آنذاك ، وهكذا فسيكون المبنى الجديد بارتفاع 62 مترا ويحتوى على 23 قاعة في قسم من برج في مركز ثقافي مقترح في أحد ضواحي المدينة ، وقد روعى في التنظيم الداخلي الاحتياجات المهنية ؛ وهي تحديدًا: الحفظ، والتخزين، والإتاحة، وخدمات الجمهور ، وبالرغم من أن تلك التصميمات كانت تتبع أحدث المواصفات آنذاك إلا أن المشروع كان باهظ التكلفة بعد تقدير تكلفة الإدارة ، وبعد أن شب حريق في أحد الأبراج، ألغى المشروع .

ولكن فكرة تجميع الإدارات المتناثرة للمؤسسة فى مكان واحد لم تلغ من الأجندة ، وقد أمرت قاعة المدينة بإعداد تصميمات جديدة وتخطيط موقع جديد، فى محاولة لتفعيل قرار 1972 ، وهنا ظهرت فكرة أخرى تتمثل فى إنشاء مركز أرشيفى مستقل، باستغلال مبنى كنيسة معلمة لم يتم إلا نصفه ، وكان المبنى من تخطيط ممثل مدرسة الهندسة المجرية Hungarian Bauhaus الشهير فراكاس مولنار Frakas Molnár غير أن استخدام المبنى قد يثير المشاكل؛ على الرغم من أنه غير مكلف مثل البرج، وتكمن المشكلة الأساسية فيما إذا كان يجب إضافة أجزاء جديدة للمبنى تضاف له من الخارج، أو أن الأفضل أن تستكمل الأجزاء القائمة بالفعل فى المبنى ؟ غير أن التصور النهائى تبنى رأيا ثالثا وهو بناء الأجزاء الجديدة أمام المبنى القديم بشكل يتيح رؤية الأجزاء القديمة ، وكان تصميم أقسام الأرشيف الجديد أفقيا وغير متماثل البناء ويعكس فقط الاحتياجات العملية لتقسيماته ، وقد أخذ فى الاعتبار إمكانية القيام بتوسعات فى المستقبل ، وكان التصميم على هيئة مبنيين مختلفى الارتفاع قد يتصلان بممر ، ويحتوى المبنى الأعلى منهما على المخازن فى ست قاعات ، والورش ، وفى المبنى المنخفض تقع حجرات البحث العامة والمكاتب الإدارية فى ثلاث مجموعات من القاعات أو الغرف ، غير أن الضائقة المالية التى كان يمر بها النظام أدت إلى إلغاء هذا المشروع الرائع أيضا فى أواخر السبعينيات، بالرغم من أنه كان أقل كلفة من المشروع السابق ، ولم تتخذ إلا بعض الإجراءات العاجلة، كان أولها إنقاذ الوثائق التى استمرت فى تدهور لعقود من الزمن من بدروم الكاتدرائية سالفة الذكر بين عامى 1989 و 1991.

ولم تتم الاستجابة للحاجة المتزايدة لقرار حاسم إلا بمجىء قيادة جديدة لقاعة المدينة وللأرشيف فى فترة تغير النظام، ويبدو أن عالم الأعمال غير المقيد والسوق الأوسع للعقارات قد وفرا فرصا جديدة للاستثمار فى السوق، فكان أن اتصلت عدة شركات بالأرشيف عام 1991، حتى أن بعض شركات العقارات أبدت حماسها لبناء الأرشيف ببيع بعض ممتلكاتها للمدينة، ولكن العقارات التى عرضتها لم تكن مناسبة لاحتياجات الأرشيف ، وأنفق الكثير من الوقت فى أوائل التسعينيات لدراسة مختلف البدائل ، وفى نهاية عام 1992 وقع الاختيار على قطعة أرض تبلغ مساحتها 3000 متر مربع فى منطقة غير جذابة ولكن يسهل الوصول إليها فى المدينة ، وبعد موافقة مجلس

الشعب فى يناير 1993، تم وضع تعريف لمتطلبات الأرشفة ، وفى منتصف ذلك العام قبل المجلس المواصفات الأساسية للمشروع ، ولكن توقفت الخطوات التالية، أساسا، للشك مجددا فى أسس تمويل المشروع. وربما أمكن حدوث انفراجة من خلال قانون تعويضات الكنائس Compensation Law for the Churches حيث أن الكنيسة الكاثوليكية ، بموجب هذا القانون، تستطيع أن تستعيد ممتلكاتها المعلمة ، ومن ضمنها هذا البناء الذى لم يتم والذى هو بحوزة المدينة الآن ، والذى تستطيع المدينة بالتالى أن تحصل على تعويض له من الحكومة، وتم إعداد مشروع تفصيلى بواسطة شركة عهدت إليها المدينة بذلك دون منافس، بشكل عاجل فى أوائل 1994، وكانت المهندسة الإنشائية للمشروع هى مس برويالا بيتيرفيا Broála Péterfia التى صممت المشروعات سالفه الذكر، والتى لم تتم ، وقد تمكنت من استخدام بعض التفصيلات من مشروعاتها السابقة بالرغم من أن الهدف الحالى هو تنظيم البناء بشكل رأسى حيث أن أبعاد مساحة الأرض لا تعطى فرصة لخيارات أخرى ، ولم يسمح بالتوسع لأعلى، فلم يكن من حل إلا أن تكون المخازن تحت الأرض ، وطبقا للمواصفات، فالمشروع الجديد سوف يبنى على مساحة 11.250 متر مربع ليضم 40.000 متر طولى من الوثائق فى شانونات بؤارة ، بالإضافة لمكاتب تسع 70 من العاملين .

وطبقا للفكرة الأصلية كان يجب أن يكون البناء الجديد حول مركز للخدمات الأساسية. ومخازن الوثائق فى بدرومات ذات ثلاثة مستويات مكيفة الهواء ، والخدمات المنفصلة الأخرى على مستوى الأرض والأنوار العلوية. وخصص الدور الأرضى لاستقبال الجمهور وتسليم الوثائق، بقاعة مدخل عظمة الاتساع، وقاعة الاطلاع، وقاعات بحث، وحجرات منفصلة للاطلاع على الميكروفيلم، وتحتوى التقسيمات العليا على مكاتب الإدارة والمكتبة، والخرائط والرسومات الهندسية، وأماكن لدراسات وأعمال الربوجرافى (*) reprography، والترميم ، والتجليد، إلى جانب حجرات للخدمات المعاونة ، وقد انتوت قاعة المدينة، فى البداية، أن تنفذ المشروع على نفقتها، ولكن تلك النية تبدلت بعدما أعلن عن دعم خاص لحوالى ثلثى النفقات، والسبب فى إعادة النظر تلك أن

(*) علم وتطبيق تصوير المستندات. (المترجم)

حوالى نصف المادة الأرشيفية أودعتها هيئات حكومية حوالى عام 1950. وكان يجب الإسراع فى التخطيط حتى يمكن أن تضمن تلك المجموعات فى قيمة التمويل .

ثم حدث شىء غير متوقع :

ظهر الفنان الرسام الشهير فريدنسرأىخ هوندترتفاسر Friedensreich Hundertwasser فى بودابست بمناسبة أحد المعارض، ولعت فى ذهن بعض أعضاء قاعة المدينة أن يشركوه فى المشروع، وطلب إليه أن يضع تصميمًا جديدًا للمبنى ، وقد كان تصميم الواجهات فى المشروع الأصلي رتيبًا جدًا، ويفتقد بلا شك الألوان والعناصر الغريبة المميزة لعالم هوندترتفاسر ، وقد كان الرجال على حق إلى حد ما، فإشراك هذا الفنان فى المشروع ستضيف إلى منطقة من المباني الصماء ، التى تفتقد الروح والجمال، نكهة خاصة ومتفردة قد تضيف صبغة أكثر إنسانية على المناطق المحيطة وتضيف للمدينة مكانًا قد يكون عنصر جذب سياحى.

ولكن الفكرة جاءت متأخرة ، ولم يكن من الممكن أن تنفذ بدون وقوع مشاكل ، وكان عنصر الوقت أساسيا، وكان من المستحيل أن يدمج مشروع جديد تماما فى المشروع الذى تقدمت به بتريفيا، لذلك اتجه عزم قاعة المدينة على طلب عمل تعديلات على الواجهات فقط من هوندترتفاسر، وهو ما قابلته المهندسة الأساسية بامتناع فى البداية، ولكنها وافقت عليه فى النهاية.

وقد تمثلت التغييرات التى أدخلها هوندترتفاسر أساسا فى تحويل الخطوط العامة للبناء إلى خطوط منحنية ومستديرة مما يضيف حيوية أكبر على المكان ، وأخص بالذكر أيضا فكرة "السطح الحى Living roof " وقد أراد بها أن يخفف من حدة الطابع العسكرى للبناء بزراعة بعض الأشجار والشجيرات والنباتات على السطح، لإنعاش الجو وتوفير ملجأ للطيور المسكينة ، ومن الجدير بالذكر فى هذا المقام أن أنهو إلى أن فكرتِ التصميمين قد دمجتا بنجاح فى المشروع الحالى (فكرة بتريفيا الملتزمة بقواعد العمارة الكلاسيكية الحديثة ، واهتمامها بالناحية الوظيفية للبناء ، مع فكرة هوندترتفاسر المعبرة عن الفنون والجمال) .

وبينما كان المهندسون يعملون بكد إذا بالغمز واللمز على نور هوندترتفاسر يبدأ، فقد استاء بعض المعمارين المجريين من أن هذا الفنان قد أوكلت إليه المهمة دون مسابقة، وملئوا الدنيا صخباً عن تجاهلهم، ولكن لم يذكر أنه لم تكن هناك مسابقة على الإطلاق منذ بداية المشروع الأول، وأدلى الصحفيون بدلهم فاثاروا الدنيا أكثر فأكثر بتقاريرهم العارية من الصحة، وقد أدى كل ذلك في النهاية إلى وفاة المشروع، فرفض الدعم، وعلقت حكومة المدينة المشروع في جو سيء، على الأقل حتى ما بعد انتخابات نوفمبر 1994 المحلية.

وإننا لنأمل ألا يكون سوء الحظ هذا هو قصة فشل، ولكن مجرد مرحلة أخرى من عملية طويلة للوصول إلى أفضل المشروعات للمبنى الجديد.

الفصل الخامس

التاريخ المتروبولى من واقع الأرشيفات

الأطلس التاريخي لفيينا كجزء من مشروع تاريخ فيينا

ريناتى بانيك - شفايتسر

بين عامي ١٨٩٧ و ١٩١٨ نشرت 'الجمعية التاريخية لفيينا Verein für Geschichte der Stadt Wien' تاريخ فيينا History of Vienna فى ستة أجزاء تغطى الفترة منذ العصر الرومانى وحتى بداية حكم الإمبراطورة ماريا تيريسا maria Theresa سنة 1740 ، وبعد الحرب العالمية الثانية، قررت الجمعية لأن تستكمل هذا العمل حتى فترة الحروب الداخلية .

ولما كان 'تاريخ المدن Stadtgeschichte' يكتبه فى ألمانيا والنمسا عادة أرشيفيون لهم دراية بتاريخ العصور الوسطى، ولما كانت الجمعية التاريخية مازالت على علاقة وطيدة بأرشيف مدينة فيينا - قطاع من إدارة المدينة - بالموقع وكبار العاملين، فقد كان من الطبيعى أن تلجأ الجمعية إلى مدينة فيينا لتمول هذا المشروع، وتمت الموافقة على المشروع وتم وضع برنامج بحثى خاص تحت إدارة أرشيف مدينة فيينا فى أوائل السبعينات لإخراج أربعة أجزاء شديدة الأهمية وهى : التاريخ السياسى ، والتاريخ الاقتصادى، والتاريخ الاجتماعى، وتاريخ تطور المكان ^(١) .

وفى نفس هذا الوقت تقريبا، طلب إلى النمسا الاشتراك فى مشروع أطلس المدن الأوروبية، الذى يوثق لتطور كل مدينة بالاعتماد أساسا على الخرائط المعاصرة وحتى بداية عصر الصناعة، وكان المشروع أيضا عملا للأرشيفيين، وبالتالي كان يتم فى أرشيف مدينة فيينا لأنه مع وجود المعهد المنشأ حديثا Ludwig-Boltzmann-Institut für Stadtgeschichtsforschung أصبحت مدينة فيينا هى الهيئة الوحيدة القادرة على توفير تمويل طويل المدى للمشروع ، ولكن اتضح أن فكرة الأطلس قائمة على المدن الصغيرة

أو البلدات، وبالتالي كان يجب التعامل مع قيينا بشكل مختلف، على الأقل بسبب حجمها، وهكذا قررت إدارة المدينة عمل أطلس منفصل هو الأطلس التاريخي لقيينا ^(٢) Historical Atlas of Vienna والذي خطط لأن يوفر، في نفس الوقت، مادة أساسية لتاريخ تطور المكان ؛ لهذا السبب كان يجب أن يغطي الأطلس بشكل أساسي الفترة منذ 1740 وحتى الحرب العالمية الثانية.

هذه الإضافة والتجديد الجزئي في بنية المشروع تطلبت أساليب جديدة في الهستوريوجرافى، وكان الاتجاه السائد آنذاك هو تناول التاريخ كعلم تاريخ اجتماعى ، وتوازى مع هذا المفهوم (بالنسبة لأطلس قيينا التاريخي) تطوير مفهوم اجتماعى - بيئى يتبع ويطبق أفكار مدرسة شيكاغو فى العشرينات وأعمال شومبار دو لويه Chombart de Lauwe فى الخمسينات وما بعدها^(٣) وقد اعتبر أعضاء فريق البحث فى الأطلس التاريخي أنفسهم مؤرخين أكثر منهم جغرافيين، وقد تركز اهتمامهم على دراسة العلاقة بين عمليات التغير الاجتماعية والاقتصادية، والتي تنعكس فى التغير فى الأنماط المكانية ، وقد ساهم توقيع المعلومات على الخرائط وتحليل تلك المعلومات المستقاة من الخرائط التاريخية فى فهم ما يسمى اليوم "المنتج الاجتماعى للمكان" وكان من الواضح أن خرائط الأطلس تحتاج إلى تفسير كلامى ومعلومات تاريخية إضافية حتى تتم الفائدة، فبدئاً لذلك فى سلسلة من عشرة كتب أطلق عليها التعليقات Commentaries ^(٤) .

وفى البداية كان السؤال الأهم هو : ما مدى الاستفادة التى نستطيع أن نجنيها من التحليل التاريخي للمعلومات المستقاة من أنماط التوزيع المكانية، وكانت الخطوة الأولى هى توقيع البيانات التى تصف بناء الطبقات الاجتماعية لمجتمع قيينا على الخرائط، وبعبارة أخرى استيضاح الأنماط المكانية للتجمعات الاجتماعية، وقد كان من المعروف حسب الحسابات السابقة أن التجمعات الاجتماعية قد تزايدت منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، وأثناء فترة الحرب الداخلية قلت التجمعات الاجتماعية بسبب نمط التسكين لبرنامج الإسكان الاجتماعى لقيينا الحمراء Red Vienna ^(٥) .

ويمكن الاعتماد على نسبة الطبقة العاملة فى كل حى (صورة 1) كمؤشر دال على نمط توزيع الطبقات الاجتماعية فى قيينا: فقلب المدينة والحى الرابع إلى الجنوب منها كانت مناطق الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة ، والأحياء الأخرى التى يطلق عليها 'الأحياء الداخلية' كانت للطبقة الوسطى، و 'الأحياء الخارجية' كانت باستثناءات قليلة (هيتزنج Hietzing، فيهرنج Waehring، دوبلنج Doebling) كانت للطبقة العاملة، وبالرغم من بعض عمليات إعادة التوزيع البطيئة، فقد ظل هذا النمط سائدا حتى بعد الحرب العالمية الثانية نظرا للضعف الاقتصادى الذى مرت به قيينا فى فترة الحرب الداخلية ، وقد أسفر توقييع المؤشرات الاجتماعية الأخرى على الخرائط عن نفس الأنماط أو عكسها، توزيع الجماعات ذات الدخل المرتفع (صورة 2) .

وهذه النتائج تفرض سؤالا: كيف تكون هذا النمط ؟ وتوفر الخرائط التى توضح تطور شبكة المواصلات ومواقع المشروعات الصناعية إجابة أساسية عن هذا السؤال ، ففي الفترة الصناعية تجمع منتجوا الأقمشة فى وادى نهر 'فين' Wien ، حيث كانوا يحتاجون للماء كقوة محركة فى الإنتاج (صورة 3)، وقد تزامن إنشاء أول خط سكك حديدية فى أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر مع حدوث تحول فى هياكل الإنتاج ، وتغيير فى نفس الوقت فى أنماط المناطق الصناعية ، وانتقلت صناعة النسيج من قيينا وحل محلها صناعة الملابس فى نفس أماكن أسلافها، وتركزت الصناعات الهندسية الجديدة، من ناحية أخرى ، بالقرب من طرق السكك الحديدية حيث أنها كانت تنتج فى الأساس معدات سكك حديدية وتحتاج إلى الفحم كطاقة فى الإنتاج والنقل عن طريق السكك الحديدية لمنتجاتها النهائية ، وهكذا تحول محور الإنتاج الأساسى فى قيينا من وادى نهر 'فين' إلى أول طريق للسكك الحديدية والذى يجرى من الشمال إلى الجنوب (صورة 4)، وبسبب الضعف الاقتصادى لقيينا بعد 1918 فقد استمر هذا النمط حتى أوائل الستينات من القرن العشرين.

وتمثلت الخطوة الثانية فى توضيح أن نمط المواقع الصناعية فى قيينا - كما هى الحال أيضا فى المدن التى تزايد التصنيع فيها بسرعة عالية فى وسط أوروبا - كان له تأثير كبير على نمط توزيع المساكن، وهناك ظاهرتان بالتحديد هما المسئولتان عن هذه العلاقة البيئية ، الأولى هى أن قيينا، فى بداية مرحلة التحول للصناعة كانت أصغر

بكثير من لندن أو باريس على سبيل المثال، لذلك لم يكن من الممكن بناء مساكن جديدة للطبقة العليا والمتوسطة اللذين كان عليهما فى تلك الحالة أن يتنازلا عن مساكنهم القديمة إلى الطبقات الأدنى من المهاجرين، وكان الحل فى قيينا، كما كان فى برلين أو بودابست، أن تشيد مساكن جديدة وفى وقت متزامن للطبقتين الوسطى والعامة. وبالرغم من أنها شديدة التشابه فى وجهاتها، إلا أن أنماط مساكن الطبقتين كانت مختلفة اختلافاً بيناً. والظاهرة الثانية أنه لم تكن هناك وسائل نقل جماعية رخيصة فى قيينا فى هذا الوقت، فقد كان فى قيينا نظام ترامواى منذ 1865، ولكن شبكته كانت مصممة للاستجابة لاحتياجات الطبقة الوسطى فى العمل والتسوق والتسلية، ولم تكن هناك تعريفات منخفضة للطبقة العامة.

وكان نتيجة كل ذلك أن نمط المواقع الصناعية حدد أيضا مواقع مساكن الطبقة العامة، حيث بنيت التكنات التى تحتوى على شقق مكونة من غرفة ومطبخ - المسكن النمطى للطبقة العامة فى قيينا فى انقلاب القرن - بالقرب من مواقع العمل، وكان طبيعيا أن تظهر النسبة العالية من المساكن الصغيرة على الخرائط فى نفس المناطق التى ترتفع فيها نسبة الطبقة العامة (صورة 5) ، وكان العمال ينتقلون للعمل بالقرب من مواقع عملهم: فعمال الصناعات الهندسية مثلا كانوا يعيشون غالبا بالقرب من مواقع تلك الصناعة على امتداد محور الإنتاج الرئيسى (صورة 6) .

وبعد أن تتبعنا بعض العلاقات الهيكلية بين تطور نظم النقل والتوزيع المكانية للمناطق الصناعية والطبقات الاجتماعية كان السؤال التالى: من كان يسيطر على عملية تطور المكان ؟ ويفتح هذا السؤال فصلا فى تاريخ التحضر حظى بتحليل واسع فى المدن الأوروبية الأخرى الكبرى، ولكن ليس فى قيينا، ومن المتعارف عليه بشكل عام ، أن قسم التخطيط بالمدينة خطط للتطوير ثم بدأ البناءون عملهم، ولكن هذا القسم لم ينشأ إلا فى عام 1893 - أفلم يكن هناك تخطيط قبل هذا التاريخ ؟ بالطبع كان هناك تخطيط، وتأتى الإشارات الأولى من قوانين البناء القديمة فى قيينا والتى كانت تقضى بأن يقدم مالك أى قطعة أرض كبيرة خطة التكوين إلى السلطات المسئولة لإقرارها قبل أن يسمح له ببيع أى قطعة منها للبناء .

ويمكننا أن نتخذ مثالا لذلك ميدانين في المنطقة الثامنة من جوزيف شتادت Josefstadt كانا مخططين بالأسلوب الذي كان شائعا في نهاية القرن الثامن عشر. (صورة 7)، وبالطبع لم يكن لهذا التصميم أن يتم لو لم تكن المنطقة كلها مملوكة للمالك واحد، وهو ما كانت عليه الحال بالفعل في تلك المنطقة، وكان المالك هو شوتتنشتيفت Schottenstift، أحد فروع البندكتيين (صورة 8) وبعد إلغاء نظام الإقطاع سنة 1848، استمر هذا النظام .

ففي عام 1933 على سبيل المثال أقر مجلس المدينة خطة تطوير ألتمانسدورف Altmansdorf على الحدود الجنوبية الغربية لقيينا، وعلى الرغم من أن التخطيط كان من وضع قسم التخطيط بالمدينة إلا أن الوثائق تشير إلى أن هناك شخص يدعى جوليوس فرانكل Julius Frankl قد قدم مشروع تطوير لنفس المنطقة. وبمقارنة خطة التطوير مع نمط تملك الأرض اتضح أن كل الأرض في تلك المنطقة تقريبا كانت ملك جوليوس فرانكل هذا (صورة 9) وبعد مزيد من البحث اتضح أن فرانكل كان من أهم المستغلين للأراضي والمضاربين في البورصة آنذاك في قيينا، وقد كانت تلك النتائج خطوة هامة في تحليل تطور سوق الأراضي في قيينا، ونظام التخطيط لامتدادات المدينة.

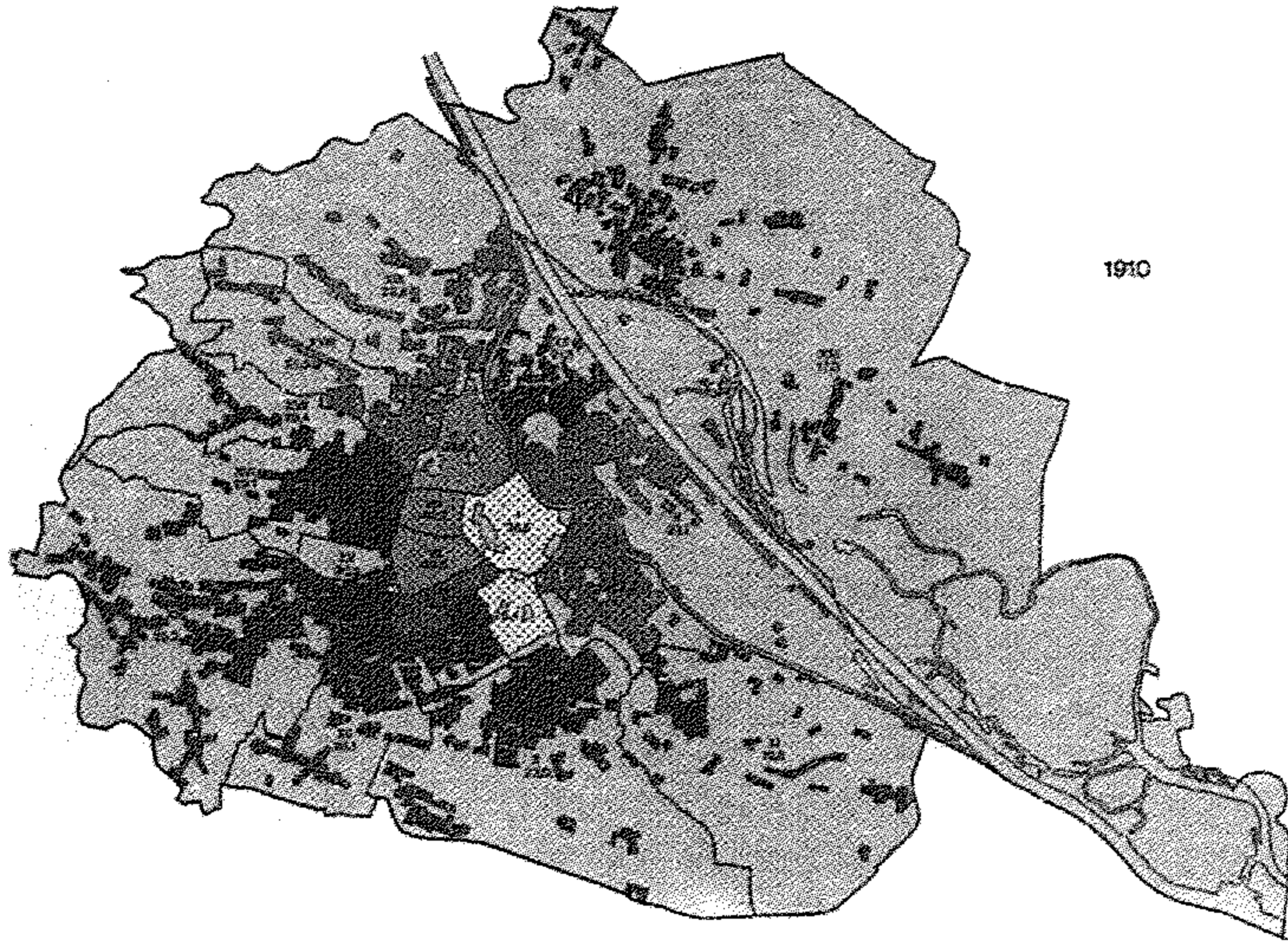
وتوضح خريطة أخرى المعلومات الأساسية حول عمليات التحديث المدني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فهي توضح أعمار المباني التي كانت قائمة في قيينا عام 1920 وتعطى النظرة المبدئية انطبعا بأعمال إعادة البناء كانت تتم تدريجيا بهدف توسيع الشوارع وجعلها أكثر استقامة (صورة 10) غير أنه كانت هناك أيضا مناطق واسعة أعيد تطويرها بشكل كامل. وقد كان النمطان سائدين في قيينا آنذاك: فلم يكن هناك طرق واسعة grands boulevards تقطع الأحياء السكنية القديمة كما كانت الحال في باريس، ولكن كان هناك إعادة بناء تدريجي يتم في شبكات الشوارع القائمة، وتطوير للمناطق التي كانت تشغلها في السابق مؤسسة واحدة كبيرة، مثل الثكنات العسكرية وساحات التدريب، والمستشفيات، ومناطق التخزين وما إلى ذلك (انظر صورة 7).

غير أن الخرائط تعبر عن نصوص شديدة التعقيد تحتل قراءات مختلفة ولأهداف متباينة، والتعرف على عمليات إعادة البناء هو أحدها فقط؛ ويمكن أن توفر قراءة أخرى دعماً لإدارة المدينة في اتخاذ القرارات الحالية، وقد سهلت إتاحة بيانات مجموعة الأطلس على نظام المعلومات الجغرافي المحسب GIS ، والذي تديره مدينة قيينا الحصول على البيانات التاريخية التي تهم إدارات المدينة. فقد اهتمت إدارة حماية البيئة، على سبيل المثال ، باحتمالات إصابة التربة نتيجة لوجود مصانع لم تعد تعمل، وإدارة الآثار بالخرائط المساحية القديمة، بينما اهتمت إدارة المباني بالبنية الأساسية القديمة للأنفاق، وأرادت إدارة الحفاظ على الآثار التاريخية الحصول بشكل عاجل على معلومات دقيقة حول أعمار المباني التي سيتناولها الأطلس ، وتلك الإدارة الأخيرة تراجع الآن خرائط المحميات التاريخية في قيينا وتبحث عن المعلومات ذات الصلة حتى تستطيع أن تتخذ قرارات سليمة على أسس قوية، فلا نستطيع أن نفهم، على سبيل المثال، لماذا فقط في مشروع إعادة تطوير موقع الثكنات العسكرية السابقة في جوزيف شتادت (انظر صورة 7)، لم تتم حماية سوى جزء فقط من المنطقة في الوقت الحالي (صورة ١١)، فصورة 8 توضح أن كل المنطقة قد تم تطويرها في وقت واحد، وما زالت تمثل حتى الآن مثالا رفيعا على الفن الحديث يحيط أحد المتنزهات القليلة في الحي المكتظ بالمباني.

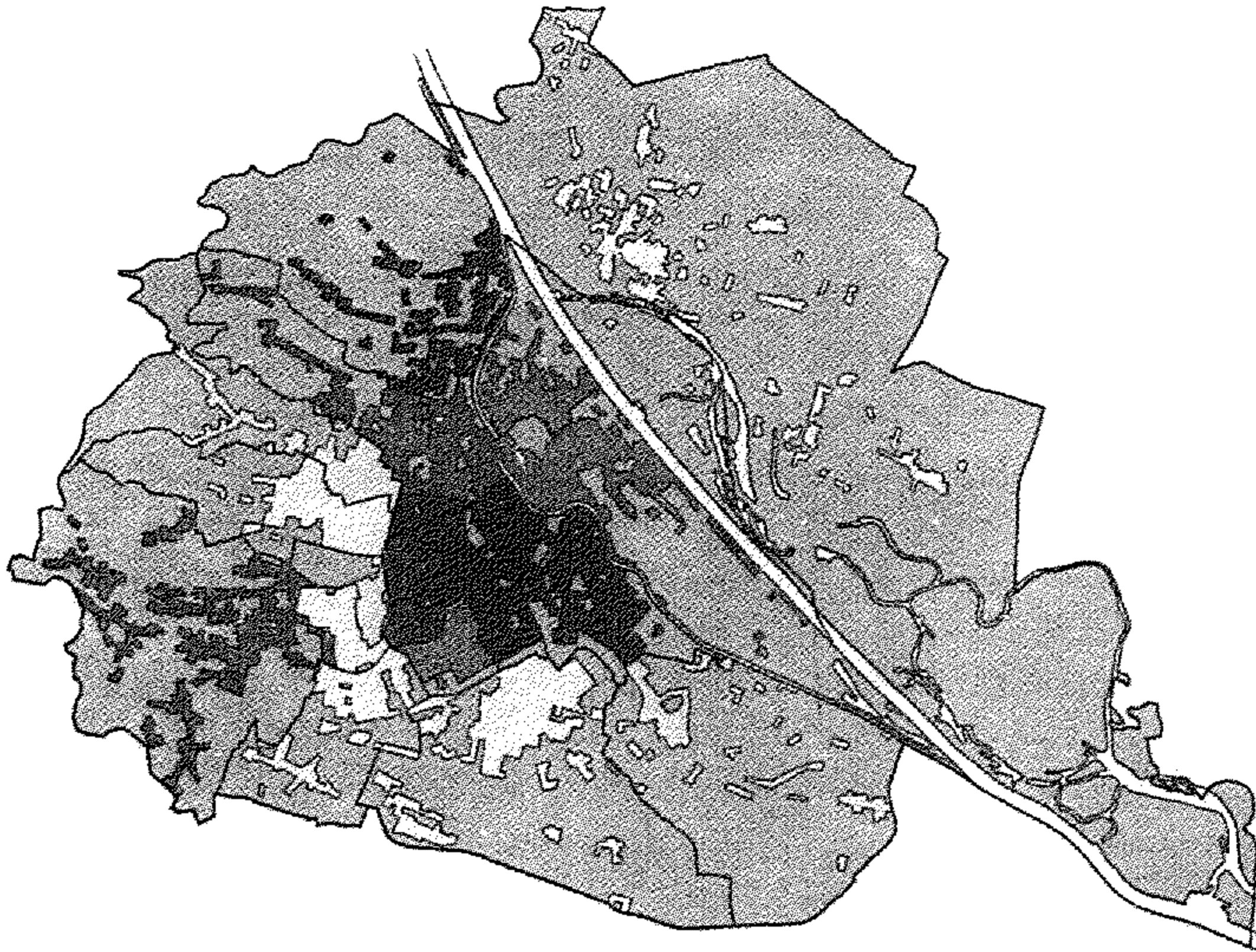
وفي النهاية، هناك فائدة أخرى لمشروع الأطلس، بدأت تظهر في المجتمع ال post-fordist وبعد نهاية ما يتعلق به من تخطيط وظيفي، مستوحى من الكوربوزييه Le Corbusier والمؤتمرات الدولية للعمارة الحديثة - Congrès Internationaux d'Architecture Moderne. فالتخطيط البيئي الجاد يعتمد بشكل كبير على التحليل المورفولوجي التاريخي وربما يفضي إلى التحفيز والاعتماد على الدراسات ذات الصلة في الأطلس التاريخي لقيينا .

الهوامش

- (١) وقد نشر بالفعل : M. Seliger, K. Ucakar, Wien: Politische Geschichte 1740-1934 Bestimmungskräfte großstädtischer Politik (Geschichte der Stadt Wien, Bd. I), (Wien, 1985)؛ G Chaloupek, P. Eigner, M. Wagner, Wien: Wirtschaftsgeschichte 1740-1938 Geschichte der StadtWien,Bd.IV),(Wien,1991
- F. Czeike, R. Banik-Schwetizer, F. Oppl (Hrsg) Historicher Atlas von Wien (Wien (1981), (٢)
1. Lieferung (11 karten) 1981; 2. Lieferung (13 Karten) 1984; 3. Lieverung (15 Karten 1987; 4. Lieferung (12 Karten) 1990; 5. Lieferung (13 Karten) 1994.
- (٣) نشأ مفهوم الاجتماع-البيئي socio-ecological concept فى العشرينات من القرن العشرين على يد علماء اجتماع فى شيكاغو وهم روبرت إى بارك Robert E. park، وإرنست دبليو بورجيس Ernest W. Burgess ولادريك دى. ماكنزى Roderick D. Mckenzie وقد أعيدت صياغته عدة مرات منذئذ، وقد كان التركيز على العلاقة البيئية بين المكان والنشاط الثقافى اليومى من بول هنرى شومبار دولويه Paul-Henry Chombart de Lauwe, Paris: Essais de sociologie 1952-1964 (Paris, 1965) .
- (٤) نشر منها : Bd. 2,F. Oppl, Erstnennung von Siedlungsnamen im Wiener Raum - (Wien,1981); bd. 3,M. Seliger and K. Ucakar, Wahlrecht und Wählerverhalten in Wien 1848 - 1932 .; Privilegien, Partizipationasdruck und Sozialstruktur Wien, bd. 4.F. ; Oppl, Alte Grenzen im Wiener Raum (Wien, 1986) bd.5,W. Sauer, Grund-Herrschaft in Wien 1700-1848 (Weien,1993) Vol.1i s in press : A. Weigl, Wien im demographischen bergang (بالصناعة، والتجارة، والبنية الأساسية التقنية (بما فيها النقل)، والأنشطة الثقافية والترفيهية وأخيرا التطور المكانى ككل.
- (٥) R. Banik-Schweitzer, Zur sozialräumlichen Gleiderung Wiens 1869-1934 (Wien, 1982)



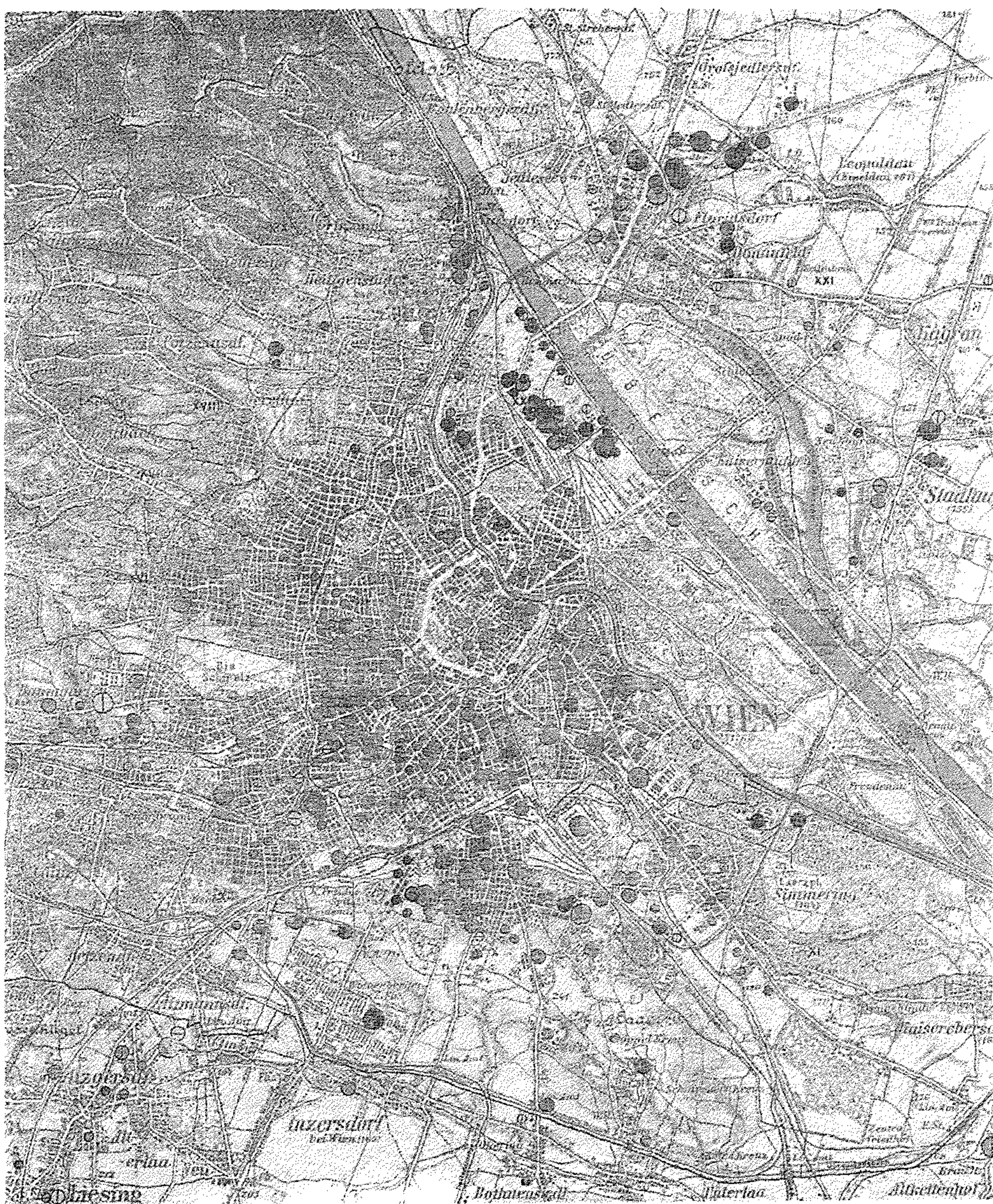
شكل (١) توزيع مساكن العاملين في قيينا سنة ١٩١٠ (التظليل الداكن يشير لارتفاع كثافة السكان من العاملين)



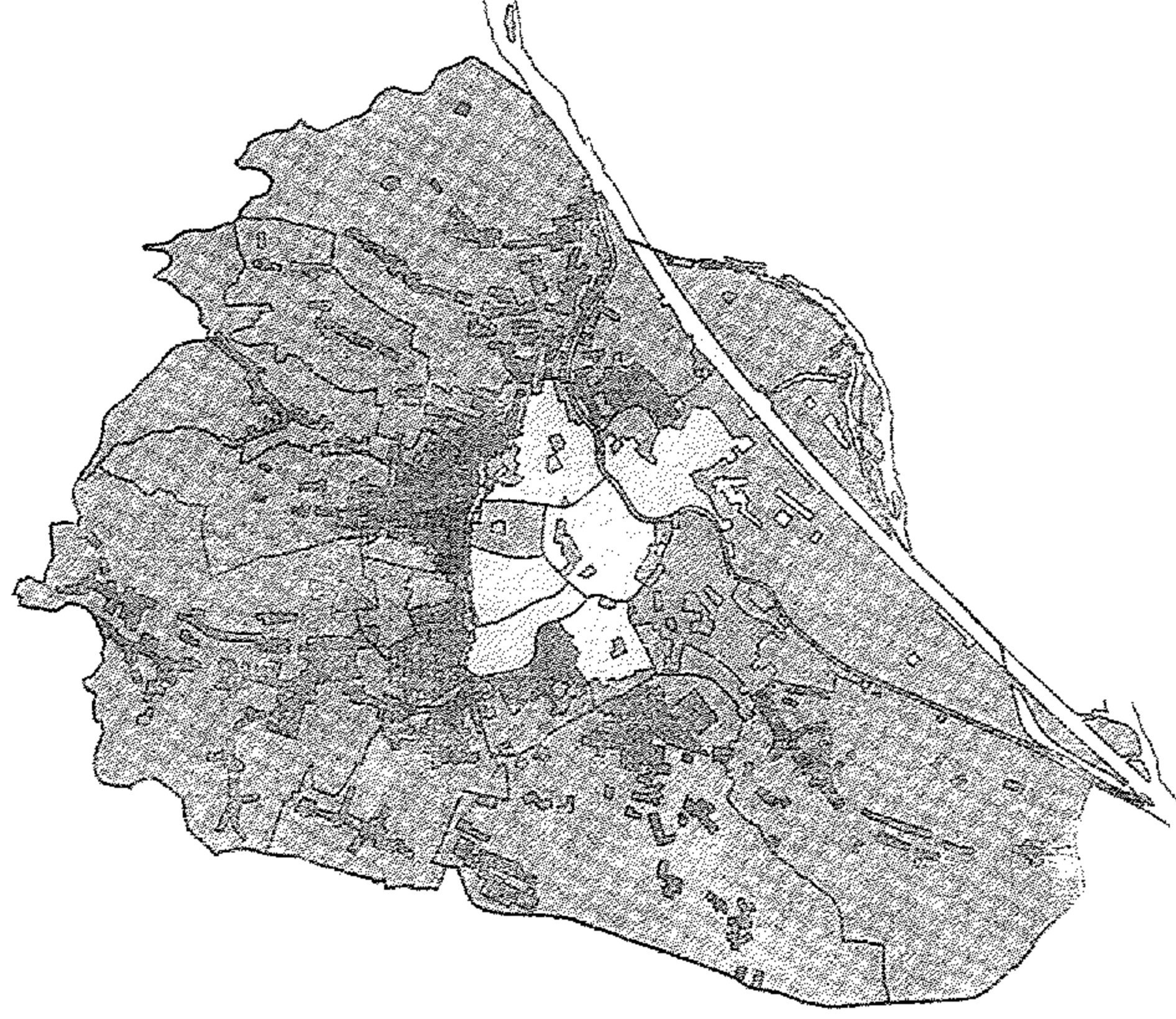
شكل (٢) توزيع السكان من ذوى الدخول المرتفعه في قيينا سنة ١٩١٠ (التظليل الداكن يشير للمجموعة المذكورة)



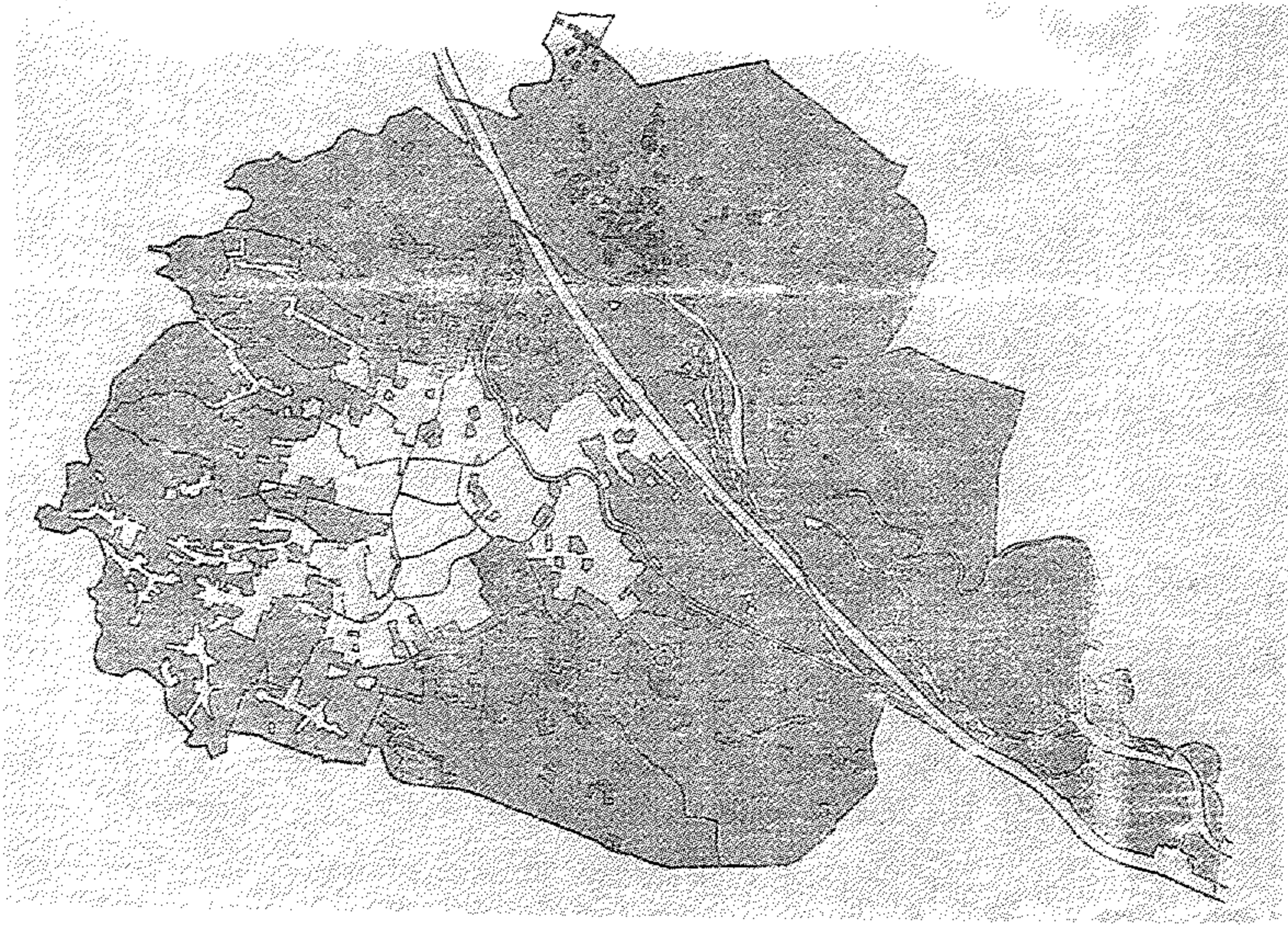
شكل (٢) مواقع التصنيع في قينا ١٨٦١



شكل (٤) مواقع التصنيع في فيينا ١٩١٣



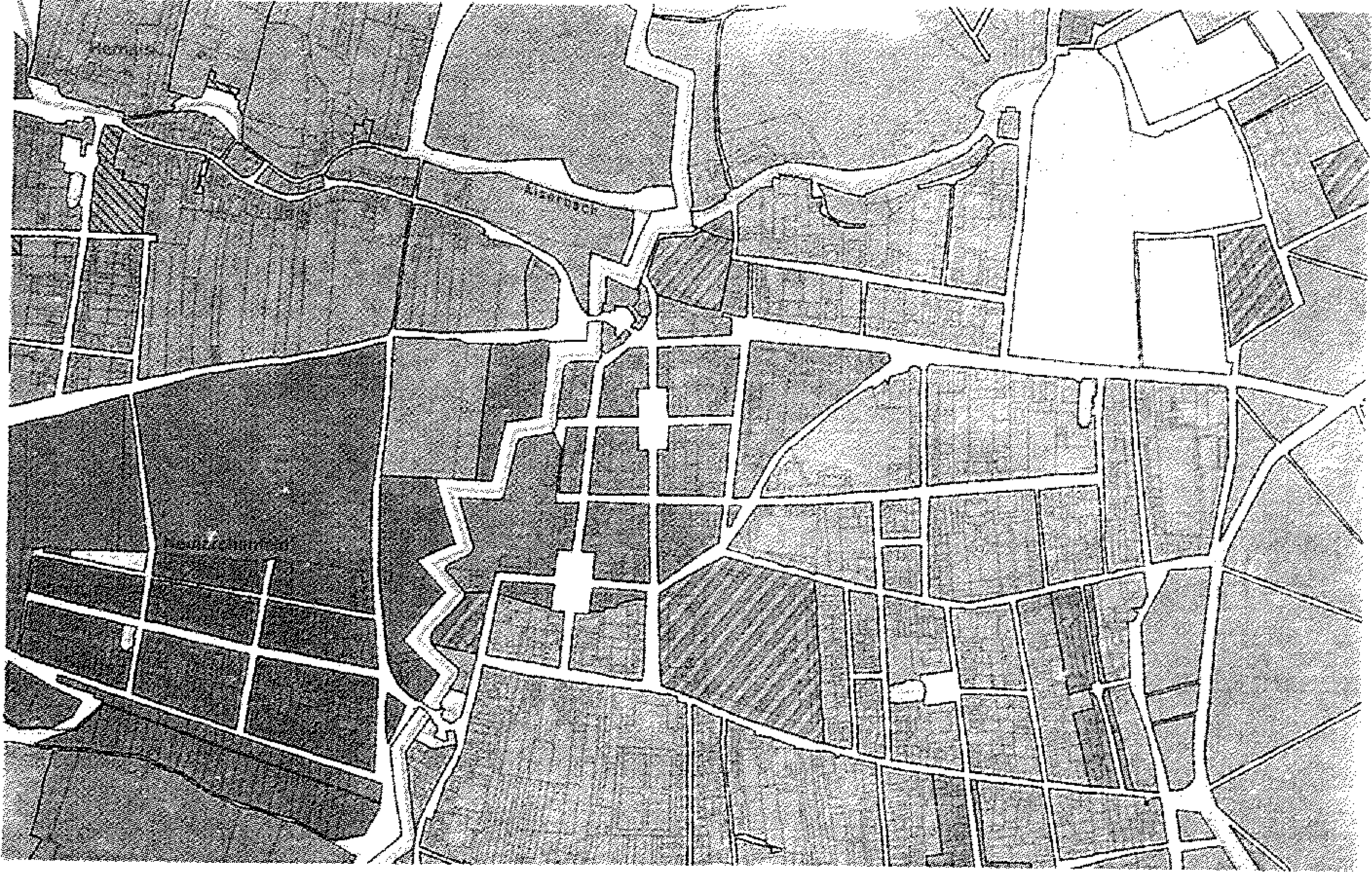
شكل (٥) توزيع المساكن الصغيرة في قينا ١٩٠٠



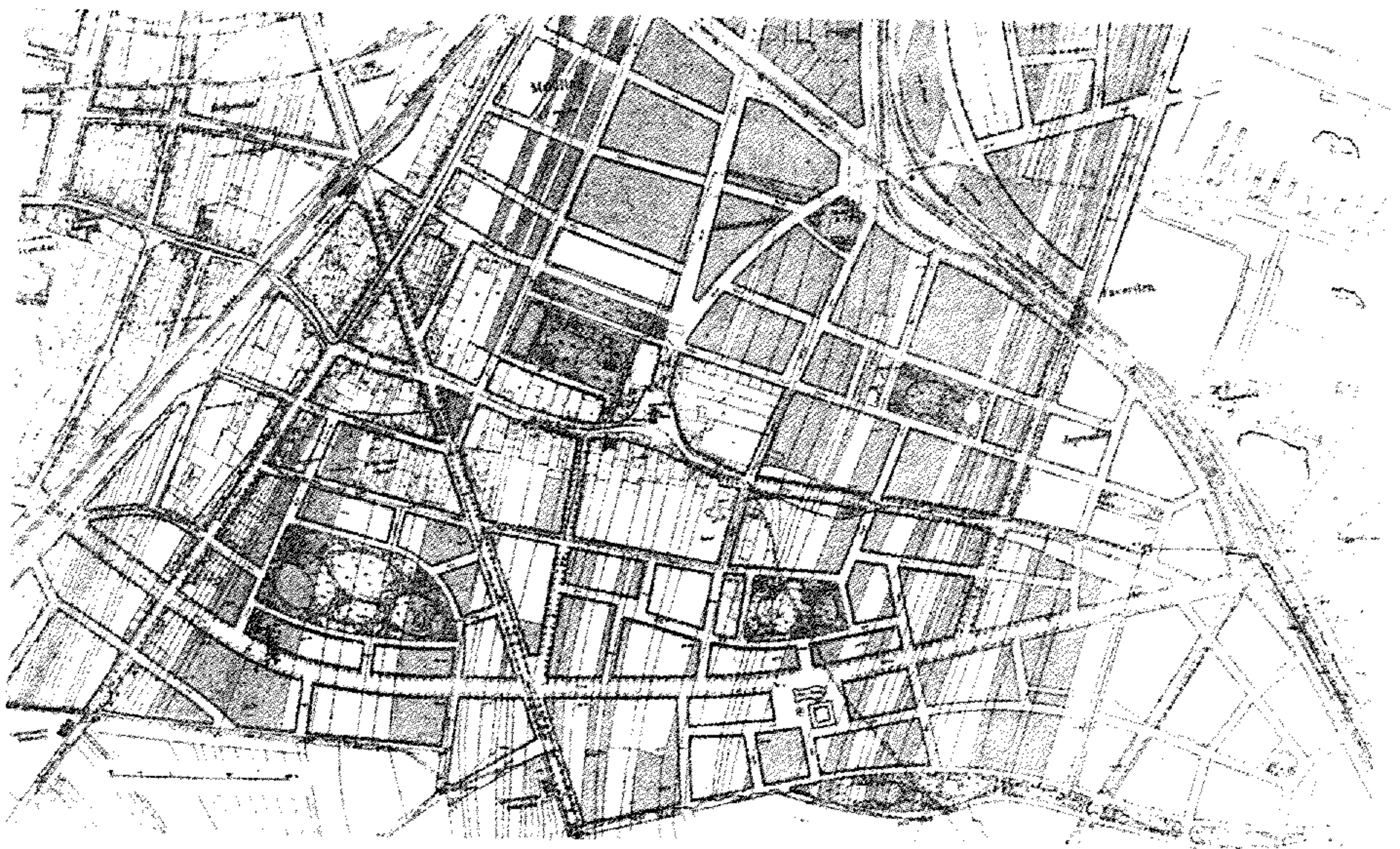
شكل (٦) توزيع مساكن المهندسين في قينا ١٩١٠



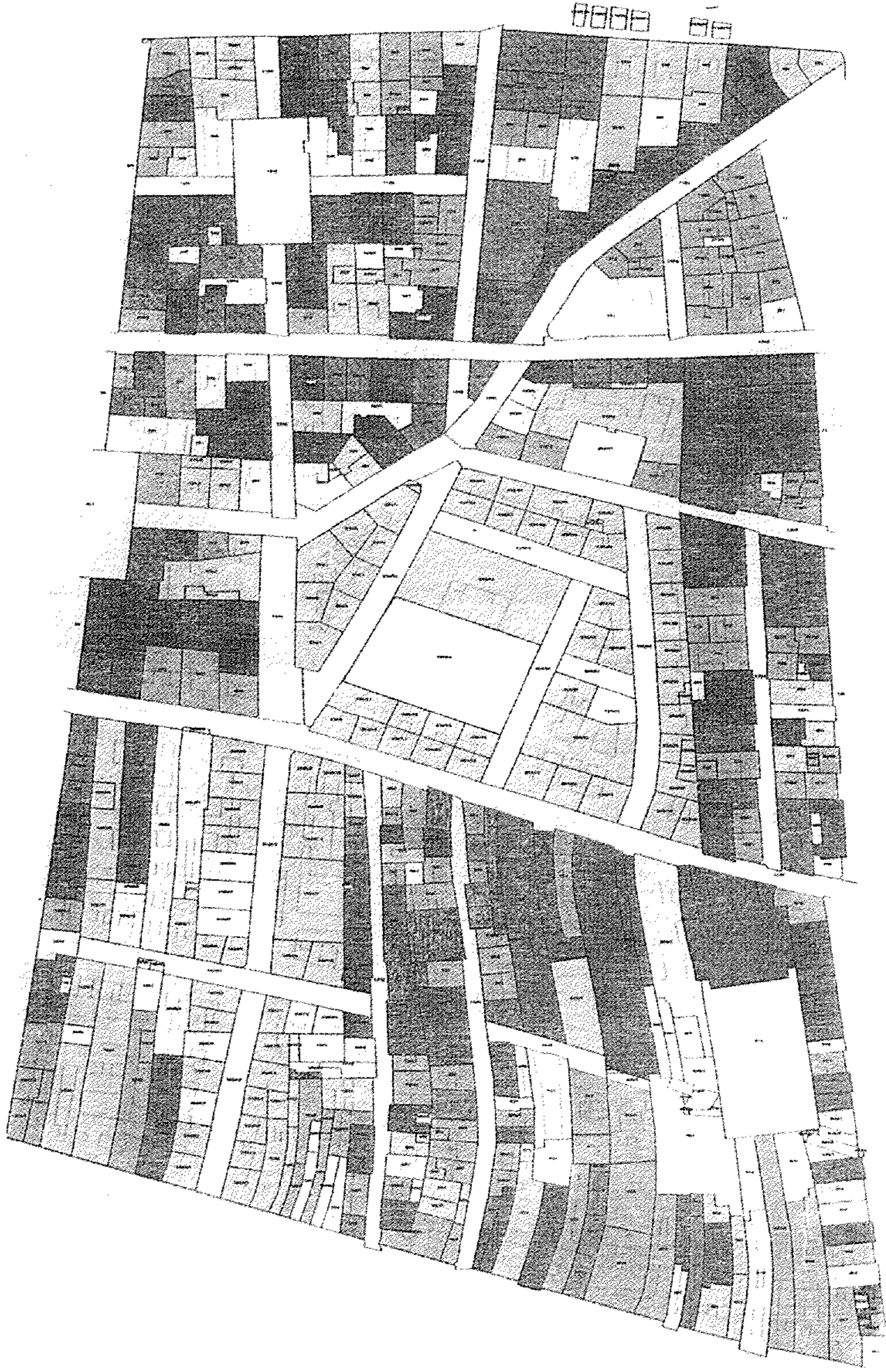
شكل (١١)



شكل (٨) أنماط العقارات في قيينا حوالي سنة ١٨٢٥



شكل (٩) خطة تطوير ألتمانسدورف ١٩٠٣ المناطق المظلة هي التي يملكها جوليوس فرانكل



شكل (١٠) أعمار المباني في قنينا سنة ١٩٢٠ (التظليل الداكن للمباني التي أقيمت قبل ١٨٦٠ ،
والخفيف لتلك التي أقيمت بين ١٩٠١ و ١٩٢٠)

ستوكهولم ٢٠٠٢: كيف تكتب سيرة مدينة

لارس نيلسون

مشروع على ثلاثة مراحل

فى عام 2002 يكون قد مر على أول ذكر لستوكهولم فى الوثائق المكتوبة 750 عاماً، ويبدو أن هذه النقطة فى الزمان هى أيضاً بداية تمدن ستوكهولم ، حيث لا توجد أى إشارة لوجود أى استيطان حضري أقدم من هذا التاريخ؛ فلم يُعثر فى الحفائر الأثرية خلال العقود الأخيرة على أى مستوطنات يمكن أن تكون لمدينة قبل منتصف القرن الثالث عشر، ولم يعثر إلا على تحصينات ^(١) . وفى إطار الاحتفال باليوبيل القادم، بادرنّا فى معهد التاريخ المدنى Institute of Urban History بالقيام بمشروع مشترك مع سلطات مدينة ستوكهولم بهدف كتابة سيرة مدينة ستوكهولم، وسوف يغطى الكتاب المزمع إخراجهِ تاريخ ستوكهولم ، منذ أقدم العصور وحتى بدايات القرن الواحد والعشرين .

وقد قسمنا المشروع إلى ثلاث مراحل ، بدأناها بمسح شامل منذ عدة سنوات عن حالتنا المعرفية الراهنة بالموضوع، حتى نستطيع من خلال هذا المسح أن نقف على المواضع التى لم تحظ ببحث كثير، وقد نشرت نتائج هذه الدراسة فى Huvudstadens historia (تاريخ العاصمة)^(٢)، وقد وجدنا، على سبيل المثال أن هناك نقصاً شديداً فى الدراسات التاريخية حول بعض القرون، وعلى الأخص القرن الثامن عشر، وهى فترة معروفة بركودها فى تاريخ ستوكهولم ، كما أن هناك فترات أخرى حظيت بدراسات تاريخية ولكنها قليلة نسبياً مثل فترتى أواخر العصور الوسطى والقرن العشرين. وعلى النقيض من ذلك نجد ثراءً فى الدراسات التاريخية المتعلقة بفترات العصور

الوسطى العليا، عندما بدأ إنشاء ستوكهولم، وكذلك القرن السابع عشر والمرحلة الصناعية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولكن حتى تلك الفترات تحتاج لمزيد من الدراسة ، وهو ما بدأ بالفعل فى الفترة القليلة الماضية ، فالتاريخ لا يتوقف أبداً، كما أنه لن يكتمل أبداً، ولسوف يستمر المؤرخون فى طرح أسئلة جديدة واستخدام مناهج ونظريات جديدة على المصادر القديمة ، والأنماط التى يحتكمون إليها ستستمر عليها سنة الإحلال والتجديد .

وعلى ذلك فهناك فجوات فى الدراسات السابقة من ناحية الفترات الزمنية، وكذلك هناك فجوات أيضاً على مستوى الموضوعات، ونستطيع أن نقول، بشكل عام ، إن التاريخ الاجتماعى قد أهمل مقارنةً - على سبيل المثال - بالتاريخ السياسى والإدارى ، وقد كانت نتيجة المرحلة الأولى ما أصبح برنامجاً بحثياً واسعاً يركز على بعض المناطق التاريخية التى بدت آنذاك واعدة بالنسبة لتاريخ ستوكهولم.

ونحن الآن فى المرحلة الثانية من مشروعنا ، والتى تشمل دراسات جديدة على الفترات والموضوعات التى وضح من المرحلة الأولى أنها أقل حظاً، وكثير من طلبة الدكتوراه الذين يدرسون يكتبون رسائلهم فى إطار مشروع ستوكهولم، وبعضهم حصل على دعم مالى من المدينة، غير أنه من المستحيل بالطبع أن نغطى كل الفجوات التى تَعْتَوِر معرفتنا بتاريخ ستوكهولم. وستظل هناك حاجة دائمة لدراسات جديدة بعد أن ننهى عملنا ، والهدف من المرحلة الثانية هو فقط توجيه بعض رسائل الدكتوراه فى المستقبل فى اتجاه برنامجنا البحثى.

والمرحلة الثالثة ستكون كتابة ما توصلنا إليه عن تاريخ ستوكهولم، ونأمل أن نستطيع التعاون مع مؤرخين على مستوى عال فى سبيل إنجاز تلك المهمة، وأحد الأهداف التكميلية، والذى ظهر مؤخراً يتمثل فى محاولة وضع خريطة تاريخية توضح الجغرافية المدنية لستوكهولم عبر الفترات التاريخية المختلفة، وقد أخذت الخطوات الأولى فى هذا الاتجاه مؤخراً. وسوف أناقش فى هذه الورقة أفكارى حول المفاهيم والأطر العامة لكتابة سيرة مدينة، وسوف أركز على الجوانب التالية (الأنواع المختلفة لسير المدن السويدية - تفرد ستوكهولم - كيفية تحديد الفترات فى تاريخ مدينة -

العلاقة بين المحلي والقومى فى تحديد الفترات) ، ولكنى سوف أبدأ ببعض الكلمات حول التقاليد السويدية فى التاريخ المدينى .

التقاليد فى كتابة تواريخ المدن السويدية

لقد كانت سير المدن، ولفترة طويلة، هى الشكل الأساسى لتاريخ المدن السويدية، ومازالت حتى الآن تمثل جزءاً مهماً من الدراسات التاريخية المدنية^(٢)، وقد دونت سير معظم المدن السويدية بتمويل من السلطات المحلية، ولكن ليس من ضمنها ستوكهولم ، وهذا لا يعنى أننا نفتقر إلى الدراسات التاريخية عن ستوكهولم، ولا أن السلطات فى ستوكهولم ليست مهتمة بتاريخ العاصمة. والواقع أن ستوكهولم، ربما تكون من أفضل المدن السويدية الموثقة تاريخياً، وقليل من المدن تضاهيها فى مقدار ما استثمر فى التاريخ المدينى . وكان مجلس مدينة ستوكهولم قد شكل لجنة خاصة عام 1936 لتتوفر على نشر سلسلة من الدراسات المفردة حول مختلف جوانب تاريخ المدينة، وقد تم نشر أكثر من مئة جزء فى هذه السلسلة حتى الآن تحت عنوان Stockholmsmonografier والتي كانت تعرف فى البداية باسم Monografier utgivna av Stokholms kommu nalfärvaltning) ومازالت تلك اللجنة قائمة حتى الآن بالرغم من إعادة تنظيمها وهى اللجنة التى كانت وراء مشروعنا هذا ومولته مالياً.

ولكن بالرغم من كل تلك الجهود لاستكمال تاريخ ستوكهولم، إلا أننا ما زلنا نفتقد لعمل شامل يغطى كل هذه الحقب التاريخية، والدراسة الوحيدة المتوفرة هى عمل من جزأين نشر عام 1980، وقد وضعه المؤرخ الاقتصادى شتافان هوجربرج Staffan Hägerberg وكان تمويله من القطاع الخاص^(٤). وعلى الرغم من تعدد إيجابيات هذا العمل فإننا نعتقد أنه قد آن الأوان أن تضطلع السلطات المحلية بالمسئولية على الأقل لإنتاج مسيرة للمدينة، ويمكن أن يكون اليوبيل فرصة مناسبة لمثل هذا العمل .

فترات سير المدن فى السويد قوى كما رأينا، ويمكننا أن نميز فى هذا المجال بين خيارين لكتابة مسيرة مدينة ، فقد كان الاتجاه السائد – ومازال – هو كتابة تاريخ عام

مع التركيز على الحكومة المدنية والإدارة المحلية ، بالإضافة إلى بعض المظاهر الأخرى التي كانت تؤخذ أيضا في الاعتبار مثل التجارة والصناعة، والبناء والعمارة، والظروف الاجتماعية والديموقراطية، والحياة الثقافية ... إلخ. ولكن للأسف ، نادرا ما نجد ربطا بين مختلف الموضوعات التي تجتمع على وصف تاريخ المدينة في هذا النوع من الكتابات التاريخية، فعادة ما يعالج كل مجال على حدة ولا يتم ربطه بالمجالات الأخرى ، فهدف هذه الكتابات هو إعطاء صورة مليئة بالحياة بقدر الإمكان عن حياة وتطور مدينة بعينها ، فالإتساع والتنوع إذاً هما سمة هذه النوعية من سير المدن .

أما الخيار الآخر فهو ما يسمى السيرة الموضوعية thematic biography ونجد كتابه يمتنعون عن التعامل مع تاريخ المدينة ككل واحد ، وبدلا من ذلك يتعاملون مع موضوع محدد وأسئلة محددة يتم بحثها بعمق ، فالسيرة الموضوعية تركز على بعض جوانب المدينة ، وبهذه الطريقة تزداد إمكانية القدرة على تحليل وشرح المسببات بشكل أبعد مما يمكن الحصول عليه بالمعالجة الشمولية في السيرة التقليدية ، فيستطيع الدارس أن يحاول فهم الملامح الأساسية في تطور المدينة من خلال موضوع محدد، كما يمكن أيضا دراسة المدينة مقارنة بمدن أخرى .

وقد ظهرت السير الموضوعية كمنحى جديد في سبعينات القرن العشرين، ولكنها أهملت نوعا ما منذ ذلك الحين ، وكان هناك بدلا من ذلك حماس لكتابة التاريخ في شكله الأكثر رواجاً، حتى يصل إلى قطاعات أكبر من السواد الأعظم من الناس، وبذلك استمر الأسلوب الشمولي هو السائد في كتابة سير المدن ، وبالطبع يمكن دمج الأسلوبين معا، وربما ينتج عن مشروع ستوكهولم مزاجية من هذا النوع .

الطبيعة الخاصة لستوكهولم

إن الموضوع الأساسي كما تمت صياغته في برنامجنا البحثي هو إظهار الطبيعة الخاصة لستوكهولم عبر العصور ، وهناك عدة أفكار حول احتمالات هذا الاختلاف بين ستوكهولم والمدن السويدية الأخرى ، وبعضها ربما يكون حقيقيا وربما يتضح أن بعضها ناتج عن سوء فهم، فعلاقة من يعيشون خارج منطقة ستوكهولم عادة ما تكون

معقدة مع العاصمة ، فهم يحبون ستوكهولم ويكرهونها فى الآن نفسه. وفى مثل هذا الجو يمكن لكثير من الأفكار الغريبة أن تترعرع، فسكان العاصمة كانت أرقام سياراتهم تميز بابتدائها بحرف A ، ولكن هذا الحرف استبدل الآن ب 08.

ويمكن أن تتضح هوية وتفرد ستوكهولم باختصار بمقارنتها بأمثلة من مناطق أخرى ، بادئ ذي بدء هناك فارق واضح جدا فى الحجم ، فستوكهولم كانت منذ تأسيسها فى أواسط القرن الثالث عشر أكبر مدينة فى السويد، وأكبر بكثير من أى مدينة أخرى ، كما كانت مصب هجرات من كل مناطق السويد ساهمت فى خلق جوها الثقافى المدنى الخاص، الذى يتميز من بين ما يتميز به بالتنوع الشديد فى أنشطته وإمكانياته. وربما كان اتساع المساحة ، والكثرة والتنوع هو ما أضفى تلك الفوارق ، التى يمكن ملاحظتها أحيانا بسهولة شديدة بين سكان ستوكهولم وسكان المدن والقرى الأخرى فى السويد ، فبيئة العاصمة قد تحدث نوعا خاصاً من أنماط الحياة، كما قرر سيميل وويرث Simmel and Wirth فى بدايات القرن العشرين ، ولكن يمكن أيضا افتراض أن الأشخاص ذوى العقلية المتميزة يتجمعون دائما فى المدن الكبيرة.

الديموجرافيا

ويمكننا أن نجد فوارق ديموجرافية واضحة بين ستوكهولم وبقية أنحاء السويد فارتفاع نسبة الوفيات فى ستوكهولم قبل دخول الصناعة من الأمور المعروفة ، فقد كانت ستوكهولم من أسوأ المدن من الناحية الصحية فى أوروبا فى بدايات القرن التاسع عشر، ربما حتى قبل ذلك ، وقد فسر ارتفاع نسبة الوفيات بأوضاع سوق العمل بالنسبة للرجال والإفراط فى تعاطى الخمر^(٥) ، ويمكن أن يفسر ذلك على أنه من الظواهر المتروبولية. ولكن نسبة الوفيات كانت مرتفعة أيضا نسبيا فى المدن الصغيرة حول بحيرة ميلارن Lake Mälaren فى شرقى السويد، والتى لا تبعد كثيرا عن ستوكهولم، وكانت تلك المدن الصغيرة تعاني مثل ستوكهولم من ارتفاع عدد الوفيات عن عدد المواليد طوال تلك الفترة وحتى أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر ،

وقد كان الوضع الديموجرافى أفضل بشكل عام فى المدن السويدية خارج منطقة ميلار Mälare Regio طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر (٦) .

وقد تكررت الظروف الديموجرافية السيئة فى المدن الواقعة فى شرق السويد والمتمثلة فى زيادة الوفيات عن المواليد خلال الأزمنة الديموجرافية التى وقعت فى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين ، فالخلل فى عدد المواليد كان قد حل بالسويد كلها، ولكن ستوكهولم ومدن منطقة ميلار فقط هلى التى سجلت عجز المواليد مقارنة بالوفيات (٧) ، هذه الحقائق يمكن أن ينظر إليها على أنها إشارة لظاهرة إقليمية مستمرة لفترة طويلة يختلف فيها شرق السويد عن باقى مناطقها، وربما يرجع السبب فى هذه الظروف الديموجرافية المدنية الخاصة فى شرق السويد إلى سكان ستوكهولم الذين صدروا عاداتهم المتروبولية إلى المدن المجاورة، وربما استطعنا أن نشير إلى عقلية إقليمية خاصة بـستوكهولم . ولكن هذا ليس هو التفسير الوحيد الممكن.

فلدينا مصادر ديموجرافية جيدة فى السويد منذ أواسط القرن الثامن عشر، حتى على المستوى المحلى، فعلى المدى الطويل تشير الأرقام فى ستوكهولم باستمرار إلى انخفاض نسبى فى عدد المواليد وارتفاع فى عدد الأطفال المولودين سفاحا، وارتفاع نسبة الوفيات مستمر على المدى الطويل ، وعدد العزاب مرتفع بالطبع فى ستوكهولم عنه فى المناطق الحضرية الأخرى فى الريف ، فقد شاعت عادة أن يقيم رجل وامرأة معا دون زواج فى ستوكهولم منذ أوائل القرن الثامن عشر، وربما قبل ذلك (٨) ، حتى أن 'زواج ستوكهولم' قد أصبح عنوانا شهيرا على هذا النوع من الرابطة الأسرية ، ودائما ما كانت الأسر صغيرة نسبيا فى عدد الأفراد ، وبسبب الأزمنة المزمنة فى الإسكان، فقد كان نظام السكن المؤقت هو السائد تقريبا (٩) ، وأحد الظواهر الديموجرافية الأخرى هى ارتفاع نسبة التنقل ، وهناك عدد كبير من الأفراد هاجر بشكل منتظم من وإلى ستوكهولم ، وكانت الهجرة مرتفعة بشكل عام فى شرق السويد مقارنة بالمناطق الأخرى وقد رأى فى الحراك الديموجرافى المرنم أحد أسباب ارتفاع نسبة الوفيات فى فترة ما قبل الصناعة ، فقد سبق ذلك انتشار الأوبئة (١٠) .

الإدارة

ويمكننا أن نرى خصوصية ستوكهولم أيضا فى مجالات بحثية أخرى مثل الإدارة المحلية وحكم المدينة. وأوضح المظاهر فى هذا المجال هو تأثير التاج أو الدولة على الشئون المحلية، والذي كان أقوى فى ستوكهولم منه فى المدن الأخرى ، فعلى سبيل المثال، كان التاج هو الذى يعين عمدة ستوكهولم وليس المواطنون أنفسهم. إلى جانب العمدة كان هناك منذ 1634 حاكم خاص لمدينة ستوكهولم *verstáhållare* يعينه الملك أيضا، وله سلطات واسعة جدا، وكان هذا الحاكم فى بداية القرن التاسع عشر يصبح تلقائيا رئيسا لحكومة المدينة وأيضا رئيسا لقوة الشرطة المحلية ، إلى جانب مهام أخرى ^(١١) .

وقد أعطت أول قوانين إدارة محلية عام 1862 نطاقا أوسع من الحكم الذاتى لمعظم المدن ، ولكن بالنسبة لستوكهولم فهناك قرار خاص صدر عام 1863 يضمن استمرارية تأثير الدولة على الإدارة المحلية ، واحتفظ حاكم المدينة برئاسة مجلس المدينة حتى بدايات القرن العشرين ^(١٢) . ويرجع اهتمام الدولة بـستوكهولم بالطبع إلى كونها عاصمة السويد، فالشئون المحلية لستوكهولم ليست فقط محلية، ولكنها أيضا ذات أهمية على المستوى القومى .

لقد تأسس الحزب الديمقراطى الاجتماعى فى فترة مبكرة نسبيا فى ستوكهولم، وكان له تمثيل قوى فى مجلس المدينة قبل إجراء أول انتخابات محلية عام 1919 ، وقد كانت الأغلبية فى مجلس المدينة بين عامى 1909 و 1950 للجناح اليسارى بزعامة الديمقراطيين الاجتماعيين ، وقد كان الحكم المحلى لمعظم المدن السويدية بين عامى 1930 و 1970 للديمقراطيين الاجتماعيين ، غير أن ستوكهولم لم تكن فقط مدينة راديكالية مبكرة، ولكنها أيضا العاصمة التى التقى فيها الديمقراطيون الاجتماعيون أقوى منافسيهم ، وواجهوا فيها أول مشاكلهم الحقيقية فى الدفاع عن مواقفهم السياسية المحلية ^(١٣) .

ومنذ خمسينيات القرن العشرين ظلت الأغلبية فى مجلس مدينة ستوكهولم تتداول بين الكتلة اليسارية المتمثلة فى الديمقراطيين الاجتماعيين والشيوعيين ، والكتلة اليمينية

المكونة من الأحزاب الليبرالية والمحافضة ، وقد هيمنت الكتلتان على الأوضاع السياسية الداخلية في السويد منذ الحرب العالمية الثانية ، ولكن المدن كان يحكمها ، بشكل عام كما أشرنا أنفاً، الديمقراطيون الاجتماعيون ، فقد كانت مدينة الرفاهية في الأساس بناء من إنجازات الديمقراطيين الاجتماعيين ، ولم تشهد السياسات المحلية تغييرات جذرية حتى سبعينات القرن العشرين عندما أدخل إصلاح كميوني جديد أدمجت فيه مناطق ريفية شاسعة بالمدن التقليدية ، وكانت السيادة السياسية في المحليات الجديدة تتأرجح عادة بين الكتلتين السياسيتين بنفس الطريقة التي تبودلت بها الأغلبية في ستوكهولم منذ الخمسينات .

الاقتصاد

لم تتخذ الدولة السويدية الإجراءات الكفيلة بسيطرتها على العاصمة فقط، ولكن أيضاً وجهت عنايتها إلى رخائها الاقتصادي. ففي مرحلة ما قبل الصناعة لم يكن يسمح للمدن في شمال السويد ، مثلها في ذلك مثل فنلندا ، بتصدير منتجاتها مباشرة إلى دول أجنبية، بل كان يجب أن ترسل الصادرات أولاً إلى ستوكهولم (أو Ädo) ثم تنتقل منها إلى المستورد في الخارج ، وأطلق على هذا القرار اسم Bottniska handelst-vanget ولم يبلغ حتى 1765، وقد نظم التاج التجارة وكذلك كل الأنشطة التجارية الأخرى بشكل صارم، ولم يحظ إلا عدد محدود من المدن السويدية قبل منتصف القرن التاسع عشر بامتياز التجارة الدولية وكانت ستوكهولم على رأس الهرم الاقتصادي.

وفي أواسط القرن الثامن عشر منحت الشركات في ستوكهولم دعماً مالياً كبيراً لتشجيع الصنّاع ، خاصة في مجال إنتاج المنتجات النسيجية ، وكنتيجة لهذا التشجيع ازدهرت ستوكهولم لفترة وجيزة ، غير أن هذه السياسة الاقتصادية لم تكن ناجحة على المدى الطويل، فعندما رفعت الدولة دعمها المادي عن الشركات الصناعية في ستوكهولم انخفض الإنتاج وقلت العمالة، فظهرت نركوبنج كمركز رائد في الصناعات النسيجية في السويد^(١٤) .

وقد كانت الظروف مواتية بشكل أكبر فى أواخر القرن التاسع عشر لتأسيس إنتاج صناعى فى ستوكهولم ، فتطورت ستوكهولم سريعا لتصبح أكبر منطقة صناعية فى كل أنحاء السويد، وكان الإنتاج النسيجى والغذائى هو الأهم فى بدايات المرحلة الصناعية الحديثة ، وفى انقلاب القرن انخفضت نسبة العمال المستخدمين فى هذه الصناعات، وظهرت الهندسة الميكانيكية بدلا من ذلك كأكثر القطاعات راجا وديناميكية (١٥) .

وبشكل عام ، واجهت الصناعات المعتمدة على كثافة العمالة والأجور المنخفضة وارتفاع نسبة تشغيل النساء، صعوبة فى الاستمرار فى البيئة الصناعية المتروبولية، وكانت الظروف مواتية بشكل أكبر بالنسبة للقطاعات التى تعتمد على رأس المال بشكل أكبر فى قيادة التطور التكنولوجى (١٦) .

وقد كانت المنتجات الجديدة والأساليب الجديدة والأفكار الجديدة إلخ ، تدخل أولا لستوكهولم ثم تنتشر منها لباقي أنحاء البلاد ، لقد كانت ستوكهولم إلى حد ما بوابة السويد للعالم الخارجى ، وكذلك للمستقبل .

وقد كانت نسبة ستوكهولم - مقارنة ببقية المدن السويدية - من العمالة خلال القرن العشرين أقل من نسبتها من عدد السكان ، وعلى المستوى القومى كان لقطاع الخدمات تواجد قوى وزائد فى ستوكهولم، بما يستخدمه هذا النشاط فى القطاعين العام والخاص من عمالة أكبر مما تقترحه نسبة كل مدينة من السكان ، فقد كانت ستوكهولم دائما مركز جذب للأنشطة التى تحتاج إلى تبادل سريع فى المعلومات اعتمادا على التقنيات الحديثة، واعتمادا على الاتصال الشخصى ، والعنصر المميز لتطور ستوكهولم وبنائها الحديث هو تنوعها الاقتصادى الكبير، وقوة نشاط الخدمات فى اقتصادها، وقدرتها على جذب أنشطة وشركات جديدة (١٧) .

عملية التحضر

لقد أظهرت الأبحاث الحالية عن عملية التحضر من بين ما أظهرت التحول الجغرافى لجرائم القتل من شرق السويد إلى غربها فى الفترة بين عامى 1750 و 1870،

وكان الانخفاض الأكبر في ستوكهولم ، التي انخفضت فيها جرائم العنف بشكل ملحوظ منذ أواخر العصور الوسطى ، وهناك ملاحظة جغرافية أخرى أيضا تتعلق بحالات الانتحار، حيث ارتفعت في ستوكهولم والأجزاء الشرقية الأخرى من السويد ، وقد فسر ذلك على أنه تغير في المناخ الأخلاقي ، فالتحول إلى مجتمع تجاري ، وتقسيم العمل، وظهور البروليتاريا ... إلخ والتي ظهرت كلها أولا في ستوكهولم والمناطق الشرقية من السويد، واستتبعها نزعة فردية، وتخفيف من حدة العواطف، وزيادة التفكير المستقل وتحلل القيم التقليدية ، فقد تعلم الناس أن يتعاملوا بأساليب خلاقة أكثر من ذي قبل من أجل المنفعة المتبادلة، وكانت تلك العملية ملحوظة بشكل أكبر في ستوكهولم نفسها^(١٨) .

وهكذا بدأت عملية التحضر أولا في العاصمة السويدية ثم انتقلت بعد ذلك إلى المناطق الأخرى في البلاد، كما ظهرت النزعات الأولى للعلمنة أيضا في ستوكهولم أولا، مصاحبة للارتفاع النسبي في مستوى التعليم ، فالقدرة على الكتابة، على سبيل المثال، كانت منتشرة في ستوكهولم أكثر من أي منطقة أخرى في السويد^(١٩) .

الخلاصة

لقد حاولت من خلال هذه الأمثلة المتفرقة في مختلف مجالات الأبحاث أن أقنعكم بمدى ما يمكن أن نحصل عليه من نتائج هامة إذا انتحينا في كتابتنا لسيرة مدينة ستوكهولم منحنى البحث في الأسئلة التي تدور حول تفرد المدينة. وسيكون هدفنا هو الوصول إلى فهم أعمق لنقاط الاختلاف ، فبعض الاختلافات يمكن فهمها على أساس من البناء السكاني (السن ، النوع ، الوظيفة ... إلخ) بينما تتضح جوانب أخرى إذا ما نُظِرَ إليها على أنها نتائج جو متروبولي خاص خلقه كثرة عدد الأفراد مختلفي التجارب، والمسالك والقيم الثقافية . .. إلخ يعيشون معا في مكان محدد الحدود نسبيا. ويمكن أن يصاغ مجال البحث كما يلي " كيف أمكن لسكان ستوكهولم أن يشكلوا مدينتهم، وكيف شكلت المدينة سكانها، وما هي نقاط التفرد في هذه العملية؟ " إن هدفنا هو العثور على روح ستوكهولم.

عملية النمو العلماني

أحد الجوانب الهامة الأخرى في مشروعنا هو مسألة كيفية تعيين الفترات التاريخية في ستوكهولم ؟ هل من الممكن أن نميز فترات محددة في تطور ستوكهولم ؟ هذا الجانب يمكن بالطبع أن يدمج في منظومة تميز المدينة ، ومن أهم الموضوعات هنا النزعات العلمانية والموجات الطويلة، أو ربما يكون من الأفضل أن نسميها بالمراحل الطويلة ، واعتقادي أن البيانات الديموجرافية تمثل مصدرا ممتازا لهذه النوعية من الدراسات ، فنمو عدد سكان مدينة ما يمكن أن يكون دليلا على نجاحها ، كما يمكننا أن نميز انتكاسها بتقلص عدد سكانها، إلى جانب أن البيانات الديموجرافية متوفرة إلى حد كبير وبالنسبة لفترات تاريخية طويلة ، فلدينا بالنسبة للقرون القليلة الماضية، على سبيل المثال ، سلاسل غير منقطعة من البيانات عن كل سنة تقريبا عن عدد السكان، المواليد، الوفيات، الزيجات ، الهجرات ... إلخ. وهذا الثراء في المصادر لا ينطبق بالطبع على العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، ولكن لدينا على الأقل محاولات لتقدير عدد سكان ستوكهولم على الأقل منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وقد حاولت في الرسوم البيانية 1-3 أن أقدم صورة عن النمو السكاني عبر فترة طويلة في الزمان في ستوكهولم ، ويبدو أن المدينة شهدت تمدا سريعا للغاية عقب تأسيسها في أواسط القرن الثالث عشر، فالوثائق التي تعود إلى نهاية ذلك القرن تذكر أن ستوكهولم هي أضخم مدينة في السويد، ولكنها لا تذكر مساحتها ، وفي أواخر القرن الخامس عشر كان عدد سكان ستوكهولم حولى 6000-7000 نسمة (٢٠) . غير أن هذه البداية السريعة تبعها نمو بطيء في القرن السادس عشر ، فربما لم يزد عدد السكان على الإطلاق. فالتقديرات المبكرة تقدر عدد السكان عام 1582 بحوالى 7500-8000 غير أن دراسة أخيرة لسفين ليليا Sven Lilja تقلصت بهذا الرقم إلى 6500 فقط ، ولكن يمكن أن يتضاعف هذا العدد على فترات منتظمة، فخلال حكم الملك إريك الرابع عشر من ملوك عصر النهضة، زاد عدد أفراد البلاط بشكل كبير وقدّر عدد سكان ستوكهولم عامى 1561 و 1566 بأكثر من 10000 نسمة ، ولكن ربما كان ذلك فقط بشكل مؤقت ، وربما أيضا يعكس متطلبات التاج ، بيد أن الرقم الأدق عن فترة أواخر القرن السادس عشر يقدر عدد السكان بما بين 6000 و 7000 نسمة (٢١) .

وقد اعتبرت هذا الرقم الأدق هو أصدق رقم فى الرسم البيانى رقم 1 ، بينما أخذت الأرقام الأخرى فى الفترة ما قبل عام 1800 من حسابات ليليا Lilja الجديدة حول عدد السكان فى فترة ما قبل الصناعة فى ستوكهولم^(٢٢) . وقد بنى تقديراته أساسا على عدد الأسر المسجلة فى سجلات الضرائب ، ولكنه اعتمد ، فى الفترة منذ أواخر القرن السابع عشر ، على الإحصاءات المتوفرة عن عدد السكان اعتمادا على سجلات المواليد والوفيات. والمصادر هنا صادقة ، ولكن النتائج مرتبطة بالطبع بكيفية تحديد العامل، بينما اعتمدت على الأرقام للفترة التى تلى عام 1800 على الإحصاءات الرسمية وعلى دراستى على تلك المادة والتى تدور حول السكان الحضريين فى السويد بعد عام 1800^(٢٣) .

ويوضح الرسم البيانى رقم 1 عدد سكان ستوكهولم خلال خمسمئة سنة ووحدة المقارنة هى 40 سنة، وتغطى الفترة منذ أواخر القرن الخامس عشر وحتى أواخر القرن العشرين ، وقد أظهرت الأرقام بمقياس لوغاريتمى حتى نأخذ انطبعا عن النمو النسبى ، ومن السهل أن نتبين طفرة ثانية فى النمو بعد الطفرة الأولى فى العصور الوسطى العليا، خلال القرن السابع عشر، عندما ارتفع عدد السكان من حوالى 10.000 إلى أكثر من 50.000 بل وربما وصل إلى 60.000 ، وهذا الارتفاع الحاد لم يكن إلا نتيجة للأوضاع السياسية فى أوروبا ، فقد أصبحت السويد قوة عظمى فى أوروبا، وأراد التاج أن تكون العاصمة ممثلة لهذه المكانة السياسية الجديدة.

وقد حدثت طفرة أخرى بعد منتصف القرن التاسع عشر عندما بدأت المرحلة الصناعية ، فازداد عدد السكان من 900.000 عام 1850 إلى 30.000 فى انقلاب القرن ثم إلى 750.000 فى خمسينات القرن العشرين، وفى نفس الوقت بدأت عملية ظهور الضواحي وتطور المنطقة المتروبولية، فبلغ تعداد سكان ستوكهولم وضواحيها عام 1990: 1.4 مليون نسمة تقريبا، مقارنة ب 320.000 فى مطلع القرن.

وقد عرفت المنطقة المتروبولية هنا على أنها مدينة ستوكهولم مضافا إليها المناطق الحضرية المجاورة للمدينة والتى يقطنها 200 نسمة على الأقل ، وقد بدأ التسجيل الرسمى لمثل تلك المجتمعات الصغيرة فى التعداد الرسمى السويدى فى بدايات القرن العشرين ، وكانت التسجيلات الأولى غير كاملة ولا يعول عليها، ولكن نظام التسجيل

تطور شيئاً فشيئاً وتحسنت نوعية البيانات ، ويمكننا الوثيق بالأرقام منذ 1950 كما تم إدخال كل المناطق الحضرية بغض النظر عن الحدود الإدارية ، ولذلك لدينا بيانات عن المدن من حيث المناطق الإدارية وكذلك المناطق عالية الكثافة البنائية.

ومن السهل التعرف على الضواحي حيث تتمايز عن المدن فى الجداول المطبوعة للتعداد ، كما يتضمن التعداد بعد الحرب العالمية الثانية عدد من يسافرون يوميا من مدينة لأخرى لغرض العمل، وقد ازدادت هذه المعلومات تفصيلا منذ عام 1960 ، فيمكننا مثلا التعرف على عدد هؤلاء المسافرين يوميا من وإلى ستوكهولم فى كل الاتجاهات وليس من الضواحي إلى المدينة فقط. ومنذ هذا التاريخ تحديدا عرفت الضاحية على أنها المنطقة الحضرية التى يقطنها 200 نسمة على الأقل يعمل ثلثهم على الأقل فى ستوكهولم .

إن الأرقام الواردة فى الرسم البيانى رقم 1 تبين ثلاثة مراحل للطفرات فى عدد السكان وكذلك تظهر وجود فترات بينية طويلة كان النمو فيها بطيئاً نسبياً ، وسوف يتأكد لنا هذا الانطباع بشكل أكبر إذا نظرنا إلى القياسات النسبية فى الرسمين البيانين 2 و 3 ، فالرسم الثانى يمكننا من تتبع نسبة ستوكهولم إلى إجمالى عدد السكان الحضريين فى السويد ، وقد استخدمت ، بالنسبة للقرن العشرين، أرقاما تغطى كل المنطقة المتروبولية، بينما اقتصرت الأرقام فى الفترات الأسبق على الحدود الإدارية لمدينة ستوكهولم حيث كانت أصدق تمثيلا للمنطقة المتروبولية التى اقتصرت عليها تقريبا ، وعلى أية حال لا توجد طريقة سهلة لتحديد المناطق الحضرية خارج ستوكهولم قبل عام 1900.

أما فى فترة العصور الوسطى فمن المعتقد أن ما بين 15% إلى 20% من كل سكان المدن كانوا يعيشون فى ستوكهولم ، وتعكس الزيادات الكبرى الفترات التى ازداد طلب التاج فيها لموارد جديدة وموظفين جدد بشكل أكبر من المعتاد بكثير، حيث تجمع الكثير من الناس فى ستوكهولم ، وقد أدت الزيادة العظمى فى عدد السكان خلال القرن السابع عشر إلى زيادة حصة ستوكهولم بشكل كبير حيث تحولت إلى مدينة كبرى يقطنها حوالى 4% من إجمالى عدد السكان الحضريين ، وهى أعلى نسبة تم تسجيلها خلال فترة الخمسمائة عام التى تشملها الدراسة.

وقد شهدت فترة ال 150-200 عام التالية الانحسار التدريجي لنسبة ستوكهولم ، ففي أواخر القرن التاسع عشر استقرت النسبة عند 20% وهي نفس النسبة خلال العصور الوسطى ، وأعتقد أن مثل هذه النسبة ، على الأقل خلال العصر الحديث تشير إلى نظام حضري متماسك إلى حد كبير ، يتبع بشكل كبير قاعدة الحجم حسب المكانة ، فالقرن السابع عشر يمثل وضعاً شاذاً كانت ستوكهولم تسيطر فيه بشكل تام على الحياة الحضرية، فأصبح منحنى الحجم حسب المكانة شيئاً فشيئاً أكثر تحديداً ولكن التبنى البطيء بعد ذلك لفكرة إنشاء شبكة من المدن ساهم في إعادة المنحنى إلى الخط المستقيم .

يوضح الرسم البياني الثالث نسبة ستوكهولم إلى إجمالي عدد السكان في السويد، في الريف والحضر معا ، ولم يسكن ستوكهولم إلا 1% من إجمالي عدد السكان خلال العصور الوسطى بينما شهد القرن السابع عشر ارتفاعاً طفيفاً لتصل النسبة إلى 4% ولكن خلال فترة الركود التالية انخفض الرقم ببطء وتوقف عند 25% وشهد عصر الصناعة تركيزاً متزايداً لسكان السويد في منطقة ميلار ولم يقل عنه في ستوكهولم، وازداد في تلك الفترة دور العاصمة في المجتمع السويدي قوة بشكل كبير، فارتفعت نسبة سكان العاصمة إلى سكان السويد من 16% إلى 25% منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى عام 1970 ثم انخفضت نسبة الزيادة بعد ذلك.

مسألة تحديد المراحل التاريخية

لقد أظهرت منحنيات أعداد السكان في ستوكهولم كما رأينا ثلاث فترات من الارتفاع الكبير في عدد السكان تلي كل منها فترات طويلة من البطء النسبي في النمو ، وانتهت آخر فترات الزيادة الكبيرة حوالي 1970 وقد زاد عدد السكان بالقطع خلال السبعينات والثمانينات من القرن العشرين ، ولكن سرعة النمو لم تعد كما كانت في السابق ، وقد تشير هذه النتائج إلى أن ستوكهولم قد دخلت في الوقت الحالي مرحلة طويلة من الركود أو على الأقل النمو المحدود نسبياً. ولكن إلى متى ستستمر تلك المرحلة؟ في السابق كانت فترات الزيادة الكبيرة تستمر ما بين 100-150 عاماً وتليها

فترات ركود أطول نسبياً، غير أن المؤرخين لا ينبغي أن يشتغلوا بالتوقعات ، يمكننا فقط أن نخلص إلى أن التاريخ في صعود وهبوط ، والأشياء غير المتوقعة سوف تستمر يوماً في الوقوع، ومن ناحية أخرى فالتاريخ يعلمنا أن دورات النمو موجودة خلال العصور ، على الأقل منذ العصور الوسطى .

إن الفترات الطويلة للنمو في عدد السكان والتي تمتد فيها فترات الزيادة الكبيرة والركود قروناً، من الموضوعات الهامة في نفسها بالفعل، ولكن يمكن أن تكون أيضاً وسيلة لتحديد الفترات التاريخية لستوكهولم. وفكرت أن نبني سيرة المدينة تاريخياً على أساس هذه الخطوط، وناقش موضوعات التفرد من خلال تلك الخلفية ، إن مشروع الأطلس يمكن أيضاً أن يتبع نفس هذا المنظور في ترتيب الفترات التاريخية.

ويمكننا أيضاً أن نتساءل إن كانت تلك الفترات الطويلة في التطور خاصة بـستوكهولم دون غيرها ، وإجابتي اليوم ستكون أن ستوكهولم قد اتبعت نفس مسار التطور الحضري الذي شهدته السويد بشكل عام ، ويوضح الرسم البياني رقم 4 عملية التحضر في السويد منذ أواخر القرن الثاني عشر وحتى عام 1990، وقد عُرِفَت نسبة التحضر بأنها نسبة السويديين الذين يعيشون في المدن أو في المناطق الحضرية الأخرى، وتشير مقارنة منحنى النمو في عدد السكان في ستوكهولم مع منحنى التحضر في السويد إلى توازن شديد ، فقد كانت التحضر في السويد ينمو بشكل حاد في نفس الفترات التي يزداد فيها عدد سكان ستوكهولم بشكل حاد.

بادئ ذي بدء لدينا طفرة في العصور الوسطى عندما نشأ النظام الحضري السويدي كما نعرفه الآن ، هذه الفترة استمرت تقريباً من القرن الثالث عشر وحتى القرن الرابع عشر وكانت ستوكهولم جزءاً لا يتجزأ من هذه العملية ، وازدادت نسبة التحضر تقريباً من 1% إلى 5% ، وخلال القرن السابع عشر وهو الفترة التي كانت في السويد قوة عظمى في أوروبا، ارتفع معدل التحضر من 5% إلى 10% وأنشئت العديد من المدن الجديدة، اضطلعت بقرابة نصف الزيادة القومية، بينما اضطلعت ستوكهولم وحدها بالنصف الآخر.

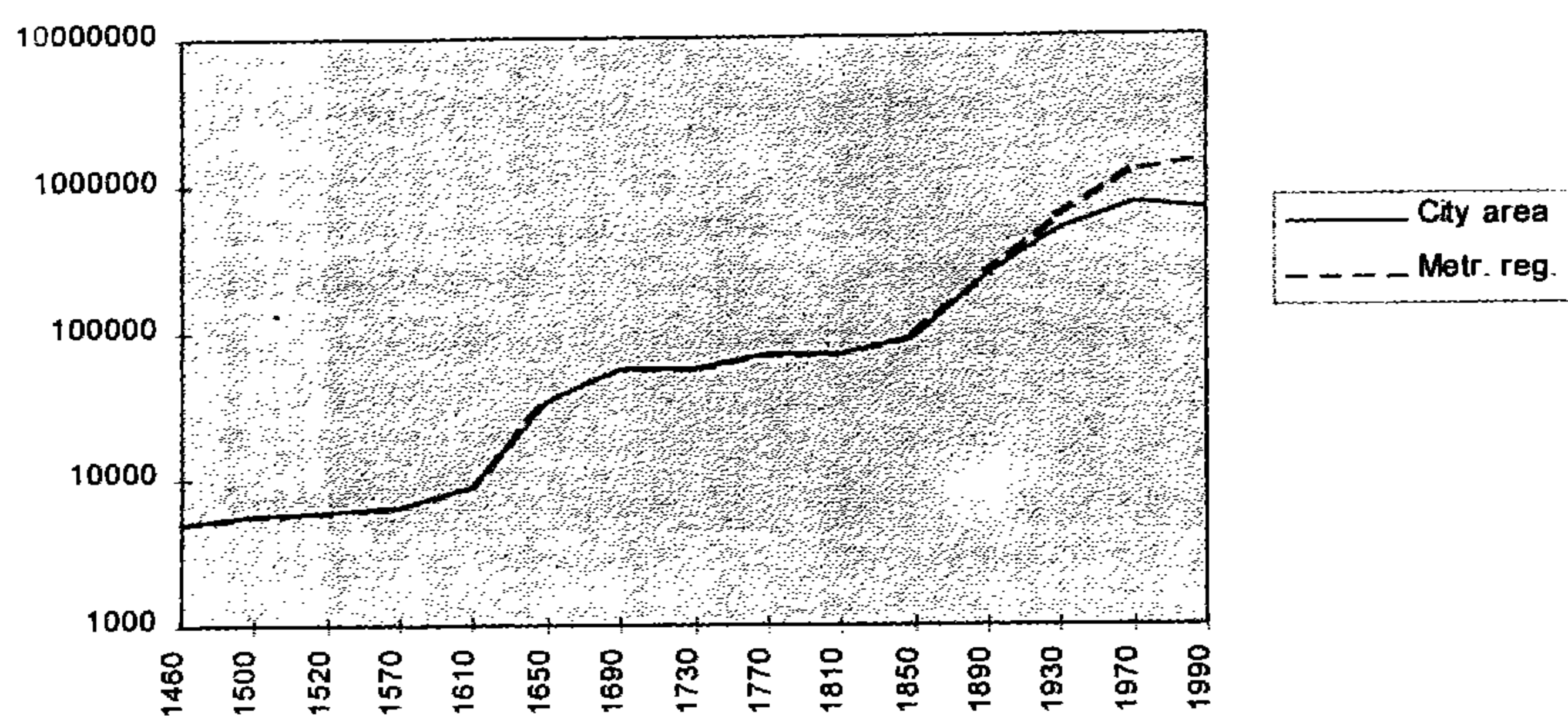
بيد أننى أميز طفرة حضرية حدثت فى العصر الحديث ، حيث قفز معدل التحضر من 10% إلى 80% فى الفترة منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى عام 1970 ، وتسبب فى هذا النمو تضاعف عدد المناطق الحضرية وكذلك اتساع المدن القائمة بالفعل ، وتطورت ستوكهولم بنفس المعدل الذى تطور به نظام التحضر بشكل عام .

وكانت فترات الزيادة الكبيرة الطويلة هى نفسها فى البلاد ككل وفى ستوكهولم سواء بسواء، أى 100 - 150 سنة، واستمرت فترات الزيادات الكبيرة يتبعها فترات ركود طويلة عندما لا يتغير معدل التحضر لأكثر من قرن . لقد اتبعت ستوكهولم والسويد الحضرية نفس الدورات المتلاحقة فى ديناميكيات السكان، وجزء كبير من صعود وهبوط التحضر فى الأمة يتركز فى تاريخ عاصمتها .

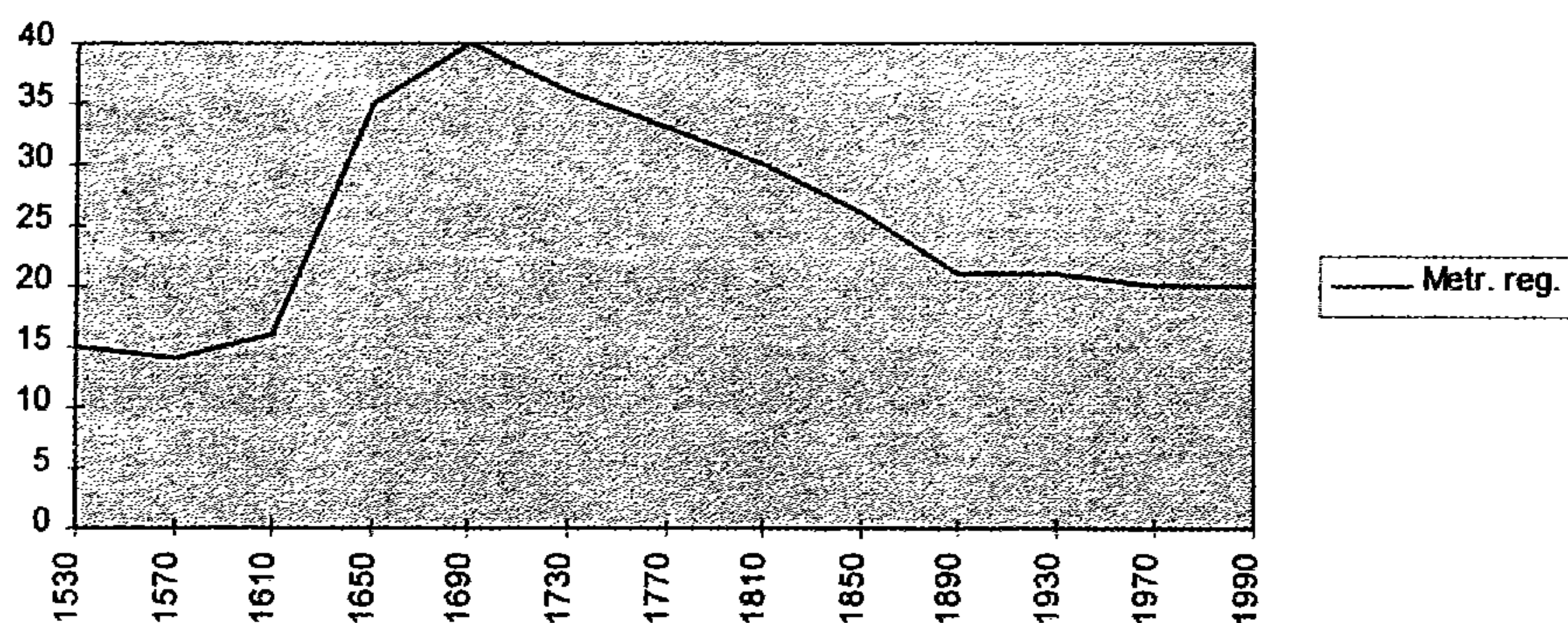
الهوامش

- (١) G. Dahlbäck, I medeltidens Stockholm (Stockholm, 1988), 13.
- (٢) L. Nilsson (ed.), Huvudstadens historia: Sju kunskapsöversikter från Stockholms historia från äldsta tid till idag (Stockholm, 1992)
- (٣) L. Nilsson, 'Urban history in Sweden', in L. Nilsson (ed.), أنظر، كمرجع عام لهذه الفقرة، Swedish Bibliography of Urban History: A selection of Books and Articles Published up to 1992 (Stockholm, 1994)
- (٤) S. Hägerberg, Stockholms historia, 1-2 (Stockholm, 1981).
- (٥) J. Söderberg et al., A Stagnating Metropolis: the Economy and Demography of Stockholm, 1750-1850 (Cambridge, 1991), 171-198.
- (٦) L. Nilsson, Den urbana transitionen: Tätorterna i svensk samhällsomvandling 1800 - 1900 (Stockholm, 1989), 140-187 - 9
- (٧) Ibidd., 187 - 9
- (٨) G. Ahlberg, Stockholms befolkningsutveckling efter 1850 (Stockholm, 1958), 43-48, 68
- (٩) M. Matovic, Stockholmsäktenskap: Familjebildning och partnerval i Stockholm 1850-1950 (Stockholm, 1984)
- (١٠) M. Mårtensson, Stockholms hudhäll 1800-1925, in studier och handlingar rörande stockholms historia, VI (Stockholm, 1989).
- (١١) Ahlberg, Stockholms befolkningsutveckling, 80-85 Söderberg et al., A stagnating Metropolis, 22-26
- (١٢) A. Kaijser, Stadens ljus: Etableringen av de första svenska gasverken (Stockholm, 1986)
- (١٣) B. Ericsson, Förändringar i svensk lokalförvaltning från början av 1800-talet till 1920, in I. Hammarström and L. Nilsson (eds.), Lokal praxis på det sociala området i nordiska länderna 1800-1920 (Stockholm, 1986)
- (١٤) S. Hägerberg, Stockholms historia 2, 239-240

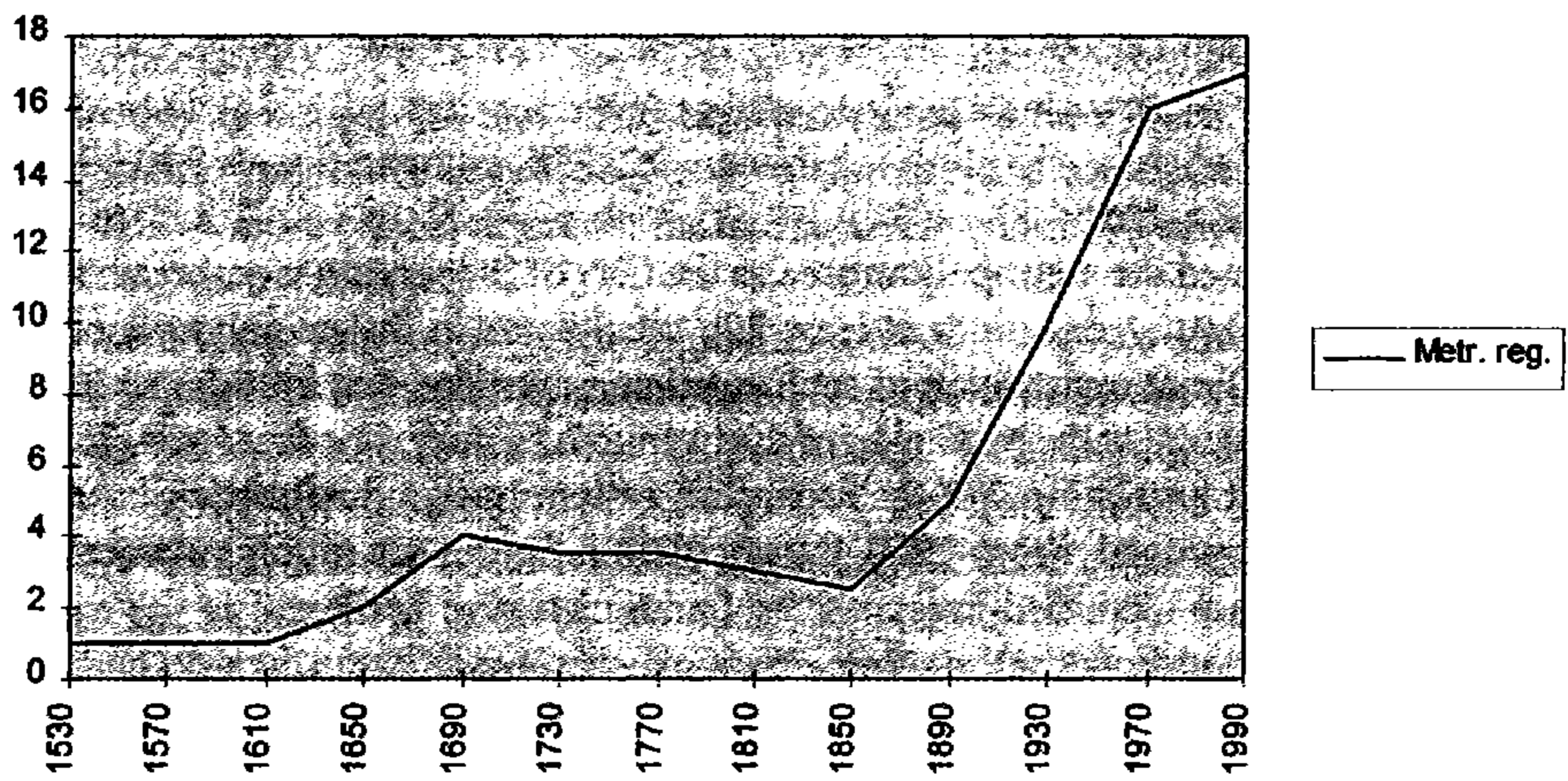
- Hammaström, Stockholm Svensk ekonomi 1850 - 1914 (Stockholm , 1970) , 201-6. s . (14)
- Hogberg stockholms historia 2 , 14-5. Söderberg et al., A . stagnation MetropHo, 31-45 .
- Hammaström, Stockholm, 208-10 . U . Gustafson, Industrialisens storstad (Stockholm, (15)
1976) , 69 - 70
- Hammaström, Stockholm, ,356-9 (16)
- Nilsson, 'Storstäderna Och den urbana transitionen', in Studier och handlingarrangörande (17)
Stockholms historia, VI (Stockholm,1989), 153-6.G. Tärnkvist, 'Personkontakter Och lokalisering :
En Kartläggning av kontaktnät (Nät Och regionala utvecklingstendenser inom svenskt näringsliv',
Urbaniseringen Sverige (SOU 1970:14,Stockholm, 1970) .
- Söderberg, Civiliseringen , Maknad Och vald I Sverige 1750-1870 (Stockholm , 1993), 6 -24 (18)
- Ibid, 114 - 147, 174-192. (19)
- Dahibäck, I medeltidens Stockholm, 50. (20)
- S . Lijja, Stockholms befolkningsutveckling före 1800 , Historisk tidskrift 1995:3 , 307 - 11 (21)
- I bidr (22)
- L.Nilsson, Folkmängden I administrativa tätorter 1880 - 1970 (Stockholm, 1992) (23)



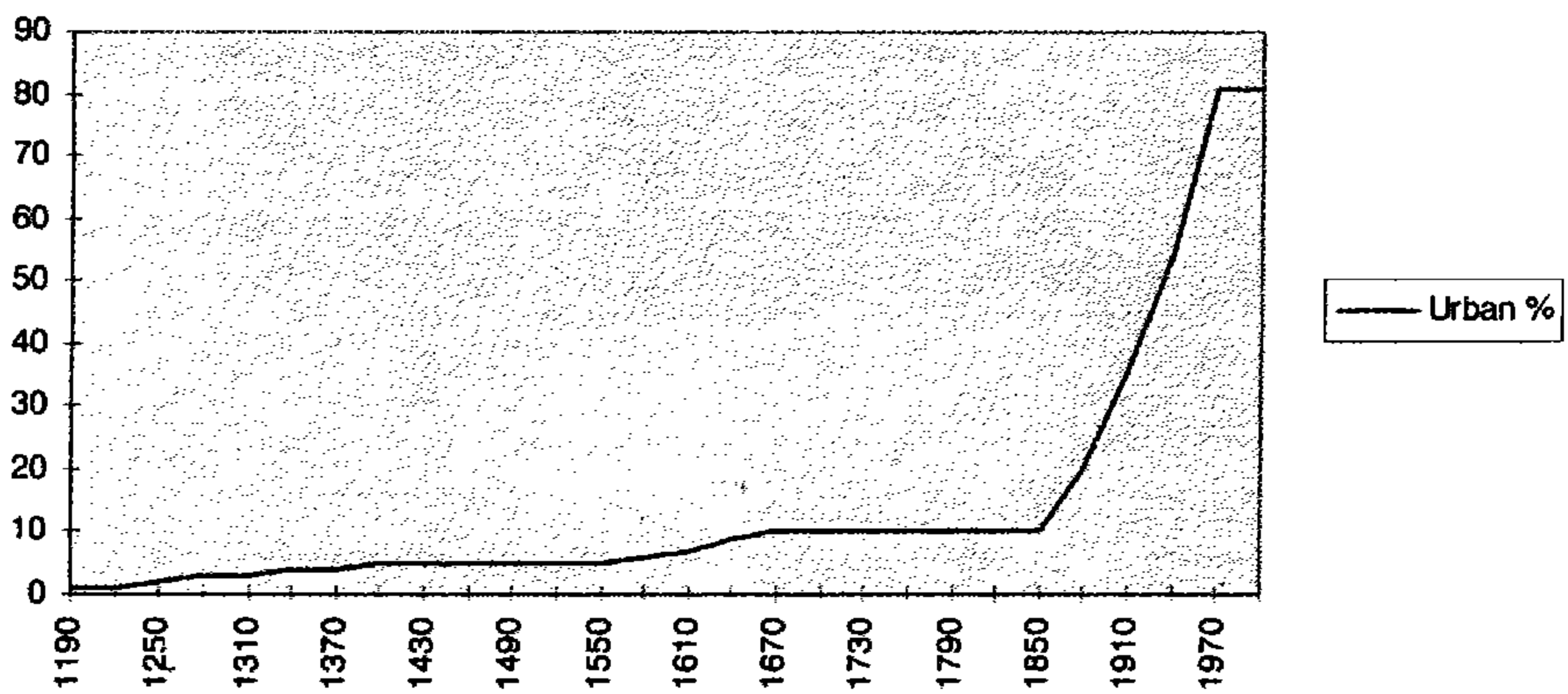
رسم بياني (١) تعداد سكان ستوكهولم ١٤٦٠ - ١٩٩٠ (مقياس لوغاريتمي)



رسم بياني (٢) النسبة المئوية لتعداد سكان ستوكهولم مقارنة بالمناطق الحضرية في السويد



رسم بياني (٣) النسبة المئوية لتعداد سكان ستوكهولم مقارنة بإجمالي عدد سكان السويد



رسم بياني (٤) نسبة التحضر في السويد ١١٩٠ - ١٩٩٠

عاصمة مالية : مدينة لندن : 1815-1986

ديفيد كيناستون

لقد كانت مدينة لندن هي شاغلي التاريخي الأساسي لأكثر من 17 سنة، وإنني لسعيد حقاً لانعقاد مثل هذا المؤتمر الدولي في المدينة، حتى أستطيع أن أقدم هذا الملخص عن عمل ما زال جارياً .

لقد جئت إلى المدينة في أواخر العشرينات من عمري كمؤرخ اجتماعي - وليس كإقتصادي أو مؤرخ إقتصادي - وهذه الحقيقة الأساسية شكلت تناولي للموضوع منذئذ، لقد أردت أن أنفذ للمكان - أن أفهم كيف يعمل، كيف يشعر المرء في داخله وأتنبس رائحته - مع الحرص ألا أندمج حتى أصير جزءاً منه فأفقد القدرة الموضوعية التي يراها البعيد ، لقد عرّف الكثير من المؤرخين والمعلقين - من منظور يسار الوسط السياسي بشكل أساسي - للمدينة أهميتها وقدرتها على خلق جو محير وعبق بأنشطتها التجارية والمالية، ولكن بالرغم من بعض الدراسات المهمة والأضواء الصحفية لم يدخل أحد، كما أعتقد ، بحق إلى أدغالها. وبعبارة أخرى ، لقد أردت أن أكون مؤرخاً أنثروبولوجياً: يرى سكان المدينة على أنهم قبيلة مهمة جداً، لها مكانة عالمية بالفعل ولكنها بالرغم من ذلك قبيلة.

على أية حال ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، غير أنني ربما أكون قد خطوت خطوات مهمة في طريق تحقيق هذه الأحلام ، حيث أنني الآن في معمة كتابة ما أرجو أن يكون ثلاثية لمدينة لندن بين عامي 1815-1985، وقد نشر الجزء الأول (1815-1890) منذ عامين، بينما نشر الثاني (1890-1914) العام الماضي، وقد اعتمد المشروع على الأرشفة . ولم يكن لتقوم له قائمة بدونه ، وهناك مصدرين أرشيفيين كان لهما الدور

الأساسي :

1 - المستودع شديد الثراء والغنى لمكتبة جيلدهال ، عندما بدأت العمل هناك كانت مجموعات الوثائق الضخمة لبورصة لندن قد أودعت لتوها، وقد أصبحت حجر الأساس بالنسبة لى وأخذتني فى عالم السوق الصاخب، الساحر، غير المنطقي فى كثير من الأحيان ، والذي كان خلال القرنين الماضيين هو النبض اليومي ودقات قلب المدينة كلها. وفى المكتبة بالطبع العديد من الكنوز الأخرى - ولى ولع خاص بيوميات تجار الخشب الأب والإبن (تشارلز تشرشيل الأب وتشارلز تشرشيل الابن) والتي ترجع للقرن التاسع عشر، وهما من جنود المشاة فى المدينة - وقد كانت المكتبة دائما، وهو أمر مهم ، شديدة الراحة لمستخدميها .

2 - البنوك الخاصة، والتي تنقسم بالطبيعة إلى أنواع ثلاثة:

أ) البنك المركزى « بنك أوف لندن» وقد أدخلت تغييرات جذرية على أرشيف Old Lady أثناء فترة وجودى بالمدينة وأصبحت الآن تعمل بشكل راق جدا، ومازالت أكثر شخصية حديثة مثيرة للإعجاب فى تاريخ البنك هو مونتاج نورمان Montagu Nor-man محافظ البنك بين عامى 1920-1944 وقد عملت مؤخرا على يومياته المكتبية التى كتبها بتركيز شديد، والتي توضح بالتفصيل كيف أصبح بابا المدينة، سائرا فيها بما يسمى لياقة 'الموعظة الحسنة'، وبغير لياقة 'امتعاظ الدهشة' .

ب) البنوك الاستثمارية ، وخاصة 'المؤسسة القديمة' لبارنجز وروتشيلدرز، فلم يعد أى منها على حاله، ولكنهما كانا ولفترة طويلة مركزين رئيسيين للسلطة والنفوذ فى المدينة، أو هكذا يبدو الأمر، وربما أهم من بنك أوف إنجلترا نفسه. فعلى سبيل المثال، انعقد لواء الزعامة فى المدينة لأول لورد من عائلة روتشيلد، الذى كان يطلق عليه أصدقائه "ناتى" ، لأكثر من عشرين عاما قبل الحرب العالمية الأولى - عندما كان محافظ بنك أوف إنجلترا تاجرا مهما . وقد وصلتنا سلسلة كاملة لمراسلاته منذ عام 1906 مع أقربائه فى بنك الأسرة فى باريس، وما يثير الدهشة بحق فى هذه المراسلات أنه لم يكن له حق الاطلاع على جانب عظيم من المعلومات الداخلية وأنه كان بعيدا عن الأحداث مثله مثل أى شخص آخر عندما تكشف تلك الأحداث على المسرح الأوروبى وأن وجهات نظره كانت صدى أكثر منها قائدا لرفاقه من رجال البنوك. باختصار هذه المراسلات تساعدنا على رؤية واضحة للمدينة وهى عملية هامة، بل وأساسية فى رأى.

ج) البنوك الأعضاء فى غرفة المقاصة. لقد كانت كل البنوك الرئيسية هامة بالنسبة لدراستى وأود فقط أن أؤكد ملاحظة إدوين جرين - أن هناك وثائق تواجه خطر قلة الاستخدام لأن العالم الخارجى يعتبرها غير ذات أهمية أو غير متاحة أو لكلا السببين. ويكفينا فى ميدلاند للتأكد من عكس هذين السببين أن نبحر فى اليوميات الرائعة والمراسلات الخاصة بالسير إدوارد هولدن Sir Edward Holden حاكم البنك الذى بنى نفسه بنفسه ، والتي ترجع لفترتى ما قبل أو ما بعد الحرب العالمية الأولى . ويمكننى أن أستمر فى ذلك ولكنى أود أن أنهى بطرح سؤال أعتقد أنه يجول ببعض الخواطر فى هذا المؤتمر ، وهو تحديداً: هل الأرشييف هو سيدنا أم خادمنا؟

لفت صحفى جريء انتباه الروائى الروسى فلاديمير نابوكوف إلى ملاحظة ل "إي . إم . فورستر" مؤداها أن الشخص فى الرواية أحياناً تحتسب حياة حقيقية أثناء كتابة الرواية ، ولكن نابوكوف نفى ذلك بشدة بالنسبة لحالته، قائلاً إنه يتعامل مع شخصه على أنهم "عبيد يعملون عندى". لسنا كلنا بالطبع بمثل هذه العزيمة، وبالطبع يمكن أن تغير فرصة استمرار وجود بعض الوثائق وإتاحتها - واختفاء ودمار أو عدم إتاحة أخرى - من الصورة بشكل كبير ، وبعض وجوه المدينة ومؤسساتها المهمة وأسواقها لم تلق حقها من العرض فى عملى لنقص المادة الأرشييفية أو على الأقل المادة الأرشييفية التى تغرينى بالفعل لبذل الوقت والجهد اللازم فيها، غير أنى أميل إلى عدم التماذى فى القلق. لقد لعب الحظ دوراً مهماً فى تاريخ المدينة - ليس أقلها الميلاد فى الأسرة المناسبة أو غير المناسبة - ولو استمر على هذا فى الحياة الأبدية الأرشييفية لأرواح من ذهبوا والتي أدت دورها الأرشييفى لكونها شيئاً مهماً فى المدينة، فهو من حسن الطالع ، وفى الأسبوع الذى شنت فيه روتشيلد نفسه ؛ ربما بسبب عدم قدرته على احتمال ضغط المدينة عليه بسبب اسمه، يبقى واجبنا أن نستحضر هذه الأرواح المتروبولية ونعاملها بما ينبغى لها من احترام .

الفصل السادس

آسيا ، أفريقيا ، والأمريكتان

الأرشيف المتروبولي لطوكيو والهستوريوجرافيا

تاموتسو كوماي

المقدمة: الحفاظ على المادة المتعلقة بإدو - طوكيو (مدينة الكوارث)

عادة ما وجدت الحرائق والكوارث العنيفة ضالتها في إدو (طوكيو الحالية) ، فنييران الحرائق كثيرا ما ترعى في مبانيها المصنوعة من الخشب والورق. لقد سطر الأسلاف والكبراء في كل عصر الوثائق الرسمية للمكاتب القضائية والحكومية كما دون التجار يومياتهم، غير أن حفظ تلك الوثائق كان عزيز المنال من جراء الحرائق والفيضانات التي كانت تضرب المدينة، وكانت الطامة الكبرى في ضياع عدد عظيم من الوثائق الرسمية و السجلات القديمة في الزلزال الكبير الذي ضربها في السنة الرابعة من حكم أنساي Ansei عام 1855 وأثناء إصلاحات مايجي Meiji في العام الأول من حكمه سنة 1868 .

وحتى مؤخرا عندما تغير اسم إدو لتصبح طوكيو ضاع عدد عظيم من الوثائق أيضا عندما ضرب المدينة زلزال كانتو الكبير في العام الثاني عشر من حكم تايشو 1923، ثم تكرر الحال مع الغارات الجوية في العام العشرين من حكم شوا 1945 والتي دمرت البقية الباقية، وهكذا ضاعت المادة الأولية المشتمة على الأرشفة الرسمية القديم، للأبد.

وفي الزمن العصيب أثناء الحرب العالمية الثانية قام الموظفون المسئولون في السجلات التاريخية لمدينة طوكيو Historical Records of Tokyo City بنقل الوثائق الرسمية والسجلات القديمة إلى خارج المدينة للحفاظ عليها، وهذه الوثائق محفوظة الآن في الأرشفة المتروبولي لطوكيو Tokyo Metropolitan Archives لاطلاع الجمهور، لقد كان لهؤلاء الموظفين من الحصافة ما مكنهم من حفظ وحماية الوثائق الرسمية.

تاريخ الأرشيف

تأسس الأرشيف المتروبولي لطوكيو عام 1968، وضم مكتبة الوثائق التاريخية His-torical Documents Library وقسم الأرشيف بإدارة الشؤون العامة General Affairs Department فى حكومة مدينة طوكيو السابقة ، وكان الهدف من تأسيس الأرشيف هو : الجمع المنظم والحفظ للوثائق الرسمية والنشرات الحكومية واستخدامها، وهناك هدف مهم آخر لإنشاء الأرشيف وهو جمع سجل تاريخى للعاصمة.

وكانت مكتبة الوثائق التاريخية لحكومة طوكيو السابقة قد تأسست عام 1952، لحفظ وثائق الحكومة القديمة لمقاطعة طوكيو ومدينة طوكيو، واستكمال العمل فى جمع الوثائق التاريخية المستمر منذ عام 1901 فى هذه الأثناء كانت أعداد الوثائق تتزايد كل عام فى إدارة الشؤون العامة، وكان قسم الأرشيف فى حاجة لأسلوب يضمن حفظ الوثائق بشكل منظم واستخدامها بشكل أكثر كفاءة ، ومنذ إنشائه منذ 27 سنة لعب الأرشيف المتروبولي لطوكيو دور الممول بالمعلومات للعاصمة، إلى جانب دوره فى حفظ أرشيف الدولة فى عام 1988 ، وبعد أن انتهينا من فاتورة إصلاح الأرشيف ، بدأ تزايد الاهتمام بالأرشيف والتطلع لما يمكنه أن يقدم ، ومنذ ذلك الوقت بدأت المقاطعات والمدن المسموح لها قانونا فى تحديث أرشيفاتها أو إنشاء أرشيفات جديدة .

وقد واجه الأرشيف المتروبولي لطوكيو صعوبات فى إيجاد مكان تخزين وعمالة متخصصة، وقد طلبوا من الحكومة المتروبولية مؤخراً إنشاء امتداد جديد حيث يقصر الحيز الموجود حالياً عن إيواء الوثائق ، غير أن مالية الحكومة كانت محدودة فقوبل طلب بناء جناح جديد بالرفض ، وكذلك كانت هناك صعوبة فى تعيين موظفين متخصصين حيث إن الحكومة المتروبولية لا تعى أهمية وجود عمالة متخصصة فى الأرشيف .

وعلى الرغم من هذه المشاكل فإن الأرشيف ما زال يقدم خدماته لجمهور طوكيو، فقد نشط الموظفون منذ 1991 فى العمل بمشروع لتصوير الوثائق ميكروفيلمياً، كما أنهم يقدمون نتائج أبحاثهم عن أعمال الحكومة المتروبولية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة للجمهور ، بالإضافة إلى استمرار نشر الوثائق التاريخية لمدينة طوكيو بانتظام.

تحقيق (*) الوثائق التاريخية

إن العمل الأساسى للأرشيف المتروبولى لطوكيو هو جمع وحفظ الوثائق الرسمية وإتاحتها للجمهور ، إلا أن طبيعة هذه المؤسسة أدت إلى قيامها بتحقيق هذه الوثائق بنفسها، إلى جانب عملها العام.

ففى اليابان، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع تطور دراسة التاريخ الإقليمى ، قامت الهيئات الحاكمة المحلية لكل منطقة، كمكاتب المقاطعات والمدن والقرى بتحقيق الوثائق الرسمية فى منطقتها .

وعادة ما تحدد فترة زمنية لإنجاز مثل هذا العمل ، وعادة ما يستعان بكفاءات من خارج الهيئة نفسها كالمحاضرين فى الجامعات مثلاً، ولهذا كانت هناك مشكلة دائمة تتمثل فى تفرُّق الوثائق والسجلات الأصلية بعد الانتهاء من عملية التحقيق.

ويوجد لدينا الآن 32 مستودعا للوثائق الرسمية فى 26 مقاطعة و 6 مدن من المسموح لها قانوناً، وكانت دار المحفوظات العمومية فى طوكيو هى الثانية من نوعها التى تتأسس فى اليابان ، ومن أهم ما يميزها هو أن العمل فى تحقيق الوثائق ظل طوال الـ 95 عاماً الماضية يتم داخليا دون الاستعانة بأفراد من خارجها.

نشر التحقيقات

تتمثل مهمة تحقيق المادة الأرشيفية فى جمع الوثائق القديمة الرسمية والخاصة بشكل كامل ، ثم اختيار ما يحتاج منها فى النشر أو لكتابة أوراق بحثية ، ثم نشرها لفائدة الجمهور .

ولا يهدف نشر التحقيقات إلى تقديم أيديولوجيا معينة أو إرضاء حزب سياسى ، ولا للحصول على تقدير الأكاديميين ، وإنما هدف نشر التحقيقات والأوراق البحثية هو

(*) استخدمت لفظ " تحقيق " هنا للدلالة على النشر العلمى للوثائق المتعارف عليها بين المشتغلين بهذا التخصص ، حتى لا يختلط مدلولها مع مدلول النشر بمعنى الطباعة فى كتب . (المترجم)

الحفاظ على المعلومات التاريخية فى حالة فقد الوثائق الأصلية فى أحد الكوارث ،
حتيتيستطيع الأجيال القادمة أن تصل إلى الحقائق التاريخية ، وحتى يستطع
المعاصرون أن يصلوا إلى المادة التاريخية دون الحاجة للذهاب إلى الأرشيف المتروبولي
لطوكيو، لذلك كان من المهم أن تعتمد تلك التحقيقات على المصادر الأساسية لإدو
وطوكيو .

والسجلات التاريخية لمدينة طوكيو عبارة عن سلسلة من التحقيقات للوثائق
الرسمية، والتي تغطى تاريخ وثقافة إدو وطوكيو بشكل كامل ، هذه السلسلة
تشبه بشكل ما القاموس التاريخى وتحظى بسمعة طيبة بين الباحثين والجمهور فى
طوكيو .

الهستوريوجرافى

لقد كانت المنطقة المتروبولية لطوكيو منقسمة إلى جزأين (مقاطعة طوكيو ، ومدينة
طوكيو) حتى أدمجتا عام 1943؛ لذلك كان العمل الهستوريوجرافى يتم أيضا فى
مكتبين مختلفين ، ويقع تاريخ مقاطعة طوكيو فى جزأين " حكومة المقاطعة -The Prefec-
tural Government ويتكون من عشرة كتب (1929-1934) و الإدارة Administration ويتكون
من ستة كتب (1935-1937) .

أما بالنسبة للتحقيقات عن تاريخ مدينة طوكيو فتعود إلى 1901 عندما تقدم
يوشياكى ناكاهاتشى Yoshiaki Nakahachi أحد أعضاء مجلس مدينة طوكيو باقتراح
بهذا المشروع ، وقد تمت الموافقة عليه، وعين له طاقم موظفين يعملون كل الوقت فى
دراسة تاريخ مدينة طوكيو منذ أول عام فى عهد مايجى 1868، وهكذا بدأ العمل فى
تحقيق الوثائق .

وفى عام 1906 أصبح يوشيتارو تسوكاكوشى Yoshitaro Tsukakoshi الصحفى
بجريدة كوكومين شينبون Kokumin Shinbun عضوا فى لجنة الهستوريوجرافى ، وقد
غير تسوكاكوشى اتجاه العمل ليصبح الهدف من التحقيق هو توفير تاريخ كامل لمدينة
طوكيو للمواطنين فى شكل يسهل فهمه. وكان أسلوبه يقوم على جمع المادة التى تغطى ،

ليس فقط عصر مايجى ولكن أيضا العصور السابقة عليه ، وتقديم ذلك فى ثلاثة عشر كتابا للنشر .

وقد طرأت تغييرات على خطته عندما انتقل العمل إلى حكومة طوكيو المتروبولية عام 1943 ، فقد كان على النشر القائم أن يتوقف إبان الحرب العالمية الثانية وقام الموظفون بنقل الأصول المخطوطة للكتب التى تنتظر النشر، والمصادر، والوثائق الرسمية والقديمة ... إلخ إلى الريف بعيدا عن الغارات الجوية، ولم تعاود السجلات التاريخية لمدينة طوكيو النشر إلى عام 1952 ، ثم تغير اتجاه التحقيق بشكل بسيط ، فقد تغير التركيز فى النشر؛ بهدف زيادة المبيعات ، إلى الموضوعات المدنية والصناعية وأصبح النشر يتم مرتين سنويا، ومازال مستمرا حتى عام 1996.

وسائل الإيجاد

بلغ عدد الصفحات التى نشرت من السجلات التاريخية لمدينة طوكيو حتى مارس 1996 157.000 صفحة فى 165 كتابا تقع فى عشرة أجزاء ، ونظرا لضخامة حجم المادة لم يكن من اليسير الوصول إلى معلومة بعينها، لذلك كان من اللازم وضع كتابين : المحتوى الموضوعى Comprehensive Contents وفهرس الحقائق Index of Facts ووضعت أسماء العصور وأرقام الصفحات والمصادر الأصلية للمعلومة والصور فى قاعدة بيانات على الكمبيوتر، ويعتبر المحتوى الموضوعى هو تقريبا سجل "السجلات التاريخية لمدينة طوكيو" وهو مرتب على ترتيب الأجزاء العشرة، بينما أوردت المحتويات فى الفهرس بترتيب أبجدى فى عبارات يابانية مختصرة ، وأرجو أن ييسر هذا الفهرس الأبحاث المتعلقة بإيو وطوكيو .

الماضى المتشردم: أرشيف مدينة نيويورك: 1804-1996 (*)

كليفتون هود

مقدمة

عادة ما ينظر المؤرخون إلى الأرشيف على أنه مجرد مخزن للمخطوطات والكتب النادرة ، أى أننا مستهلكون لمادة أولية ونعتمد على الأرشيف فى الوصول للوثائق التاريخية. بيد أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن الأرشيفات هى نتاج الماضى كما أنها أيضا مصدر للمعلومات عن هذا الماضى ، وهذا هو بالفعل الحال فى مدينة نيويورك، حيث شكلت العلاقات الاجتماعية والقرارات السياسية والقيم الثقافية تطور مجموعة متميزة من الأرشيفات .

وبين 1804 والآن نشأت فى نيويورك شبكة قوية ولكنها متشردمة من الأرشيفات ، هذه الشبكة متشردمة من ناحيتين ، فهى أولا متشردمة وظيفيا ، فنيويورك تمتلك عددا كبيرا من الأرشيفات شديدة الاختلاف نوعيا ، وأهم الاختلافات هى تلك التى بين المؤسسات الخاصة والعامة ، وبين الأرشيفات التى تغطى المدينة بأسرها وتلك التى تغطى منطقة محددة فيها ، وهى متشردمة ثانيا من الناحية الثقافية ؛ فكثير من الأرشيفات تغطى المساحة الاجتماعية والهوية الخاصة بجماعات اجتماعية بعينها، بما فى ذلك صفوة المواطنين ، وأعضاء الأقليات العرقية، وسكان البورو إلى جانب الدارسين وعلماء الأنساب، بيد أنها على عكس مثيلاتها الأوروبية لم ينجح أى منها فى تقديم صورة شاملة عن هوية المدينة. إن طبيعة مدينة نيويورك يمكن أن نراها فى مصادر كثيرة مختلفة : الصحف ، التلفزيون، الإعلانات، رياضات الاحتراف ، المتاحف ، ولكن ليس فى الأرشيفات، فمستودعات المدينة تخدم جمهورا محدوداً محدداً وليس الجمهور العام .

ولى فى هذه الورقة هدفان ؛ الأول : هو دراسة التطور التاريخى لأرشيفات نيويورك مع التركيز على أنواع ثلاثة من المستودعات : الأول هو الأرشفة الخاص للنخبة، والثانى الأرشفات العرقية للبورو، والثالث الأرشفة الحكومى المحلى للمدينة ، ولن أحاول القيام بدراسة شاملة لكل أرشفات المدينة ، فطبقاً لتقديرٍ أخير يصل عدد الأرشفات فى نيويورك أكثر من ٢٥٠ أرشيفاً ، ومعظمها خارج نطاق هذه الدراسة ^(١) . والثانى، هو التركيز على الدلالات الثقافية لهذه الأرشفات ، فهى من ضمن المصادر التى يعتمد عليها سكان نيويورك لتشكيل هويتهم وتحديد أطر علاقاتهم، بيد أن الأرشفات ينظر إليها بشكل عام على أنها تقع فى دائرة الحيز المكانى الخاص ، ولما دتها على أنها ملكية خاصة، فقد ظهر تقليد تخصيصية الأرشفة فى نيويورك، فإذا أضيف إلى ذلك غياب الدور الرمزي للأرشفة الوطنى، تكرر بهذين العاملين هذا التشردم الذى نراه ^(٢) ، هذه التخصيصية الأرشفية تجسد خصائص العقيدة الأمريكية فى قدسية الملكية الخاصة، والميل للحد من الدور الحكومى، والانقطاع بين الحاضر والماضى.

وسوف أستخدام مصطلح 'أرشفة' بمعناه فى الاستخدام الأمريكى - كمؤسسة تحتفظ بالمادة الأولية التى يعتقد أنها قديمة وتحمل بعض القيمة الثقافية والتى عزلت فى مبنى خاص من أجل حفظها ^(٣) .

الوعى الجماهيرى بتاريخ نيويورك

إنه لمن المفجع حقاً هذا التأخر زمانياً فى إنشاء الأرشفات فى تاريخ المدينة، فعلى الرغم من أن نيويورك قد تأسست عام 1624، فإنها لم يكن بها أرشفات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ^(٤) . وبالرغم من عدم وجود ممارسات أرشفية فى المستعمرات ، فإن هذا الافتقار للأرشفات فى مدينة نيويورك كان أيضاً مؤشراً على نوعية فهم المستعمرين لتاريخهم ، فالأمريكيون البريطانيون كانت لهم عقلية تاريخية قوية، ولكنهم ركزوا بشكل عام على أوروبا الحديثة وروما واليونان القديمة، أو على الإنجيل ، فمعظم المستعمرين نظروا لأمريكا الشمالية على أنها مهمشة حضارياً وقليلة الأهمية تاريخياً .

وبالمثل، نظر القليل من النيويوركيين لمدينتهم على أنها مكان له تميز أو أهمية خاصة ، والأقل منهم اهتم بدراسة تاريخها. فلم يظهر الكتاب الذى يعتبر عادة أنه أول ما نشر عن تاريخ نيويورك – William Smith's History of the Province of New-York إلا عام 1757 أى بعد 130 سنة من إنشاء المدينة ، ونشر عدد آخر من الأعمال التى تناولت تاريخ المدينة خلال الفترة التالية من القرن الثامن عشر، ولكن الطفرة الأولى فى كتابة تاريخ مدينة نيويورك لم تبدأ إلا فى أوائل القرن التاسع عشر.

وقد لا يثير أى من هذه الحقائق الدهشة، فربما اعتقد النيويوركيون أن مدينتهم ليست مهمة لجرد أنها ليست مهمة بالفعل ، فعندما نشر ويليام سميث تاريخ عام 1757 ، كان عدد سكان المدينة 20.000 نسمة، فمثل المدن الأمريكية الأخرى، كانت نيويورك مركزا تجاريا إقليميا صغيرا على أطراف الإمبراطورية البريطانية. غير أنه لا توجد علاقة طردية بين الدور الاقتصادى أو السياسى للمدينة وفهم سكانها لأهميتها، ففى أمريكا ، كما فى أى مكان آخر، ليس للتواريخ المحلية للمدن الصغيرة والقرى أهمية كبيرة ، وبدلا من ذلك يعكس الوعى التاريخى للنيويوركيين الكولونىاليين انتماءهم للثقافة العابرة للأطلنطى المرتبطة بالتاريخ الأوروبى .

وقد بدأ الاهتمام بتاريخ مدينة نيويورك فى تسعينات القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر، وقد نتج هذا الاهتمام الجديد أساسا عن استقلال أمريكا عن بريطانيا العظمى، وقد حاول بعض أفراد النخبة الأمريكية، كجزء من عملية بناء الأمة ، أن يعطوا بلدهم تاريخا له بعض القدم مستقلا عن تاريخ بريطانيا العظمى ، وانتقل هذا الجهد لخلق التاريخ القومى أيضا إلى مدينة نيويورك. وفى هذا الوقت لم يكن هناك حدود فاصلة بين الولايات المتحدة، وولاية نيويورك ومدينة نيويورك كموضوعات تاريخية متميزة ، فقد طغى التركيز على وحدة الأمة على الوعى بهذه التمايزات المكانية. وقد تكرست هذه النوعية من الوعى التاريخى الجديد بحادثتين وقعتا فى تسعينات القرن الثامن عشر، أولاها انتقال عاصمة الوطن إلى فيلادلفيا (ثم إلى واشنطن دى سى) ثم انتقال عاصمة الولاية إلى ألبانى. وقد أثارت الخسارتان الشكوك حول مستقبل المدينة، مما حفز أهلها على تمجيد ماضيها، وقد نتج عن هذا

الاهتمام المتزايد بتاريخ نيويورك صدور عدة كتب عن الحقبة الهولندية من تاريخ المدينة ما بين عامي 1624 و 1664. وقد هجا واشنطن إيرفينج في عمله الشهير Washington Irving, Knickerbocker's History of New York 1809 هذه التواريخ^(٥).

هناك عامل آخر لفت الانتباه لتاريخ المدينة، وهو ظهور نيويورك كمترربول رئيسي في أمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر، في عام 1800 كان تعداد سكان نيويورك 79.216 نسمة فقط لتحتل المركز الثاني بعد فيلادلفيا من حيث عدد السكان في الولايات المتحدة، بينما بلغ عدد سكان نيويورك عام 1900 حوالي 3.4 مليون نسمة فاحتلت بذلك المركز الثاني في العالم بعد لندن، من حيث عدد السكان^(٦)، وقد غيرت هذه الزيادة الكبيرة من الوعي التاريخي للنيويوركيين، بالرغم من أن هذا التحول كان معقدا بل ومتضاربا أحيانا. فعلو كعب نيويورك حث أهلها على البحث عن ماضٍ مساوٍ لمنجزات الحاضر ومناسب لتطلعات المستقبل، ويحلول الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر يمكننا أن نلاحظ طابعا مميزا لمدينة نيويورك في الكتابات التاريخية، فقد صورت المدينة على أنها متميزة بشكل جذري عن الأماكن الأصغر ومتميزة في حجمها وثروتها وزينتها الثقافية، وسرعة إيقاعها وحدثاتها، وكذلك في قسوتها وحدتها.

وعلى الرغم من احتفاء النيويوركيين بثروة وقوة مدينتهم فإن كثيرا منهم فقدوا استقرارهم كنتيجة للامتداد العمراني بها، وتشى الأعداد المتزايدة من المذكرات الخاصة والكتابات التاريخية البسيطة التي كتبت في أربعينات وخمسينات القرن التاسع عشر بأن التاريخ المحلي أصبح مطية للتعبير عن الضيق من سرعة التغيير، وقد ركزت الكثير من هذه الأعمال - مذكرات فيليب هون Philip Hone الشهيرة على سبيل المثال - على المساحة الطبيعية للمدينة وعمليات الإنشاء والهدم المستمرة في المباني، فقد عبر هون عن إحساسه بالغربة نتيجة التطور السريع في المدينة، وعبر عن مشاعر الحنين للماضي الأكثر بساطة، وقد عبر هذا الوعي التاريخي الجديد أيضا عن التوترات الطبقية والعرقية، فقد حاولت الطبقة العليا من النيويوركيين أن تقيم الحواجز أمام المهاجرين والعمال، واستخدمت التاريخ لتضع نفسها في صورة حامية حمى الثقافة، لتصبح بالتالي أسمى من الطبقات الدنيا^(٧)، وقد أثر هذا الاستخدام الاجتماعي للتاريخ على تطور الأرشيفات المدنية أيضا.

لقد بدأت الممارسة الأرشفية فى نيويورك فى القرن التاسع عشر، وقد نجحت نيويورك فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فى إنشاء شبكة تضم ثلاثة أرشيفات خاصة رئيسية : أرشيف الجمعية التاريخية لنيويورك (New-York Historical Society NYHS) وأرشيف جامعة كولومبيا Columbia University ، وأرشيف مكتبة نيويورك العامة New York Public Library NYPL وقد كان لهذه الأرشيفات الثلاثة وظائف محددة وجمهور معين باعتبارها وحدات لثلاثة تنظيمات مختلفة. ومن المهم هنا أن نلفتن لدلالة انتماء أرشيفي المكتبة العامة وجامعة كولومبيا لهيئتين أكبر من تلك التى ينتمى لها أرشيف الجمعية التاريخية؛ فقد ساهم ذلك إيجابيا على مستوى دعمهما المالى وجمهورهما، وهو ما يفسر قوتهما اليوم مقارنة بأرشيف الجمعية التاريخية ، وقد تأثرت الأرشيفات الثلاثة باتساع نطاق التعليم العالى بعد الحرب العالمية الثانية وأصبحوا مراكز للدراسات الأكاديمية .

وتعتبر الجمعية التاريخية لنيويورك هى ثانى أقدم جمعية تاريخية فى الولايات المتحدة ، قد أنشأها رواد الطبقة العليا عام 1804 من أمثال دى ويت كلينتون De Witt Clinton و صامويل لايارد Samuel Bayard الذين أرادوا الارتقاء بمستوى الثقافة الوطنية، وكان هدفها الواسع هو جمع المادة المتعلقة بتاريخ المدينة والولاية والأمة. ومنذ البداية قامت الجمعية وبنشاط بتوثيق تاريخ المدينة ، وقام أمناء المكتبة بها بالتماس الوثائق التاريخية من الجمهور وجمعوا المادة المكتوبة والمطبوعة من كل الطبقات الاجتماعية، كما نشروا أيضا مجموعات من الوثائق ، وقد أصبحت مكتبة الجمعية اليوم، بما فى ذلك الأرشيف، تقريبا، أهم مصدر تاريخى عن الحقبة الاستعمارية والقرن التاسع عشر فى المدينة. ومن بين المواد التى تحتفظ بها، أوراق عائلة لفنجستون Livingston وأوراق روفوس كنج Rufus King وجمهرة عظيمة من الوثائق العسكرية الخاصة بحرب السنوات السبع والحروب الثورية، ودفاتر حسابات التجار بالمدينة ^(٨) .

وقد تأسست مكتبة المخطوطات والكتب النادرة بجامعة كولومبيا حوالى 1900 ، وقد كانت فى الأصل مجرد غرفة فى مكتبة الجامعة وليس إدارة مستقلة بذاتها. ثم أصبحت إدارة قائمة بذاتها فى عشرينات القرن العشرين، وقد تحددت مهمة أرشيفها

من حقيقة وجوده فى جامعة بحثية فأصبحت تتمثل فى توفير المادة للبحث العلمى الأصيل، وقد أصبح منذ ذلك الوقت مصدرا أكاديميا لا يقدر بثمن. وتشمل مجموعاته الآن أرشيف باخمتف لتاريخ روسيا وأوروبا الشرقية Bakhmeteff Archives of Russian and Eastern European History وأوراق النبلاء الأمريكيين من أمثال أوجوست بلمونت August Belmont، وبيللا إس. أبزوج Bella S. Abzug وهربرت ليهمان Herbert Lehman ووثائق وقف كارنيجى للسلام الدولى^(٩). . Carnegie Endowment for International Peace.

أما قسم المخطوطات فى مكتبة نيويورك العامة فقد أنشئ عام 1914 (صورة رقم 1)، وقد كان فى البداية جزءاً من قسم تاريخ أمريكا وكان يحوى نماذج من الوثائق الخطية المشهورة، ثم استقل القسم بنفسه وتحول هدفه ليصبح جمع أوراق الشخصيات الهامة والمؤسسات من أجل المساهمة فى تقدم المعرفة الأكاديمية. وتعكس مقتنيات المكتبة العامة وظيفتها كمكتبة المحاولة الأخيرة النشطة حول العالم، ويحتوى قسم المخطوطات على نحو 28.000 قدم مكعب من المواد، بما فى ذلك وثائق مجلة نيويورك New Yorker، و National Civic Federation ناشرة الصحف نوروثى شيف^(١٠). Dorothy Schiff.

وبين هذه الأرشيفات الخاصة الثلاثة من التشابه أكثر مما بينها من الاختلاف، فالمستودعات الثلاثة أنشأها أعضاء من نفس الفئة الاجتماعية من التجار الرأسماليين الذين ربطوا أنفسهم بارتفاع شأن نيويورك وهيمنتها على المستوى القومى، وكان من نتائج مساهمة هذه النخبة تفرق أوراق بعض الزعامات النيويوركية - مثل آل لفنجستون وآل بلمونت - بين مؤسستين أو ثلاثة، وتعكس المستودعات الثلاثة رؤية طبقة التجار لامتيازاتهم الطبقية وللأهمية الجديدة التى اكتسبتها مدينتهم بطريقين، أولهما، دعم الأرشيفات لادعاءات التجار فى الامتيازات الاجتماعية والسياسية، فوضع أوراق أو مقتنيات أحد التجار فى بناء خاص أو غرفة خاصة بها يعطيها قدسية تشهد على مكانته. فمن خلال العمارة والديكورات المؤثرة فى النفس، وسياسات شروط الاطلاع، والعناية التى تحظى بها مجموعاتهم لعبت الأرشيفات دورها فى الانتقال بهذه المواد من مقام الروتين إلى مقام التشریف، وثانيها أن الأرشيفات دانت بدين تجارها فهدفت مثلهم إلى تمجيد المدينة والتأكيد على ريادتها القومية والدولية، فعلى الرغم من أن

الأرشيفات الثلاثة تحوى مواد تخص مدينة نيويورك فإنها امتدت بتطلعاتها إلى ما هو أبعد من حدود المدينة ذاتها، فلما أصبحت نيويورك مركزا عالميا، لم يكن لأرشيفاتها أن تقصر نفسها على الشأن المحلى فقط، فامتدت هي الأخرى بمقتنياتها إلى مدى أوسع .

وتمثل هذه الأرشيفات الخاصة الثلاثة نوعا خاصا من المؤسسات الثقافية، فمن الممكن أن نرى سلسلة معلوماتية فى مؤسسات ثقافية عامة مثل الأرشيفات والمتاحف والمكتبات، يتحدد فيها موقع المؤسسة بدرجة إتاحتها للجمهور وقيمة مقتنياتها . فالمكتبة المتجولة مثلا تقع فى نهاية هذه السلسلة فى طرفها العام حيث أنها متاحة بالفعل ولكن مقتنياتها من الكتب منخفضة القيمة، بينما يقترب متحف الفن من واسطة العقد؛ فبينما تحد القيمة المالية الباهظة لمقتنيات الفن الجميل من إتاحتها، إلا أن مكانتها الاجتماعية توفر لها جمهورا عريضا، وتقع أرشيفات النخبة النيويوركية فى طرف السلسلة الخاص؛ فإتاحتها محدود عادة بمن لهم مدخل أكاديمى أو اجتماعى مناسب. وهذا القصر فى الاستخدام على فئات بعينها يرجع فى جانب منه إلى القيمة النادرة لهذه المواد التى لا يمكن تعويضها، كما أنها تشمل أيضا الصراع الأرشيفى الأولى بين الإتاحة والحفظ، كما أنها تعكس أيضا مفهوم التملك، فحتى بعد أن يقتنى الأرشيف أوراقا شخصية تبقى هذه المقتنيات ملكية خاصة. ولم يكن المفهوم الحديث للأرشيف بوصفه خدمة عامة ومصدرا للدراسات العلمية قد تبلور بعد فى أواسط القرن العشرين، بل كان الأرشيف مازال يعكس مفهوم الملكية الخاصة المتوارثة من الواهب؛ فكان يرى أن وظيفته تنحصر فى الحفاظ على الملكية الخاصة لفائدة الواهب فى المقام الأول ثم ورثته. لقد كانت الأرشيفات تشبه الجبانات، وبالرغم من أن الاثنين كانا من الأمكنة العامة إلا أن تلك الأمكنة كانت مقسمة إلى شرائح خاصة، وهدفها الحفاظ على ذاكرة وكرامة الراحلين^(١١) .

فكان من الطبيعى ، والأمر كذلك ، أن تلتزم الجمعية التاريخية والمكتبة العامة وجامعة كولومبيا بتقاليد الخصوصية، وقد خولت هذه الأرشيفات لادعاءات النخبة بالهيمنة السياسية والاجتماعية سلطة ثقافية، كما أنها وفرت أيضا مكانا يتمتع بالحماية الاجتماعية يمكن لأصحاب الامتياز من النيويوركيين أن يفرعوا إليه من إيقاع

المدينة الحديثة السريع بعيدا عن المهاجرين والعمال. وهذا الدور بالذات والمتمثل في رسم الأرشف للحدود الاجتماعية هو ما قلص حظه من الاهتمام العام، فهذا الاقتصار على فئات بعينها رسم حولها هالة أضافت لفاعليتها .

وقد لعب وضع المدينة في الثقافة القومية دورا أيضا في إضفاء هذا الطابع التخصيصي على الأرشفات، فعلى الرغم من أن نيويورك أصبحت مركزا تجاريا في الولايات المتحدة في ستينيات القرن التاسع عشر، فإنها لم تعد عاصمة الأمة السياسية ولم تعد أيضا رمزا مركزيا كما كانت من قبل ، فنيويورك هي من بين تلك المدن العالمية القليلة التي ليست عاصمة في نفس الوقت ، وبالتالي فأرشفاتها تفتقر إلى جمهرة المواد التي تمكن المستودعات الأرشفية في أماكن أخرى من التعبير عن الطابع القومي ، ومن الواضح أن احتمالية وجود تلك الجمهرة من الوثائق لم تكن لتضمن خلق أرشف يشي في بنيته بلامح الأمة ، كما أن الأرشف الحكومي الفدرالي القومي لم يتأسس حتى 1934، إلى جانب أن غياب الرمزية القومية حرم الجمعية التاريخية والمكتبة العامة وكولومبيا من وظيفة مهمة كان يمكن أن تعادل الطابع التخصيصي بها .

وتتمثل الوظيفة الأساسية للأرشفات الثلاثة اليوم في دورها كمصدر للدراسات العلمية ، وقد تأثرت ثلاثتها بالتوسع في التعليم العالي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكمعظم الأرشفات الأمريكية الأخرى تلبي تلك الأرشفات اليوم احتياجات الدارسين أكثر مما تلبي احتياجات الحكومة أو الأعمال أو النخب الاجتماعية ، ويوجه التزامها بخدمة الدارسين سياسات الجمع في تلك الأرشفات، وكذلك مصادر تمويلها وطبيعة مستخدميها ، وعلى الرغم من استمرار تقاليد الخصوصية فإن الأرشفات الثلاثة قد وسعت من مهمتها وكذلك من جمهورها .

أرشفات البورو، والأرشفات الإثنية والعرقية

وبالإضافة إلى الأرشفات الثلاثة الرئيسية، تأسس عدد من الأرشفات الأصغر والمرتبطة بالحدود الجغرافية والاجتماعية للمدينة ، وهي أرشفات البورو والأرشفات

الإثنية والعرقية ، وقد كانت نشأة أرشيفات البورو تالية لتغير مُهم حدث فى أسلوب حكم المدينة، تمثل فى نشأة نيويورك الكبرى ، فقبل 1898 كانت الحدود السياسية لمدينة نيويورك تقف عند جزيرة مانهاتن و برونكس الغربية ، وقد اتسعت حدود المدينة عام 1898 لتصل لحدودها الحالية والتي تضم خمسة بورو منفصلة فى مانهاتن وبروكلين وبرونكس، وجزيرتى كوينز وستاتن ، وبذلك ضمت هذه التوسعات - التى بلغت ثمان أضعاف مساحة المدينة الأصلية - تقريبا كل الأراضى التى ستصبح ضواح فى نصف القرن التالى، باستثناء شمالى نيوجرسى، وبحلول منتصف القرن العشرين كانت الأنفاق والطرق السريعة قد حفزت على عدم تركز السكان فى مانهاتن وانتشارهم فيما يسمى البورو الخارجية ، وفى عام 1900 كان 53 من بين كل مئة من سكان نيويورك يعيشون فى مانهاتن؛ بينما بلغ عددهم 24 لكل 100 عام 1950 (١٢) .

لقد غير إنشاء البورو الخارجية من علاقات السكان مع أحيائهم ومع المدينة الكبرى ، فهذه البورو الخارجية كانت تضم تجمعات مثل الفلاشينج Flushing فى كوينز والفلاتلاندز Flatlands فى بروكلين منذ القرن السابع عشر ، ثم أصبحت هذه البلدات الصغيرة والقرى الآن جزءاً من متروبول ضخم، ازداد تضخما بالنمو السكانى، وكثير من السكان القدماء شعروا بالقلق من إزالة علامات الأرض والهوية المحلية التى اعتابوا عليها ، بيد أن حفنة السكان القدماء المتمسكين بذكرياتهم القديمة كانوا أقل عددا بكثير من السكان الجدد الذين تدفقوا على البورو الخارجية، وقد وجد هؤلاء السكان الجدد أنفسهم فى أحياء جديدة تفتقر أحيانا للحدود وفى بورو تفتقر (باستثناء بروكلين) للهوية .

وقد كانت الجمعيات التاريخية للبورو هى الحل لبعض السكان القدماء والجدد على السواء، وقد نشأت تلك الجمعيات فى القرن العشرين ، أو أعيد إحيائها بعد فترة ركود طويلة ، وتشمل تلك الجمعيات الجمعية التاريخية لبروكلين (أنشئت 1863 ، وأعيد نشاطها فى ثمانينات القرن العشرين)، والجمعية التاريخية لجزيرة ستاتن (1856 ، وأعيد تنظيمها عام 1922)، والجمعية التاريخية لبرونكس كاونتى (1955)، والجمعية التاريخية لكوينز (1968) ، وهذه الجمعيات الأربعة هى تنظيمات خاصة تقوم بعدة وظائف: فتنشر معظمها مجلات تاريخية، وتدير بيوتا تاريخية وتنشئ معارض متحفية،

وتقدم جولات سياحية، ولديها مكتبات بحثية تضم مصادر أولية مثل الصور والمطبوعات والوثائق. فعلى سبيل المثال يحتوى أرشيف الجمعية التاريخية لجزيرة ستاتن على مخطوطات تخص أسر جزيرة ستاتن ، وأعمالها ومنظماتها، وصور لمواقع محلية، وميكروفيلم للصحف المحلية، وقوائم، وإحصاءات للسكان^(١٣) .

إلى جانب أن هناك مستودعات متخصصة فى جماعات إثنية وعرقية بعينها قد أنشئت أيضا، ومن أهمها مركز شومبرج للثقافة السوداء بالمكتبة العامة بنيويورك New York Public Library's Schomburg Center for Black Culture والذي أنشئ عام 1923. وقد فتح مبنى جديدا فى هارلم عام 1980 و حسن من مجموعات الكتب والوثائق والصور التى يكتنيها. وقد تأسست الجمعية التاريخية الأمريكية الأيرلندية American Irish Historical Society، والتى تحتوى مكتبتها على أرشيف صغير فى بوسطن عام 1897 ثم انتقلت فيما بعد إلى مدينة نيويورك، ويرمز مبنى هذه الجمعية الأخيرة إلى التأكيد على مساهمة الأيرلنديين فى المجتمع الأمريكى والرد على الافتراءات المناهضة لهم، فهو مبنى ضخم يقع فى فيفث أفنيو Fifth Avenue الراقى فى مانهاتن فى مواجهة متحف المتروبوليتان Metropolitan Museum of Art ، وهو يجسد النجاح الأيرلندى الأمريكى، ويتشابه هذه الجمعية أيضا مع الجمعية التاريخية لنيويورك التى يقع مبناها الأضخم، ولكنه لا يزيد أبهة على مبنى الجمعية الأيرلندية، عبر الستترال بارك على الجانب الغربى الأعلى . وتهتم الجمعية التاريخية الأيرلندية الأمريكية ، مثلها فى ذلك مثل الجمعية التاريخية لنيويورك، بالفترة الكولونيالية وتعطى مكتبتها ومقتنياتها الأرشيفية أولوية على البرامج العامة ، وهذه الأولويات هى بالفعل ما ارتقى بهذه الجمعية لتصبح الأكثر تخصصا وعظمة، غير أنها ليست النموذج الوحيد للمؤسسات الإثنية. فهناك على سبيل المثال متحف الصينيين فى أمريكا Museum of Chinese in the Americas، فى مانهاتن السفلى، والذي يلعب دور المركز الاجتماعى ويشجع على المشاركة العامة^(١٤) .

لقد أكدت الأرشيفات الإثنية وأرشيفات البورو على الهوية الاجتماعية فى المحيط المدنى ، فقد لعبت تلك الأرشيفات دورها فى الاستعانة بالماضى وخلق محيط اجتماعى

أمن من شأنه أن يُشعر العمال والمهاجرين وسكان البورو بشرعية وجودهم ، وقد تجنبت الأرشيات الإثنية وأرشيات البورو الأكثر نجاحا تقاليد الخصوصية ولعبت دور المراكز الاجتماعية. وعلى الرغم من صعوبة تحديد دورها بشكل مماثل لمثيلاتها النخبوية، وبالرغم من أنها أقل روعة وجاذبية، فإن المستودعات الإثنية ومستودعات البورو تعتبر أكثر التصاقا بجمهورها، وأعتقد أن هذا هو السبب في الحيوية والجدة التي تتميز بها أرشيات نيويورك الأصغر وكذلك متاحفها وجمعياتها.

الأرشيف البلدى

استمرت أرشيات نيويورك مكونة من الأرشيات الخاصة لعدة عقود ، ثم أسست مدينة نيويورك الأرشفة البلدى عام 1952 ليحتفظ بوثائق المدينة الرسمية ، ويرجع السبب في إنشاء هذا الأرشفة، جزئيا إلى الرغبة في حل مشكلة إدارة وثائق نتجت عن اتساع نشاط الحكومة البلدية خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين ، ويرجع سبب نشأته في جانب آخر منه إلى الشكوى من سوء حالة الوثائق التاريخية الخاصة بالمدينة وحاجتها لإدارة مركزية. وقد تولت المكتبة العامة بنيويورك إدارة هذا الأرشفة في البداية بموجب عقد مع المدينة، وقد قررت لجنة مشكلة من اثنين من المؤرخين المتميزين أن قوة العمل بالأرشفة لا تفي بالغرض وكذلك أشارت إلى سوء حالة حفظ الوثائق، فتقرر بناء على ذلك نقل الأرشفة إلى إدارة الخدمات البلدية - Municipal Services Administration، غير أن تلك الإدارة - وهى وكالة مجمعة ذات اختصاصات واسعة - لم تضع الأرشفة أبدا في قائمة الأولويات ، وقد كاد الأرشفة أن يختفى من الوجود إبان أزمة المدينة المالية في سبعينات القرن العشرين، وتأزم الوضع بشدة حتى لم يبق من قوة العمالة سوى فردين فقط بحلول نهاية عام 1975، وقد رأى من أيدوا هذا الاتجاه أن الأرشفة يقطع نسبة أكبر مما ينبغى له من ميزانية الإدارة والموظفين. ونتيجة لجهود بول أو دويير Paul O'Dwyer السياسى المؤثر وصديق الأرشفة، أقر مجلس المدينة فى عام 1977 قانونا محليا بإنشاء إدارة الوثائق وخدمات المعلومات Department of Records and Information Services (DORIS) كإدارة مستقلة (١٥) .

وقد تمكن الأرشفة ، بفضل هذا الإجراء من الاستفادة بالرخاء الاقتصادي للثمانينات ، فاستطاع الحصول على العديد من المنح القومية وزاد من قوة العمل لتصل إلى 23 فرداً ، غير أن تقدم الأرشفة البلدية كان بطيئاً في التسعينيات ، فقد نقص عدد العاملين به إلى 16 فرد بحلول أكتوبر 1996 والأسوأ من ذلك هو أن العقلية المقترنة لإدارة المحافظ رودلف جيولياني Rudolph W. Giuliani (انتخب عام 1993) استهدفت إدارة الوثائق وخدمات المعلومات (وربما الأرشفة نفسه) للاستغناء عنها ، ولكن لم يحدث شيء حتى الآن، وما زال الأرشفة البلدية حي يرزق .

وتقدر مقتنيات الأرشفة البلدية بـ 90.000 قدم مكعب ، وتشمل أوراق محافظي المدينة منذ خمسينيات القرن التاسع عشر وحتى الآن، وخرائط كوبري بروكلين والسنترال بارك، ووثائق مفصلة لعشرات الآلاف من المباني. وربما تكون من أقيم المواد بالنسبة للدارسين ووثائق الشرطة والمحاكم والملاجئ والتي توفر بيانات عن المهاجرين والعمال، وهي مادة لا غنى عنها بالنسبة للتاريخ الاجتماعي ، وقد اعتمدت العديد من أعمال التاريخ الاجتماعي الهامة على تلك الوثائق بشكل كبير، نذكر منها Georgoe Chauncey's Gay New York, Timothy J. Gilfoyle's City of Eros, and Elizabeth Blackmar and Roy Rosenzweig's The Park and The People . (١٦)

وعلى الرغم من أهمية الأرشفة البلدية كمصدر للدراسات ، فإنه لم يلعب دوراً مدنياً أكبر، (١٧) وربما كان أقرب الأوقات التي كاد الأرشفة أن يلعب فيها هذا الدور المدني كان إبان إدارة المحافظ جون لندساي John V. Lindsay 1973-1966 فقد كان من أحد أهداف إدارة لندساي إحداث توافق عرقي وإثني، وأرادت تحويل الأرشفة لمركز يمكن أن ينظم مؤتمرات ومعارض حول التعاون الاجتماعي، غير أن تلك الفكرة لم يتم تنفيذها خلال فترة إدارة لندساي، ولم تطف على السطح مرة أخرى في مدينة شهدت العديد من التوترات العرقية والإثنية .

إن عدم قدرة الأرشفة البلدية على لعب هذا الدور المدني تتخطى مجرد كونها مسألة مؤسساتية، ففي مدينة تعتمد فيها مختلف الجماعات الاجتماعية على الهوية التاريخية كجزء من عملية تنمية المصالح وتأطير العلاقات، لا يظهر إلا قليل حماس لأرشفة مركزي عام يتكلم باسم المدينة ككل ويمثل مصالحها العليا، وربما استطاع

أرشييف قومي أن يتغلب على القوة الطاردة المركزية للتشردم والتخصيصية، ولكن أرشيفا بلديا لا يستطيع ذلك .

وربما تتضح المشكلة بشكل أكبر في الناحية المعمارية ، فقد ظل مأوى الأرشييف البلدى لسنوات طويلة في مخازن، أو مبان إدارية بدون هوية، أو محاكم قليلة الأهمية ، ومنذ بضعة سنوات انتقل أخيرا إلى مقر على أحدث طراز في مبنى رائع فنيا في قاعة المدينة City Hall صمم لإيقاع هذا التأثير في نفس كل من يمر به. ويطلق على المبنى بشكل غير رسمي قاعة الوثائق، وهي ما يوحى للوهلة الأولى باعتراف بأهمية الأرشييف، ولكن هذا المسمى لا يتعلق، للأسف بالأرشييف، ولكن بمحكمة Surrogate's Court والدراية بوجود الأرشييف في نفس المكان تكاد تكون معدومة (١٨) .

الماضى اليوم

وتبدو التطورات الأخيرة غير مبشرة، فالعديد من الأرشييفات المهمة مثل الأرشييف البلدى لقيت تقليصا كبيرا في ميزانياتها وواجهت خطر الغلق ، وأكثر تلك المشاكل حدة تلك المتعلقة بالأرشييفات الخاصة للنخبة ، فأرشييفات الجمعية التاريخية لنيويورك والمكتبة العامة وجامعة كولومبيا تخدم عددا محدودا من الجمهور اقتصر بشكل كبير على جماعات اجتماعية بعينها. غير أن الوضع تغير بحلول الأربعينيات من القرن العشرين، حيث طغت الرأسمالية وأدت التغيرات في تركيب النخبة وهويتها إلى حرمان تلك الأرشييفات من دورها القديم كحراس على ذاكرة الطبقة العليا. غير أن الأمور في أرشييفى المكتبة العامة وجامعة كولومبيا كانت أفضل نسبيا حيث أمكنهما البحث عن مصادر جديدة وتمويل، وصادفهما نجاح نظرا لأنهما وحدتان من مؤسستين أكبر، مما أعطاهما مرونة في التعامل مع تلك المشكلة ، وقد حدث بهما الظروف إلى توسيع نطاق دورهما لجذب جمهور جديد ، لذلك فلا يزالان في حالة جيدة نسبيا حتى بعد تخفيض ميزانيتها.

وعلى العكس من ذلك كانت الجمعية التاريخية لنيويورك أكثر الثلاثة تصلبا في الإدارة ومحافظة في الناحية الاجتماعية ، وهي تمر الآن بمشاكل صعبة ، فهي تعاني

من المشاكل الجمة منذ أواخر الثمانينات وتواجه احتمال الغلق أو الضم لمؤسسة أخرى ، وعلى الرغم من أنها تمثل الحد الأقصى للمشكلة فإنها تشير أيضا إلى مساوئ التقاليد الأرشييفية لنيويورك ، فالجمعية ليست جزءا من مؤسسة أكبر، ومكتبتها لا تدعمها مقتنيات متحفية تهدي لها ولا محل عادات بيع الهدايا لصالحها ، وهي ليست مثل متاحف الفن أو متاحف التاريخ الطبيعي من ناحية أنها لا تتمتع بجاذبية الجمهور العادي، ولكنها تقتصر في جمهورها على الدارسين، والجماعات الصغيرة ذات الموارد المحدودة، كما أنها كانت بطيئة في الاستفادة من المنح التي أصبحت جزءاً من النظام التعليمي الجديد، والنتيجة أن الجمعية التاريخية أصبحت تعتمد بشكل أساسي على مواردها من الهبات التي يقدمها النخبة كما أنها لا ترى نفسها تاريخيا ، كما كانت من قبل؛ فبعد أن أصبح لها الآن تاريخ فإنها لم تعد تحتاج للسلطة التاريخية. وفي مدينة تعاني من الاختلافات الإثنية والعرقية، يصبح ارتباط الجمعية التاريخية بالامتيازات الاجتماعية المتوارثة نقطة ضعف عند محاولتها إعادة صياغة نفسها ، وعلى الأقل بالنسبة للجمعية التاريخية، فقد أصبحت الخصوصية مسئولية جسيمة، وهو مما يؤسف له، حيث أن مكتبتها تعتبر من أهم المصادر التي يمكن أن تساعد النيويوركيين على فهم تاريخهم^(١٩).

الهوامش

(*) أود أن أتقدم بجزيل الشكر لجين آشتون Jean Ashton ، وميري بز بولنج Mary B. Bowling ، وكينيث رز كوب Kenneth R. Cobb لتعليقهم على مسودة هذا المقال .

(١) سوف أتجاهل نوعيات كاملة من الأرشيفات بما فيها أرشيفات متاحف الفن، وأرشيفات المؤسسات العلمية والطبية ومستودعات الأفلام والفيديو والصور، والمؤسسات الدينية.

(٢) لقد اقتبست مصطلح تخصيصية الأرشيف archival privatism من فكرة التخصيصية التي ناقشها وارنر في S.B. Warner, Jr, The private City: Philadelphia in Three Periods of Its Growth, 2nd ed. Philadelphia, 1987xi-xii

(٣) M. B. Bowling, in The Encyclopedia of New York City, edited by K.T.Jackson New Haven, 1995 50 - 51 . وأحد المنظمات التي ترمى إلى التقليل من هذا التشرذم أرشيفيو المائدة المستديرة لنيويورك المتروبولية Archivists Round Table of Metropolitan New York والتي تأسست عام 1979. وتتعقد اجتماعات شهرية وورش عمل نصف سنوية، كما تمول الصحيفة السنوية Archives Week التي تنشر الوعي العام بمستودعات نيويورك 1, ART Newsletter, 1995 fall 1.

(٤) على الرغم من عدم وجود أرشيفات بالمفهوم الحديث للكلمة قبل القرن التاسع عشر، فإن الفوارق بين المكتبات والأرشيفات لم تكن دقيقة، فخلال الفترة الاستعمارية، كانت هناك مؤسسات مثل Trinity Church و New York Society Library التي ربما احتفظت بوثائق أصلية كجزء من مقتنيات مكتباتها، بيد أنه لم تكن هناك ممارسات أرشيفية، P. Dain, Libraries,' in Encyclopedia of New York City, 667-670 .

(٥) Washington Irving, Knickerbocker's History of New York (New York, 1809 ; rev. ed., New York, 1965) ; H.E. Mahan, "Histories," in The Encyclopedia of New York City, 548 - 549.

(٦) I. Rosenwaike, The Populetion History of New York City, (Syracuse, NY, 1972) 36. 16.36.38 - 36.

(٧) A. Nevins, ed. The Diary of Philip Hone, 1828-1851(New York, 1927)

(٨) of the Meetings of 20 November and 10 December 1804 Minutes of the New-York Historical Society,' vol. 1804-1837 microfilm edition, reel 1New-York Historical Society Archives; R.W.G. Vail, Knickerbocker Birthday: A Sesqui- Centennial History of the New-York Historical Society, 1804-1954 New York, 19543 - 45 E.M. Foshay New-York Historical Society,' in Encyclopedia of New York City, 832-3

Interview with Jean Ashton, Columbia University, 25 October 1995. (٩)

P. Dain, The New York Public Library : A History of Its Founding and Early years (١٠)
(New York, 1972), 96, 122-3; Interview with Mary B. Bowling, New York Public Library, 2 November 1995.

والمكتبة العامة في نيويورك هي شركة خاصة أنشئت عام 1895 من خلال اندماج مكتبتى أستور -
tor و لينوكس Lenox المستقلتين ، ومن ضمن المواد التى انتقلت للمكتبة العامة ، كان هناك مواد أرشيفية مثل
وثائق اللجنة الصحية الأمريكية U.S. Sanitary Commission.

Ashton interview; Interview with Robert Sink, New York Public Library, 14 November (١١)
1995; Bowling, "Archives", loc. Cit.

C. Hood, 722 Miles: The Building of the Subways and How They Transformed New (١٢)
York (New York, 1993) 162 -180 For the creation of Greater New York, see D.C. Hammack,
Power and Society: Greater New York at the Turn of the Century (New York, 1982)

Staten Island Historical Society, Research Facilities and Resources New York, n.d.); The (١٣)
Bronx Historian, v>19 (October-January 1996), G.D. Hermalyn, 'Bronx County Historical So-
ciety,' in Encyclopedia of New York City, 146: B. Shepherd, Staten Island Historical Society,
in Encyclopedia of New York City, 1118.: Queens Historical Society,' in Encyclopedia of New
York City, 971:E.M. Synder-Grenier, 'Brooklyn Historical Society,' Encyclopedia of New York
City, 157-158.

ويعتبر أكبر أرشيفات البوروهو أرشيف الجمعية التاريخية لبروكلين ، وهو قريب من نموذج الأرشيف
النخبوى الخاص ، وهو ما يتفق مع تاريخ بروكلين كمدينة مستقلة فى السابق ، وكان ذو هوية قوية ويتفق
أيضا مع أصول الجمعية نفسها. وقد تولى إدارة الجمعية فى ثمانينات القرن العشرين، ديفيد كاهن David
Kahn والذي بعث الحيوية والنشاط فى أوصال الجمعية بربطها بتاريخ بروكلين العام وبمجتمعاتها العرقية.
وفى عام 1985 أطلق على LIHS اسم الجمعية التاريخية لبروكلين إشارة لمهمتها الجديدة.

(١٤) أنشئ مركز الدراسات البورتوريكية The Center of Puerto Rican Studies فى هانتر كوليدج
hunger College مؤخرا أرشيفا. The Museum of Chinese in the Americas Bowling, Archives';
was previously known as the Chinatown History Museum. Bu Gao Ban (Winter 1-8 1996).

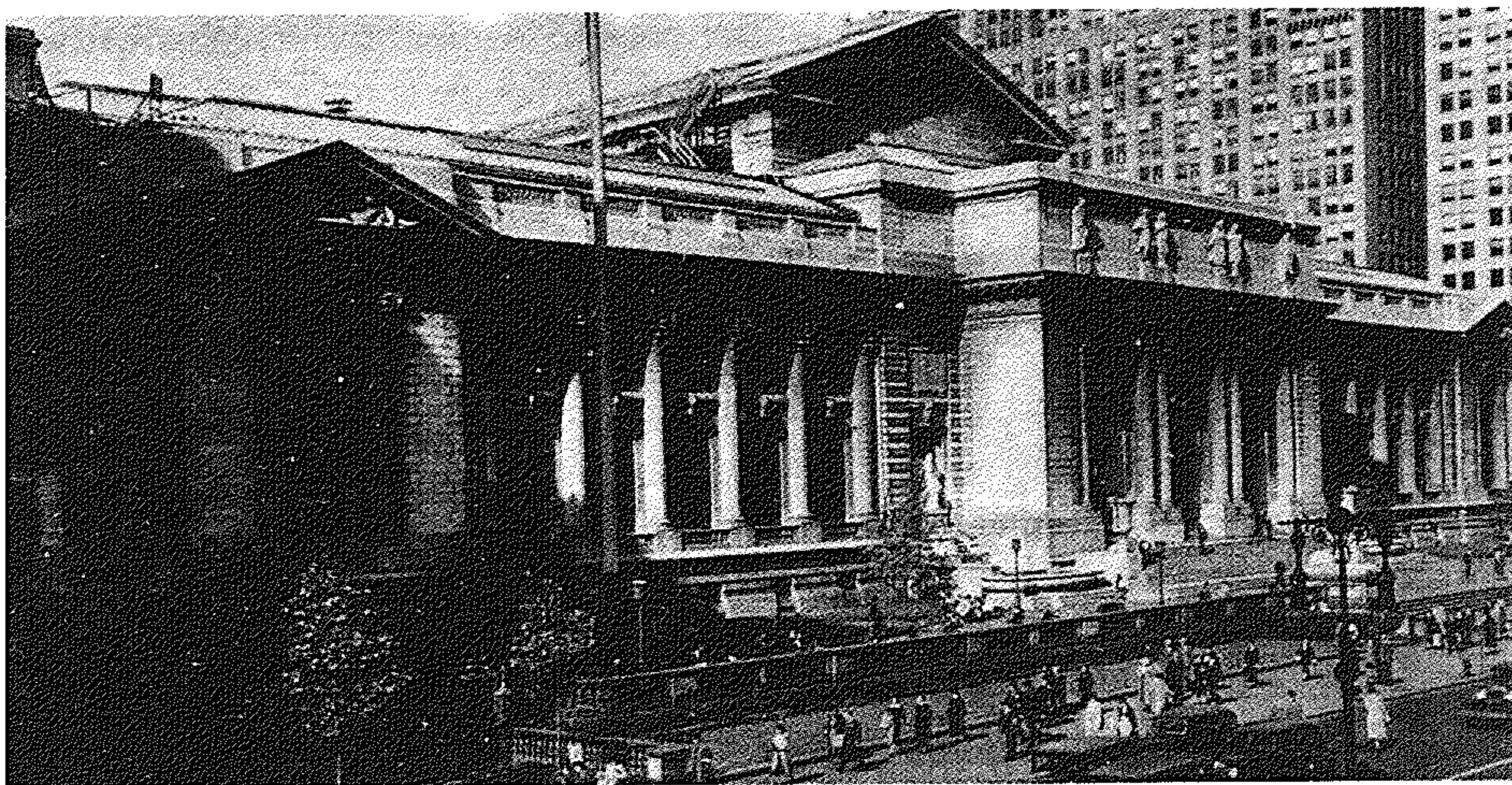
(١٥) لهذه الإدارة ثلاثة فروع : الأرشيف ، وقسم إدارة الوثائق ، ومكتبة المراجع البلدية ، ومن غير
المعتاد أن نجد أرشيفا لمدينة فى الولايات المتحدة وبالرغم من أن لفيلا ديفيا أرشيف مدينة ، وكذلك يجرى
إنشاء أرشيف لمدينة بوسطن، إلا أن معظم المدن تحتفظ بالوثائق الرسمية فى مكتب التوثيق الخاص بالمدينة،
أو فى إدارة بلدية مختصة، أو فى الجمعية التاريخية الخاصة بالولاية أو فى جامعة Interview with Ken
neth R. Cobb, Municipal Archives, NYCDORIS, 3 October 1995 .

cobb, Interview, 1995, Telephone interview with Kenneth R Cobb, 25 September (١٦)
1996, K.R CobbArchives,' in Encyclopedia of New York City, 780,G Chauncey, Gay NewYork:
Gender, Urban Culture, and the Making of the Gay Male World, 1890-1940 (New York, 1994),
T.J.Gilfoyle, City of Eros: New York City, Prostitution and the Commercialization of Sex,1790 -
1920 (New York1992) E.Blackmar and R. Rosenzweig,The Park and the People: A History of
Central Park (Ithaca, NY, 1992) .

(١٧) يرتاد الأرشيف البلدى سنويا 45000 مستخدم 80 بالمئة منهم من دارسى الأنساب، بينما
تتكون نسبة ال 20 بالمئة الباقية من الدارسين، والطلبة وفئات أخرى Cobb interview, 1995 .

(١٨) على الرغم من أن فرع الأرشيف القومى ليس له دور رمزى فى مدينة نيويورك فإنه يعتبر مصدرا
مهما للدارسين ومؤرخى الأنساب ، وهناك اقتراح قدم مؤخرا لنقل هذا الفرع لخارج المدينة، وهو ما يعتبر
خطة للوراء New York Times, 27July 1996 .

New York Times, 39 November 1995, Ashton interview; Foshay, New-York Histori- (١٩)
cal Society'.



شكل (١)

أرشيفات في شيكاغو

جون دالى

انضمت مدينة شيكاغو عام 1833 بعد تصويت اشترك فيه 13 مواطن من مجموع 350 نفس كانت تقطنها فى تلك السنة، وبالرغم من هذا التاريخ القصير، ومن حقيقة أن المدينة لم تكن أبدا عاصمة قومية ولا حتى عاصمة إقليمية سياسية، إلا أن النطاق المتروبولى الآن يضم 150 أرشيفا من مختلف الأشكال، ومن بين هذه الأرشيفات هناك 63 منها يمتلك قوة العمل والتمويل الكافيين للاحتفاظ بعضويته فى الجمعية الأمريكية للأرشيفيين Society of American Archivist ، بل وتحتضن شيكاغو المكتب التنفيذى لهذه الجمعية المهنية القومية^(١).

وتحتوى هذه المستودعات على 24 أرشيفا لهيئات دينية، و12 لشركات أعمال، و10 لجامعات أو كليات، و8 لمؤسسات طبية، و7 لمؤسسات ثقافية، و5 لهيئات حكومية، والتي كان يتوقع أن تكون هى الأكثر عددا، وأرشيفات المؤسسات الدينية تشمل الأرشيفات الضخمة للأرثوذكسية الرومية الكاثوليكية لشيكاغو، وحوالى 18 مستودعا ذا طبيعة دينية، وأرشيف الكنيسة الإنجيلية اللوثرية فى أمريكا، والكنيسة البرسبيتارية الثانية، وكنيسة برثرن، ومؤسسة مودى بايبل Moody Bible Institute، وأرشيف البهائية القومية National Baha'i.

وتشمل أرشيفات شركات الأعمال فى شيكاغو أرشيفات موتورولا Motorola، ونافيستار إنترناشونال Navistar International (إنترناشونال هارفستر International Harvester سابقا)، وكرافت فودز Kraft Foods، وشركة وريجلى Wrigley Company، ومعامل أبوت Abbott laboratories، والمؤسسة المعمارية سكيدمور Skidmore، وأونجز وميريل Ow-ings and Merrill، وأميريتك كوربوريشن Ameritech Corporation، ومؤسسة الإعلانات ليو

بورنت وشركاه Leo Burnet and Co.، وشيكاجو مركانتيل إكستشينج Chicago Mercantile Exchange، وناشونال أسوسيشن أوف ريلتورز National Association of Realtors وناشونال ليفستوك أند ميت بورد National Livestock and Meat Board، وأخيرا وليس آخرا مؤسسات بلاي بوي Playboy Enterprises.

بينما تضم الأرشيات الأكاديمية أرشيات جامعة شيكاغو، وجامعة نورثوسترن Northwestern، وجامعة إلينويس Illinois بشيكاجو وجامعتي يدي بول ولويولا DePaul and Loyola بشيكاجو، وويتون كوليدج Wheaton College، وإلينويس بنيدكتن كوليدج -Illinois Benedictine College، وجامعة نورثايسترن إلينويس Northeastern Illinois.

وتشمل مستودعات الوثائق الطبية في المدينة وثائق مستشفى كوك كاونتي Cook County، و مستشفى نورثوسترن ميموريال Northwestern Memorial، ومستشفى روش برسبيتران سانت لوك Rush-Presbyterian-St. Luke، والجمعية الطبية الأمريكية -Ameri-can Medical Association، وجمعية طب الأسنان الأمريكية American Dental Association وكلية الباثولوجيين الأمريكيين College of American Pathologists، وجمعية ممرضات التخدير الأمريكية American Association of Nurse Anesthetists.

وقد تنامت المؤسسات الثقافية خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة وعياً بأهمية ملفاتها الإدارية التي تستحق الاهتمام البحثي بوصفها عوامل مؤثرة في الحياة الفنية والفكرية، بالإضافة للوثائق الخاصة بحفظ الكنوز التي تضمها تلك المؤسسات، فلدينا الآن أرشيات معهد الفن بشيكاجو Art Institute of Chicago، وأوركسترا شيكاغو السيمفوني Chicago Symphony Orchestra، ومكتبة نيوبري Newberry Library، ومتحف العلم والصناعة Museum of Science and Industry، ومكتبة شيكاغو العامة -Chicago Public Library، والمجموعة العظيمة للجمعية التاريخية بشيكاجو Chicago Historical Society.

وتشمل أرشيات المؤسسات الخاصة أرشيات مجلس التعليم بشيكاجو Chicago Board of Education، وشيكاجو بارك ديستريكت Chicago Park District، وسيركويت كورت أوف كوك كاونتي Circuit Court of Cook County، والفرع الرئيسي بشيكاجو للأرشفة القومي الفدرالي وإدارة الوثائق the major Chicago Branch of the federal national Archives and Records Administration، ومستودع إقليمي لأرشفة ولاية إلينويس Illinois.

State Archives في جامعة نورث إيسترن إلينويس Northeastern Illinois University، وتضم الوثائق ذات القيمة الأرشيفية والخاصة بالمكاتب الحكومية لمدينة شيكاغو وكوك كاونتى المحيطة بالمدينة.

بالإضافة إلى ذلك تضم العديد من تلك المستودعات مجموعات أرشيفية تستحق أن تحفظ في مؤسسات خاصة بها، فمعهد الفن يئوى المكتبة المعمارية الضخمة لدانييل بورنهام Daniel Burnham، فى حين يحتفظ أرشيف مستشفى نورث وسترن ميموريال Northwestern Memorial Hospital بالمواد الخاصة بـ 20 سلف لها ومستشفى توقفت عن العمل ومعهد تعليم طبي، وتحتوى مكتبة نيوبيرى Newberry Library على أرشيف شركة بولمان العتيق، ويسكن 2700 قدم طولى من الأوراق الخاصة بمجلس التجارة بشيكاغو Chicago Board of trade فى الفترة من 1850 إلى 1980 فى مكتبة جامعة إلينويس بشيكاغو، فى حين تحتفظ الجمعية التاريخية بشيكاغو ضمن مجموعات الأوراق الشخصية بالبقايا الأرشيفية للمنظمات العامة التى كان واهبو تلك الأوراق أعضاء بها.

وأود أن أشير إلى بعض السمات العامة المهمة لتلك المجموعة من الأرشيفات، فهي أولا أصبحت ظاهرة مؤخرا، فقد ظهرت تلك الأرشيفات التى نراها فى شيكاغو اليوم أساسا بعد الحرب العالمية الثانية وهى أبناء - أو أحفاد - جهود بدأتها الجمعية التاريخية الأمريكية American Historical Association عام 1893 لتأسيس أرشيفات عامة على النموذج الأوروبى؛ فقد تأسست الجمعية التاريخية بشيكاغو عام 1856، ولكنها بقيت حتى ستينات القرن العشرين، طبقا لأحدث مؤرخيها، فرعا للجمعية التاريخية الأمريكية فى شيكاغو وليست جمعية تاريخية مستقلة لشيكاجو^(٢).

والملاحظة الثانية هى أن تلك الأرشيفات هى مستودعات 'خاصة' وليست للوثائق العامة، فمن بين الأرشيفات التى يربو عددها على الستين التى ذكرناها آنفا، هناك 58 منها يخص المؤسسات الدينية، أو التجارية، أو الأكاديمية، أو الثقافية، وتكمن أهم مصادر تلك الأرشيفات فى الجامعة والجمعية التاريخية لولاية وسكونسن Wisconsin، وقد أسهم فى تشجيع تكوين المستودعات غير العامة فى شيكاغو التقليد الذى اتبعته الجمعية طويلا والمتمثل فى جمع المخطوطات التاريخية الخاصة من المناطق الوسطى فى أمريكا وإسهاماتها فى تعليم طرق الحفظ (إلى جانب موقعها الجغرافى)، وقد أظهر مديرو المؤسسات الخاصة اهتماما أكثر بقليل بالدراسات التاريخية من زملائهم فى

المؤسسات العامة (كما سوف نرى)، وصدروا في إنشاء الأرشيفات عن دوافع تتعلق بالمكانة المؤسساتية، وقد تلقى العديد من الأرشيفيين العاملين في المدينة اليوم تدريبهم الأكاديمي في جامعة ماديسون.

والملاحظة الثالثة هي أنه من بين الأرشيفات الخمسة العامة في شيكاغو، أنشئ أحدها بواسطة الأرشيف القومي وآخر بواسطة أرشيف ولاية إلينويس والثلاثة الباقين مشروع أرشيفات الولاية، فلم تنشئ شيكاغو ولا ولاية إلينويس أرشيفا خلال القرن التاسع عشر، وقد قامت المدينة نفسها بمحاولات ثلاثة لتأسيس أرشيف بلدى في القرن العشرين في 1908 ، و 1962، و 1978، وفشل كل منها في خلال عام، ولا يوجد الآن مستودع يعين موظفوه أو يمول من قبل مدينة شيكاغو أو كوك كاونتى.

اسمحوا لى أن أستطرد هنا وأقتبس قول إرنست بوزنر Ernst Posner الذى كان رأيه في عام 1939، أن التطور الأرشيفي الأمريكي كان على العكس من نشأة الأرشيفات في أوروبا والتي كانت نتيجة للدور الحكومي، فإنها في أمريكا كانت استجابة لـ .. الطلب المستمر لعالم الدراسات^(٣) وأضيف رأيي الشخصي وهو أن الحكومات الأمريكية لم يكن لها إلا القليل لتفعله في تأسيس الأرشيفات على الرغم من القرارات التشريعية الرسمية، بل وأذهب إلى التأكيد على أن رؤية د. بوزنر للوضع عشية الحرب العالمية الثانية مازال ينطبق على شيكاغو في عقد الثمانينات.

عندما دُعيت في البداية لتقديم ورقة عن الاستعدادات الخاصة لأرشيفات متروبول في أمريكا الشمالية، ربما أكون قد أسأت فهم المطلوب مني، ففهمته على أنه ماذا فعلت مدينة شيكاغو لإنشاء أرشيف عام؟ وكان أول رد فعل لى هو الامتنان لمهمة لن أبذل فيها مجهودا كبيرا، فالإمكانات التي قدمتها الحكومات لمدينة أمريكا الشمالية للحفاظ على الوثائق الأرشيفية غير ذات بال، ومنذ 25 سنة كان يمكن لمؤرخ المدن الأمريكي سام باس وارنر جونير Sam Bass Warner Jr. أن يستخدم عبارة لنكولن ستيفنس Lincoln Steffens "عار المدن" The Shame of the Cities ليعنى بها ليس الفساد في الإدارة المحلية الذي وصفه ستيفنس عام 1904، ولكن الإهمال الذي تمارسه المدن الأمريكية تجاه توثيقها الإدارى حتى أخريات القرن العشرين^(٤)، وهذا الإهمال على مستوى

الإدارة المحلية فى السنوات الأخيرة ما هو إلا جزء من عدم اهتمام قديم ومستمر بالمادة الأرشفية على كل مستويات الإدارة الحكومية فى الولايات المتحدة.

فقد قررت لجنة من الكونجرس عام 1810 أن "الوثائق الفدرالية العامة فى حالة من الفوضى والسوء البادى، وفى وضع ليس بالأمن أو الملائم أو الكريم بالنسبة للأمة"، ولم تكن المشكلة قاصرة على المستوى الفدرالى، ففى عام 1832 لاحظ ألكسيس دى توكفيل Alexis de Tocueville نفس الوضع بين موظفى المدن والولايات أيضا.

لم تتكون أرشيفات ولم تجمع الوثائق معا حتى عندما يسهل القيام بذلك، عندما يتصادف أن يكونوا لدى شخص ما لأنه لا يبالى بحفظهم، ومن بين أوراقى لدى وثائق أصلية أعطاها لى موظفون عموميون كإجابة لبعض تساؤلاتى.

وتؤكد الدراسات أنه لم تتخذ أى خطوات رسمية لمعالجة هذا الوضع طيلة قرن من الزمان^(٥)، لقد بدأ التحرك من أجل إيجاد ممارسة أرشفية محترفة فى الولايات المتحدة بعد تأسيس الجمعية التاريخية الأمريكية (AHA) American Historical Association فى واشنطن عام 1884، ولن أصف هذا التحرك نجاحه المتوقع عام 1934 بإنشاء الأرشيف القومى، حيث أن هذا الموضوع قد تمت تغطيته بشكل كاف فى أعمال إتش جى جونز H. G. Jones، وبونالد آر ماكوى Donald R. McCoy وفيكتر جوندوس جونيور Victor Gondos, Jr.^(٦) ولكنى سأكتفى فقط بأن ألفت الانتباه إلى جانب واحد من القصة - الرأى الذى كونه جى فرانكلين جامسون J. Franklin Jameson عن العملية، والصورة التى ترى دائما فى الواجهة حول المجهود المبذول لإنشاء الأرشيف القومى والممتدح كثيرا لنجاحه، فقد تنبه مبكرا عام 1908 إلى الحقيقة المؤسفة وهى أنه بينما لا زالت الوثائق العامة (حتى تلك التى أشارت الجمعية التاريخية الأمريكية لوجودها فى مستودعات) فى أيدي البيروقراطيين الأمريكيين، لو ظهر لحيز الوجود مبنى للأرشيف القومى... فسوف يكون الدافع الأصغر لوجوده نداءات المؤرخين، جمهور قليل التأثير نسبيا، والدافع الأكبر... ضغط المديرين، المهمومين... بزيادة عدد الملفات، وقد ظهر للوجود بالفعل بتمويل من مجموعة المخضرمين فى رابطة المحاربين القدماء الأمريكية American Legion (والتي كانت متعطشة لإنجاز على مستوى العلاقات العامة)، وبالموافقة على فاتورة ضخمة للأعمال الفدرالية العامة سنة 1926، والتي أعطت لأعضاء

الكونجرس نسبة ضخمة لمناطقهم، وحملت مبنى الأرشف القومى على أمواج كرمها^(٧).

وقد حمل لواء القضية الدارسون فى إلينويس عام 1906، فقام أعضاء الجمعية التاريخية الأمريكية كلارنس ونتورث ألفرد Clarence Wentworth Alvord و تيودور كالفن بيز Theodore Calvin Pease من كلية التاريخ بجامعة إلينويس، والمنتمين أيضا للجمعية التاريخية بإلينويس، بجهود شملت دراسات مسحية مستفيضة للوثائق العامة ووثائق الولاية، وتضافرت معهما جهود الجامعة والجمعية التاريخية مما أدى لنشأة أرشف ولاية إلينويس عام 1921.

غير أن الموظفين العموميين لم يشكلوا جزءاً من هذه الحركة، كما أن لجان التخصيص لم تقتنع بأن عليها أن تدعم مثل تلك الهيئة الجديدة الغريبة، وكانت استجابة أول مديرة للأرشف - مارجاريت كروس نورتون Margaret Cross Norton- متمثلة فى هيكلتها للأرشف على أنه الذراع المساعدة للوظائف الإدارية بالولاية، تلك الذراع التى تقدم حفظاً مقبولا من الناحية القانونية للوثائق، وسرعة ودقة استرجاع الوثائق، والتخلص من الوثائق المكررة. ولم يقلل ذلك من قيمة الأرشف كمصدر للدراسة التاريخية، وقد تلقت مارجاريت نورتون تدريبها فى قسم التاريخ بجامعة شيكاغو، ولكنها صاغت العمليات الأرشفية فى شكل يمكن للقادة السياسيين أن يفهموه وبالتالي يمولوه^(٨).

لقد أطلت فى هذا الموضوع الجانبى الخارج عن موضوع أرشيفات شيكاغو لأنه يوضح رأى بوزنر القانع بالأصول الأكاديمية للأرشفات العامة الأمريكية، ونظرتى القائمة على أن السلطات العامة على المستوى الفدرالى وعلى مستوى الولاية كانت قليلة الاهتمام بإنشائها، وأن هؤلاء الموظفين لم يقوموا إلا بالموافقة على الطلبات الخارجية المتعددة بإنشائها ولم تكن كلها أكاديمية، وأنه بالتالى حتى الأرشفات العامة الأمريكية تشترك فى جذورها مع الأرشفات الأخرى العديدة فى الولايات المتحدة والتى نشأت بدوافع خاصة - فهى كلها أرشفات خاصة إلى حد بعيد، وأن انتشار هذه النوعية من الأرشفات فى شيكاغو ليس شذوذاً عن القاعدة بأى حال من الأحوال.

فى عام 1976 بدأ أرشيف الولاية برنامجا لتوفير الرعاية والاستخدام البحثى للوثائق ذات القيمة العالية فى كاونتيات ومدن إلينويس، بما فى ذلك ما يتعلق منها بشيكاجو، وقد استهدف المشروع نقلها إلى مستودعات مدعمة بقوة عمل فى حرم سبع جامعات عامة فى الولاية، وقد أنشئت ستة مستودعات دفعة واحدة عام 1976، واحتوت خلال عشر سنوات على 5000 قدم مكعب، و 6800 لفافة ميكروفيلم لمواد بحثية من 95 كاونتى من إجمالى 102 بالولاية، ولكن لم تحتوِ على شىء من كوك كاونتى أو شيكاجو.

ولم يكن من عجب أن النظام الذى نجح فى المناطق الريفية فى الولاية لم يكن ليتلاءم بسهولة مع شيكاجو، فالصعوبات هناك كانت ثقافية وإجرائية، وكان أعظمها تلك الاستقلالية التى تتمتع بها المدن فى الولايات المتحدة عن توجيهات السلطات الفدرالية أو سلطات الولاية، ووضعها كـ 'مدن فى الجمهورية' بعبارة أمى بريدجز Amy Bridges، أو عضويتها فى 'أمة المدن' بعبارة روبرت ويب Robert Wiebe⁽⁹⁾، والنتيجة المباشرة لتلك الحقيقة هى أن المدينة لا تعطى أى اهتمام لتشريعات الولاية المتعلقة بالوثائق العامة، أضف إلى ذلك أن الوكالات العامة للمناطق كانت تمول من أجل استئجار أماكن تخزين، وكل الوثائق الزائدة أو القديمة كانت تنقل لتلك الأماكن، ولم يفكر أحد فى إجراء عمليات الفرز والإعدام والاستبقاء عليها، وقد قرر المديرون هناك أنهم لا يرون حاجة لوجود خدمة أرشيفية، هكذا بكل فظاظه، كما أنهم أيضا لم يأبهوا بالحجة القائلة بأن مثل هذا الإجراء سوف يريحهم من طلبات المؤرخين بالتعامل مع وثائقهم، فهى ببساطة لا تسمح للمؤرخين بالاطلاع عليها، ولا تجد فى ذلك أى غضاظة، باختصار كان هناك أبواب موصدة قوامها عدم الاكتراث - نفس القصور الثقافى الذى نجتليه فى واشنطن عام 1908 وسبرنجفيلد عام 1922.

يعود الفضل لخروج شيكاجو وتلك المدن الأخرى من هذا المأزق لعوامل غير أرشيفية، وكان طبيعيا أن يكون مصير نظام يراكم الوثائق بلا نهاية هو الانهيار المحتم، وهو ما وقع بالفعل عام 1982، فقد واجه مجلس التعليم بشيكاجو إفلاسا مفاجئا فبدأ التخطيط لترك مقره الضخم فى شيكاجوز لوب Chicago's Loop، ولكن المبنى كان يحتوى على عدد من الوثائق لم يكن فى استطاعة العاملين بالمجلس حتى أن يحدوه، فكان الترحيب بيد الأرشيف الممتدة للمساعدة، وكان من بين الـ 26000 قدم

مكعب من المادة التي تم إحصاؤها وجدولتها وتقرير حفظها أرشيفيا مواد ترجع لتاريخ إنشاء المجلس عام 1840، ونجت من الحريق الهائل الذي شب في شيكاغو عام 1871 ولم تصب بسوء.

وقبل أن ينتهى العمل قام عمدة جديد وغير متوقع للمدينة بإصدار أول قرار له بعد تولى منصبه الجديد، وكان قرارا تنفيذيا يقضى بحرية المعلومات، ويلزم كل هيئة بإعداد قائمة بوثائقها وإتاحتها للجمهور، وقد أثار هذا القرار الذعر في أوساط مديري الوثائق الفارقة في سبابتها في شيكاغو، ودعا العاملون بالأرشفة لاجتماعات مع قيادات تلك الهيئات وأوضحوا أن جداول الحفظ والإعدام التي أبدوا استعدادا لإعدادها لمكاتبهم يمكن أن تفي بمتطلبات القوائم التي يتناولها القرار، وقبل هذا العرض، كما تطوع موظفو الكاونتى بالتعاون أيضا. وفي خلال ثلاث سنوات أفرز المشروع 475 جدولاً للأقسام والمكاتب التي احتوت على 514559 قدم مكعب من المادة الوثائقية، وأنجز العمل عام 1987 عندما وافقت جامعة نورث إيسترن إلينويس على أن تكون هي مستودع المادة الأرشيفية المكتشفة في المدينة والكاونتى^(١٠).

وبعد هذا الاستعراض للمؤسسات ماذا يمكننا أن نقول عن مجمل النشاط الأرشيفي في شيكاغو؟ يتمسك الأرشيفيون بأن هدفهم الأول هو خدمة البحث التاريخي الأصيل، وقد أدى أرشيفيو شيكاغو هذا الدور بفاعلية، فقد أولى الباحثون عنايتهم بهذه المدينة أكثر من أى مدينة أخرى في الولايات المتحدة^(١١). فقد ظهرت خلال الأعوام القليلة الماضية، على سبيل المثال، سبعة أعمال على الأقل قيّمة قام بها دارسون استخدموا المادة الأرشيفية في شيكاغو ومنطقة الولاية: Ross Miller, Ameri- can Apocalypse: The Great Fire and the Myth of Chicago and the Great West (1991) وقد حصل على جائزة بانكروفت Bancroft Prize لعام 1991 Robin Einhorn, Property Rules: Political Economy in Chicago, 1833 - 1872 (1991); Carl Smith, Urban Disorder and the Shape of Belief (1995), Karen Sawislak, Smoldering City: Chicagoans and the Great Fire (1996), Donald L. Miller, City of the Century: The Epic of Chicago and the Making of America (1996), and Leslie J. Reagan, When Abortion was a Crime: Women, Medicine and Law in the United States, 1867-1973 (1997)^(١٢).

وقد استخدمت الأرشفات في شيكاغو في السنوات الأخيرة بشكل متزايد في أغراض التاريخ العام، وفي دراسات تقع خارج نطاق البحث الأكاديمي التقليدي وفي مجالات التاريخ الأثري وتاريخ الحفظ، والأعمال العامة مثل تنمية المجتمع وتنمية الأحياء، وما يتعلق بها من حركات وتطورات اجتماعية وعرقية.

ومع اتساع دائرة الاهتمام تتسع دائرة المستخدمين، ومن أوضح الأمثلة على ذلك تلك المشاركة السريعة والمتنامية لتلاميذ المدارس الثانوية في أشكال التاريخ المحلي في برامج مركز مترو لتعليم التاريخ Metro History Education Center، وحتى المؤرخين التقليديين أنفسهم بدأوا في توسيع نطاق أعمالهم لتشمل جوانب أوسع ثقافياً، كما نجد في مؤلفات ويليام كرونون William Cronon وكارل سميث Carl Smith التي ذكرناها في فقرة سابقة، وقد أثارت تلك الأعمال الحاجة لاستخدام المصادر الأرشفية بشكل لم يكن شائعاً في السابق نظراً لعدم اعتياد الدارسين عليه، وعدم إتاحتها، أو ببساطة لاستحالة الوصول إليها - وهي مشاكل استجاب لها بفاعلية أرشيفيو شيكاغو في السنوات القليلة الماضية، باتخاذهم إجراءات مثل تحسب كل الوثائق المهمة ووثائق بيع الأراضي في منطقة المدينة، وبفهرس مفصل لملفات مجلس مدينة شيكاغو من سنة 1833 وحتى 1872 (والتي كان يعتقد حتى اثني عشر عاماً مضت أنها فقدت في الحريق الكبير عام 1871)، وأقراص مدمجة تحمل ملفاتها الصحف والوثائق العامة المتعلقة ببرنامج Metro History، والكشف عن وفتح ملفات محاكم مثل محكمة الأسرة Family-Court ومحكمة القيم Morals Court والتي استخدمت في أوراق بحثية تقدم بها طلبة دكتوراه في جامعة شيكاغو في الاجتماع السنوي لمنظمة المؤرخين الأمريكيين - Organization of American Historians في مارس 1996.

إن هذا الحجم من الإنجاز لجدير حقاً بالثناء؛ على الرغم من أنه وظيفة أرشفية في المقام الأول وجرت العادة على أن نتوقعه، وفي نفس الوقت هناك مجال طلب كان الاهتمام به أقل في مستودعات المدينة (وفي المستودعات عبر الولايات المتحدة) وهو في الواقع مجال أكثر نشاطاً من التاريخ التقليدي وفروعه الجديدة وهو دراسة الأنساب، وكان أول من لفت النظر لتلك الظاهرة في أدبيات التخصص أحد أعضاء المجتمع الأرشفية في شيكاغو منذ خمس سنوات (وأيضاً للمتاعب التي سببها لبعض

الأرشيبيين^(١٣)، لقد ذكرنا آنفا سبع دراسات تاريخية استخدمت المصادر الأرشيبية في شيكاغو في السنوات الست الماضية، وفي نفس هذه الفترة بلغ عدد الخدمات المرجعية التي قدمها أرشيف ولاية إلينويس ومستودعه بشيكاغو 606000 كان من بينها 400000 أو الثلثين تقريبا قدمت لدارسى الأنساب، وهناك حوالي 33% من الثلث الباقي كانت معظمها مقدمة لهيئات حكومية، ثم لمحامين، ثم لمن يقومون بدراسات مسحية، وجاء الباحثون التاريخيون من ناحية العدد في ذيل القائمة.

نفس الوضع ينطبق على ال 180000 خدمة مرجعية التي يقدمها كل عام فرع الأرشيف القومى بشيكاغو، وقد وصل الطلب على خدمات دراسة الأنساب فى الجمعية التاريخية بشيكاغو حداً دفع تلك المؤسسة إلى العمل بالفعل على دفع المستخدمين للإحجام عنه^(١٤)، وقد أوضحت دراسة أجريت عام 1990 على مستخدمى الأرشيف القومى فى واشنطن أن دراسة الأنساب كانت إلى حد كبير هى الموضوع الوحيد للطلبات المقدمة لها، حيث تمثل 83% من إجمالى عدد المترددين على حجرة البحث فى الميكروفيلم، أو أكثر من 47000 فرد سنوياً، وأنها كانت تمثل موضوعات نصف المراسلات التى يتلقاها الأرشيف كل عام والبالغ عددها 300000. وفى نفس الوقت أوضح التقرير أن 'سدس الباحثين (15%) من العاملين بالبحث الأكاديمى فى أى من مستوياته^(١٥)، وفى ولاية إلينويس هناك على الأقل 35000 شخص منتمين رسمياً إلى 119 جمعية للأنساب، 34 منها تقع فى منطقة شيكاغو، وقد قدرت دراسة أجريت عام 1995 لحساب مجلة أميريكان ديموجرافيكس American Demographics عدد المقيمين فى الولايات المتحدة والمهتمين 'بشكل كبير' بهذا المجال بحوالى 19000000 من إجمالى من شملهم الاستطلاع والبالغ عددهم 113000000 لديهم بعض الاهتمام بهذا الموضوع^(١٦).

وبالإضافة إلى كثرة عددهم فإن دارسى الأنساب يتميزون بالحيوية والقدرة على التكيف فى استخدامهم للمادة الوثائقية، وقد يرجع حماسهم إلى قلة التعقيد فى ممارستهم البحثية، ولكن نتيجتها هو زيادة الطلب على الوثائق لأى معلومة يمكن أن تقدمها، وهو ما نجم عنه فى بعض الأحوال اختراق للحواجز البيروقراطية العتيقة، (فقد كان تنافسهم مع حفظة الوثائق حيويًا وملحوظًا وعادة ما كان يكلل بنجاحهم)، وبالإضافة إلى استخدامهم الكامل للمصادر التقليدية مثل وثائق المواليد والوفيات

والزواج وإثبات صحة الوصية نجدهم يتجهون بدون تردد إلى مواد مثل كشف مرتبات العمال، والعرق، وتصاريح الحانات، وعقود تدريب الأيتام، ومسح الأراضي الزراعية، وإجراءات إثبات العرق. وقد توسع أيضا الباحثون الأكاديميون في السنوات الأخيرة في مجالات طلبهم لتشمل مصادر غير مستخدمة من قبل، يحفزهم على ذلك اتجاهات المنظرين التي ترى وجود شروح لما كان يمكن أن يكون عليه التاريخ، ولكن دارسى الأنساب فعلوا ذلك بدون توجيه أو نصح منهم.

لقد وصف إرنست بوزنر دراسات الأنساب في أمريكا منذ 57 سنة بدقة بأنها دراسة "لم يعتد الأوروبيون الاهتمام بها.. فقام بها .. المجتمع النسوي.. كأحد موضوعات الطموح الاجتماعى لتتبع الجذور حتى المستعمرين الأوائل"^(١٧) غير أن هذا الوضع قد تغير بشكل كبير؛ فمجال الدراسة قد اتسع الآن وتغير الهدف منها، وانضم إلى من يمارسونها الذكور والنساء (لقد التقيت مؤخرا بمجموعة من الأشخاص شديدي التباين في خلفياتهم يدرسون معا أساسيات الصناعة اليدوية في فصل أنشأه اتحاد عمال الصلب)^(١٨). ويبدو أن نقطة التحول وقعت منذ حوالي عشرين عاما عندما نشر أليكس هيلي Alex Haley "الجذور Roots" والتي صور فيها كيف يجب ألا تقتصر دراسة الأنساب على الأثرياء وعلى الجموع الاجتماعى، ودلل على وجود مادة أرشيفية تمكن الخلف (حتى من أكثر المحرومين من الامتيازات « العبيد ») من تتبع ماضى عائلاتهم.

ولا تقتصر اليوم مهمة مؤرخى العائلات على مجرد تتبع أسلاف ماى فلاور، والتي تعتبر الآن مهمة غير ذات جدوى ولا أهمية، إنهم اليوم يتتبعون جذور أسلافهم أيا كان ما تقودهم إليه الوثائق، ولا يترددون فى السعى إن أدى بهم ذلك للبحث فى أرشيفات الجامعات، والإصلاحات، والكونجرس، وملاجئ المعاقين ذهنيا، وجانبى الحرب الأهلية، والثراء والفقر، وأى جمعية عرقية أو دينية أو أى مكان على ظهر الأرض. لقد طغت الدقة الشديدة على الدراسات التاريخية الأكاديمية الأمريكية فى الوقت الحالى، وربما مازالت الدوافع وراءها محل جدل، ولكن حضورها فى دراسات الأنساب الأمريكية حضور قوى لا يمكن إنكاره، فالباحثون فى تواريخ الأسر يمكن وصفهم بالمصطلح الثقافى بأنهم ديمقراطيون متفردون، وبتعبير أبسط هم نشطون وكثيرون.

فالنشاط البحثي في التاريخ وفي الأنساب إذاً نشط في شيكاغو، وتعكس أرشيفاتها والدعم المقدم لهذا العمل مدى نجاح القائمين على هذه الأرشيفات ومدى سرور من يراقب هذا العمل، ولكن هل يعنى كل هذا النشاط في مجمله شيئاً أكثر من ذلك؟ وهل لنا أن نجد دلالة أوسع في حقيقة أن كثيراً من الأرشيفات وبالذات الخاصة منها يغشاها زوار من مختلف النوعيات؛ فتقدم لهم الإجابة الشافية عما يبحثون عنه، في مدينة كانت سمة أهلها في الماضي (عدا بعض التمجيد لويندى سيتي Windy City) قلة الاعتناء باستكناه التاريخ القصير لمدينتهم؟

ويذكرني ذلك بالدراسات التي وصف فيها كينيث جاكسون Kenneth Jackson الأمريكيين في كتابه "The Crabgrass Frontier and Silent Cities" بأنهم قوم يسيحون في الأرض على غير هدى، متخففين من ماضيهم، تاركينه وراءهم مع بيوتهم ومقابر أسلافهم. ويرى البروفيسور جاكسون أن الدافع الحالى لهذه السياحة هو العنصرية الأمريكية وأنماط تمويل المساكن التي طورتها سلطات العمران الأمريكية، وأدلتها على ذلك مقنعة، بيد أن الأمريكيين قد ذاع صيتهم في الضرب في الأرض ونسيان الماضي منذ وقت طويل، وقد كان ذلك واضحاً لألكسيس توكفيل منذ 165 سنة مضت: بين الأمريكيين "لا أحد يعبأ بما يحدث في زمنه"، وتؤكد دراسة حديثة قام بها روبرت ويب قصة هذا الزمن "الأمريكيون دائمو الانتقال... ودائمة التحلل هي أسرهم.. (و) مدنهم.. دائماً ينفصلون عما حولهم بضغط سرعة إيقاع الحياة اليومية"^(١٩). فإن صح ما ذهب إليه دى توكفيل وباكسون، فماذا إذن يعنى ذلك بالنسبة لعلاقة النشاط الأرشيفي في شيكاغو وفي الولايات المتحدة بتلك الآراء؟

والإجابة على هذا السؤال هي أن هناك عدداً هائلاً من الأمريكيين يبحث عما يملأ هذا الفراغ الثقافي والتاريخي، هل هذا الزعم مبالغ فيه؟ لقد كان بالفعل منذ ثلاثين عاماً، في ضوء السلوك العام حتى هذا الوقت الذي رصده المراقبون بوضوح، ولكن هناك عقدين من الزمان نشطت فيها أبحاث تاريخ العائلات على نطاق واسع منذ ذلك الحين، هل هذا النوع من الأبحاث ليس بالجدية الكافية، كما يصفه العديد من الأرشيفيين؟ لقد استخدمت تلك الأبحاث أكثر الوثائق رسمية في مجموعاتهم، وهل تقوم به مجموعات ترمى فقط إلى إعلاء الوضع الاجتماعي لأفرادها؟ لم تعد الحال

كذلك، هل هؤلاء الباحثون ليسوا من المدربين أكاديمياً؟ إنه سؤال لا يستحق المناقشة على أرض الواقع، فهذه الأبحاث يقوم بها عدد كبير ومتزايد من المواطنين المختلفين في وضعهم الاجتماعي، وطبقاً لتحليل أجراه الأرشفة القومية "ليس هناك أكثر عمومية من تلك (الغالبية) من الباحثين التي تشق طريقها" إلى موقع البحث الأولى في تاريخ العائلات في تلك المؤسسة^(٢٠).

إن مثل تلك الدراسات لن تقدم "حلاً" لانعدام الجذور الأمريكية، حيث إنهم لم يقلعوا عن حياة الانتقال الدائم، وإن لم يكونوا بعائدين للوراء، فميل الأمريكيين واضح إلى رغبتهم في النظر للماضي بحثاً عن أثر لأسلافهم الذين ذهبوا، وأى أثر لاسم أو تاريخ أو مكان في أى ظرف، أى "عروة ثقافية مع ماضٍ معروف"^(٢١) وهم بذلك قد طرحوا عن أنفسهم قطبي الموضوع المتمثل أحدهما في التمجيد والتمسك بماى فلاور والآخر في الخجل من الأسلاف الغرباء، والليذان كانا يوجّهان موضوع الأصول في الولايات المتحدة لمدة طويلة، مستعيزين عنهما بفكرة المساواة بجانبها غير العاطفى، فلو لم يكن للأمريكيين جذور على أرضهم، فهم يستخدمون الوثائق الأرشفية ليشكلوا جذوراً من شكل آخر: جذور بالبحث؟ جذور وثائقية؟ جذور محمولة portable roots؟! "جذور محمولة" تعبير غريب، ولكن هذا التضاد الكامن فيه وطبيعته تعكس الفكرة الأمريكية فى جوهرها.

الهوامش

- Illinois State Archives, Northeastern Illinois University Depository, Chicago City (١)
Council Proceedings Files, 1833/33 0153 A 09/95. Institutional counts have been taken from The
SAA Yellow Pages, 1996 - 1997: Directory of Individual and Institutional Members (Chica-
go, 1996) and Midwest Archives Conference: 1996 membership Directory (Chicago, 1996).
- R.A. Pugh, Chicago Historical Society', in J. Hoffman (ed.), A Guide to the History of (٢)
Illinois (New York, 1991), 231.
- E. Posner, Archives and the Public Interest: Selected Essays, K. Munden (ed.), (٣)
(Washington, D.C., 1967), 116.
- S. B. Warner, Jr., 'The shame of the cities: Public records of the metropolis', The Mid- (٤)
western Archivist, II (1977), 27-34.
- A. de Tocqueville, Democracy in America, J.P. Mayer and M. Leruer (eds.), (New (٥)
York, 1996), 191-92 and V. Gondos, Jr., J. Franklin Jameson and the Birth of the National Ar-
chives, 1906-1926 (Philadelphia, 1981), 4 See also H.G. Jones, The Records of a Nation (New
York, 1969) and D.R. McCoy, The National Archives: America's Ministry of Documents, 1934-
1968 (Chapel Hill, 1978).
- Jones, The Records, McCoy, The National Archives, and Gondos, J. Franklin Jameson. (٦)
Gondos, J. Franklin Jameson, 54, 55, and 67. (٧)
- Report of the State Education Commission to the Forty-Eighth General Assembly (٨)
(Springfield, 1913), E. Posner American State Archives (Chicago, 1964), 88, and Illinois State
Archives, Margaret Cross Norton MS. 103.226, 3/1199.
- A. Brides, A City in the Republic: Antebellum New York and the Origins of Machine (٩)
Politics (Cambridge, Mass. 1984) and R. Wiebe, Self-Rule: A Cultural History of American
Democracy (Chicago, 1995), 141.
- J. Daly, State archives and metropolitan records: 'the case of Chicago', The American (١٠)
Archivist, 51 (1988), 470-74.
- T.J. Gilfoyle, 'Prostitutes in the archives: problems in documenting the history of (١١)
sexuality', The American Archivist, 37 (1994), 524.

- R. Miller, *American Apocalypse: The Great Fire and the Myth of Chicago* (Chicago, (١٢) 1990), R. Einhorn, *Property W. Cronon, Nature's Metropolis: Chicago and the Great West* (New York, 1991) *Rules: Political Economy in Chicago, 1833 -1872* (Chicago 1991),, C. Smith, *Urban Disorder and the Shape of Belief* (Chicago,1995),K. Sawislak, *Smoldering City: Chicagoans and the Great Fire* (Chicago, 1996), D> L. Miller, *City of the Century: The Epic of Chicago and the Making of America* (New York, 1996), and L. J. Reagan, *when Abortion was a Crime: Women, Medicine and Law in the United States, 1867-1973* (Berkeley,1997)
- P.M. Quinn, *The surge of interest in genealogy reflects a populist strand in society* (١٣) with important implications for our culture, *The Chronicle of Higher Education* (22 May 1991), 82.
- (١٤) عدد الخدمات مأخوذ عن التقرير الشهري/السنوي، أرشيف ولاية إلينويس، ومن خطاب بي بونس P.Bunce مدير الأرشيف القومي وإدارة الوثائق، منطقة البحيرات العظمى ، للكاتب بتاريخ 7 يولية Chicago Historical Society's attitude toward genealogical requests illustrated in its World Wide. 1996 Web site at <http://www.chicagohs.org/GENEALOGICAL.html>.
- P. Conway, *Partners in Research: Improving Access to the Nation's Archives: User* (١٥) *Studies at the National Archives and Records Administration* (Pittsburgh, 1994), 30-32,38,46,63-66,79,92,106.
- J. Fulknison, *Climbing the family tree*, *American Demographics* (Dec. 1995), 42 - 50. (١٦)
- Posner, *Archives and the Public Interest*, 116. (١٧)
- L.K. Bardelmeier, *Program Coordina-* من رسالة موجهة للكاتب بتاريخ 6 سبتمبر 1996 من (١٨) *tor, Learning Center, USWA/Granite City Steel, Granite City, IL*
- K. T. Jackson, *Crabgrass Frontier: The Suburbanization of the United States* (New (١٩) York, 1985) and *Silent Cities: The Evolution of the American Cemetery* (New York, 1989) and Wiebe, *Self-Rule*, 48.
- Conway, *Partners in Research*, 110. (٢٠)
- Quinn, *The surge of interest*, 82. (٢١)

الأرشفات المتروبولية فى البلدان الفيدرالية: حالة البرازيل

آنا ماريا دى ألميدا كامارجو

إن موضوع هذا المؤتمر يمثل بالفعل تحدياً حيث أنه قبل أى شىء يضع موضوعين جنباً إلى جنب فى شراكة غير معتادة، فبالرغم من أن كلا من الموضوعين غنى ببليوجرافيا متخصصة، وبالرغم من أن كلا منهما قد درسا مرات عديدة من وجهة نظر تخصصات بينية، فإنه لم يسبق أن اقترنا مع بعضهما بعضاً بشكل مباشر، ويتعاضم التحدى عندما نحاول أن ندرس العلاقة بين الأرشفة والمتروبول من وجهة نظر بلد ليس لديها إلا القليل من الخبرة المتراكمة، بسبب المشاكل الحادة التى تواجهها فى المجالين، وليس أمامها إلا أن تتدرب على إجراءات ذات طبيعة سياسية وتقنية لحل تلك المشاكل.

وعلى ضوء المجالات الجديدة التى يقدمها الموضوع سنحاول أن نطرق الموضوع من ناحية الظروف الخاصة بالأرشفة المتروبولية فى البلاد التى تطبق النظام الفيدرالى، متخذين من البرازيل نموذجاً لها، فالموضوع لم تُستنفد بعد كل وسائل معالجته، كما نرى فى حالة نموذجية لما يسمى ببلدان العالم الثالث، وخصائص الفيدرالية البرازيلية الوحيدة التى تتعامل مع المحافظة على أنها كيان لولاية، والمساحة القارية للبلد، ذات التنوع الجغرافى والاقتصادى والاجتماعى الهائل وجود مدينة شديدة الضخامة مثل ساو باولو، التى لا يفوقها حجماً إلا مكسيكو سيتي، سوف تؤخذ فى الاعتبار كنموذج مكبر يجلى المظاهر الإشكالية للموضوع، ويمكننا من أن ننظر من خلاله لمواقف أقل تعقيداً. ومن المهم أن نتذكر فى هذا الصدد أن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية للكتل المدنية، كان علماء الاجتماع فى الخمسينيات ينظرون إليها باعتبارها مشكلة قابلة للحل، عن طريق اتباع سياسات عامة جيدة الإعداد، ولكن بعد

عدة عقود أظهرت المقارنة بين مدينتين على طرفي النقيض، وهما نيويورك وساوباولو، أن القضية لم تعد قضية اختلاف بين النقيضين كدولة متقدمة وأخرى نامية، ولكنها مظهر لمشكلة عالمية^(١).

ويتضمن الموضوع بالضرورة مناقشة المظاهر المؤسساتية في المقام الأول، حيث أنها تتعامل مع المتروبول ككيان، يتطلب في التعبير عن ظاهرة مدنية معينة، تعريفا لأساليبه الإدارية الخاصة، سواء أكانت هذه الأساليب تتفق أو تتضاد مع ما درجت عليه التقاليد والأعراف الحكومية في سياسة البلاد أو منطقة بعينها أو إدارة محلية، وفي المقام الثاني لأننا نتعامل مع الأرشفة باعتبارها كيان تودع فيه الوثائق التي أفرزتها الهيئات الحكومية في كل مجالاتها ومستوياتها، ويجب أن ينظر إليه في إطار علاقته مع تلك الأساليب الإدارية بهدف فهم الإجراءات الحكومية الفعالة وتقديم هذه الإجراءات لأهداف مباشرة أو تالية.

ومن هذه العلاقة غير القابلة للانقسام وثنائية الاتجاه (وجود كيان والدليل على وجوده) يمكننا أن ننتقل لمرحلة أخرى لنؤسس فيها محورا دالا يمكننا من الولوج للموضوع، ونركز هنا على مفهوم التشريع الأرشفة بمعنى القوة القانونية المخولة لمؤسسة ما في إنتاج وحفظ وامتلاك ونقل والتخلص من أو الاحتفاظ بالمادة الأرشفية، نحن لا نتحدث هنا عن شكل الأرشفة النابع من حالة البرازيل (كشريك طبيعي وضروري لحركته)، ولا حتى عن رصد التطور التاريخي للسياسات التي وضعت في السنوات الأخيرة لتوزيع المسؤوليات والكفاءات على مختلف أعضاء الفيدرالية، ولكننا بالأحرى نتحدث عن رصد التغيرات التي أدخلتها المناطق المتروبولية على نطاق التشريع الأرشفة مضيئة إليه تعقيدا وتضاربا.

وحتى يتسنى لنا ذلك علينا أولا أن نتفهم بنية البرازيل كأمة تستند في سيادتها إلى السلطات الثلاثة التقليدية: التشريعية والتنفيذية والقضائية، المستقلة والمتناغمة في أدائها في آن واحد، ويتبنها الجمهورية كنظام للحكم والانتخاب المباشر كآلية لتحويل الحكم سلطتهم، أصبحت البرازيل فيدرالية ذات تنظيم سياسي ثلاثي الأبعاد، يشمل الاتحاد الفيدرالي، والولايات، والمقاطعات.

وبينما خول للاتحاد الفيدرالي السلطة في ممارسة الحكم المركزي وبسط السيادة الوطنية، نجد أن باقي أعضاء الفيدرالية – الولايات والمقاطعات، إلى جانب المنطقة

الفيدرالية^(٢) - تحتفظ بسلطات سياسية وإدارية لإدارة شئونها الداخلية باستقلالية ينص عليها الدستور، وهناك خصوصية جديرة بالإيضاح هنا تتعلق بالنظام الفيدرالى البرازيلى، وهى على عكس البلدان التى تتبنى نفس النظام: حيث إن المقاطعة، بعيدا عن كونها مجرد وحدة جغرافية، هى كيان ولاياتى نو استقلالية سياسية وإدارية ومالية، وهو مبدأ هام وأساسى فى التنظيم الدستورى للبلاد.

إن استقلال كل عنصر من العناصر المكونة للدولة ينعكس فى حالة البرازيل على تعريف الحقوق العامة والحقوق السياسية التى ينص عليها الدستور، وهو ما يعنى أن لب الامتيازات الممنوحة للمقاطعة لا يمكن تعديلها إلا بالاتفاق مع الولاية التابعة لها تلك المقاطعة دائما فى اتجاه زيادة السلطات (والعكس مستحيل) المخولة للمقاطعة، وبعبارة أخرى لا يوجد تفضيل للقانون الفيدرالى أو قانون الولاية على قانون المقاطعة، فالحكومة المحلية تدعم الإدارة فى كل ما يتعلق بالشأن الداخلى للمقاطعة، حيث ترفض بحزم أى تدخل من قبل أى منظمة أو هيئة أو سلطة باعتبار هذا التدخل غير دستورى، وقد يحدث الاستخدام التصاعدى للقوانين فقط فى حالة عدم وجود إدارة خاصة، وفى هذه الحالة تقوم الكيانات الثلاثة (الاتحاد الفيدرالى - الولاية العضو، والمقاطعة) بمعالجة الموضوع فيما بينها، وفى هذه الحالة يعمل بقانون الولاية بدلا من قانون المقاطعة وبالقانون الفيدرالى بدلا من قانون الولاية^(٣).

ويتبع تنظيم وإدارة المؤسسات الأرشيفية العامة البرازيلية نفس هذا التقسيم، ونفس تلك الاستقلالية فى مجال العمل الحكومى: فهناك أرشيفات قومية، وأرشيفات ولايات، وأرشيفات مقاطعات، بدون وجود أى عنصر تبعية بين أحدها والآخر، كل منها يحتوى على الوثائق التى أفرزتها منظمات الإدارة المباشرة أو غير المباشرة فى نطاقها مع احترام استقلالية سلطة كل منها^(٤).

وفى تطابق تام مع تنظيم الدولة - بحدودها الفاصلة فى وضوح بين مختلف المستويات - يتفرد الأرشيف الحكومى البرازيلى على المستوى المحلى فى مجال أرشيفات المقاطعات فى نطاق سلطته؛ فهى لا تحفظ فقط الوثائق التى تفرزها الهيئات فى إطار ممارستها لما يسمى بالسيادة المحلية، ولكنها أحيانا تحفظ أيضا تلك التى تنشأ عن أنشطة تمارس فى نطاقها الجغرافى من قبل الولاية أو الاتحاد الفيدرالى، وكذلك الوثائق الخاصة. هذه المرونة فى نطاق السلطة والتى لم تكن أبدا محل تساؤل

بالرغم من افتقارها لأساس قانوني، لها في الواقع جذور تاريخية، وهي جذور ترجع إلى الفترة التي ظهرنا فيها كأمة مستقلة، وهو ما يستحق بعض الإيضاح نظرا لما تتمتع به هذه الممارسة من اجتماع الآراء عليها في الوقت الحالي.

لقد كان اتساع مساحة البرازيل يشكل يوما عائقا في طريق إدارتها، وهو ما يعطى وزنا للإنجاز الاستعماري البرتغالي الذي نجح في الحفاظ على وحدة الحدود واللغة في هذه المساحة الشاسعة، إن الاستقلال السياسي للبرازيل في ظل نظام ملكي مخافة الانفصال قد تطور جنبا إلى جنب مع الجهود الرامية لإيجاد بنية توحد البلاد، وذلك بإنشاء جهاز حكومي يناسب شكل الأمة التي ننشدها، وكان الحل يتمثل في تقسيم مساحة البلاد إلى أقاليم ذات حكم ذاتي محدود، يعين الإمبراطور رؤسائها، وتتبع مجالس المدن الأقاليم في تطابق تام مع النموذج المركزي للإمبراطورية، وكانت الصورة التي اقترنت بهذا النظام - آنذاك بالذات عند منتقديه - كانت صورة الجسد الضخم الذي لا تصل الدماء فيه إلى الأطراف^(٥).

وقد لجأ الجانبان - في غياب الممثلين الإداريين للسلطتين المركزية والإقليمية - لترك تلك السلطات إلى مجالس المدن لتباشرها على كل المناطق الواقعة تحت سيطرة أى من السلطتين، وقد كان خيار التفويض بالسلطة والسائد إبان العصر الإمبراطوري هو الأفضل على الإطلاق، لتلافى عيوب جهاز الدولة وتغطية المساحة الشاسعة التي تفصل مقر السلطة الإمبراطورية في ريو دي جانيرو عن عواصم الأقاليم الأخرى والمقاطعات المنتشرة في أطراف البلاد.

وقد بقيت الوثائق التي أفرزتها الإدارات المحلية كنتيجة لانتقال السلطة إليها في تلك الإدارات، ولم تطالب بها أرشيفات الولايات ولا الأرشيف القومي، وقد استمرت تلك العادة الإدارية حتى الآن في بعض الأنشطة مثل القرعة العسكرية (والتي هي من خصوصيات الاتحاد الفيدرالي) محتفظ بأرشيفاتها في قاعات المدن في المحافظات، وأمثلة ذلك لا تعد ولا تحصى حيث أصبحت الإدارات المحلية المقر المفضل لكثير من الأرشيفات المركزية الخاصة بالإدارات الحكومية، وينطبق هذا حتى على المحكمة العليا في ساو باولو والتي مارست ضغوطا على الإدارات المحلية للاحتفاظ بالأرشيفات القضائية للعديد من المناطق الإدارية.

وتحملنا تلك الظاهرة على اعتبار الإدارات المحلية مؤسسة، والنظر إليها كـ"مخلوق قانوني" على حد تعبير فقهاء القانون البرازيليين في القرن التاسع عشر، وبالرغم من اختلاف درجة استقلاليته عبر التاريخ، فإن المحليات ظلت دائماً وأبداً "الواقع الحكومي الأقرب للمواطن"^(٦) وهو تعبير تكرر كثيراً للتعبير عن السلطات المحلية العاملة على توفير الاحتياجات المباشرة للمجتمع، والمؤسسة القادرة على تخطيط وتنفيذ الخدمات الأساسية في نطاق سلطتها، ولهذا السبب رأى الكثيرون في الحكم المحلى الشكل الوحيد في بنية الدولة الذى يمكن أن نلمسه ونرى صفاته ماثلة أمامنا واقعا عيانا، فى مقابل كيانات أخرى لم تكن أكثر من رموز مجردة. وتعبّر عن تلك الحقيقة لوحة معلقة فى مكتب مخصص للإدارة المحلية فى مدينة ساو باولو كتب عليها " لا يسكن أحد فى الاتحاد الفيدرالى، ولا يسكن أحد فى الولاية، الكل يعيش فى مدينة"^(٧). وحيث إن المؤسسات الفيدرالية والولائية والمحلية تعمل فى داخل نفس الحدود الطبيعية، فقد اتخذ "المخلوق القانوني" مكانه كمنشئ طبيعى وضرورى للكيان الجمعى المستقل تشريعيا، والممتلك لهوية تعتمد على "قصة ما (العادات المحلية) وعلى سمات مميزة للمساحة الواقعة داخل حدوده الطبيعية"^(٨).

وعلى ذلك قد يمكننا أن نقبل - فى حالة أرشيفات المحليات - بمفهوم عكسى ظاهريا لـ"المقر القانوني"، أى النطاق القضائى الذى تنتمى إليه الوثيقة تبعا للحدود المكانية والسلطة والجهة الإدارية التى أنتجتها أو تلقتها، ويتغير الوضع كثيرا إذا ما استبدلنا جهة المنشأ بجهة المقر كعامل محدد لجهة الحفظ، ويعتبر تركيب الوثائق مشروعا ليس فقط بالنسبة لتلك الوثائق التى تجمعت لدى هيئات تقع فى نطاقات مختلفة للإدارة العامة، وتمثل سلطات مستقلة تماما فى مقابل المؤسسات الحكومية المحلية ولكن أيضا بالنسبة للوثائق الخاصة، ففي المحليات كل شىء يعتبر "محليا" وتستثمر صفة العمومية فى الوثائق العامة بشكل خاص، فبدلا من أن تعنى صفة "العمومية" أنها وثائق رسمية أو وثائق ولاية، فهى تعنى أنها يمكن أن يطلع عليها الجميع، وهى الوثائق التى تهم المحليات أيا كان مصدرها، فتتضمم بالتالى للمجال العام^(٩).

إن عملية تحويل المدن الكبرى فى البرازيل إلى متروبول قد هدت النموذج الذى حاولنا أن نرسمه، وهى بشكل عام تنطبق أيضا على المدن المتوسطة والصغيرة، وهناك

ظاهرتان فى هذه العملية لهما دلالة خاصة بالنسبة لفهمنا لأشكال العلاقة بين الأرشفة و المتروبول فى السياق البرازيلى من ناحية التشريعات الأرشفية.

وأول ظاهرة هى الحلول التى أوجدت على المستوى المؤسساتى لإصلاح الفجوة بين قدرة السلطات العامة على الاستجابة للمطالب الخدمية للمجتمع والنمو الرهيب لبعض المدن، فساو باولو التى واكب تطورها تطور عملية التصنيع فى العقود الأولى من القرن العشرين، تضم الآن منطقة متروبولية تتكون من 39 إدارة محلية يبلغ عدد سكانها 19 مليون نسمة، ويتوقع أن يصلوا إلى 24 مليون بنهاية الألفية الثانية، وقد تغير شكلها فى بضعة عقود بشكل جذرى فحلت شبكة علاقات اجتماعية متضاربة محل أنماط العلاقات الاجتماعية التقليدية التى حددت شكل العلاقات فى المجتمع فى السابق.

والتحديات التى يفرضها حكم مناطق حضرية شاسعة تحتوى على هذا الخليط الكبير، بما فيها من أزمات طاحنة فى مجالات البطالة، والسكن، والنقل، والصحة العامة، ونوعية البيئة، وما يستتبعه ذلك من عنف وفقر، يطرح عدة أسئلة: لأى مدى يجب أن تتوافق التشريعات المتروبولية، أو مجال سلطة إدارتها مع المساحة المكانية للظاهرة الحضرية؟ والإجابة على هذا السؤال لها نتائج مؤثرة فى محاولة فهم سياق الصراع على السلطة السياسية والذى تدخل فيه الحكومة: " كلما اقتربت الحدود الجغرافية للظاهرة الحضرية من النطاق القانونى للمتروبول وبالتالى من سلطاته الشرعية زاد لجوؤه للقوة"^(١٠). فالإدارة المتروبولية إذن من هذا المنظور لا تعتبر أكثر من نسخة مبكرة من مؤسسات الحكومة المحلية ومن الوثائق التى تجمعها، دون أن يمد ذلك فى حدودها الجغرافية القضائية، وستكون هناك فرصة للتخلى عن معايير الأداء للحكومة المحلية المتميزة بطبيعتها التصحيحية فى سبيل استراتيجية محافظة فى الأساس وتركز على التخطيط^(١١).

غير أن الآليات المؤسساتية المقترحة لإدارة المتروبولية ثبت أنها أصعب وأكثر تعقيدا، ففكرة توحيد أو دمج الحكومات المحلية المتجاورة التى طرحت كحل فى العديد من المواقف الحضرية، تم رفضها تحت شعار احترام مبادئ الاستقلال المحلى، ثم ظهر ما يسمى بالمناطق المتروبولية المكونة من المحليات دون تقليص لاستقلاليتها، ولكن عليها أن تقدم خدمات أو تقوم بوظائف لمصلحة مجتمع اقتصادى-اجتماعى واحد، وقد

ظهر النمطان في وقتين مختلفين في التاريخ الدستوري للبلاد (1967 و 1988)، ومثلاً دون إقرار سياسى حالةً وسطاً بين التشريع المحلى والمجالات الحكومية الأخرى (الاتحاد الفيدرالى والولايات)، والتي بدأت هيئاتها فى تركيب الأرشيفات دون تحديد مصيرها تحديداً واضحاً، وفى هذه الحالة يصبح النطاق المحلى القضائى البرازيلى غير ملائم نهائياً لحفظ تلك الأرشيفات، حيث إنها من إفراز كيانات متساوية فى مستواها، فمن يملك إذن ما يملكه الكل كمجموع وكل منهم كفرد فى نفس الوقت؟

وقد أضافت عملية التحول لمتربول إلى تلك المشكلة المستعصية مشكلة أخرى تمثلت فى كيفية إدارة هذا الكم الهائل من الوثائق!!

فقاعة المدينة بساو باولو تستقبل يومياً 2000 صندوق (مسجلة رسمياً)، بخلاف النوعيات الأخرى من الوثائق وتلك الناتجة عن الإدارة غير المباشرة، ويشى هذا الرقم بشكل عام بالصعوبات التى تواجه الأرشيفيين فى التخزين والفرز والتعامل مع البيانات، غير أن هذا الرقم منخفض نسبياً: فمدينة مثل ساو باولو التى تتبع التقاليد الإدارية فى إنشاء ملف لكل طلب من المواطنين لها بين يناير ومايو من هذا العام [1996] أكثر من 54 كم من الملفات.

غير أن هذه النمو السرطانى للمدينة لم يشمل المواطنة (بمعنى الحق فى الحصول على الخدمات العامة) لجانب عظيم من السكان، وبما أن المدينة الكبير فى البرازيل تمثل الترمومتر ومظهر العلل الاجتماعية، فيمكننا أن نرى هنا التناقضات التى تعم المجتمع البرازيلى أكثر وضوحاً وحدة. فالمتربول بهذا المعنى يجسد بالفعل العملية التى عرفها ميلتون سانتوس Milton Santos بأنها تكون اللا مواطن^(١٢)، ففى أقل من 30 سنة، وبدون إبطاء لأى من تلك التحولات شهدت البرازيل وبشكل مكثف هجرة جماعية من الريف للحضر، تحضر عشوائى، زيادة فى الاستهلاك، نمو اقتصادى، وتركز للثروة، وكل ذلك أدى لزيادة حدة تهميش جانب أكبر من المجتمع البرازيلى. نحن الآن أمام واحدة من أهم نقاط التقاطع بين المتربول والأرشيف: وهى تتعلق بالتمثيل العكسى الذى يشى أكثر بما لم تفعل أو ما لم يسجل.

وبالنسبة للمؤرخ الذى كرس نفسه لتوصيل المعلومات التى تحملها الوثائق والشواهد الأخرى، فهذا الوضع ليس أكثر من تحد آخر، وقد أدى هذا التهميش أو

بالأحرى الإسقاط من الحسابات الذي يعتبر جزءاً من النظام إلى نتائج سلبية في الأرشفة المتروبولي، تشهد على نتائج الأولوية قراءة موجهة. ويجدر بنا أن نورد مثالا في هذا الصدد، وهي سجلات قبول الأمهات اللائى على وشك الوضع فى المستشفيات العامة، والتي بمجرد أن تتحول بياناتهن إلى بيانات إحصائية يتخلص منها، بينما يجب أن تحفظ على الأقل لعشرين سنة ، حيث أن تلك البيانات بالذات فى المناطق المهمشة والفقيرة تعتبر هى الدليل الوحيد على الميلاد لعدد كبير من الأفراد، فيلجأ لها عند الرغبة فى استخراج وثائق الهوية، إن الأرشفة المتروبولي فى المناطق التى تتميز بعدم العدالة الاجتماعية، والتى تنتشر فيها المناطق شديدة الفقر توفر بيانات أساسية لإثبات الحقوق قد ينظر إليها للأسف على أنها مرشحة للإعدام.

وفى النهاية على أن أشير إلى أن حجم الوثائق المنتجة فى المدن الكبرى يتناسب عكسيا مع قدرتها (كما يحدث فى المدن الأصغر حجما) على أن تعكس سمات هوية المجتمع، فالمتروبول المتشردم^(١٣) واللامتناسق^(١٤) لا يضيف شيئا للأرشفة، ولا يرى نفسه منعكسا فيه، ولا يرى فى الأرشفة معبرا عن الاهتمامات المشتركة التى تتسامى عن الفروقات والتهميش، ولكنه على العكس يؤكد الفروقات بين الشرائح المختلفة التى يتكون منها المجتمع خارج نطاق الأرشفة العام، وهو ما يؤدى إلى انتشار مراكز الذاكرة فى الأمة كأماكن شديدة التمايز والاستقلالية ومستعصية على أى جهود للاندماج الفيدرالى مع الكيانات المماثلة، أولا يظهر هنا مرة أخرى تأثير الأرشفة فى تكريس الفردية والاستقلالية كنتيجة لتحلل السلطة فى المدن الكبرى؟

أرجو أن أكون قد أسهمت فى هذا الموضوع المهم، إن لم يكن بالإجابات التى لا أملكها، فبالأسئلة التى أثارت.

الهوامش

(١) G.F. Schäfer, 'Problems of metropolitan government: size, efficiency, resources, and democratic control', in Urban networks: development of metropolitan areas (Rio de Janeiro, 1979), 223-238.

(٢) المنطقة الفيدرالية Federal District هي ولاية عضو Member-State وعاصمة الاتحاد.

(٣) H.L. Meirelles, Direito Municipal Brasileiro, 8th ed. up-dated by I.C.L. Monteiro, Y.D.P. Monteiro and C.M. Prendes (São Paulo, 1996), 85.

(٤) بما يتفق والقانون الفيدرالي رقم 8159 الصادر في 8 يناير 1991 بشأن السياسة القومية تجاه الأرشيفات والخدمات الأخرى العامة والخاصة.

(٥) كما يتضح مثلاً في تقرير نائب الكونت في أرجواي Bases para melhor organização das administrações provinciales (قواعد لتنظيم أفضل لإدارة المقاطعات) والملحق بتقرير وزارة الإمبراطورية في يونيو 1858.

(٦) D. L. de Mello, A moderna administração municipal (Rio de Janeiro, 1960), XII.

(٧) وهي جملة قالها حاكم ساو باولو آنذاك، أندريه فرانكو مونتورو Andr Franco Montoro في زيارة قام بها إلى Fundação prefeitura Faria Lima, Centro de Estudos e Pesquisas de Administração Municipal CEPAM, سنة 1984.

(٨) C. Daniel, As administrações democráticas e populares em questão (Democratic and Popular Administrations in Question). Espaço & Debates, 30 (1990), 11-27.

(٩) A.M. de Almeida Camargo, Arquivos municipais: problemas de jurisdição' (Municipal Archives: Problems in Jurisdiction). Boletim do Centro de Memória UNICAMP, Campinas, I (2) July-December, 1989.

(١٠) R. T. Maluf, O contexto político da gestão e do planejamento na região metropolitana de Santiago (The Political context of administration and planning in the metropolitan region of Santiago) São Paulo, 1994).

(١١) R.M. Moraes, Management of metropolitan areas', in Urban Networks: Development of Metropolitan Areas, 211-212.

(١٢) M. Santos, O espaço do cidadão (Citizen Space). 3rd Edition (São Paulo, 1996), 12-14. (Espaços).

M. Santos, *Metrópole corporativa fragmentada: O caso de São Paulo* (The Fragmented Corporate Metropolis: the Case of São Paulo). (São Paulo, 1990). (12)

M. Canevacci, *A cidade polifônica: ensaio sobre a antropologia da Comunicação urbana* (The Polyphonic City: Essay on Anthropology of Urban Communication). (São Paulo, 1993). (13)

القاهرة : أرشيفاتها وتاريخها

رؤوف عباس

تعتبر القاهرة من أكبر عشر مدن كبرى فى العالم، ويعكس تاريخها وتطورها - عبر قرون عشرة - تاريخ مصر كلها وعملية بناء الدولة الحديثة التى كان محمد على أبرز من أطلق شرارتها الأولى، وتحتوى أرشيفات القاهرة على وثائق و سجلات المدينة التى ترجع إلى العقود المبكرة من القرن السادس عشر.

وتقدم هذه الورقة استعراضا عاما للتطور المتروبولى للقاهرة، ووصفا لأرشيفاتها ولجموعات الوثائق المتعلقة بتطور العاصمة المصرية.

القاهرة العاصمة :

التطور التاريخى

تقع القاهرة بوصفها متروبول فى موقع متميز يمثل نقطة الالتقاء بين مصر العليا ومصر السفلى، وقد كان هذا الموقع هو الموقع المفضل الذى تأسست فيه معظم العواصم المصرية: منف، وهليوبوليس (عين شمس)، وبابليون "عواصم مصر القديمة"، والفسطاط والعسكر والقطائع "عواصم مصر تحت الحكم الإسلامى"، وكانت تلك هى أسلاف القاهرة التى أسسها الفاطميون عام 969 م، وبينما كانت العواصم المصرية القديمة تقع على الضفة الغربية للنيل، نجد أن الفسطاط - أول مقر وعاصمة للفاطحيين العرب - قد تأسست قرب الشاطئ الشرقى للنيل إلى الشمال من بابليون، فقد كان من

الأهمية بمكان أن يستطيع العرب الوصول إلى شبه الجزيرة العربية عبر الصحراء الشرقية، وقد تأسس سلفان آخران للقاهرة فى نفس الموقع، وهما العسكر والقطائع إلى الشمال من الفسطاط، وإلى الشمال منهما كان تأسيس القاهرة. وتقع الحدود الشرقية للقاهرة وأسلافها على التلال الغربية التى توفر خط دفاع طبيعى، بينما كان حد المدينة الغربى هو قناة القاهرة المعروفة باسم الخليج^(١).

وكان شق الخليج فى العصور الفرعونية، عندما حفرت قناة تصل النيل بالبحر الأحمر، ثم أعيد حفرها على يد الإمبراطور تراجان، إلا أن استخدامها بطل شيئاً فشيئاً، وبعد الفتح العربى فى عام 641 م وتأسيس الفسطاط، أعيد حفر القناة بقم جديد إلى الشمال من بابليون، وقد ردمت فى القرن الثامن ثم أعيد حفرها فى القرن العاشر، ومع نهاية الحكم الفاطمى كانت القناة قد أهملت وانتهت إلى منخفض جنوب شرقى الدلتا، حيث شكّلت بركة صغيرة سميت بركة الحاج "أول محطات طريق الحج إلى مكة"، وبالرغم من اتساع القاهرة الكبير فى العصر المملوكى إلا أن شاطئى القناة احتفظا بطابع الضواحي^(٢)، وقد شيد صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية قلعة القاهرة، ووُسع أسوار المدينة لتشمل الفسطاط والسلفين الإسلاميين الآخرين للقاهرة^(٣).

القاهرة العثمانية

كانت القاهرة فى بداية العصر العثمانى فى عام 1517 عبارة عن شريط ضيق من الأرض، ممتد بين الفسطاط فى الجنوب والريدانية "ضاحية القاهرة العاصمة الفاطمية فى الشمال، وتنحدر الأراضى التى شيدت عليها القاهرة من تلال المقطم - التى تشكل حد المدينة الشرقى - غرباً حتى الشاطئ الشرقى للنيل. وقد تغير مجرى النيل عدة مرات فى الفترة ما بين الفتح العربى أواسط القرن السابع ونهاية القرن الثامن، تاركا مساحةً واسعةً مغطاةً بطميه على شطآنه الشرقية بلغت ما بين 1 إلى 2 كم عرضاً، غربى القاهرة بين الخليج والشاطئ الشرقى للنيل، وقد تحولت هذه الأراضى الغرينية إلى حقول أمدت القاهرة باحتياجاتها من الفاكهة والخضر، كما استخدمت كمتنزّهات بما لها من حدائق وبرك، وقد اجتذبت تلك الأراضى أثرياء القاهرة، فلعبت دور الضاحية، فشادوا بها البيوت المحاطة بالحدائق على الأراضى التى أجرتها لهم الدولة

وكانت البرك فى الضاحية الغربية للقاهرة عبارة عن انخفاضات فى التربة تملؤها المياه الآتية لها عبر قنوات أو الناتجة عن تسرب ماء النيل أثناء فيضانه، وأحيانا كانت تحفر البرك بمبادرة من أحد رجال الطبقة الحاكمة. وإلى جانب دورها فى ترطيب الجو صيفا وفرت تلك البرك أيضا فرصاً للهو والتسلية خاصة فى المساء، وعندما بدأ أثرياء القاهرة فى اتخاذ بيوت خارج كتلة المدينة، فضلوا جوار البرك مثل بركة الفيل، وبركة الأزبكية، وقد نشأت منطقتان سكنيتان للطبقة الأرستقراطية خلال العصر العثمانى حول هاتين البركتين^(٤).

ولم تجتذب الأرض الغربية الامتداد العمرانى للقاهرة إلى الغرب بشكل مفاجئ، فلم تشهد المنطقة بين الخليج وبركة الأزبكية الطفرة الكبرى فى تمدنها النهائى إلا فى فترة متأخرة كثيرا، فى بداية القرن الثامن عشر^(٥).

وقد شهد العصر العثمانى بعض المشروعات الكبرى فى القاهرة، أسهمت فى تشكيل وتنظيم بعض أحيائه، غير أن حدود القاهرة لم تستمر فى تمدها كما كانت الحال فى العصر المملوكى. وقد اتخذت القيادة العسكرية للحملة الفرنسية 1798 - 1801 من الأزبكية مقرا لها، وأدخلت تعديلات استراتيجية على شكل القاهرة، فقد صدرت الأوامر بنزع أبواب الشوارع، ومد طريق عام عريض يصل مقر القيادة الفرنسية بالخليج. وقد تم إعمار الضاحية الغربية بشكل مخطط فى القرن التاسع عشر فى عهد كل من محمد على والخديو إسماعيل.

تكوّن القاهرة الحديثة

أنشأ محمد على (1805 - 48) سياسة بناء الدولة الحديثة بما يشتمل عليه ذلك من تغير فى الاقتصاد، وإعادة تنظيم المؤسسات الحكومية، وإدخال التعليم الحديث لخدمة أهداف سياسية طموحة، وقد ظهرت مصر فى عهده كقوة إقليمية تملك جيشا وأسطولا قويان وحديثان^(٦). وقد أسهم محمد على فى التطور العمرانى الحديث للقاهرة. وكانت الصحة أحد اهتماماته، كما أنها صبغت منجزاته فى تمدين القاهرة بشكل أساسى، فقد أزال الجبانات من الأزبكية، وأزال أكوام القمامة من داخل المنطقة السكنية فى

المدينة وما حولها، وملأ البرك، ونظف الشوارع، وأطلق عليها الأسماء وأنارها. كما تم تحديث الطريق الذي بناه الفرنسيون ليصل الأزبكية بالخليج وأصبح مركز التجارة الأوروبية ومقر سكن الموظفين الأوروبيين الذين استقدمهم محمد علي، وبدأ في عام 1837 تنفيذ خطة لتطوير حي الأزبكية؛ لإنشاء حديقة وطنية على الطراز الأوربي، محاطة بالمباني الجميلة والقنصليات الأجنبية، والمدارس، ومستشفى، وفنادق على الطراز الأوربي.

لقد بدأ الطابع المعماري للقاهرة في التغير ليواكب سياسة محمد علي التحديثية؛ فتبنت العمارة الطرز اليونانية والأوروبية والتركية، مستهلاً بذلك فصلاً جديداً في تطور القاهرة العمراني^(٧).

غير أن التطور العمراني الجذري الذي نشأت عنه القاهرة الحديثة كان من وضع الخديو إسماعيل بعد زيارته للمعرض الدولي Exposition Universelle في باريس عام 1867، فقد تأثر الخديو بطابع العاصمة الفرنسية تأثراً شديداً وقرر أن يصبغ القاهرة بالصبغة الأوروبية وقت افتتاح قناة السويس عام 1869؛ فقد وجهت الدعوة بهذه المناسبة لضيوف من مشاهير أوروبا، وأراد الخديو للقاهرة أن تبدو لهم أوروبية.

ولم يستطع إسماعيل، ولا جده محمد علي، أن يحققوا حلمهم في التحديث في الكتلة العمرانية للقاهرة بطابعها التاريخي التقليدي، وكان السهل الواقع غربى القاهرة بين الخليج والنيل هو الموقع الذي يمكن أن يُخطط فيه لامتداد عمراني حديث، فتم مد شارعين ليصلا بين الامتداد الغربى للقاهرة مع كتلتها العمرانية الأساسية: شارع محمد علي الذي يصل بين الأزبكية والقلعة، وشارع عبد العزيز الذي يصل الحى بعابدين، حيث أمر إسماعيل ببناء قصر حديث ليكون مقره الرسمى، كما اخترق شارع آخر أطلق عليه اسم كلوت بك الحى القبطى ليصل بين الأزبكية وباب الحديد، حيث تقع محطة السكك الحديدية الرئيسية، كما شيدت دار أوبرا جديدة على طراز لاسكالا La Scala في ميلان وأمر بصناعة التماثيل لتزيين الميادين العامة^(٨).

أما حى "اللق" الواقع إلى جنوب الأزبكية وقد كان قليل العمران تسكنه مجموعات من المهمشين اجتماعيا، موحل، ملئ بأكوام القمامة فقد تحول إلى حى

عمرانى حديث، وقد شرع إسماعيل فى تنفيذ خطة للإسماعيلية "الاسم الجديد الذى أطلقه على الحى"، فتم إزالة أكوام القمامة، وملء البرك بالماء وخطت المنطقة على الطراز الأوروبى لتصبح حيا جديدا للطبقة الأرستقراطية بين قصر عابدين والنيل.

وقد امتد حى الإسماعيلية بالعمران إلى الغرب ليتصل بشاطئ النيل، كما شرع إسماعيل فى الامتداد بعمران القاهرة ليعبر به النيل إلى شاطئه الغربى، فاتفق مع شركة فرنسية لبناء كوبرى قصر النيل؛ ليصل شاطئ النيل الشرقى بجزيرة الزمالك، كما قامت شركة بريطانية ببناء كوبرى آخر يربط الجزيرة بالشاطئ الغربى، وافتتح الاثنان عام 1871.

وقد كان الخديو إسماعيل هو أول من شرع فى تعمير شاطئ النيل الغربى، حيث شاد به قصران، أحدهما فى جزيرة الزمالك والآخر فى الجزيرة، ليتلوها قصور أخرى بناها هو وكبار رجال دولته، كما أنشئت فى عهده حديقة للنباتات هى حديقة الأورمان على شاطئ النيل الغربى فى الجزيرة، وقد أنشأ إسماعيل أيضا ضاحيتين هما: العباسية، إلى الشمال الشرقى للقاهرة، وحلوان، المنتجع الأرستقراطى الذى يتصل بالقاهرة عن طريق خط سكة حديد مخصوص.

وقد شهد عصر إسماعيل إنجازان مهمان أيضا بالنسبة للبنية التحتية للقاهرة الحديثة، وهما الإمداد بالماء والغاز، فمنح الامتياز عام 1865 لشركتين فرنسيتين هما شركة كورديه ووتر كومبانى Cordier Water Company وشركة لوبون للغاز Lebon Gas Company (والتي حصلت على امتياز الكهرباء أيضا فى تسعينات القرن التاسع عشر).

ولم تجر بعد إسماعيل إلا جهود قليلة فى العمران، باستثناء ردم الخليج ليصبح طريقاً، وقامت بذلك شركة ترامواى القاهرة سنة 1896، وفى عام 1905 أنشأت شركة عقارات بلجيكية ضاحية جديدة هى مصر الجديدة، إلى الشمال الشرقى من القاهرة، وتزامن معها إنشاء مؤسسة بريطانية لضاحية المعادى على بعد أربعة كيلومترات إلى الجنوب من القاهرة^(٩).

وقد تميز عمران القاهرة فى القرن العشرين بالامتداد إلى الشمال فى الفجالة والظاهر وشبرا، والشمال الشرقى فى العباسية ومصر الجديدة والمطرية، ومؤخرا

مدينة نصر، وقد بدأ العمران فى الشاطئ الغربى للنيل فى خمسينات القرن العشرين، وازداد خلال العقود الثلاثة الأخيرة فأعطى بعدا جديدا للقاهرة الكبرى.

تناقضات التطور

القاهرة العثمانية التى كانت مستطيلا صغيرا من العمران أصبحت جزءاً مهماً من المدينة الكبرى الحديثة، وقد أصبحت الكتلة العمرانية ذات الطابع الأوروبى التى كان الخديو إسماعيل وراء نشأتها، والتى امتدت إلى الغرب عابرة النيل، وكذلك شمال القاهرة، أصبحت عنصر جذب للتطورات العمرانية.

وقد عانت أحياء القاهرة القديمة حتى خمسينات القرن العشرين من الخدمات الأساسية، مثل إمدادات الماء العذب، والكهرباء، والصرف الصحى، وانتقل أثرياء التجار وعلية القوم من المدينة القديمة إلى الغرب أو الشمال الشرقى حيث تقع الأحياء الحديثة، وأصبح شارع الخليج هو الحد غير المرئى بين مدينتين مختلفتين، القديمة والحديثة، وبينما كانت أحياء القاهرة القديمة مركزا للصناعات التقليدية والمحال التجارية القديمة التى تتجر فى الأقمشة والعطارة والصناعات المعدنية والسلع الأخرى التى يحتاجها أفراد الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة والطبقات الفقيرة، أصبحت الأحياء الحديثة مراكز للأعمال والبنوك وشركات التأمين والتجارة، وتجارة الأسهم، والفنادق، والمتاجر الكبيرة والمطاعم الفاخرة، والمسارح، والسينمات، وأماكن التسلية^(١٠).

ويعكس التركيب الديموجرافى للقاهرة التناقض بين أحيائها القديمة والجديدة، التقليدية والحديثة، وتقع الأحياء الفقيرة فى ضواحي المدينة الشرقية والشمالية والجنوبية، وتحتوى على أعلى كثافة سكانية، فى شبرا وبولاق وإمبابة، يسكنها العمال والصناع وتجار التجزئة وصغار موظفى الحكومة، وتقطن الطبقة البرجوازية الأحياء الحديثة بين القاهرة القديمة، والضفة الغربية للنيل، مثل الأزبكية وباب اللوق، وجاردن سيتى، والزمالك، والروضة، والدقى، والعجوزة، والمهندسين، والمعادى، ومصر الجديدة،

ومدينة نصر. وبين تلك الأحياء التي تقع على طرفى النقيض اجتماعيا بما تعكس من بون شاسع بين القاهريين الفقراء والأغنياء هناك أحياء تسكنها الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، مثل المنيرة، الفجالة، الظاهر، العباسية، وبعض أجزاء من شبرا وروض الفرج، حيث يسكن بعض التجار وموظفى الحكومة وضباط الجيش^(١١).

المرض المزمن

لقد كان للنمو العمرانى والزيادة السكانية فى القاهرة منذ القرن التاسع عشر بعض الآثار السيئة، فقد تضاعف عدد سكان مصر بين عامى 1882 و 1986 سبع مرات (من 50400000 إلى 60700000) بينما تضاعف عدد سكان القاهرة فى نفس الفترة 22 مرة (من 400000 إلى 9000000). وكانت نسبة سكان القاهرة إلى سكان مصر عام 1882 هى 5.7 % فقفزت إلى 17.1 % عام 1986^(١٢)، وفى أقل من قرن أصبحت القاهرة ميجابوليس، تعاني من كل مشاكل التنمية فى مجالات مثل السكن، والخدمات، والمواصلات، والتلوث، بشكل يماثل ما تعاني منه دول العالم الثالث.

أرشيفات القاهرة :

الميراث الثقافى

تعكس أرشيفات القاهرة تاريخ المدينة الطويل، وتعتبر جزءاً لا ينفصل عن التطور المتروبولى للمدينة. فمصر تمتلك أحد أقدم الإدارات المركزية والهياكل البيروقراطية فى العالم، ومنذ أقدم العصور حتى العصر الحديث حفظت إدارات الدولة فى العاصمة الوثائق والسجلات.

فقد عثرت الحفائر الأثرية على عدد كبير من الوثائق البردية المصرية التى ترجع لمختلف عصورها، الفرعونى، والبطلمى، والرومانى البيزنطى، والإسلامى، كما عُثِر فى القاهرة أيضا على وثائق خاصة متعلقة بالتجارة والأعمال ترجع للعصور الوسطى

وتعكس اهتمام الجماعات الخاصة بالاحتفاظ بأرشيفاتها، وقد استهل العثمانيون حكمهم لمصر بتوثيق ملكية الأراضي المملوكية والضرائب المتعلقة بها، لتكون بذلك أول مسح للأراضي يقومون به، كما احتفظت المحاكم الشرعية بسجلات تعود إلى القرن السادس عشر، وهو بداية الحكم العثماني.

وبالرغم من هذا الميراث البيروقراطي عميق الجذور، والاهتمام الراسخ بالتوثيق والاحتفاظ بالأرشفات، فإن الدولة وعاصمتها لم يكن لهما أرشيف قبل 1829، عندما أنشأ محمد علي الدفترخانة، وكانت الوثائق والسجلات قبل هذا التاريخ موكول بحفظها للإدارة أو الموظف أصحاب العلاقة بها، وكان بإمكان الموظف الاحتفاظ بها عند تقاعده أو تركه للعمل، وكان الاستثناء الوحيد يتمثل في الوثائق المتعلقة بخزينة الدولة والإدارة المركزية والتي كانت تحفظ بشكل دائم في ديوان الوالي، وتشمل وثائق ملكية الأراضي، والالتزام، ورواتب الجند وموظفي الحكومة، والمراسلات المتبادلة مع القسطنطينية. بينما حفظت المحاكم الشرعية سجلاتها.

نشأة أرشيفات القاهرة

لقد كان لنشأة الدولة الحديثة على يد محمد علي وما استتبعها من اهتمام بالإدارة وإنشاء مؤسساتها، ما جعل من إنشاء الدفترخانة أمراً ضرورياً^(١٣)، وقد لحق الدمار بديوان كتحدا بك في القلعة إثر اندلاع حريق شب فيه في يونيو 1820، وأتى على جانب عظيم من الوثائق والسجلات المركزية، مما دفع محمد علي لإنشاء بناء مؤمن يخصص ليكون مستودعاً للأرشف، فكان أن شيدت الدفترخانة في موضع دار الضرب المملوكية الملاصقة لقلعة القاهرة، وكانت عبارة عن جناحين بنيا بالحجر بحوائط قوية وبرج مراقبة للحرس، واحتوت على 41 غرفة منيعة بارتفاع 5.25 متر، زيدت فيما بعد إلى 69 غرفة، نوافذها ضيقة، وبها أرفف خشبية.

وقد افتتحت في مايو 1829، وكانت تتبعيتها لبیت المال حتى 1843، عندما أصبحت جزءاً من ديوان الوالي، ثم انتقلت تتبعيتها بعد ذلك بثلاث سنوات إلى نظارة المالية، وفي عام 1876 أصبحت أحد إدارات نظارة الداخلية ثم عادت لنظارة المالية عام 1905، وكان الأرشف في تبعية وزارة الثقافة لمدة عامين 1977-79 ثم أصبح أحد إدارات وزارة

المالية، وما زال يلعب دور الأرشيف الجارى للوثائق المالية والقضائية. وقد نقلت منذ عام 1933 مجموعات من الوثائق التى ترجع إلى القرن التاسع عشر، وما قبله من أرشيف القاهرة، الذى عرف آنذاك بدار المحفوظات العمومية، إلى الأرشيف التاريخى الملكى الذى كان قد أنشئ حديثاً آنذاك.

وقد اتبع أسلوب تقليدى فى حفظ الوثائق والسجلات بالدفترخانة لمدة ستة عشر عاماً، منذ 1830 وحتى 1846 عندما أصدر الوالى لائحة لتنظيم الأرشيف، وكانت إدارات المنشأة قبل ذلك تحتفظ بوثائقها لمدة عامين ثم تنقل إلى غرف حصينة معدة لحفظها فى الأرشيف، وقد خصصت لكل إدارة غرفة أو أكثر تودع بها وثائقها بون فهرسة أو تصنيف، وقد كان نقص الخبرة الأرشيفية وراء هذا النظام التقليدى حيث إن الأرشيفيين الأول كانوا من كتبة الخزانة، ولم تكن هذه الطريقة فى تكديس الوثائق لتجعلها مناسبة للاستخدام، وكانت هناك حاجة لإدخال نظام حديث.

وقد أمر محمد على مسيو روزيه M. Roussier المدرس الفرنسى بمدرسة المحاسبة فى القاهرة عام 1844 بإعداد نظام مناسب لإعادة تنظيم الأرشيف؛ فتقدم باقتراح لإعادة التنظيم فى شكل لائحة قامت مجموعة من المستشارين بدراسة دقيقة، ثم أصدر الوالى مرسوماً للعمل بها، وقد وضعت هذه اللائحة أسس النظام الأرشيفى للدفترخانة.

واستمر أرشيف القاهرة فى العمل بالنظام الذى وضعه روزيه، مع بعض تعديلات غير مؤثرة أدخلت أعوام 1895، 1904، 1921، 1983 وتتعلق بمدة الحفظ فى جهة المنشأ وإضافة نوعيات جديدة من الوثائق للحفظ بشكل دائم أو مؤقت فى الأرشيف.

وطبقاً لللائحة تحتفظ جهة المنشأ بالوثائق والسجلات من خمسة إلى خمسة عشر عاماً طبقاً لنوع الوثيقة، كما تعرفها تشريعات الأرشيفات الجارية، وهناك لجنة خاصة تضم فى عضويتها ممثلين عن الإدارات المختصة وممثلين لإدارة التزويد بالأرشيف، تجتمع بشكل دورى لتحديد الوثائق غير المهمة لإعدامها، وتلك التى لها أهمية تاريخية لنقلها إلى الأرشيف لحفظها.

وقد رتب الأرشيف بست طرق هى : اسم الشخص، الموقع الجغرافى، أبجدى، تاريخى، موضوعى، رقمى. فرتبت سجلات دافعى الضرائب فى الحضر، وملفات موظفى الدولة والمحالين للتقاعد، والتجنيد ترتيباً أبجدياً بالاسم الأول، بينما طبق نظام

الترتيب الجغرافى على سجلات المباني المدنية ووثائق ملكيات الأراضي فى الريف، وبالموقع فى مثل الحى والشارع فى المدينة، والمركز والقرية فى الريف، وذلك فى تسلسل أبجدى، فى حين استخدم الترتيب التاريخى فى الأحوال الشخصية مثل سجلات المواليد والوفيات والزواج والطلاق، أما التصنيف الموضوعى فقد استخدم النوعيات العامة للوثائق ومحتويات المخازن. واستُخدم النظام الرقمى مع كل أنواع الوثائق بحيث يوضع رقم الوثيقة ثم الرف ثم المخزن على التوالى.

وقد نظمت اللائحة عمليات التزويد والإتاحة وإجراءات السرية التى يجب على الأرشيفيين اتباعها، وقد أعطيت لأرشفة القاهرة فى التعديل الأخير عام 1953 السلطة على الأرشفات الجارية فى كل مصالح الدولة، بما فى ذلك إجراءات التصنيف والفهرسة بما يمهد السبيل لإيجاد نظام أرشيفى موحد.

ويتكون أرشفة القاهرة الآن من أربعة مبانٍ فى القلعة: دفترخانة محمد على بغرفها الـ 69 بالمبنى ذى الجناحين، ومبنى الضربخانة الذى لعب دور الملحق وبه 22 غرفة، وسراى العدل المتاخمة للضربخانة، وبها 44 غرفة، وما يعرف بالمبنى الجديد بأجنحته الخمس، والذى شُيّد عام 1937، وبه 46 غرفة، ومجموع ذلك 189 غرفة يضمها ما يعرف بدار المحفوظات العمومية التى تحتوى على وثائق منذ العصر العثمانى وحتى العصر الحديث، غير أن معظم الوثائق المتعلقة بالعصر العثمانى والقرن التاسع عشر نقلت فى الفترة ما بين عامى 1933 و 1995 بالتدريج إلى الأرشفة التاريخى الملكى الذى أنشأه الملك فؤاد عام 1933، والذى تغير اسمه سنة 1954 إلى الأرشفة التاريخى القومى^(١٤).

الأرشفة التاريخى القومى

لقد أدرك الملك فؤاد أهمية تقديم صورة قومية للأسرة الحاكمة بإعادة كتابة تاريخ صانعى مصر الحديثة محمد على وإسماعيل، وشكلت لجنة خاصة لهذا الغرض من كبار الموظفين والباحثين سنة 1925، وكلف عدد من المؤرخين الأوروبيين بتأليف كتب عن منجزات أسرة محمد على، وقد ترتب على اهتمام الملك بالتاريخ ضرورة جمع وثائق عن

مصر من الأرشفات الأوروبية وكذلك إتاحة الوثائق المصرية، وحيث أن المؤرخين الأوروبيين الذين كلفوا بهذا العمل لم يكن باستطاعتهم قراءة العربية أو التركية كان من اللازم ترجمة الوثائق التي يحتاجونها فى أبحاثهم إلى الفرنسية، فاستخدم القصر فريقاً من أكفأ المترجمين ونقلت الوثائق المصرية التى ترجع للقرن التاسع عشر من أرشيف القاهرة فى القلعة إلى الديوان الملكى فى قصر عابدين، وخصص مبنى خاص داخل حرم القصر لما أطلق عليه الأرشفة التاريخى الملكى سنة 1933 واحتوى الأرشفة الجديد على وثائق أوروبية وأمريكية مخطوطة تتعلق بمصر فى القرن التاسع عشر، تم جمعها من أرشيفات لندن، وباريس، وقيينا، وواشنطن، إلى جانب الوثائق المصرية العربية والتركية التى تغطى الفترة من الحملة الفرنسية وحتى عصر إسماعيل . 1879 – 1798 .

وقد كان إنشاء الأرشفة التاريخى الملكى فى قصر عابدين نقطة تحول فى تاريخ أرشفة القاهرة، فبالرغم من حقيقة أنه كان يلعب دور قسم للأبحاث التاريخية فى القصر الملكى فإنه قدم خدمات أرشيفية لا غنى عنها، لم تكن متاحة فى دار المحفوظات العمومية بالقلعة، فترجم عدد غفير من الوثائق التركية إلى العربية، وفى نفس هذه الفترة أجرى تصنيف موضوعى لتلك الوثائق، وجمعت الفرمانات التى أصدرها السلطان العثمانى إلى ولاية مصر منذ 1597 وحتى 1914 وترجمت وصنفت، كذلك تم إعداد فهرس بطاقي يغطى 153 موضوعاً فى ترتيب تاريخى وأبجدي اعتمداً على المجموعات الأساسية للوثائق المصرية، وتمت إتاحتها، وقد انقسم الأرشفة التاريخى الملكى بعابدين حسب اللغات إلى أقسام ثلاثة رئيسية هى: الأوروبى والتركى والعربى، وكان الأرشفيون أساساً من الأوروبيين والمترجمين أتراك وأوروبيين ومشرقيين، وقد اقتصر استخدام الأرشفة التاريخى الملكى على الباحثين الأوروبيين والمصريين بتصريح خاص.

وقد عانى الأرشفة التاريخى بعابدين أوقاتاً عصيبة مع مقدم النظام الجمهورى وإلغاء الملكية، وكان النظام الجديد مستاءً من كل ما هو ملكى بدءاً بالأرشفة، واحتاجوا للمبنى الذى يضم الأرشفة ليكون قصراً لقيادة البوليس الحربى، وتم الاستغناء عن الموظفين ونقلت الوثائق كيفما اتفق إلى مكان غير ملائم فى مباني قصر

عابدين حيث كُومت في غرف صغيرة عالية الرطوبة، وبقيت بها مهمة لسنوات أربع، وبالطبع كان للقوارض دورها الملموس.

وفي يونيو 1954 صدر قرار بإنشاء الأرشيف القومى ليجمع المواد الأرشيفية التاريخية ويحفظها بنظام ويتيحها للباحثين، ولم يطبق القرار حتى عام 1956 عندما أعيد فتح أرشيف عابدين تحت اسم الأرشيف القومى فى نفس المكان الكئيب، وكُلف خمسة موظفين فقط بتنفيذ هذا القرار، واحتاجوا لعامين لتنظيم جزء من هذه الفوضى ليستطيعوا أن يتيحوا جزءاً من هذه الوثائق للباحثين، وأحياناً كان الباحث يُترك ليبحث فى أكوام الوثائق عما يحتاج إليه.

واستغرقت عملية إعادة الأرشيف التاريخى بعابدين لما كان عليه فى العهد الملكى عشر سنوات من العمل الشاق الذى قام به عدد محدود من الموظفين قليلى الخبرة التقنية أو معدوميهها، ووضع تصنيف جديد عام 1969، وقد أُلغى التصنيف حسب اللغة التى أدخلها الأرشيفيون الملكيون وقسمت الوثائق فى خمس نوعيات أساسية هى:

(أ) وثائق وسجلات إدارات الدولة السيادية.

(ب) وثائق إدارات الخدمات العامة.

(ج) وثائق إدارات الإنتاج والمؤسسات ذات الطبيعة الاقتصادية.

(د) وثائق الإدارة المحلية.

(هـ) وثائق المؤسسات الخاصة.

ولم يجر تصنيف فرعى أو حتى فهرسة على تلك الوثائق لإظهار محتويات كل نوعية منها، وقد تُصنّف الوثائق التى أنتجتها جهة ما تحت جهة أخرى، ولا يوجد تصنيف موضوعى أو تاريخى، وعلى الباحث أن ينفق وقتاً غير محدد للوصول إلى ما يحتاجه فى دراسته.

وبمجرد أن تم هذا التنظيم غير الملائم، نقل الأرشيف القومى من عابدين إلى القلعة سنة 1969، ثم نقل مرة أخرى إلى المبنى الجديد فى بولاق على ضفة النيل الشرقية سنة 1986، وقد أدت وسائل النقل غير المناسبة إلى إلحاق ضرر أكثر بمجموعات الوثائق، ففقدت بعض الوثائق الهامة أو وُضعت فى غير مكانها، وجرت

جهود محدودة وغير مؤثرة لترميم بعض الوثائق التالفة، إلا أن آلاف الوثائق بقيت على حالتها السيئة لم تُمس افتقارا لوسائل الترميم الحديثة والخبرة الفنية.

وباستقرار الأرشيف القومى فى المبنى الجديد ببولاق واتساع المساحة التخزينية فى هذا المبنى انضمت لمقتنياته كل المجموعات المتعلقة بالعصر العثمانى وكل الوثائق الأخرى المتعلقة بالقرن التاسع عشر، فنقلت تلك المجموعات من دار المحفوظات العمومية بالقلعة إلى الأرشيف القومى فى بولاق عدا الوثائق المتعلقة بالأسرة مثل وثائق وسجلات المواليد والوفيات والزواج والطلاق وسجلات التجنيد والملفات القضائية، والتي بقيت بحوزة دار المحفوظات العمومية، بالإضافة لوثائق الضرائب والوثائق المالية، وتقوم دار المحفوظات حاليا بعملية الحفظ الدائم لوثائق وزارتى المالية والعدل، بينما تنتقل وثائق الهيئات الأخرى إلى الأرشيف القومى بعد أن يمضى عليها خمسة عشر عاما فى جهة المنشأ.

ويقبل الأرشيف القومى الوثائق بناء على قرار من لجنة خبراء تحدد القيمة التاريخية لتلك الوثائق، ولا يمكن إعدام أى وثيقة فى جهة المنشأ إلا بإذن من الأرشيف القومى.

وثائق القاهرة فى الأرشيف القومى

يحتوى الأرشيف القومى على كل المصادر الأولية لدراسة تاريخ القاهرة منذ القرن السادس عشر وحتى خمسينات القرن العشرين، وتعتبر سجلات المحاكم الشرعية ووثائق الأوقاف هى المصادر الأساسية لدراسة القاهرة العثمانية، وتتضمن سجلات المحكمة الشرعية مختلف مظاهر التطور العمرانى والاقتصادى والاجتماعى للقاهرة فى العصر العثمانى، فألى جانب دور تلك المحاكم كمؤسسة قضائية، كانت تلعب أيضا دور مكتب التسجيل، كما أن الاتفاقيات التجارية وتعيين مشايخ الطوائف وأسعار السلع، وقيمة العملة وسعر الصرف، وتقديرات الضرائب وعقود الزواج وتقسيم أنصبة الموارث والإجراءات المتعلقة بفيضان النيل ووثائق الوقف، كلها كان يجب أن تسجل فى سجلات المحاكم الشرعية.

وتعتبر وثائق الوقف المصدر الأهم في دراسة التطور العمراني للقاهرة العثمانية، فقد احتوت وثائق الوقف على وصف كامل للمؤسسة موضوع الوقف بما في ذلك تفاصيل البناء وأجزائه وتكلفة البناء، والموقع، وأسماء المستفيدين، لذلك فإن تلك الوثائق تساعد الدارسين على تتبع التطور العمراني في القاهرة العثمانية، ودراسة طرز العمارة والخروج باستنتاجات حول الحياة المدنية والظروف الاجتماعية للقاهريين.

كما تقدم "سجلات محافظة مصر" معلومات عن القاهرة القرن التاسع عشر، فهي تحتوي على سجلات عن إعادة التنظيم العمراني الذي قام به محمد علي وإسماعيل، وكبريات المشاريع العامة، والخدمات الطبية والاجتماعية، وطوائف الصناعات، والجاليات الأجنبية وأعمال الشرطة.

أما وثائق مجلس الوزراء فتغطي مختلف مظاهر تطور القاهرة منذ الاحتلال البريطاني سنة 1882 وحتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين، وتتعلق في معظمها بإعادة تنظيم العمران، والأشغال العمومية، والخدمات العامة، والامتداد العمراني في ضواحي القاهرة.

كما توفر سجلات تعدادي 1846 و 1868 صورة عن التطور الديموجرافي للقاهرة، فهي تعطي معلومات مفصلة عن سكان القاهرة، وأسرهم، وأعمارهم، ووظائفهم، ومساقط رؤوسهم ودياناتهم، بينما نجد أن التعداد الذي كان يتم كل عقد والذي بدأ منذ 1897 في ظل الاحتلال البريطاني واستمر خلال القرن العشرين يفتقر إلى تلك التفصيلات عن سكان القاهرة.

دراسة أرشيف القاهرة

إن دراسة أرشيف القاهرة لمن الأمثر الشاقة بالفعل، فلم تعد فهارس مفصلة أو تصنيف للأرشيف بشكل عام، أو للوثائق المتعلقة بالتاريخ المتروبولي للقاهرة بشكل خاص، فاستخدام المادة الأرشيفية عن القاهرة يتطلب وقتا غير محدود وصبرا وحظا، وخدمة التصوير فقيرة، ومحددة بـ 50 لقطة لكل وثيقة. واستخدام الأرشيف يستلزم

وجود تصريح يستغرق استخراجَه ثلاثة أسابيع للباحث المصرى، ومن شهرين إلى ثلاثة للأجانب.

إن ضعف الخدمة فى أرشيف القاهرة موضوع معقد تسببت فيه عدة عوامل، فبدلاً من أن يكون هيئة مستقلة بذاتها، كان دائماً تابعاً لهيئة أخرى، يعامل معاملة قسم صغير، وكان تمويله وموظفوه دائماً دون المستوى المطلوب، فعدد الأرشيفيين المؤهلين والمدربين محدود، وكذلك أجورهم منخفضة، لذا فسرعان ما يترك العمل بمجرد توفر فرصة عمل أفضل، إلى جانب ذلك فالمخازن حالتها سيئة، توفر الفرصة للرطوبة والقوارض لتوقع أبلغ الضرر بالمادة الأرشيفية، ونظام منع الحريق غير فعال. ويجب القيام بكثير من الجهد من أجل تحديث الأرشيف وخدماته.

الهوامش

- (١) جمال حمدان، القاهرة (القاهرة، 1993)، 6 - 14.
- (٢) D. Behrens-Abouseif, Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ismail, (1467-1876) Cairo (1985) 2-4
- (٣) A. Reymond, Le (Paris, 1993)' J. Abu-Lughod, Cairo: 1001 عن تاريخ القاهرة المبكر انظر 1001
Cairo years of the City Victorious (Princeton, 1971)' S. Lane-Poole, The Story of Cairo (1902)'
M. Clerget, Le Caire: Etude de Geographie Urbain et d'Histoire Economique (Cairo, 1934).
- (٤) Clerget, Le Caire, vol 1, 194' Abu-Lughod, Cairo, 709' N. Hanna, An Urban History of. Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods (Cairo, 1983), 2-4.
- (٥) لمزيد من التفصيل انظر : Behrens-Abousief, Azbakiyya, chapter 3.
- (٦) A. L. S. Marsot, Egypt in the Reign of Muhammad Ali Cambridge, 1984).
- (٧) Behrens-Abousief, Azbakiyya, 71-88.
- (٨) Ibid., 89-100
- (٩) أ. زكى، القاهرة (القاهرة، 19143) 192-177.
- (١٠) حمدان، القاهرة، 76-88 .
- (١١) Reymond, Le Caire, chapter 16 ؛ ف. مصيلحي، تطور العاصمة المصرية (القاهرة، 1988).
- (١٢) حمدان، القاهرة، 240-54 ' F. Shorter, Cairo's Leap Forward: People, Households, and Dwelling Space (Cairo, 1989).
- (١٣) كل معلومات الدفترخانة وتطور أرشيفات القاهرة معتمدة على دراستين بالعربية ، غير منشورتين :
س. أ. شفاعة ، مائة وخمسون عاما عمر الدفترخانة المصرية (1979) ؛ إ. عمر، دار المحفوظات العمومية
بالقاهرة (رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1987).
- (١٤) كل المعلومات عن الأرشيف القومى بالقاهرة تعتمد على خبرة الكاتب الشخصية، وعلى تقرير
ز. س. نجم، دار الوثائق المصرية فى ثلاثين عاما 1954 - 1984، والمؤرخ المصرى، قسم التاريخ جامعة القاهرة،
ج. 2 (1988) ، 201-223 .

الفصل السابع

ميناء لندن والأرشيفات والتاريخ

"التاريخ السائل": تاريخ هيئة ميناء لندن

روبرت آسينال

تتوفر هذه الورقة على دراسة أرشيف هيئة ميناء لندن Port of London Authority PLA فتدرس أهميته في الوصول لفهم أكمل عن التطور الذي شهدته لندن حتى صارت أحد المدن الكبرى في العالم. ولقد وصف إدوين جرين أرشيفات الأعمال في ورقة سابقة بأنها المارد النائم للتاريخ المتروبولي، وهو محق في هذا الوصف، على اعتبار أنها مصدر لم يلق الاستغلال ولا التقدير اللذين يستحقهما، غير أنى أود أن أنظر لأرشيف هيئة الميناء على أنه أرشيف معروف ومعتبر حتى وإن كان ذلك في إطار دائرة صغيرة من الباحثين، ويشهد على ذلك زميلي بيتر جيلري Peter Guillery وسارة بالمر Sarah Palmer وكلاهما باحث أكاديمي محترف.

وقد تأسست هيئة ميناء لندن بموجب قرار البرلمان Act of Parliament الصادر في عام 1908 لإدارة ميناء لندن والحفاظ عليه وتحسينه، فكانت تدير أنظمة أرصفة ميناء لندن وتشرف على إدارة التيمز من تدنجتون Teddington وحتى نور. Nore، وما زالت تلك الهيئة قائمة حتى الآن لم تتغير مسئولياتها الأساسية بالرغم من إغلاق الأرصفة أعلى النهر في لندن ونقل تفريغ وتحميل الشحنات إلى أسفل النهر في تيلبوري Tilbury وعند مصب التايمز، وقد كانت الهيئة، عند بدء أعمالها رسمياً عام 1909 ضالعة في واحدة من أكبر عمليات الاستيلاء التي شهدتها تاريخ الأعمال، حيث آلت إليها أراضي وممتلكات شركات الأرصفة الخاصة التي كانت تعمل في لندن منذ بدايات القرن التاسع عشر، كما ورثت مسئولية إدارة حوالي 70 ميلاً من التيمز كونسرفيتورز Thames Conservators التي تمتد جنورها إلى عام 1770، فلم تحصل فقط على:

22 m من الممتلكات

2700 إيكرو من الأراضي والمياه

15000 عامل.

ولكن حصلت أيضا على مجموعة من وثائق العمل، هي ميراث شركات الأرصفة والتيمز كونسرفيتورز، أضيف إليها عدد غفير من الوثائق التي أفرزتها الهيئة عبر السنين منذ 1909، وعندما قام مجلس أرشيفات الأعمال Business Archives Council بدراستها في أوائل الثمانينات من القرن العشرين وصفها بأنها ربما تكون أضخم مجموعة من وثائق الأعمال التي ما زالت في حوزة منشئها في المملكة المتحدة، حيث بلغ حجمها حوالى 5000 متر مربع، وقد قررت الهيئة عام 1985 أنها لم تعد تستطيع القيام على هذه المجموعة الضخمة، فعهد بها إلى متحف لندن كإعارة مفتوحة، وفي 1 يناير 1986 زادت مقتنيات متحف لندن 35 % بحصوله على:

● 10000 كتاب وكتيب.

● 25000 صورة.

● 25000 رسم هندسى ومعمارى.

● 700 برواز به صور مطبوعة ومحفورة.

● 2500 صورة مطبوعة ومحفورة دون براويز.

● عدة آلاف من سندات الملكية ووثائق الأراضي.

● 150 فيلم 35 مم، 16 مم، 8 مم.

وأرشيفات الهيئات التالية

● لجنة النهر بمجلس مدينة لندن Corporation of London River Committee (1857 – 1775).

● مجلس تنظيم الملاحة بالتيمز Thames Conservancy (1909 – 1857).

● شركات الأرصفة الخاصة فى لندن (1800 - 1909).

● هيئة ميناء لندن (1909 حتى تاريخه).

ويجب أن نشير إلى أن سجلات محاضر الجلسات المتضمنة فى الأرشيفات سالفة الذكر - أكثر من 600 - فريدة من نوعها: لا توجد نسخ منها فى أى مكتبة أو مؤسسة أخرى، فهى تحكى فى مجموعها قصة تكوُّن وتطور ما كان أكبر ميناء فى العالم، والذي تمخض عنه دور لندن المحورى كمركز مرموق تجاريا وبحريا وماليا.

وقد جرت إيداعات هامة فى السنوات الأخيرة لمواد لا تخص الهيئة من مؤسسات تتعامل مع جانب الشحن والتفريغ فى الميناء، ومن أفراد ومؤسسات ترسم خرائط لتطور أراضى الأرصفة منذ 1981 وأهم هذه المجموعات:

● أرشيف الجمعية الأهلية لعمال الميناء National Association of Port Employers.

● أرشيف جمعية نظار الأرصفة بلندن London Wharfingers Association.

● أرشيف جمعية الموانئ البريطانية British Ports Association ويغطى صناعة النقل عبر الموانئ على المستوى القومى.

● أرشيف سكراتون Scrutton أكبر شركة شحن وتفريغ سفن فى ميناء لندن.

● 300 وثيقة تاريخ شفاهى.

● وثائق شركة وكلاء الفحم Coal Factors Society.

● تقارير ومنشورات وأوراق لشركة تطوير أراضى أرصفة ميناء لندن London Docklands Development Corporation.

● خطط وعروض وتقارير المطورين.

● أرشيف ومنشورات بوكلاندرز فورم Docklands Forum.

● الاستعلامات العامة، مثل تلك التى تخص مطار مدينة لندن ولايمهاوس لنك Limehouse Link (أعلى امتداد للطرق السريعة كلفة فى العالم).

● مواد دعاية سماسرة الأراضي.

● تقارير وأوراق عن البنية التحتية للنقل.

● أوراق وتقارير ومنشورات من مجموعات العمل في دوكلاندز.

منشورات ومقالات أكاديمية.

وقد وصل مجموع مقتنيات أرشيف ومكتبة دوكلاندز في اتساع مجاله وكم محتوياته إلى مستوى يماثل المكتبة التاريخية أو دار المحفوظات الخاصة ببورو borough، ونتيجة لتكون هذه المجموعات تبوأ المكتبة والأرشيف مكانهما كأهم مصدر لمن يريد أن يدرس التاريخ والملاحم المعاصرة لميناء النهر ودوكلاندز. وكما يشير عنواننا نحن نقع في قلب دوكلاندز، منذ 12 عاماً.

وتسجل هذه المادة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لنظام ميناء لندن وهيكل السلطة الذي كان محوريا في تطور لندن لتصبح مدينة عالمية وبرزوغ بريطانيا كقوة عالمية، فقد كان ميناء لندن هو المحرك الذي أطلق النمو في لندن، ولتنظر لأي تمثيل للندين، فلنرجع مثلا 2000 عاماً للوراء، والنهر في قلب المكان، لقد نمت لندن بسبب نهريها وأصبحت أحد العواصم المعودة التي تلعب دور الميناء العالمي في الوقت نفسه، انظر إلى القطاعات التجارية التي نمت اعتمادا على الشحنات التي تصل إلى الميناء - التأمين البحري، السمسرة، تجارة السلع، الشحن، الأسواق، تبادل السلع، وكثير غيرها. لقد أشارت د. هارجنج Dr. Harding إلى أن نواب الملك في مدينة لندن شكلوا صفوة تجارية - وكانت هذه التجارة معتمدة أساسا على الميناء، فمعظم الرجال الذين كانوا وراء إنشاء شركات الأرصفة الخاصة منذ 1802 كانوا من المنغمسين في هيكل السلطة بمدينة لندن - نواب الملك، وأعضاء في مجلس العموم، وحتى لوردات - الذين تكونت ثرواتهم وقوتهم ومكانتهم اعتمادا على ما يحمله البحر من تجارة قادمة إلى لندن.

ولننظر للتأثير الجغرافي للميناء - 8.5 ميل مربع من شرق وجنوب لندن يسيطر عليها نظام الأرصفة، إلى جانب شريط من المنشآت على ضفة النهر تمتد من أيلوورث Isleworth إلى جريفسند Gravesend وما وراها إلى الشرق.

ولننظر للزاوية الإنسانية - لقد استخدم الميناء بشكل مباشر أكثر من 60000 شخص فى أوج نشاطه، كما اعتمدت وظائف 25000 من اللندنيين على السفن والبضائع المارة بالميناء.

لقد زود الميناء معظم اللندنيين بالطعام الذى يأكلون، والوقود الذى يحرقون والمواد الأولية التى يصنعون بها، هذا الأرشفيف يروى قصة أكثر من 200 عام عندما كان النهر فى قلب تطور لندن، وتستمر القصة - بالرغم من إغلاق الأرصفة أعلى النهر - فلندن مازالت الميناء الرئيسى للمملكة المتحدة، ومازالت هيئة الميناء تقوم بمسئولياتها، ومازالت وثائق العمل الهامة بها تغذى الأرشفيف.

وهناك بلا شك دوكلاندز اليوم، والتى نشأت من ثنايا الإهمال الذى نجم عن إغلاق الأرصفة أعلى النهر، تلك الأميال الثمانية والنصف المربعة من الأراضى على بعد ميلين فقط من مدينة لندن، ومهمتنا هى أيضا تتبع تطور قصة دوكلاندز من الجذب إلى الثراء، وهكذا سنجد فى المكتبة الوثائق المتعلقة بكل جوانب قصة دوكلاندز من الـ "إل.دى.دى.سى" (LDDC) والمطورون ومجتمعها.

لقد استهللت حديثى بأن هذا الأرشفيف استثناء من القاعدة العامة لأرشفيفات الأعمال، التى لم تلق من التقدير ولا الاستغلال ما تستحق من المؤرخين، لقد استمرت المكتبة والأرشفيف، لأكثر من 14 عاماً فى تقديم الخدمة الأكاديمية الشاملة والمحترفة للأكاديميين والجمهور العام، حيث يبلغ عدد رواد المكتبة من الباحثين أكثر من 700 كل عام، كما أقوم كل سنة بالرد على حوالى 300 رسالة تحمل طلبات وأتعامل مع أكثر من 100 أمر تصوير. ومع هذا الحجم من الطلب والذى ينمو عاما بعد عام، من المؤسف أن أخبركم بأنه نظرا لحفظ التمويل من قبل الحكومة المركزية، اضطر متحف لندن لإغلاق الأرشفيف أمام الجمهور من 1 أبريل 1996 وحتى إشعار آخر، وهو مؤشر على تأخر أولوية ميراثنا القومى فى نظر الحكومة، وهو أمر قد لا يثير دهشة الحاضرين هنا من المملكة المتحدة، ولكنه قد يصد بعض المشاركين والزوار من الدول الأخرى.

هناك بناءان صنعهما الإنسان يمكن رؤيتهما من سفينة الفضاء التى تدور حول الأرض - أحدهما سور الصين العظيم والآخر هو نظم الأرصفة للندن - هذا هو

الميراث الذي تركه المقاولون والمهندسون والمعماريون والمخططون والإداريون من العصرين الجريجوري والفيكتوري اللذين سجل هذا الأرشفة منجزاتهما.

في الظروف العادية يعتبر هذا الأرشفة هو المكان الأمثل للزيارة لمن أراد معلومات عن ماضي وحاضر بوكلاندرز، فثبوا لنفسه دور دار محفوظات ميناء لندن، ونأمل أن يعود للعب هذا الدور في أقرب فرصة ممكنة، إن أرشفة الأعمال يمكن أن يكون أكثر من مجرد مجموعة عظيمة من المتفرقات التنظيمية والمالية. يصف جون بورنز John Burns المؤرخ اللندني الجاد الذي كان أول من وصل لمنصب Cabinet Ministers من الطبقة العاملة التاييمز بأنه التاريخ السائل، وهذا هو ما ينزل من الصنبور في أرشفة هيئة ميناء لندن.

استخدام أرشيف هيئة ميناء لندن فى التاريخ الهندسى والمعمارى

بيتر جيلرى

لقد اندثر الجانب الأعظم من ميناء لندن التاريخى، وليست قلة ما قاوم الاندثار ناتجة عن التجديدات الأخيرة فقط، فالموانئ معابر، وتعتمد استمرارية الرصيف التجارى للميناء فى الحياة على قدرته على مواكبة التغيرات السريعة فى أنماط التجارة والشحن والتعامل مع البضائع، فيجب تحسين المباني والأحواض والأهوسة، وإذا توفرت الموارد المالية اللازمة، تم تجديد مواقع برمتها بدون تردد قد تبعثه عواطف معينة، فكثير من المباني المهمة لم تكن من الرواسخ المؤبدة، فلم يتعد عمرها جيلا أو جيلين، وهناك عامل آخر لعب دورا هاما فى زوال المبنى التاريخى، وهو تدمير جانب عظيم من الأرصفة نتيجة القصف فى وقت الحرب، لذلك يتعاظم اعتمادنا بالنسبة لتاريخ ميناء لندن الهندسى والمعمارى على الشاهد الوثائقى، ومن هنا تتضح القيمة العظمى لبقاء الأرشيف الضخم الخاص بهيئة ميناء لندن بالمتحف بدوكلاندز^(١).

تقع أجزاء نظام الأرصفة فى عهدها الأول بلندن فى قلب المنطقة التى تغطيها الدراسة المسحية للندن فى آخر جزأين نشرا منها عن التاريخ المعمارى والطوبوغرافى للندن^(٢)، عندما بدأت الأبحاث الخاصة بهذين الجزأين فى سنة 1986 كانت الأرصفة التجارية التى سيطرت طويلا على المنطقة قد أغلقت لتوها، وكانت خلوا منذئذ إلا من بعض المباني التى ترجع لفترة ما قبل الحرب، ولنقارن بين صورتين أحدهما التقطت لأرصفة الهند الغربية فى عام 1986 تظهر الموقع من الشرق وتظهر خلفه وسط لندن، وأخرى التقطت عام 1921، وهى مقارنة تقول الكثير (صورة 1، 2)، ونرى فى الصورة الأخيرة الأرصفة المتينة البنيان فى الطرف الشمالى أو رصيف الاستيراد، كما شيدت

فى معظمها، فى بدايات القرن التاسع عشر، ولم تكن المباني المبكرة فى أرصفة الهند الغربية مجرد سقائف بسيطة ولكنها عمائر مهيبه خلابة، وفى إعادة اكتشافها من خلال أرشيف الهيئة أمكننا أن نعرف الكثير، ليس فقط عن ميناء لندن نفسه، ولكن أيضا عن مسائل ذات أهمية أوسع، لا يشترط أن تكون دائما ذات طابع معمارى أو هندسى، لقد اعتمدت الدراسة المسحية للندن بشكل مكثف على أرشيف هيئة ميناء لندن عند دراسة تاريخ الأرصفة، وكان التعامل مع التوثيق الأولى الضخم فى هذا الأرشفة أمرا محوريا.

وقد نتضح لنا هذه النقاط العامة من خلال بعض الأمثلة من أرصفة الهند الغربية، وجارتها أرصفة ميلوال Millwall Docks، مستدلين بالخاص والمتخصص على المبدأ العام المتعلق بفائدة استخدام الأرشفة فى فهم المنشآت، ومنها إلى موضوعات تاريخية أرحب متعلقة بطرق ومواد البناء، فإننا نتعرف من الأرشفة على التواريخ، والتكاليف، وأسماء المعمارين أو المهندسين أو البنائين، كما نلمح أيضا الإجابات عن أسئلة أكثر عمومية عن كيف ولماذا تم البناء.

وتقدم لنا أحد المباني المبكرة الباقية أول دراسة حالة، فهى توضح طبيعة المادة الأرشفية المستخدمة كما توضح أيضا نقطة أساسية وهى أن المباني القائمة قد لا تفهم بشكل مناسب بدون الاستعانة بالوثائق، بالرغم من أن تلك المباني يمكن بل ويجب بالطبع أن تقرأ كما لو كانت هى نفسها وثائق، فعلى الرصيف الشمالى من أرصفة جزر الهند الغربية كانت هناك تسعة مخازن تقف شامخة فى صف واحد بامتداد نصف ميل، ظلت صامدة منذ 1803 حتى دمرتها (عدا آخر مخزين فى الطرف الغربى) الغارات الجوية سنة 1940 (صورة 2،3)، كانت تلك المخازن مخصصة لتخزين السكر القادم من جزر الهند الغربية، وقد كان هذا الحفظ المؤمن لتلك السلعة الثمينة فى هذا الموقع هو الأداة التى أدت لوفاء التشريعات التى أدت لتطور وإعادة بناء ميناء لندن ليصبح مركزا للتجارة المارة يضطرب بالنشاط، تلك كانت من أوائل مخازن أرصفة الميناء فى لندن وأحد أعظم الآثار الشاهدة على القوة التجارية الأوروبية فى مطلع القرن التاسع عشر.

فلم يوجد مكان تخزين فى أى مكان آخر يمكن أن يضاهيه حجما وترابطا وتعبيرا عن الطموحات العامة لتجار لندن فى أواخر العصر الجريجورى فى تجارة منظمة ومنضبطة، وقبل كل شىء أمانة، وتحفظ سجلات محاضر الجلسات والحسابات فى أرشيف الهيئة بتوثيق كامل لبنائها، وتعتبر تلك الوثائق تسجيلا شاملا- وإن كان أصم أحيانا - لشئون شركة الأرصفة يقدم لنا هيكلا يمكن أن نركب عليه ما نجد من أدلة. وفى أحيان قليلة تقدم لنا الوثائق قصة حياة متكاملة البنيان مثل ما نجده فى شكاوى أمناء المخزن من تسرب المولاس على الأرضيات ووصوله لمكاتبهم وسجلاتهم، وهو ما كان سببا مباشرا لبناء مكاتب منفصلة لهم، وتسجل العديد من الصور الفوتوغرافية المبكرة تلك المباني أثناء استخدامها وتعطى فكرة عن ضخامتها، حوالى ضعف طول قصر فرساي.

وقد صنعت أرضية أحد البلوكات الباقية (رقم 2 ، مخزن، إلى الشرق) من الخشب والأعمدة من الحديد الزهر، وتشى سجلات محاضر الجلسات والرسومات إلى أن الأعمدة كانت تعديلا أدخله حديثا المهندس العظيم جون رينى John Rennie عام 1814، وكان وزن براميل السكر الثقيل قد فرض عليهم فى البداية أن يكون ارتفاع الأسقف منخفضا، وبالرغم من ذلك لم تحتل الأعمدة الخشبية هذا الوزن الذى كان يفوق قدرتها على الاحتمال، وكان الحديد مرتفع الثمن وأهملته شركة الأرصفة كمادة بناء لعدم الحاجة إليه، وكان ذلك حول عام 1800، غير أن الحروب النابوليونية أدت لنقص فى الأخشاب حتى أن الجدوى الاقتصادية النسبية لاستخدام الخشب مقارنة بالحديد قد تحولت لصالح الحديد، وبالرغم من ذلك فقد كانت تكلفة استبدال القوائم الخشبية بأعمدة حديدية فى ست مخازن تبلغ حوالى 54000 جنيه إسترليني، وهو مبلغ ضخم فى تلك الفترة. وكان باستطاعة الشركة أن تتفق هذا المبلغ، حيث كانت موسرة حتى عام 1815، فقد أعطاهم تشريع إنشائها فى عام 1799 حق احتكار تجارة الهند الغربية، وقد تجاهلت الشركة روح أحد البنود الذى أدرج للتخفيف من آثار الاحتكار بتحديد حد أقصى للربح، فانطلقت الشركة تكس الأموال، وربما لا يمكننا القول بأن شركة أرصفة أو هيئة ميناء يكون من أهدافها جمع المال، غير أن ذلك كان واقع الحال وما كان يحدث بالفعل.

والبلوك الآخر الباقي (رقم 1، مخزن إلى الغرب) لم يدخل الحديد فى بنائه، وقد يدفعنا ذلك لأن نرجعه لتاريخ أقدم، غير أنه ليس كذلك، ومن الصعوبة بمكان أن نجزم بذلك بدون دليل من الأرشيف، فالرسومات المبكرة تشير إلى أنه شيد فى عامى 1802-3 كمبنى منخفض الارتفاع يتراوح بين طابق واثنين، وتم تعليته لارتفاعه الحالى سنة 1827 ليخزن فيه الشاي (صورة 4)، ولم يتم تجديد احتكار شركة الأرصفة لتجارة الهند الغربية عام 1821، مما اضطرها للتنوع فى أعمالها لتنافس جارتها أرصفة الهند الشرقية، ولم يكن الشاي ثقيلًا أو كثليًا فى تخزينه كالسكر، وقد سمح ذلك بارتفاع الأسقف مع استخدام الأعمدة الخشبية، عندما كان لكل "م" قيمته، وكان المبنى من الداخل يشى بكل ملامح رسومات 1827، إلا أن محاضر الجلسات والرسومات والصور، توثق اندلاع حريق مدمر عام 1901 أتى على محتويات المخزن من الداخل تماما، وقد أعيد بناؤه بالكامل سنة 1902 طبقا لمواصفات 1827، ومما يسترعى الانتباه أن إعادة البناء تمت باستخدام الأسمنت المسلح، وقد روعى فيه تقليد كل التفاصيل بشكل يدهش أدق العاملين فى مجال الحفاظ على الآثار، فقد كنا نتوقع أن نجد مبنى يشى بتقنيات البناء فى مطلع القرن العشرين، ولكنه بدلا من ذلك شيد ليتنكر فى ثوب بناء لم يصبه أى تغير، شيد قبل ذلك بمئة عام.

بالطبع لا نتوقف رواية الأرشيف على الحياة المعقدة التى شهدتها المباني بشكل يفوق تصورنا، ولكن دور الدليل الأرشيفى يتبدى بشكل أخطر عندما يفنى المبنى تماما، فمنذ 1813 عندما كانت الشركة متخمة بأموال الاحتكار شيد المرسى المواجه للمخازن سالفة الذكر فى تشكيلة رائعة من المباني، وكانت مخصصة لتخزين الروم و الماهوجنى، أهم واردات الهند الغربية بعد السكر، وكان جون رينى هو المهندس المسئول عن هذه الأعمال التى انعكست فيها عبقريته المجددة، فاستخدامه للحديد المسلح فى تلك المنشآت كانت له أهمية كبرى فى تطور تكنولوجيا البناء التى كانت أحد الفروع الهامة للثورة الصناعية والتى أدت بدورها إلى ثورة معمارية، غير أن الأجزاء التى لم يتم هدمها من هذه المباني فى الثلاثينات قصفت جوى سنة 1940، وهكذا طوى النسيان بعض المباني الهامة تاريخيا لتعود وتطفو على السطح مرة أخرى من خلال التوثيق الأثرى المكتنز فى أرشيف الهيئة.

فى عام 1813 أقيمت مظلة مفتوحة مكونة من 87 قسم بطول حوالى 400 متر على المرسى لتحمى عمليات وزن براميل الروم (صورة 5)، وكان أحد استعراضات القوة لاستخدام الحديد الزهر فى البناء، فقد كان البناء كله مشيدا من الحديد، واعتبر لذلك ضد الحريق، وهناك رسومات تكمل الوثائق المكتوبة لهذا البناء، وهناك أيضا صور له ضمن العديد من الصور المبكرة فى الأرشيف، استخدمت لتوثيق وقوع حادث فيما يعتقد لأغراض تأمينية.

وقد أعد رينى فى عام 1813 أيضا لبناء أقبية وإقامة أسقف على جزء من الرصيف خلف هذه المظلة (صورة 6)، ولم يبق لنا سوى رسم لهذه الأسقف، وقد كانت محاولة غير تقليدية بالمرّة، تجريبية، وجريئة، وغير مسبوقة فى استخدامها للحديد المطاوع فى البناء، لتخفيف وزن الأسقف بطول حوالى 11 متراً لكل جانب من جانبي السقف المذهب ، وقد سقط السقف سقوطاً مروعا خلال شهر.. جرأة .. نعم .. ولكنها مدمرة.

وبعد أن أعيد بناء تلك المظلات بأسقف خشبية ، شيد مخزنان كبيران للروم تماثل مساحة كل منهما ملعب كرة قدم، وقد اقترح رينى أن تشيّد المباني التى فوق الأرض من الحديد فقط، فى حين أصر مديروه بالطبع على أن تكون جمالونات الأسقف خشبية، وقام كل مخزن على 24 x 9 فتحة أقبية، وكان بالأقبية فتحات بيضاوية بها أطباق حديدية تحمل عددا من العدسات لإدخال الضوء؛ فقد كان استخدام المصابيح ممنوعا بالطبع فى الأقبية، وكان على العاملين أن يستخدموا العواكس اليدوية لتعكس الضوء من العدسات.

وأدخلت تجديدات أخرى مع إقامة ظلات للماهوجنى على ما عرف بأرصفة الخشب على جانبي مرسى الروم، وقد زاد استيراد الماهوجنى لاستخدامه فى صناعة الأثاث بشكل كبير فى القرن التاسع عشر، وكانت جنوع الشجر غير المقطعة تخزن فى العراء فى بادئ الأمر ثم تم تغطيتها تدريجيا، وفى سنة 1817 ابتكر رينى ما أسماه "ماكينة السقيفة" machine shed (صورة 7) للماهوجنى وكان التصميم دقيقا، يشكل فى الأساس إطار للماكينة، وهو أول استخدام موثق لما أصبح سنة متبعة فى المباني

الصناعية، الونش المثبت فى أعلى البناء من الداخل القادر على الحركة حاملا الأثقال، فأمكن بذلك رفع جذوع الشجر التى يصل وزنها إلى خمسة أطنان ونقلها لمسافة ثم إنزالها عن طريق روافع تحملها وتجري على تروس تدور على قضبان مسننة مثبتة فى سقف البناء ، وكانت تلك خطوة هائلة للأمام فى التعامل مع البضائع بكفاءة، وقد غطت الماكينات تكلفتها خلال ستة أشهر بما وفرته من أجور العمال، واستمرت تلك البناءات فى العمل خمسين سنة قبل أن تفقد جدواها بإدخال نظام روافع أكثر تعقيدا .

لقد كانت مباني الروم والمهاوجنى بأرصفة الهند الغربية والتي أقيمت بين عامى 1813 و 1817 نماذج متميزة للعمارة الصناعية ولكنها سرىعا ما أصيبت بالاضمحلال مثلها فى ذلك مثل العديد من المباني الصناعية الأخرى، والأسرع منها فناً أنظمة التعامل مع البضائع؛ وهى أساسية لفهم كيفية عمل الأرصفة، فقد كانت فى وقت من الأوقات سائدة ومعقدة، ثم اندثرت تماما الآن، فقد كانت القوة الهيدروليكية أساسية فى عمل الأرصفة من منتصف القرن التاسع عشر وحتى سبعينات القرن العشرين، فيما يشكل أحد الأمثلة على تطبيق التجديدات التكنولوجية لتوفير العمالة، ولكن لم يتبق تقريبا أى من هذه الأنظمة التى كانت لها مكانتها فى الماضى، ويمكننا سد بعض الثغرات فى معلوماتنا، اعتمادا على محاضر الجلسات وأوراق الأعمال الأخرى والرسومات والصور، فعلى سبيل المثال هناك رسم يرجع لعام 1869 مقدم للشركة من مؤسسة دبليو جى أرمسترونج W.G. Armstrong وهى مؤسسة مقاولات واختراعات عظيمة، يوضح قطاعا فى مجمع هيدروليكي (صورة 8)، وكانت هذه الأبراج منتشرة فى نظام الأرصفة، وكانت تخزن فيها المياه بقوتها المحركة بعيدا عن المحركات الأولية فى اسطوانات مثبتة بمكابس ثقيلة.

لقد شيدت أرصفة ميلوال إلى الجنوب من أرصفة الهند الغربية فى أواخر الستينات من القرن التاسع عشر، وبدأت بداية غير مبشرة بمبلغ صغير من المال وبدون عمل خاص بها فى ميناء يعج بالمنافسة، ولكنها حفرت لنفسها مكانا فى تجارة الحبوب، غير أنها أصبحت مع انقلاب القرن مستودعا كثيفا للحبوب، سلة خبز لندن، ولم يبق من هذه الأرصفة إلا بعض الكتل فقد أعيد إنشاء المراسى بالكامل.

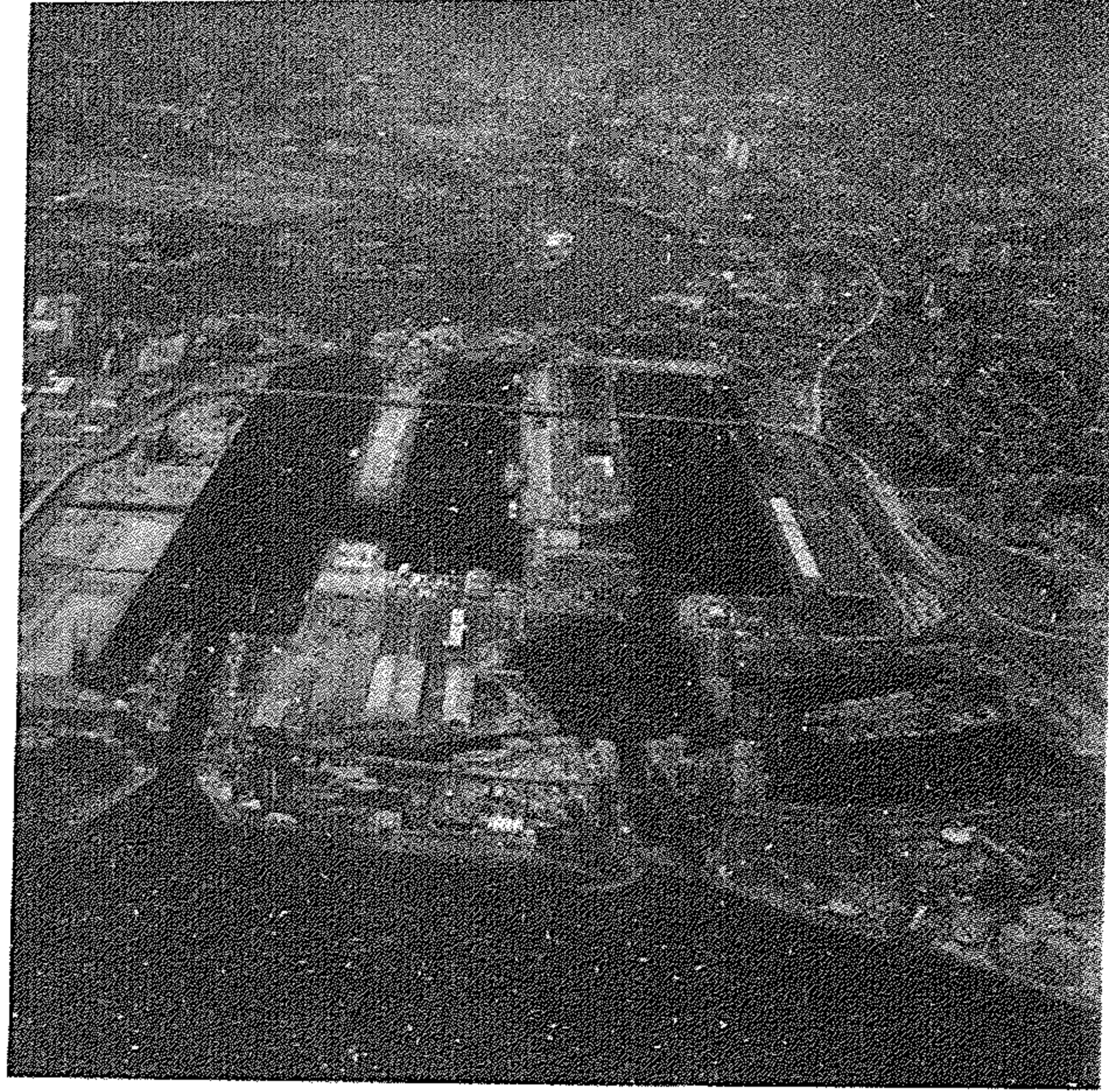
إن قصة الإبداع التي قادت نجاح الأرصفة مودعة هناك في الأرشيف، في سبعينات القرن التاسع عشر اخترع مهندس عبقري آخر هو فردريك إليوت بوكهام Frederic Eliot Duckham مصعد تجريبي يعمل بضغط الهواء لجذب تجارة الحبوب للأرصفة، وقد نجحت التجربة إلى الحد الذي دفع لبناء "شون" حبوب ضخمة كانت أكبرها الشونة المركزية Cenetral Granary، التي ظلت الشونة الرئيسية لميناء لندن منذ 1903 وحتى 1969، وتبلغ سعتها 20000 طن على امتداد 7.5 إيكير من مساحات التخزين وتعمل بنظام ميكنة معقد يسمح بسرعة استلام وتسليم الحبوب من الرصيف، للشونة، للسكة الحديدية، وتصف وثائق الهيئة أعمال الشونة بالتفصيل.

هذه الحالات مأخوذة عن جزء من الميناء، وهي مجرد عينة عشوائية وليست نموذجية، ولن نعدم أمثلة دالة من مواضع أخرى في الأرشيف قد تحمل دلالات مختلفة عما وصلنا إليه فيما يتعلق بالفائدة الممكنة من استخدام هذا الأرشيف، ومعظم المادة الهامة بالنسبة لمؤرخي العمارة والهندسة لم تدرس بعد، وكما أن أرشيف الهيئة مستودع شديد الثراء، فإن فائدته لدراسة لندن يرمز بلا شك للعلاقة بين الأرشيفات والمؤرخين. ولا يكفي الحفاظ على الأرشيف فقط، ولكن يجب استخدامه، وحتى يستخدم يجب أن يزود بالعاملين، ويحفظ، ويتاح.

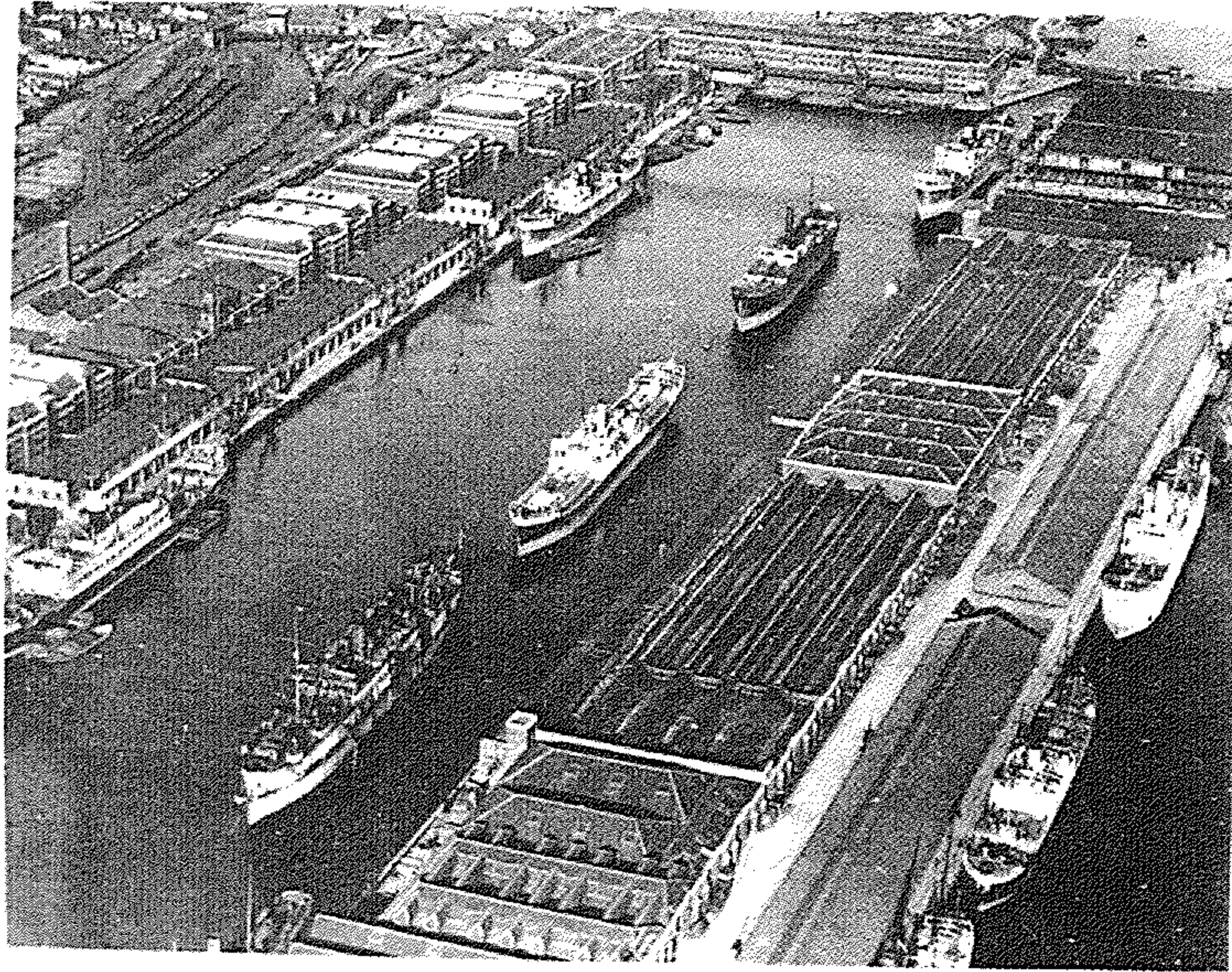
الهوامش

(١) هذه الورقة أحد نتائج مشروع جماعى، وهى لذلك تعتمد على جهد زملاء فى الدراسة المسحية Royal Commission on the Historical Monuments of England للندن وأجزاء أخرى من اللجنة الملكية للآثار التاريخية لإنجلترا وزملائه الحاليين والسابقين Robert Aspinall. وندين بشكر خاص لروبرت أسبينال لإتاحتهم أرشيف هيئة ميناء لندن لنا.

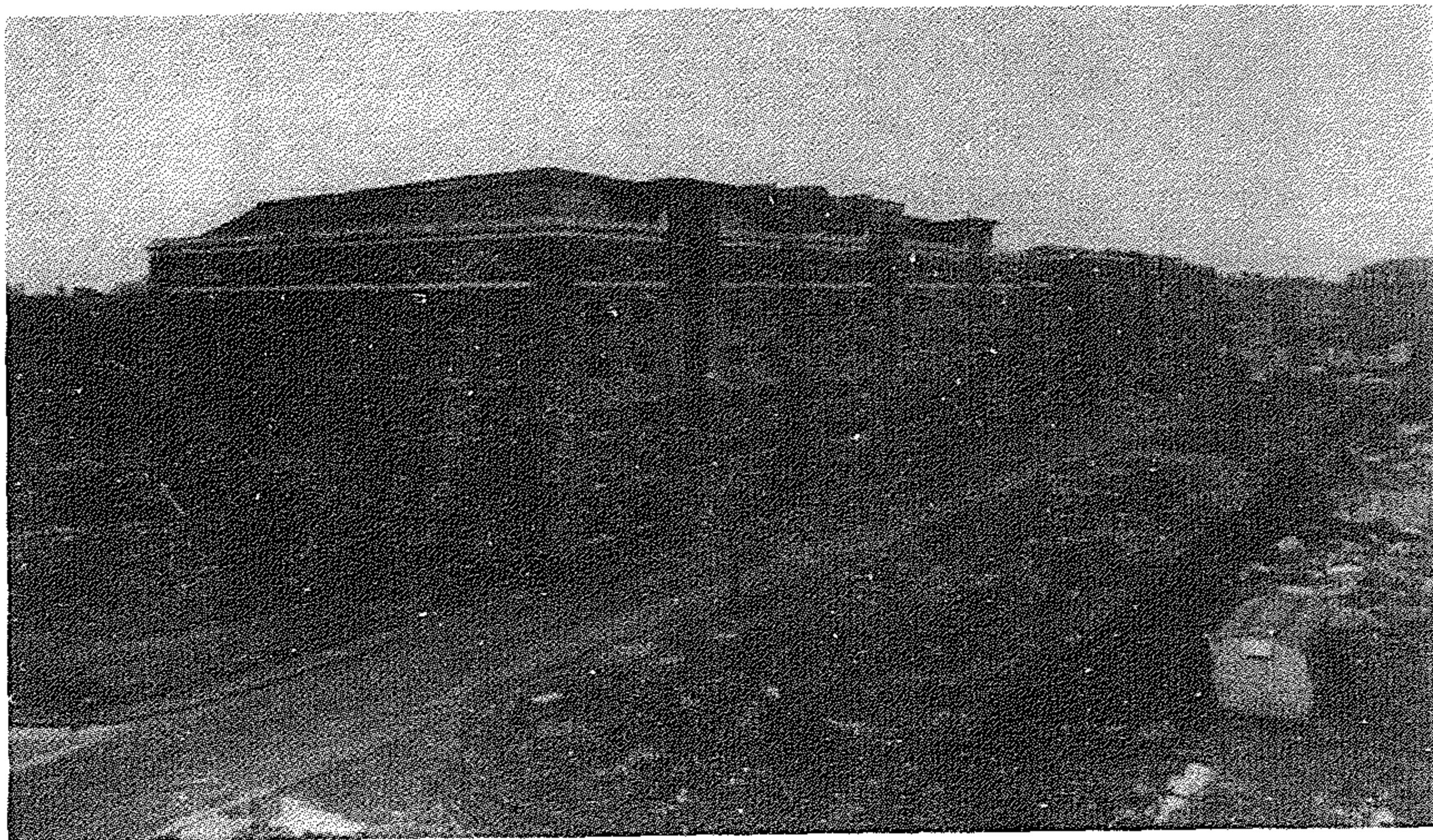
(٢) S. Poeter (ed), Poplar, Blackwall and the Isle of Dogs: the Parish of All Saints, Survey of London vol. XLII هذه الورقة تعتمد كلية على بحث منشور وملىء بالمراجع فى (1994) of London XLIII and XLIV (chapters X and XII)



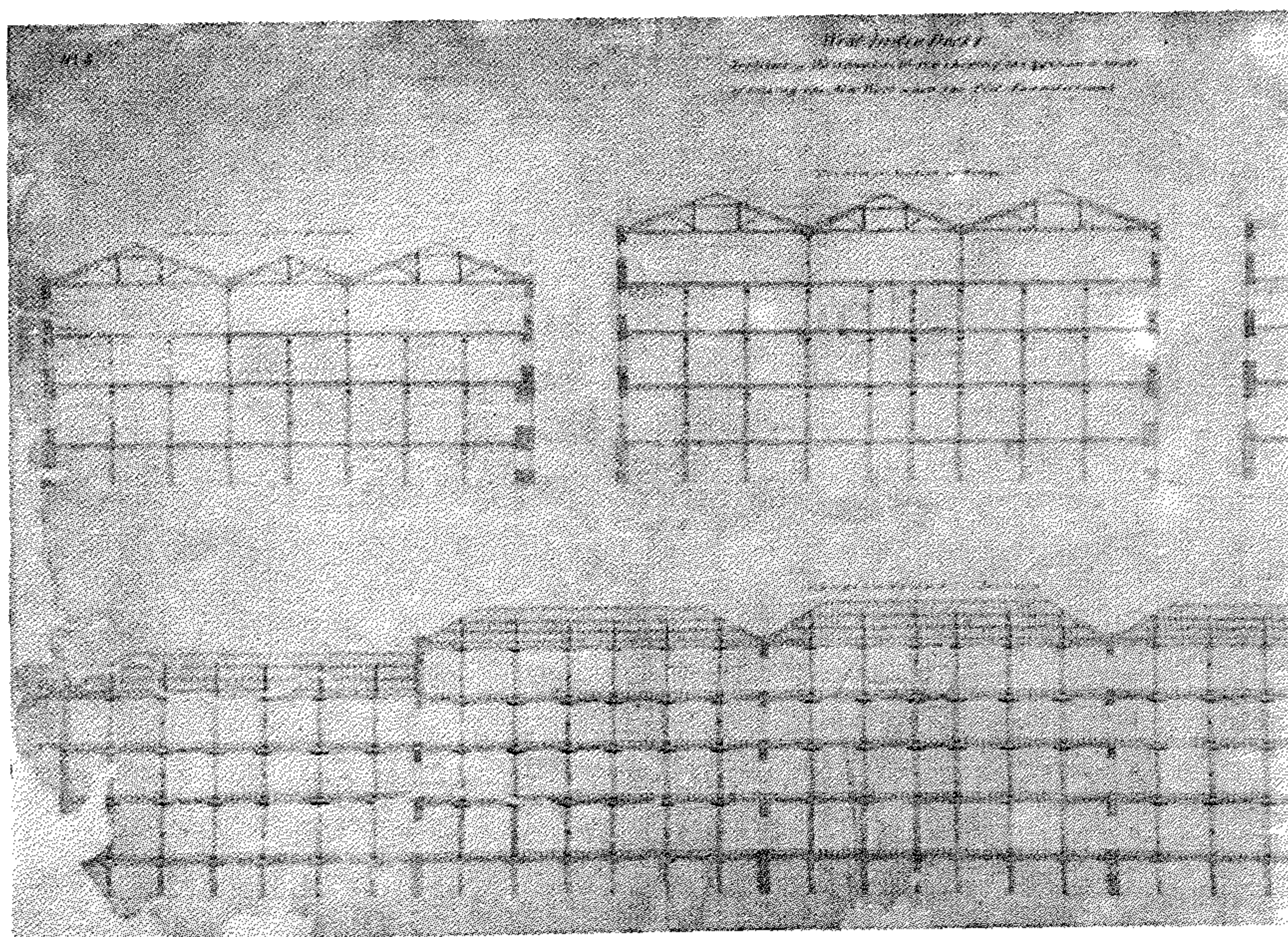
شكل (١) أرصفة الهند الغربية . صورة جوية من الشرق سنة ١٩٨٦



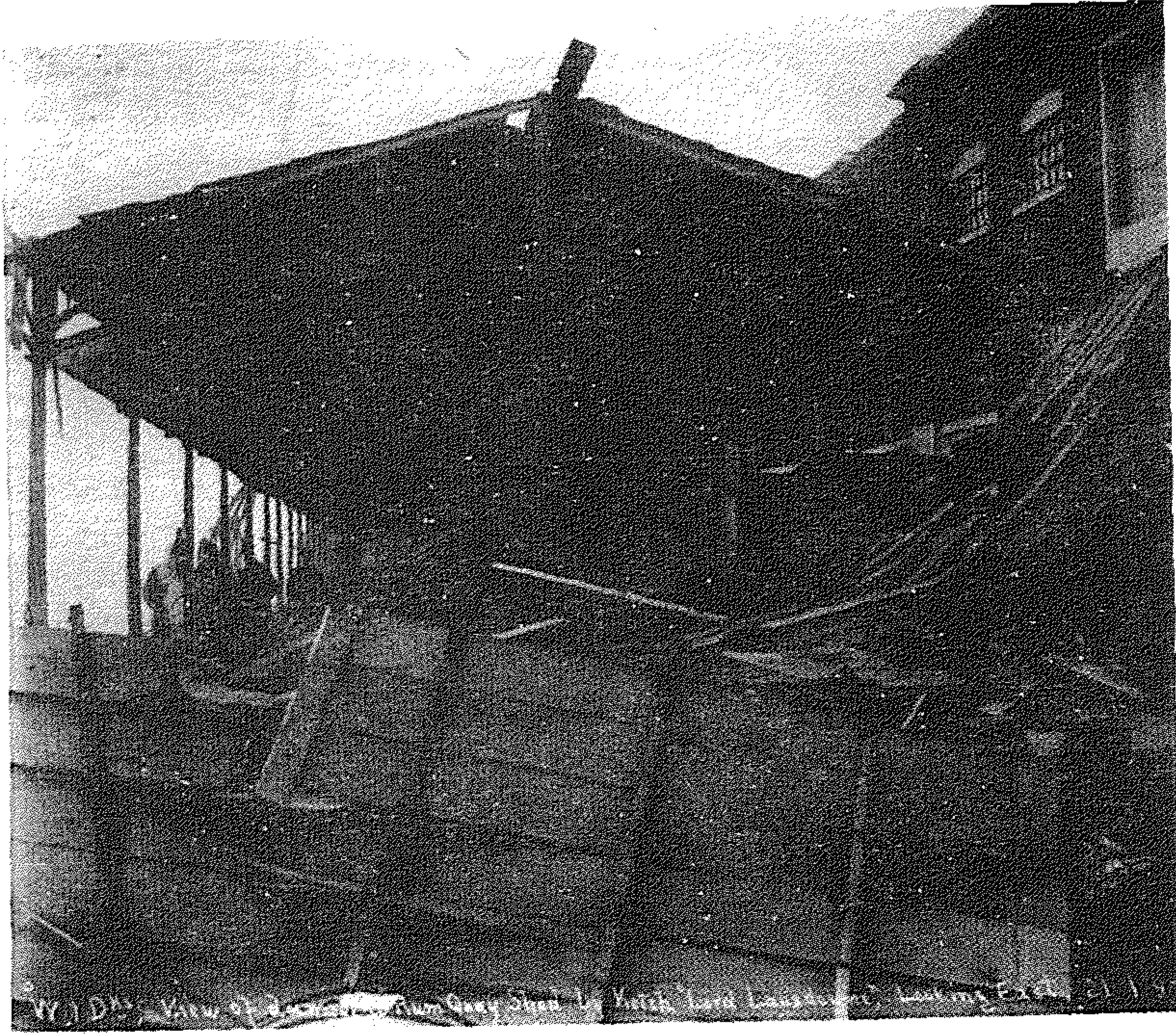
شكل (٢) أرصفة الهند الغربية . صورة جوية لرصيف الاستيراد من الجنوب الغربى سنة ١٩٢١



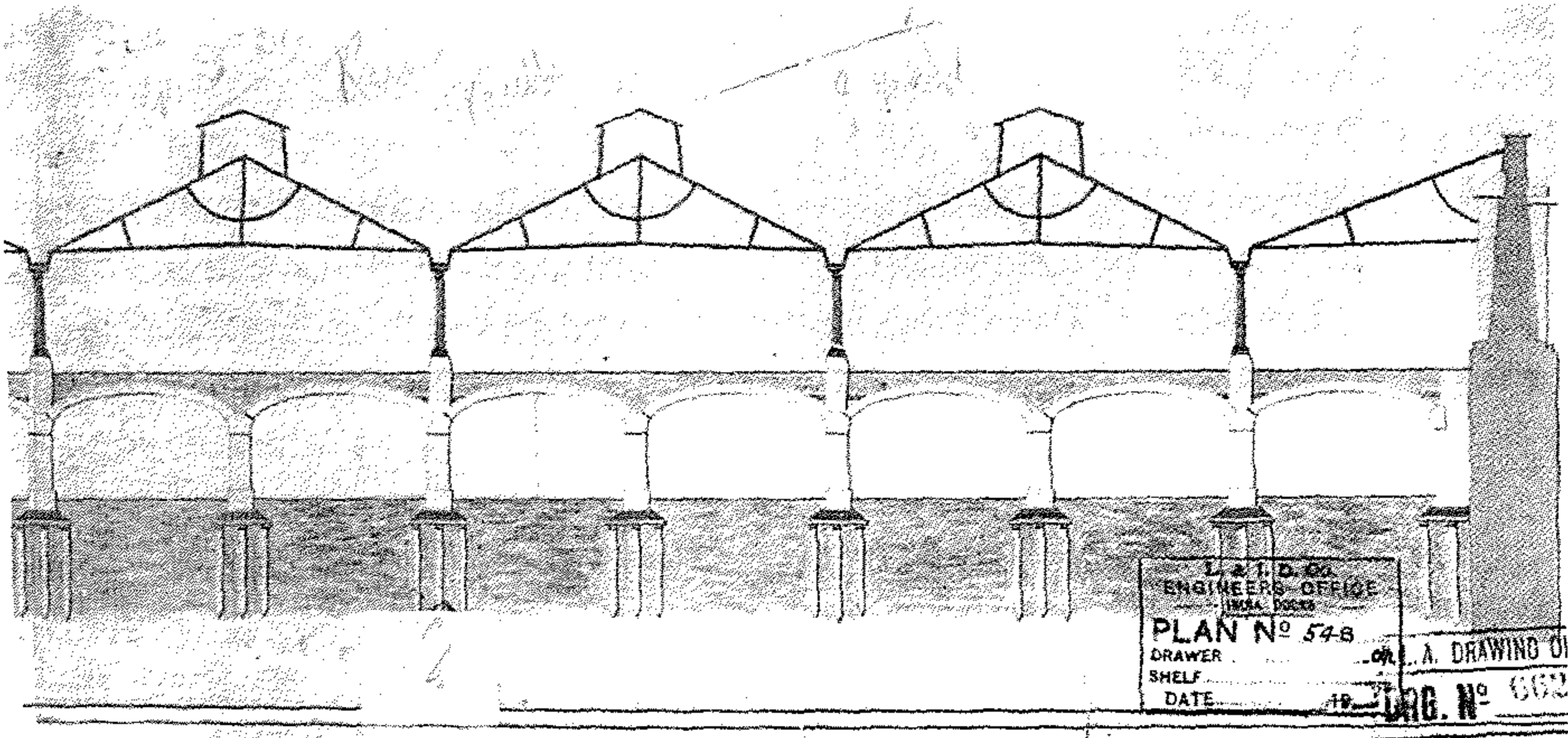
شكل (٣) المخازن رقم ١ ، ٢ بالميناء الشمالى ، أرصفة الهند الغربية
صورة ملتقطة من الشمال الشرقى سنة ١٩٨٦ ، ويظهر المخزن رقم ٢ فى صدر الصورة



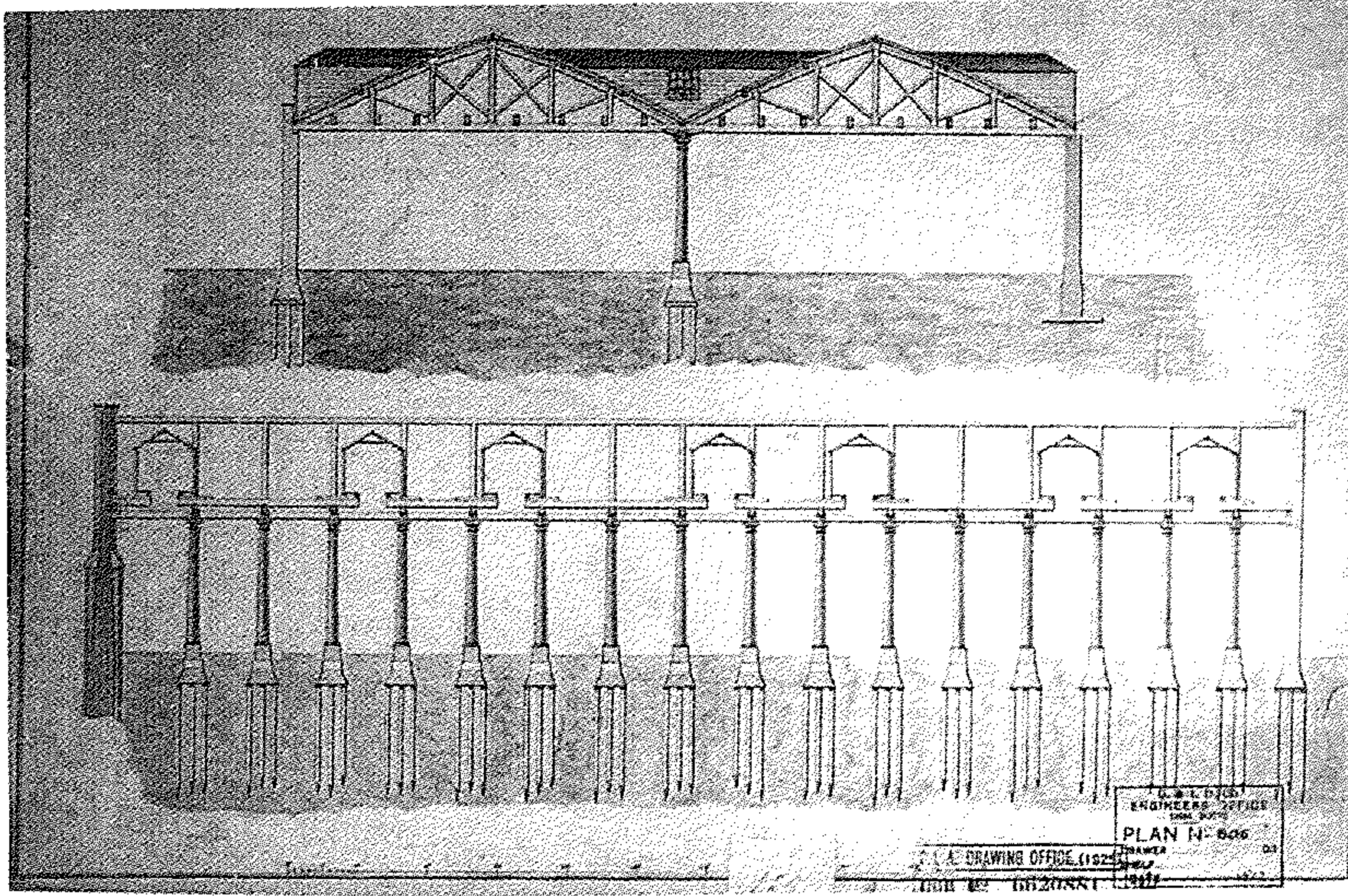
شكل (٤) المخازن رقم ١ ، ٩ بالميناء الشمالى ، أرصفة الاستيراد الهند الغربية
رسم هندسى لإنشاء المخازن سنة ١٨٧٢



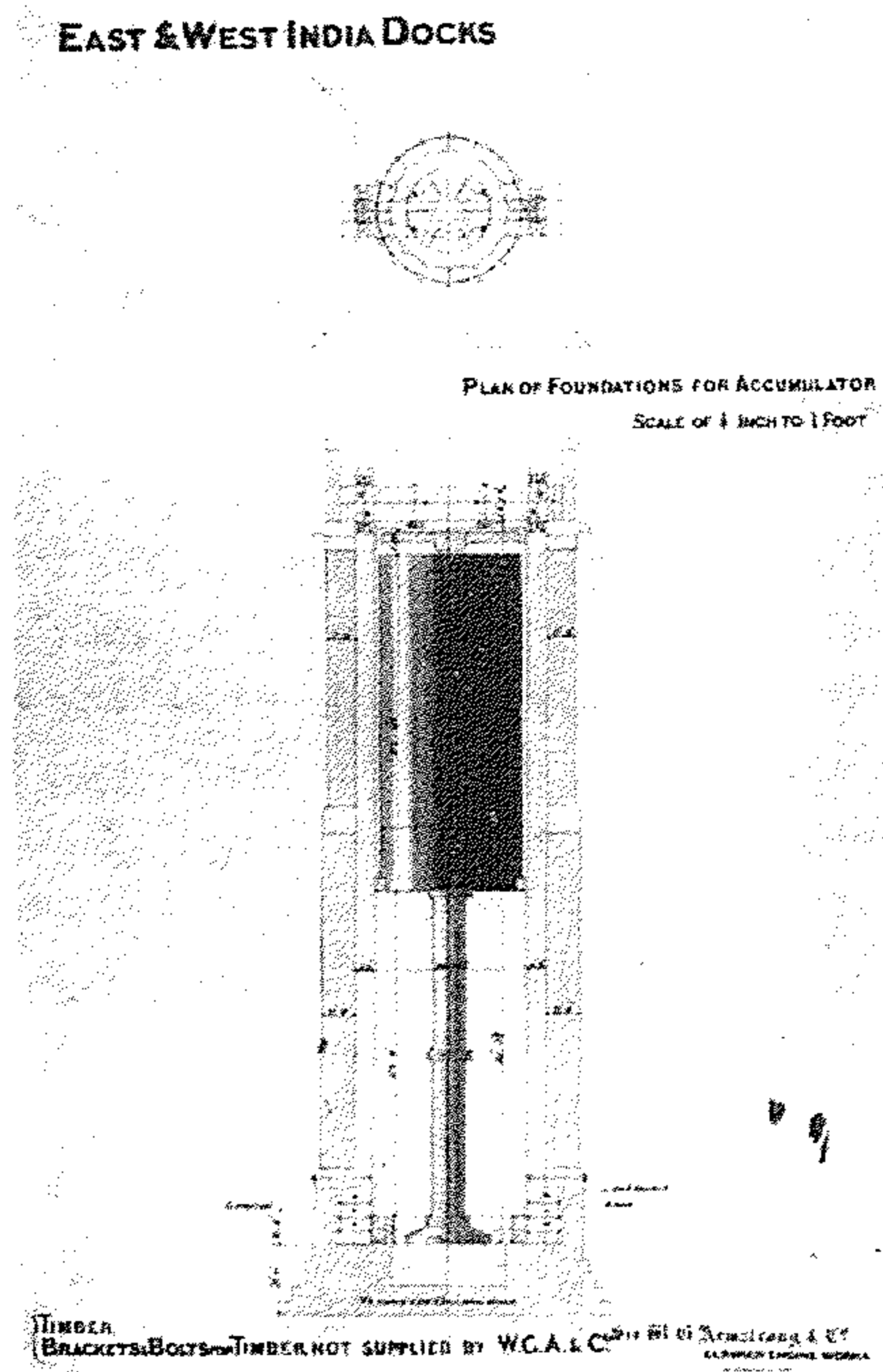
شكل (٥) ظلّة رصيف الروم ، الرصيف الجنوبي ، أرصفة الاستيراد الهند الغربية
منظر من الشرق يوضح الدمار الذي أصابها سنة ١٨٩٧



شكل (٦) نفس الظلّة في الشكل السابق
رسم للمهندسين يوضح قطاعاً في المبنى الذي أقيم ثم انهار سنة ١٨١٣



شکل (۷)



شکل (۸)

استخدام أرشيف هيئة ميناء لندن فى التاريخ التجارى

ساره بالمر

فى عام ١٩٩١ تقدمت بطلب إلى مجلس الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية Economic and Social Research Council (ESRC) ، الهيئة الممولة حكوميا ، والمختصة بالأبحاث فى العلوم الاجتماعية ، للحصول على منحة لإجراء دراسة عن تطور وتنظيم وعمل ميناء لندن منذ إدخال الأرصفة فى بدايات القرن التاسع عشر وحتى إنشاء هيئة ميناء لندن سنة ١٩٠٨ . وقد استندت فى طلبى إلى عدة أمور ، أولها وجود فجوة يجب ملؤها فى هذه الناحية من التاريخ المتروبولى، التى تفتقر لوجود دراسة حديثة عن الميناء ككل فى القرن التاسع عشر ، بالرغم من وجود عدد من الدراسات التفصيلية عن بعض الجوانب^(١) . وثانيها وجود جمهرة عظيمة من الأدلة الوثائقية فى أرشيف ميناء لندن بمتحف لندن. فإذا أضفنا لذلك المادة المتعلقة بالميناء فى أماكن أخرى ، بما فى ذلك ما هو موجود بدار المحفوظات العمومية، ومجموعات المخطوطات فى المكتبة البريطانية ، ومكتبة جليدهال ، ودار محفوظات لندن الكبرى لوجدنا أن المصادر المتاحة للمؤرخ حول الميناء مروعة فى مداها وفى حجمها. وذكرت فى الطلب أن هناك حاجة لجهود باحث متفرغ فى مرحلة ما بعد الدكتوراه للعمل معى، حتى يمكن فحص هذا الكم من المادة بشكل منظم. وقد تمت الموافقة على الطلب. واختير د. أنتونى هندرسون Anthony Henderson (وهو ذو خلفية فى التاريخ الاجتماعى أكملت خلفيتى التى تميل أكثر للاقتصاد) ليكون باحث زمالة لمدة ثلاث سنوات بتمويل من المجلس (ESRC) فى مشروع الملكة ميري وميناء وستفيلد بلندن Queen Mary and Westfield port of London Project . وتسألنا بأجهزة كمبيوتر توشيبا المحمولة والمحملة بنسخة تعمل على نظام

التشغيل "نوس" من برنامج قواعد البيانات للنصوص الطويلة "ريدياليست من شركة بلاكويل". وبدأنا العمل في صيف ١٩٩٢ مؤسسين بذلك علاقة تعاون تثبت فاعليتها وسعدنا بها مع بوب أسبينال ورفاقه^(٢).

وقد أخذنا في اعتبارنا عند تعاملنا مع أرشيف الهيئة أن مادته ، بالرغم من احتوائها على بعض المجموعات المتخصصة على أساس الموضوع، فإن معظم المخطوطات الوثائقية تأخذ شكل السلاسل المرتبة ترتيبا تاريخيا، ولكننا اخترنا أن ننظم مادتها على أساس موضوعي تحت رءوس الموضوعات التالية : التجارة والحركة بالميناء، خدمات الميناء، الميناء المتروبولي، تنظيم الميناء، أعمال الميناء، سياسات الميناء، إدارة وتنظيمات الميناء، عمالة الميناء. ومع الوضع في الاعتبار أن وثائق شركة الأرصفة تشكل الكيان الأساسي للمجموعة، كان من الواضح أنها ستكون وثيقة الصلة باهتمامنا بخدمات وأعمال الميناء، ولكن لم يكن واضحا في البداية إلى أي مدى يمكن لهذه الوثائق والوثائق الأخرى في مجموعة الهيئة أن تساعدنا في الجوانب الأخرى من دراستنا. ولكن، اتضح لنا في غضون بضعة شهور أن الدراسة التفصيلية للمادة الخاصة بشركة الأرصفة يمكن أن تفرز معلومات عن موضوعات أوسع، متعلقة بالميناء، وكذلك أننا لم نقدر ، في البداية، قوة الأرشيف في ميادين أخرى حق قدرها، بما في ذلك أهمية مكتبته للمواد المطبوعة الأولية .

وكان الحد التاريخي لبداية الدراسة هو الحملة التي قادها التجار المهتمين بالتجارة الخارجية في لندن، في أواخر القرن الثامن عشر، والتي أدت إلى دعم البرلمان والتفويض بالإصلاح. إن الأوراق الشخصية لويليام فوجان William Vaughan أحد أبرز زعماء الإصلاح الذي أدى لإدخال الأرصفة إلى لندن، كثيرا ما يرد ذكرها في الدراسات عن تاريخ الأرصفة المبكر، إلا أنها تحتوي أيضا على معلومات عن وضع الميناء قبيل عملية الإصلاح مباشرة. فنجد فيها على سبيل المثال تقريراً مفصلاً عن الجمارك في المراسي المرخصة، وهي توفر معلومات لا تقدر بثمن عن أماكن رسو السفن، واستخدامات كل منها، تمكنا من فهم طلبات التعويض الموجودة في وثائق الخزانة، والموجودة حالياً في دار المحفوظات العمومية^(٣). إن أوراق فوجان كانت من ضمن المصادر التي مكنتنا من استنتاج أن السبب في إنشاء الأرصفة لم يكن فقط

يرجع لحاجة التجار لخدمات أفضل فى الشحن والتخزين. لقد وفرت إعادة تنظيم الميناء للتجار فرصا للسيطرة على تكاليف خدمة الطرود، بما فى ذلك إلغاء الإكراميات وتقليص الاختلاسات الصغيرة، كما مكنت الحكومة من إدخال نظام المخازن كوسيلة لتنمية التجارة القومية. وقد تميزت أساليب الخدمات فى الشركات الثلاثة الرئيسية للأرصفة على الشاطئ الشمالى باختلاف أساليبها، كما تميزت بنفس السمة تلك الشركات العاملة على جانب سوراي Surrey، وقد أدى ذلك إلى اختلاف الإجراءات فى الممارسات فى الميناء، واستمر ذلك بعد هذه الفترة بقرن .

وقد اشترك فى أنشطة ميناء لندن فى القرن التاسع عشر خليط كبير من المؤسسات بعضها كانت مؤسسات عامة : مجلس مدينة لندن، والذي كان مسئولاً عن النهر بوصفه طريقاً سريعاً، وعن الرسوم والجمارك، وورش سفن إدارة البحار أيضاً. وبعضها كانت مؤسسات خاصة مثل شركات المساهمة المتنافسة والعامة فى إدارة الأرصفة، والأرصفة والمخازن، وورش السفن. وباستثناء شركات الأرصفة، لا نلمح تلك الشركات إلا بشكل غير مباشر فى أرشيف الهيئة. ويستثنى من ذلك المؤسسة المسؤولة عن إدارة النهر، حيث أن محاضر جلسات لجنة النهر بمجلس مدينة لندن، ووريثتها منذ ١٨٥٧ التيمز كونسرفانسى Thames Conservancy تشكل جزءاً من المجموعة. وهما لا يختلفان عن لجان التخطيط فى الحكومات الحديثة ، فكانا ينظران فى طلبات إنشاء الجسور والمراسى على النهر، ويعقدون اجتماعات فى مواقع العمل أحياناً، كما توفر مداولاتهم المفصلة (بالرغم من أنها كثيراً ما تدلل على شدة المماطلة) مادة غزيرة عن التطور الصناعى والتجارى على امتداد النهر. وتذكرنا هذه الوثائق الأرشيفية وكذلك مجموعة الخرائط الرائعة فى الأرشيف للنهر والباريشات المتاخمة له أن لندن طوال تاريخها كميناء، قبل وبعد الأرصفة، كانت ميناءً نهرياً. وقد استمرت التجارة الساحلية وبعض التجارة الخارجية تستخدم شاطئ النهر. على سبيل المثال لم تصل كل الاقتراحات الخاصة بأرصفة ناقلات الفحم (وهى جزء من هذه المجموعة) إلى أى نتيجة .

وبالرغم من محاولتنا، كباحثين، أن نلتزم فى نظرتنا بالاقتصار على الأهمية المستمرة للنهر فى نشاط الميناء، إلا أن الالتزام بهذه النظرة يكون بعيد المنال عندما

تجد نفسك محاطا بوثائق شركات الميناء، وورثتها من الشركات التي اندمجت مع بعضها البعض. وإنك لتشعر بثقل المهمة حقا عندما تنظر إلى كل تل من هذه الوثائق، فهذه وثائق شركة أرصفة الهند الشرقية، ورابعة لشركة أرصفة سانت كاترين، وأخرى لشركة الأرصفة التجارية، أضف إليها ورثتهم من الشركات المندمجة. وتستحق كل مجموعة من هذه الوثائق أن تعالج كموضوع قائم بذاته فى تاريخ الأعمال. ففي حالة شركات أرصفة الهند الغربية على سبيل المثال لم يبق فقط محاضر جلسات مجلس المديرين وبعض اللجان، ولكن وجدنا أيضا دفاتر الحسابات ووثائق عن مكونات قوة العمل .

غير أن العنصر المثير فى هذه الوثائق، بالنسبة لمؤرخ الميناء هو أنها تمكنه من إجراء دراسة موازية. وقد استغللنا أنا وطونى هندرسون هذه الفرصة فى أسلوب تعاملنا مع مهمة تلخيص المعلومات. فقد عملنا بالتوازي، كل على مجموعة شركات تغطي نفس الفترة الزمنية التي تغطيها المجموعة الأخرى. وقد أسهم ذلك فى حفزنا على المقارنة وسمح لنا بتبادل الخبرة فى المسائل التقنية، بل وأوجد أحيانا صدى للمنافسة بين الشركات عبر السنين ورغبة كل منها فى استطلاع أخبار الآخر .

ويعطى تحليل الوثائق المالية وإحصائيات الشحن صورة عن أرباح الشركة أدق مما تقدمه أرباح الأسهم والصورة العامة التي يرسمها ويغذيها بعناية المديرون.

فعلى سبيل المثال تمكنت شركة أرصفة الهند الغربية، اعتماداً على المخزون المالى الذى كونه إبان فترة احتكارها للتعامل فى بعض السلع، من أن تعطى أرباحا مرتفعة للأسهم لمدة عقد تال، مخفية بذلك وضعها المالى المعتل عن المساهمين. وتشير حسابات الشركات المختلفة إلى تباين الدخل السنوى من مختلف المصادر، كما تمكن من تحليل التكاليف إلى عناصرها. وكما هو متوقع فإن أجور العمال كانت تحتل الشريحة الأكبر من النفقات بالرغم من اختلاف نسبتها من فترة لأخرى، ومن شركة لأخرى ومن سلعة تتعامل فيها الشركة لسلعة أخرى. وقد ركزت الاستراتيجيات الإدارية فى الشركات خلال القرن التاسع عشر على هذه العوامل، ولكن مع ازدياد التنافس بين الأرصفة واشتعاله ازدادت أهمية مستوى الأرباح والخسائر. ويتضح من وثائقهم أن الشركات

العاملة على الضفة الشمالية للنهر قد وصلت لاتفاق غير معلن فيما بينها منذ أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر على توحيد الأسعار. وبالرغم من بعض الخروج الطارئ عن هذه الأسعار، إلا أن التواطؤ وليس المنافسة كان هو السمة الغالبة هنا، وكذلك كانت الحال على الضفة المقابلة من التيمز. وقد وصل إلينا "محضر جلسات سرى" يرجع لخمسينيات القرن التاسع عشر، يوثق مفاوضات تثبيت الأسعار بين شركة أرصفة سانت كاترين والشركات الأخرى.

ومنذ أربعينات القرن التاسع عشر كان هناك اتجاه (أقره مديرو الشركات) لتصاعد تكلفة خدمة الشحن عن كل طن. وقد قوى ذلك من الميل لتقليل أجور العمال، مما كان له آثار خطيرة على المدى الطويل، على العلاقات الصناعية، كما يشهد على ذلك إضراب الأرصفة العظيم سنة ١٨٨٩ الذي يفرد له الأرشيف قسماً خاصاً به. ويشي أرشيف الشركة بأن العمل بالقطعة و الظهورات قد أصبح ظاهرة عامة ميزت قوة العمل بعد منتصف القرن في الميناء، وهى بالقطع جزء من محاولة لرفع إنتاجية العمالة عندما أخفق إدخال الماكينات الهيدروليكية في تحقيق ما توقعته الإدارة من نتائج. وقد تركزت محاولات تنظيم العمالة السابقة في شركات الشاطئ الشمالى على إقامة علاقة دائمة بين صاحب العمل والعامل المتميز بعدة طرق شملت جمعيات للتوفير داخل الشركة، ومصاريف العلاج، ومعاش ومنح سنوية. وهناك دلالات على أن الاحتفاظ بالعمالة الماهرة كان يمثل تحدياً في قطاع الميناء، وهو ما يثير تساؤلات حول طبيعة سوق العمل فى لندن فى ذلك الوقت^(٤).

وبالرغم من أن التركيز على تفاصيل محاضر جلسات كل شركة على حدة يستغرق وقتاً طويلاً، فإنه وقت مثمر حيث يمكن من رؤية دقائق العمل اليومى فى الرصيف. ولم تكن وظيفة مدير شركة أرصفة وظيفة قليلة الجهد كثيرة الربح، بالرغم من أن درجة الاشتراك فى الإدارة كانت تختلف من شركة لأخرى. وقد كان المديرون وكذلك المستثمرون مبعدين عن أنواع التجارة التى كانت الأرصفة تحتكرها، وحتى أربعينات القرن التاسع عشر يمكن أن توصف تلك الشركات بأنها كانت شكلاً من أشكال المنشآت التعاونية تتداول السلطة فيها النخبة فيما بينهم. وبعد منتصف القرن أدى تقاعد أو وفاة الشيوخ من المديرين وكذلك الرغبة فى إدخال مجالات تجارة جديدة

إلى إحداث قدر أكبر من التجانس فى مجالس الردارات مصحوباً بأسلوب إدارى
عملى ومالى أفضل من ذى قبل .

وقد أسهم تعرفنا بشكل منظم على شخصيات مديرى شركات الأرصفة عن طريق
الوثائق بعد الربط المعلومات البيوجرافية عنهم، إلى زيادة حجم معرفتنا بنخبة رجال
الأعمال فى العاصمة، كما أسهم فى ذلك أيضا الأدلة التى تكشف لنا عن دور القروض
التي كانت شركات التأمين تمنحها فى الوضع المالى للأرصفة. وقد كشف بحثنا أيضا
عن الاهتمام الذى كانت الشركات توليه لما كانت تعتبره عبأً مثل الضرائب المحلية،
ودورهم كأكبر دافعى الضرائب فى لندن، ودورهم كذلك فى تنمية ورعاية الكنائس،
والمدارس والمستشفيات وفى حالة واحدة بيت فنى .

هذه الأمثلة توضح قيمة أرشيف شركة أرصفة هيئة ميناء لندن كمصدر للتاريخ
التجارى، وتاريخ الأعمال والعمال، وقيمتها بالنسبة للتاريخ المتروبولى بمقتنيات هذا
الأرشيف الثمينة من مجموعات الخرائط والمطبوعات والرسومات كما تقدم وثائق شركة
الأرصفة أحيانا معلومات عن تطور نوع معين من التجارة بالرغم من ندرة المعلومات
الإحصائية. والأكثر من ذلك ما وجدناه عن ظروف التجارة، فقد يحتاج الباحث الذى
يدرس تجارة الحرير على سبيل المثال إلى أيام قبل أن يجد لها ذكرا. وهنا يأتى دور
مشروعنا حيث حاولنا أن نسجل كل إشارة لأى من هذه السلع. وسوف يستطيع
الباحثون فى الوقت المناسب أن يبحثوا فى مادتنا الإلكترونية بمجرد إيداعها أرشيف
بيانات مجلس البحوث الاقتصادية والاجتماعية .

وفى الختام، لقد أشار بوب أسبينال، وهو محق فى هذا، إلى "شمولية واتساع
مدى المقتنيات"، وأضيف إلى هذا الوصف "العمق"، حيث أننا لا نجد فى مجموعة أخرى
من هذه الفترة ما تقدمه مجموعتنا للباحث من إمكانية اكتشاف تفاصيل أنشطة لندن
كمتروبول بحرى أسبوعا بأسبوع وعلى امتداد قرنين من الزمان. وهذا بالطبع هو
السبب فى استمرار تدفق المستخدمين على أرشيف ميناء لندن، ٧٠٠ مستخدم فى
العام. وفى أى يوم تجد عمالاً سابقين فى الميناء يبحثون عن تاريخهم ، ودارسى
أنساب، وتلاميذ مدارس يعملون فى مشروعاتهم، ووكلاء محامين يبحثون فى الخرائط ،

وصناع أفلام ، وكتاب، وصحفيين. ومن يعمل في أرشيف هيئة ميناء لندن بمتحف لندن سيكتشف سريعا أن هذا الأرشيف لا يقتصر بطبيعته على من يطلق على نفسه مؤرخا، بالرغم من أنني التقيت بباحثين من مختلف أنحاء العالم هناك. ولنا أن نسعد بهذا التباين، فالأنشطة التي كانت محاطة بالأسوار، والقرارات التي كانت تتخذها حفنة في مجلس الإدارة أصبحت الآن تحت العين الفاحصة للجميع .

الهوامش

J.G. Broodbank, The History of the Port of London (1921); J. Bird, Geography of the (١)
Port of London (1957); W.M. Stern, The first London dock boom and the growth of the West India
Docks', Economica, XIX (1952); idem, 'The Isle of Dogs canal - a study in early public invest-
ment',

Economic History Review, 2nd Ser., IV (1951); idem The Porters of London (1960); J. Lovell,
Stevedores and Dockers (1969); g. Phillips and N. Whiteside, Casual Labour: The Unemploy-
ment Question in the Port Transport 1880-1970 (1985).

Economic and Social Research Council Reference R-000-23-2905. (٢)

PLA, Vaughan Papers, II, 62; PRO, Port London Compensation Commission, T76 (٣)

A.R. Henderson and S. Palmer, 'The early-nineteenth century Port of London : انظر (٤)
management and labour in three dock companies, 1800-1825', Research in Maritime History, 4
(Newfoundland, 1993).

الفصل الثامن

الأرشيف المتربولى فى عالم متغير

موسكو: الأرشفة المتروبولي والتغير السياسي

فلاديمير مانيكه

أود في البداية أن أشير إلى السمات العامة لأنشطة أرشفة موسكو، فتلك الأنشطة تنقسم اليوم إلى سبعة أقسام، يقوم اختيار الوثائق في كل منها على أساس تاريخي وموضوعي (شكل رقم 1)، ويضم الأرشفة التاريخي وثائق تغطي الفترة منذ القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين، ويحتوي الأرشفة البلدي على الوثائق الحديثة لمؤسسات المدينة، وهناك أيضا أرشفة الأدب والفنون وأرشفة المجموعات الوثائقية والذي يحتوي على المخطوطات الشخصية والمجموعات الوثائقية الموضوعية، وأرشفة الوثائق العلمي والتقني، وأرشفة المواد المسموعة المرئية، والذي يضم مواداً فوتوغرافية ومسموعة وسينمائية وفيديوية، وأخيراً هناك أضخم مجموعة من وثائق الحزب الشيوعي في البلاد (الأرشفة المركزي للحركات الاجتماعية في موسكو).

وتسكن أرشيفات موسكو مجموعة معمارية شيدت خصيصاً لها، مجهزة بأحدث وسائل الحفظ على الأرفف والضبط البيئي وأنظمة مكافحة الحريق الأوتوماتيكية.

وقد لعب التطوير الذي جرى للأرشفة سنة 1988 دوراً شديداً الأهمية في خدماتنا، فبفضله تم دمج الأرشفات الثلاثة التي كانت موجودة آنذاك في جمعية مدينة موسكو للأرشفة Moscow city Association of Archives ، فبتحويلها إلى كيان واحد قانوني ومسجل تلقت الجمعية تمويلاً من حكومة مدينة موسكو وأصبح لها أن توفر التمويل اللازم لإدارة الأرشفة، وتعين الموظفين وتحدد السياسات الأرشيفية.

ونشعر أن هذا التوحيد للأرشفات قد ثبتت فاعليته؛ فقد مكنا ذلك من توفير تيسيرات متساوية لكل منها مع عدم تكرار العمل، وأخيراً يمكننا الآن الحديث بثقة عن

"مستودع الأرشيف الموحد لموسكو" باعتباره مجموعة من الوثائق المختلفة لتاريخ المدينة. فقد أصبحت تلك الوثائق الآن تحت سيطرة موحدة تمكنا من تركيز جهود الهيئة على أهم مجالات الأنشطة.

وأحد مجالات الاستفادة التي نتجت عن إعادة التنظيم تلك هي تكنولوجيا إتمام الأرشيف، فيعكف حالياً مركز معلومات الجمعية على إنشاء قاعدة بيانات صممت بأسلوب موحد الوثائق من كل أرشيفات موسكو وليس مجرد قواعد بيانات للإتاحة تصلح لكل نوعية على حدة ولا تصلح للآخرى.

وتعتبر الجمعية حالياً أحد رواد تطوير منتجات المعلومات التحليلية واستخدام تكنولوجيا الكمبيوتر في مجال تشغيل المعلومات التاريخية، وقد نشرت عدة أوراق حول هذا الموضوع، بالاشتراك مع معهد ماكس بلانك Max Plank Institute بألمانيا وكذلك تم تطوير نسخة من برنامج كليو Clio باللغة الروسية يحتوى على معلومات التشغيل بالروسية أيضاً. وقد فازت الجمعية بالعديد من المسابقات الدولية، كما منحنا صندوق فولكسفاجن العام الماضى جائزة مالية ضخمة مكنتنا من شراء نظام طباعة متوسط السعة.

إن توحيد الجهود فى أرشيفات المدينة قد سهل من عملية تجهيز تلك الأرشيفات، غير أن ذلك كان مدعوماً بشكل كبير باهتمام وتمويل حكومة مدينة موسكو، فبفضل الاستثمار الحكومى الضخم فى تطوير الأرشيف أصبحت التجهيزات التقنية مطابقة للمعايير العالمية فيستخدم الأرشيف الآن 120 جهاز كمبيوتر شخصى وجهازين خادمين و97 طابعة و12 ماكينة تصوير، كما تم إنشاء شبكتين محليتين LAN إلى جانب استخدامنا لماكينة تصوير بالألوان وراسم plotter عالى الكفاءة، كما تم إدخال أحدث تكنولوجيا لإنتاج نسخ سالبة أصلية master negatives وتم تشغيل أجهزة تبلغ قيمتها 200.000 دولار أمريكى بدعم من شركة كوداك، وكان نتيجة ذلك زيادة معدلات إنتاج النسخ السالبة الأصلية التقليدية بشكل كبير وإنتاج نسخ على أقراص ليزر، فيستطيع الباحث الحصول على صورة على الكمبيوتر للوثيقة أو نسخة منها بمجرد طلبها، وقد أغنى ذلك بشكل شبه تام عن اللجوء للنسخة الأصلية، ويمكن فى المستقبل أن يتم حفظ الوثائق التى أجريت لها تلك العمليات فى وسيلة حفظ بلاستيكية مفرغة الهواء محكمة

الغلق، وسيتم ذلك بالطبع للوثائق كثيرة الاستخدام ذات القيمة العالية والتي لها أهمية خاصة بالنسبة للدولة.

لقد حمل العقد الأخير من القرن العشرين تغييرات شاملة لبلدنا، فقد تغير النظام السياسى للمجتمع بشكل جذرى، وهناك مؤسسات ديمقراطية عديدة تنمو بسرعة كبيرة ويطلق اقتصاد السوق على القطاع الحكومى، وقد كان لكل ذلك آثار واضحة على أنشطة الأرشيف، وربما كان أهم تلك الآثار وأكثرها إيجابية هو نقل أرشيف الحزب الشيوعى بموسكو إلى جمعيتنا، وتمخض عن ذلك نشأة أحد أضخم الأرشيفات المركزية للحركات الاجتماعية فى البلاد عام 1991، فهو هائل الحجم (حوالى خمسة ملايين ملف أو 50 كم من الأرفف) ولكن عدد الملفات أو طول الأرفف ليس هو ما أعطى هذا الأرشيف أهمية، فهناك أهمية سياسية وعلمية جلية تتضح من حقيقة أن الملفات التى كانت سرية وخاصة بالحزب الشيوعى الروسى CPSU قد انتقلت للحكومة.

وقد قام أرشيفيوننا بالاشتراك مع ممثلين من الخدمات الخاصة والهيئات الحكومية الأخرى بإلغاء صفة السرية عن عشرات الآلاف من الوثائق فى هذا الأرشيف وفى أرشيفات أخرى، وهناك اهتمام كبير بتلك الوثائق من الباحثين المحليين والأجانب، فقد تضاعف عدد الباحثين الأجانب فى قاعات الاطلاع ثمان مرات منذ 1991.

ومن الأهداف الأساسية للمؤسسات الجديدة فى مجتمعنا توفير حفظ أمن وتسجيل لوثائق فى الأرشيفات، وإلا سيصبح تاريخ أمتنا الحاضر غير متاح للأجيال القادمة.

وقد تطلب ذلك أسلوبا جديدا فى التعامل مع المشاكل، فقد نتج عنه ميلاد عملية إصلاح الأرشيفات على امتداد المدينة، وسجل الإسهامات فى هذا الإصلاح فى برنامج تحسين الأنشطة الأرشيفية Programme of Improvement of Archives Activities الذى تبنته حكومة مدينة موسكو عام 1993 عامراً بالإنجازات، وكان التجديد الأساسى فيه يتمثل بلا شك فى نظام العقوبات التى تطبق فى حالة عدم الالتزام بلوائح الأرشيف، وقد اعتمده عمدة المدينة، ويضطلع تفتيش الأرشيف Archives Inspectorate (وهو جزء من هيكل الجمعية) بمهمة توقيع العقوبات، وتوقع العقوبة على أى كيان فى المدينة أيا

كان شكله وأيا كانت تبعيته، وقد نشأت بذلك آلية اقتصادية تؤثر على الشركات والمنظمات، وقد أثبت هذا الأسلوب فعاليتها في ظل ظروف السوق.

وتمثلت المرحلة الثانية من الإصلاح في تضمينه الالتزامات تجاه الأنشطة الأرشفية في لوائح كل شركة تنشأ في المدينة، حيث يسمح للشركة بممارسة نشاطها بإذن من غرفة التسجيل(*) التابعة لحكومة مدينة موسكو بعد اعتماد اللائحة الداخلية التي يجب أن تستوفي عدة شروط، أحد هذه الشروط هو التزام الشركة باستمرارية الحفاظ على وثائقها وحفظها وتسجيلها، وبذلك تلتزم كل مؤسسة مدنية جديدة بما عليها نحو الأرشفة مما يدعم قانونه.

وأخيرا كان ثالث إجراء في الإصلاح هو نمو شبكة المؤسسات الأرشفية، فقد ازداد عدد الأرشفات المركزية في المدينة من ثلاثة إلى سبعة كما أنشئت عشرة أقسام إدارية للجمعية في الأحياء الإدارية لموسكو، وقد كان هناك احتياج لذلك ، نظرا لزيادة عدد المنظمات والشركات التي نشأت في المدينة وتعقد نظام التوثيق، ولم تكن الجمعية بقادرة بشكلها القديم على القيام بهذا الكم من العمل، على سبيل المثال تفتح إدارات أرشفات الأحياء حاليا قنوات اتصال مع المنظمات المحلية كما تتلقى الوثائق مع إعطاء الأولوية لما تم حله لأي سبب من منظمات أو شركات، إن تعدد ملامح طبيعة الحياة الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية اليوم في البلاد، وضرورة أن ينعكس ذلك في التاريخ الوثائقي قد أدى بنا إلى اتخاذ مبادرة أخرى هامة. فالتجربة قد أثبتت أن الوثائق لا يثبت فيها كل أحداث الحياة الحديثة، لذلك فقد بدأ أرشفة موسكو في توثيق حياة المدينة باستخدام وسائل التسجيل الحديثة المرئية video والمسموعة، حيث تسافر المجموعة التي تشكلت منذ ثلاث سنوات إلى الراليات والمؤتمرات وترصد شهود عيان الأحداث التاريخية الهامة، وتصور العمل في مشاريع المدينة والحياة اليومية لأهل موسكو، وصار لدينا نتيجة لهذا الجهد كيلومترات من الأشرطة التي تشكل أساس حويات موسكو الفيلمية Moscow's video chronicle والتاريخ الوافي للمدينة.

(*) تقابل السجل التجارى فى مصر (المترجم) .

وتخطط تجربة العمل فى أرشيفات المدينة باهتمام بالغ، بما فى ذلك اهتمام الهيئات الأرشيفية الأجنبية، وتدعمها فى ذلك الاتصالات التى أفرزتها الاتفاقيات مع أرشيفات عواصم فرنسا وبولندا وبلغاريا ويوغسلافيا وبلدان أخرى، وقد تم توقيع اتفاقية مماثلة مع دار محفوظات مجلس مدينة لندن خلال الزيارة الحالية، وأود أنؤكد على أن جمعية أرشيف موسكو ترحب بأى مقترحات من الدول الأخرى لمصلحة العلاقات المشتركة، وأبوابنا مفتوحة دائماً للعمل بروح الفريق وتبادل الخبرات.

إن الأرشيفات ليست بالطبع منتجة للتاريخ، إلا أن الحاجة للأرشيف تتخلل كل مظاهر الحياة الاجتماعية فى روسيا، فمراجعة لوائح ملكية الأراضى، وإنشاء أعمال جديدة، وإعداد وثائق الملكية الخاصة، كلها أنشطة ذات جنور فى الأرشيف فى الوقت الحالى؛ لذلك يشهد احتياج المدن الكبرى للأرشيف فى فترات الانتقال التاريخى، فهو أحد قوانين وجودها، وهو قانون إيجابى بالنسبة لنا، واهتمام السلطات بها يتيح لنا فرصة حل المشاكل المالية وإنشاء مبان جديدة أفضل من أى وقت آخر كنتيجة لهذا الاهتمام.

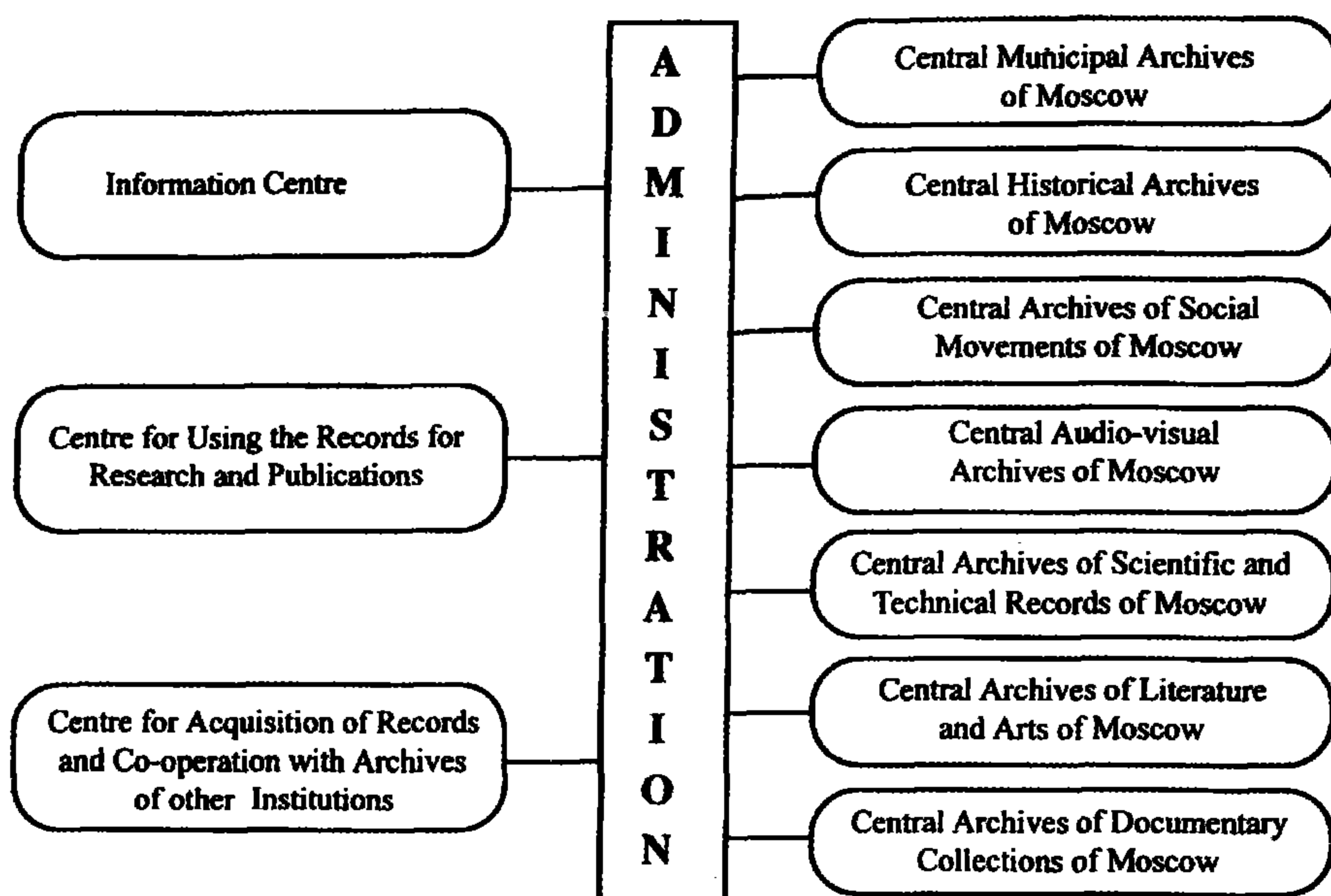
والآن إلى بعض الاستنتاجات: من المعروف أن المسئول عن العمل المسرحى لا يظهر على خشبة المسرح إلا عند انهيار الديكورات، وبالمثل يظهر الأرشيف من أجنحة الحياة الاجتماعية فى أوقات انهيار المجتمع، وكم تمنيت لو لم تنتظر كارثة تاريخية حتى توقظ الاهتمام بالأرشيف، لذا فقد حاولنا أن نجد سبيلا آخر فأرشيفات موسكو تبذل قصارى جهدها لتواكب أى احتمالات مستقبلية فى الحياة الاجتماعية للعاصمة، وكان ثمرة ذلك ظهور العديد من المطبوعات، وإقامة كثير من المعارض، واعتماد الحصص المدرسية على الوثائق الأرشيفية، وتلك هى الاستراتيجيات الرئيسية فى أنشطتنا الأرشيفية.

وأعتقد أن القائمين على الأرشيفات فى جمعنا هذا، قد يفكرون فى إنشاء جمعية لأرشيفات العواصم، ويمكن أن تكون جمعية، أو أى شكل آخر من أشكال التنظيمات، فنحن نشترك فى أشياء كثيرة، نشترك فى الإنجازات وكذلك فى المشكلات، فتبادل الخبرات والعمل بروح الفريق سوف يخدم بلا شك مصالحنا المشتركة.

وأخيرا وليس آخرا إن التاريخ قد صنعه الناس، وهى قاعدة عامة تهيمن أيضا على العلاقة بين الأرشفة والمتروبول، وقد رأينا وتعرفنا أثناء المؤتمر على شخصيات رائعة، متخصصة بالفعل فى مجالاتها، وأتوجه بعميق الشكر للسيد هندرسون بيچ Henderson-Begg لتوقيعه على الاتفاقية ممثلا لدور محفوظات مجلس مدينة لندن، والدكتور ديريك كين Derek Keene لدعوته الكريمة لى لحضور المؤتمر، والشكر الجزيل لجيمس سيويل James Sewell وستيفن فريث Stephen Freeth وشكر خاص للدكتورة ديبورا جنكنز Deborah Jenkins ولطاقم عملها الرائع، جيف، ميك، جوناثان، دافيد والآخرين Geoff, Mick, Jonathan, David

شكرا لكم

"فى ختام أعمال اليوم الأول من المؤتمر، تم توقيع اتفاقية لتبادل زيارات قادة العاملين بين جمعية مدينة موسكو للأرشفة ودور محفوظات مجلس مدينة لندن الثلاثة".



شكل (١)

الأرشيف المتروبولى فى القرن العشرين: فرز وإعدام الملفات

دان بومجارد

مقدمة

"الأرشيف أهم من أن يترك للأرشيفيين وحدهم"، بهذه الكلمات بدأ رئيس مجلس إدارة الجمعية التاريخية الملكية الهولندية حديثه مع جريدة قومية هولندية، وكان سبب صرخة الألم هذه صدور لائحة الأرشيف الهولندية الجديدة عام 1996، حيث تنص أحد بنودها على وجوب انتقال الوثائق الأرشيفية إلى المستودعات بعد مرور عشرين سنة على إنشائها، بينما كانت اللائحة القديمة تحدد تلك المدة بخمسين سنة، ونتيجة لهذا التغيير واجه الأرشيفيون الهولنديون ورود كميات ضخمة من الوثائق الأرشيفية، وطبقا لوجهة نظر رئيس مجلس إدارة الجمعية التاريخية الملكية الهولندية ترجع زيادة هذه الكميات إلى ما كان من إعدام الكثير من الملفات والوثائق فى الماضى.

إن مشكلة الفرز والإعدام لم تنشأ فقط فى العصر الحديث، فقد كانت هناك قواعد للفرز والإعدام فى بلاد النهرين تجرى على الألواح الطينية، غير أن الأرشيف هو ذاكرة المجتمع، وتدمير جزء من هذه الذاكرة هو مسألة ضمير دائما، أحد أهم مهام الأرشيف البلدى هو فرز الوثائق التى تعكس أنشطة المدينة وسكانها. حتى إذا أراد أن يوفر مجموعة من المواد الأرشيفية تعكس هذا التاريخ وتفيد البحث التاريخى كان عليه أن يتعامل مع مجالات اهتمام شتى.

الوثائق: الحجم - النمو - النوع

إن أحد أهم المشكلات التي تواجه الأرشيفى هي التأكد من أن الوثائق الجارية تصل إليه فى نهاية المطاف، فبالرغم من كل أنماط التشريعات الأرشيفية فإن الوثائق لا تصل إلى مستودعاتنا من تلقاء نفسها، فالموظفون العموميون لا ينتجون الملفات لتلبية احتياجات عملائنا من الباحثين التاريخيين، ولكنهم ينشئون تلك الملفات لتلبية احتياجات عملهم، وبمجرد أن ينتهى دورها العملى تستقر عادة فى البدرومات أو الأسطح أو الغرف الخلفية، ولولا الأرشيفيون لكانت مفرمة الورق هي المثوى الأخير لكثير من الوثائق الحديثة.

هناك حاجة بلا أدنى شك لتقليص حجم الوثائق الورقية الحديثة، غير أن الآراء تتضارب حول حجم هذا التقليص، وقد ذكر المجلس الدولى للأرشيف International Council on Archives أن ما يستأهل الحفظ الدائم من الوثائق تتراوح نسبته بين 3 إلى 5 بالمئة، ولم يسفر هذا الرقم إلا عن إثارة الاضطراب عند مناقشة النسبة الواجب إعدامها، ففي أمستردام على سبيل المثال ترتفع نسبة الوثائق التى تحفظ فى الأرشيف إلى 20 %.

وبالرغم من أن الأرشيفى يجهل فى معظم الحالات الكم الفعلى للوثائق التى أنتجتها مؤسسة عامة ما، فإن حجمها يجبره على أن يضع تقديرا لها، وبالإضافة إلى اهتماماته التاريخية والعلمية، يتوجب عليه أن يحاول الوصول إلى نتائج أوفر اقتصاديا فى مجالات الإدارة والإنتاج.

ونحتاج لتنمية الفاعلية فى الوقت الحالى إلى قرارات أوسع نطاقا فيما يختص بفرز وإعدام الوثائق والملفات والمعلومات الإلكترونية، ونقطة الانطلاق فى فرز وثائق الهيئات المحلية يجب أن تكون هي مسئوليات الهيئة وعلاقاتها مع الهيئات المحلية الأخرى، ومن الأهمية بمكان فى هذا الصدد وضع الهيئة فى منظومة الإدارة المحلية وقدرتها العملية وحريتها فى اتخاذ القرار ومسئوليتها، وتمر العديد من المحليات فى هولندا حاليا بمرحلة تجريبية لتطبيق نماذج جديدة فى الإدارة، فقد تداخلت ماليا

سياسات الإدارة المحلية مع تطبيقها، بينما كانتا منفصلتين فى النموذج القديم للحكومة المحلية، وعلى الأرشييفى أن يعى بعمق دقائق الإدارة المحلية وتنظيمها حتى تصدر اختياراته عن أسس سليمة.

وقد تعقد فرز المواد الأرشييفية بشكل متزايد مع تطور الأنظمة الإلكترونية للمعلومات وزيادة الاعتماد عليها، حيث أن ملكيتها لا تقتصر على هيئة واحدة، فنظم المعلومات تلك تستخدم فى العديد من الأنشطة، كما تشكل أحيانا جزءاً من شبكة أكبر إقليمية كانت أو قومية، ولا غنى عن الدراية بكل هذا عند إجراء عمليات الفرز.

وتمثل نظم المعلومات الإلكترونية الحالية ثلاث تحديات أساسية للأرشييفى:

أولاً: تهدد بإحداث تحول للإطار البيروقراطى المستقر نسبياً واستبداله ببناء تنظيمى مازال فى بداياته الأولى.

ثانياً: تقودنا إلى أساليب جديدة فى الاتصالات وأشكال جديدة من الوثائق لم تتضح حدودها بعد.

ثالثاً: تطور تكنولوجيا المعلومات الحديثة تحرم الأرشييفيين من رغد إمكانية إصدار أحكام الفرز بعد إنشاء الوثيقة الإلكترونية بشهور أو ربما حتى سنين.

ولم تثر تكنولوجيا المعلومات قلق الأرشييفيين الهولنديين كثيراً فى البداية، وظن الكثيرون أن تلك المواد لن تستأهل الحفظ الدائم قط، غير أن مجموعة عمل من الجمعية الملكية الأرشييفية فى هولندا قامت منذ عامين بدراسة شملت البلاد كلها حول نظم المعلومات الإلكترونية وتوصلت إلى أن 25% من قواعد البيانات المعلوماتية المؤتمنة على مستوى المحليات لها قيمة أرشييفية ويجب أن تخضع لعمليات الفرز! بيد أنه لا يوجد نظام لهذه العمليات حتى الآن يتعامل مع المعلومات الإلكترونية، فالمؤسسة الأرشييفية متوسطة الحجم تفتقر إلى الإمكانيات المالية والفنية لحفظ هذا النوع الجديد من الوثائق.

منشئو الوثائق : جهات حكومية أو خاصة

تقع قرارات فرز وإعدام الوثائق والملفات الحكومية فى هولندا على عاتق مديري الوثائق، فتعدم الوثائق والملفات لو كانت من تلك التى يغطيها الجدول الرسمى الحكومى لعام 1984 وبعد موافقة وزير التعليم والشئون الثقافية ووزير الشئون الداخلية، ويجب أن تحصل جداول مديري الوثائق على موافقة وإجازة الأرشيفيين الحكوميين الذين لهم أيضا الحق فى التفتيش على إدارة الوثائق فى الوكالات المحلية، حيث يؤكد تواجد الأرشيف الحكومى حماية الاهتمامات التاريخية، ويقوم الجدول الرسمى لفرز الوثائق الحكومية على مبدئين: أهمية الوثائق للإدارة الحكومية نفسها وللأفراد الذين يحتاجون لتلك الوثائق والملفات لإثبات حقوقهم وتقديم الأدلة، وهو ما يسمى الأهمية الإدارية، وكذلك الأهمية التاريخية/ العلمية، التى تسمى أيضا الأهمية الثقافية، وينطوى فرز وإعدام الوثائق والملفات ضمنا على إمكانية وجود اختيار للأرشيفى، غير أنه فى بعض الأحيان لا يكون للأرشيفى أى خيار، فإعدام الوثائق بدون تعاون أو تفويض من الأرشيفى قد يحدث عن عمد فى الهيئات العامة، ويجب ألا نقلل من حجم هذه المشكلة، فهى لا تمثل فقط تهديدا للبحث التاريخى ولكنها تتعداه إلى المصادقية الديمقراطية لمجتمعنا، ويحتج فى الإعدام العمدى للوثائق بحجج أربعة: حماية الخصوصية، والتعمية على الحقائق الإجرامية، وحماية أمن الدولة، والأسباب الاقتصادية. وهناك قبول عام بالنسبة للتذرع بالخصوصية، خاصة أن حماية الخصوصية الشخصية ينظر إليها فى المجتمع الغربى الأوروبى على أنها شىء محمود، غير أن لجنة الدولة الهولندية للأرشيف Dutch state committee on Archives قد وجهت عدة انتقادات مؤخرا فى هذا الصدد، وكان السبب فى ذلك هو الطلب الخاص الذى تقدم به جهاز المخابرات الهولندى لتدمير الملفات الشخصية لعملائه، وقد أسست المخابرات طلبها على الخصوصية، وهو ما يستغرب سماعه من جهاز مخابرات! وقد كان جهاز المخابرات يسعى فى الواقع لمنع عملائه السابقين من الاطلاع على ملفاتهم، وقد رفضت لجنة الدولة حجة الخصوصية مؤسسة بذلك مبدأ يقوم على أن الاعتبار المعاصرة يجب ألا تؤثر على المادة الأرشيفية ذات القيمة الثقافية والتاريخية، ومجموعة ملفات الخدمة

لجهاز المخابرات الهولندي لها بلا شك أهمية تاريخية حيث إنها تغطي فترة ما يسمى بالحرب الباردة.

والسبب الثانى فى الإعدام العمدى معروفٌ بلا شك، ويتعلق بتدمير الوثائق لمنع الملاحقة القضائية، وهو أمر يحدث فى كل دولة ونعرف كلنا أمثلة عليه، ويجرم القانون الهولندي التدمير العمدى للوثائق وتصل العقوبة فى هذه الجريمة إلى السجن أربع سنوات ونصف، غير أن هناك مشكلة هيكلية فى هذا الموضوع. ولأضرب مثالا يوضحها، فأمستردام من أشهر مراكز التجارة الدولية فى الأعمال الفنية: فيها العديد من محال وتجار التحف، وسيضيع جهدك سدى لو أنك حاولت أن تعثر على وثائق لهذه المحال وهؤلاء التجار فى أرشيف أمستردام، وقد فشلت حتى الآن كل الجهود لإقناع تجار التحف بنقل وثائقهم للمستودعات الحكومية، ولدينا انطباع بأن الكثير من الأعمال الفنية قد تم شراؤها بأموال قذرة ويبدو أن التدمير العمدى للوثائق بهدف حماية مصالح العملاء هو القاعدة وليس الاستثناء.

وتعتبر سلطة الأرشيفيين محدودة فيما يتعلق بالإعدام العمدى للوثائق فى حالات الأمن القومى والحرب والظروف الخاصة الأخرى، ولرئيس وزراء هولندا السلطة فى إصدار التعليمات بتعليق الإجراءات القانونية للفرز والإعدام.

وأخر الحجج فى الإعدام العمدى هى الأسباب الاقتصادية، فالأجهزة الحكومية لا تميل للاحتفاظ بالوثائق الإلكترونية بعد انتهاء الحاجة إليها فى العمل اليومى، فصيانة المعلومات الإلكترونية عالية الكلفة، وعادة ما يحتفظ بقاعدة البيانات فى أصغر حجم ممكن، فالعامل الإدارى هنا هو الفيصل الوحيد، وعادةً ما يتم إعدام الوثائق الإلكترونية القديمة عمداً عند إجراء عمليات التحويل، فالعوامل المالية والتعقيدات التقنية وراء إعدام قواعد بيانات معلوماتية مهمة فى الوقت الحالى، مع تجاهل الأهمية الثقافية والتاريخية، وأحيانا ما تعتبر الوكالات الحكومية نظمها المعلوماتية رأس مالها فترفض أن تراها مادة أرشيفية خاضعة للائحة الأرشيفات Archives Act.

أما وثائق المنظمات الخاصة فهى المكمل الأساسى للوثائق الحكومية، وهى تحتوى على مادة شديدة الثراء بالنسبة للمؤرخين، ويجب فرز المادة الأرشيفية للكنايس

والشركات والمصانع والعائلات والأفراد والتي لها أهمية بالنسبة لتاريخ المدينة، لذلك أتاح المحليات الهولندية مستودعاتها لتخزين وثائق المنظمات الخاصة، غير أن المساحة المتاحة محدودة، مما يستوجب إجراء فرز للوثائق الخاصة، والذي قد يعنى فى بعض الأحيان الاختيار من بين مواد أرشيفية ثرية، وبمعنى آخر ترشيح الكثير من الوثائق، ولكن اختيار بعض منها فقط.

بيد أن سلوك المحليات وكذلك المنظمات الخاصة بدأ يتغير فى هذا المجال، فقد كان تخزين المواد الأرشيفية الخاصة فى المستودعات العامة مجانا حتى الآن، ولكن معظم المحليات تفكر حاليا فى أنه من العدل أن تطلب من الشركات الغنية، مثل البنوك وشركات التأمين أن تقدم مبلغا من المال لدعم أرشيفها.

ومن ناحية أخرى نرى المجموعات الأرشيفية الخاصة وقد أصبحت سلعة تجارية، فقد اعتدنا على مزادات تقام فى هولندا لبيع مكتبات خاصة كاملة، ولكن اكتشف الآن أن الوثائق أيضا يمكن أن تكون وسيلة جديدة للكسب المادى، وازدادت معدلات طرح المجموعات فى المزادات، ويعى ملاك المجموعات الخاصة المودعة لدى المستودعات الحكومية بهذه الإمكانية، مما يتسبب فى بعض الأحيان فى حدوث توتر بين أصحاب الوثائق والسلطات.

احتياجات المستخدم

يتحاور الأرشيفيون والمؤرخون حاليا حول تلبية عمليات الفرز للاحتياجات التاريخية، ويشكو العديد من المؤرخين فى هولندا من ميل الأرشيفيين كما يعتقدون لإهمال الجانب التاريخى وتأثرهم كثيرا بالجوانب الإدارية التى تعطى الأولوية للعامل الاقتصادى ومساحات التخزين، ويشير الأعضاء العلميون فى لجنة الدولة للأرشيف إلى أن الأهمية التاريخية للوثائق والملفات غير واضحة بالقدر الكافى فى جداول الفرز، ويرون أن العامل التاريخى والثقافى يجب أن يحظى باهتمام فى الجداول، يوازى الاهتمام بالعامل الإدارى. ويقترح هؤلاء الأعضاء الاستعانة بالأكاديميين وخبراء

المعلومات أثناء عمليات الفرز، فيصبح بذلك هؤلاء الخبراء فى وضع يحفزهم للتفكير فى سلاسل جديدة من البرامج البحثية المعتمدة على الوثائق والملفات.

إن فرز واختيار المادة الأرشيفية ليس هدفاً فى حد ذاته، وإنما هى عمليات تجرى لتلبية احتياجات المستخدم، وقد تزايدت احتياجات الباحثين التاريخية فى الوقت الحالى، فالتسعت دائرة اهتماماتهم لتتخطى الموضوعات المؤسسية إلى مجال أرحب من النشاط الإنسانى، فكيف يمكننا إذن التعامل مع هذا الطلب المتزايد؟ وبدلاً من أن يتناحر الطرفان، فضل الأرشيفيون والمؤرخون فى أمستردام أن يشتركوا فى إنشاء ما يسمى "مستخلص بيانات المجموعة collection profile" للأرشيف الحكومى، لتوضيح نقاط القوة والضعف فى المجموعة، ويهتدى به للوصول إلى فرز أدق، حيث أن المجموعات الأرشيفية الحالية هى - بلا شك - نتاج تراكم غير مخطط للوثائق، وقد أظهر التحليل عدم وجود وثائق من بعض قطاعات الحياة الاجتماعية والصناعية إلا فيما ندر، وبذلك تدعم مستخلصات بيانات المجموعات هذه سياسة الفرز التى يشترك المؤرخون فى تنفيذها، وهكذا أصبح المؤرخ داعماً بدلاً من أن يكون خصماً، مما عاد بالفائدة على الأرشيفى والمستخدم على حد سواء.

الأرشيفى

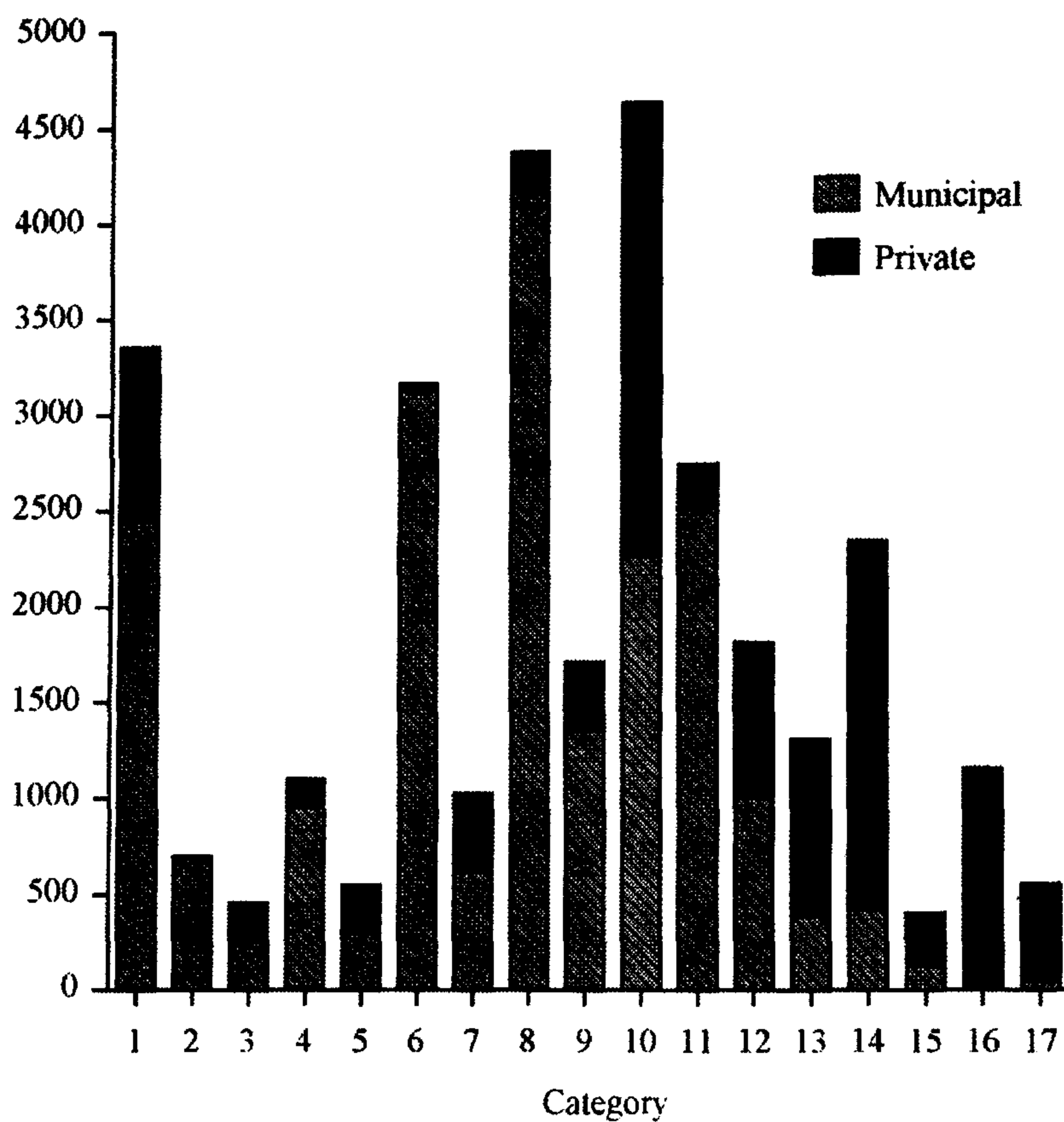
يتغير بلا شك دور الأرشيفى فى المتروبول الذى ينتج كمّاً ضخماً من المعلومات، والأرشيفى هو حارس مدرب على التعامل مع الورق والرق، الوسائط التقليدية لحمل المعلومات، وهو يجيد ذلك بالفعل، ولكن فى حالة الوثائق الإلكترونية لا يكون الهدف هو حفظ الوسيط نفسه، ولكن حفظ المعلومات التى يحملها، إلام يؤدى ذلك؟ نحن نحفظ الورق والرق بوضعها فى ترتيبها السليم فى المستودعات، ولكن عندما لا يكون الوسيط هو محور الاهتمام ولكن المعلومة التى يحملها فلسنا إذن بحاجة إلى ضمان حفظ المعلومات بنقلها إلى مستودعات المؤسسة الأرشيفية، نحن نعيش الآن نقطة التحول لعصر ما بعد الحفظ post-custodial، لذلك ستكون مهمة الأرشيفى فى المستقبل هى أن

يضمن الإتاحة بدلا من الحفظ المادي للمادة الأرشيفية، ويتوقع بعض خبراء تكنولوجيا المعلومات أن نقل الوثائق الإلكترونية للمستودعات الأرشيفية لن يكون إلا استثناءً، فسوف يكون من الأوفر اقتصاديا الاحتفاظ بالوثائق الإلكترونية التاريخية في نظام المعلومات الإلكتروني للهيئة التي أنتجتها، إن قبولنا لهذه الفكرة يعنى أن مهنة الأرشيفي سوف تتحول من ما يشبه العامل اليدوي إلى المصمم، هذا العامل اليدوي الذي يعتنى أشد الاعتناء بمهنته المحببة إلى نفسه في صورة أشد ما تكون مادية، سوف يتحول إلى مصمم يطور تقنيات ربط مصادر المعلومات في أرجاء المتربول.

ولسوف تتغير بشدة العلاقة بين الأرشيفي ومنشئ الوثيقة ومستخدمها، ونظرا للطبيعة الهشة للوثيقة الإلكترونية سوف يتعين على الأرشيفي أن يشترك في تصميم نظم المعلومات، وسوف يُنَاط به تطبيق معايير الفرز على الوثيقة في لحظة إنشائها، وسوف يكون الأرشيفي بنظرته تلك شريكا موثوقا به لمنشئ الوثيقة، حكوميا كان هذا المنشئ أو أهليا.

بالإضافة إلى ذلك سيكون في الأرشيفي دعم رائع للمستخدم الذي سيفرق في بحر من المعلومات، لكنه سيحتاج وبشدة للمعرفة، إن المعلومات غير المسيطر عليها وغير المهيكلة لم تعد الآن من موارد أى مجتمع معلوماتي، سيتحول دور الأرشيفي إذن في مجتمع المعلومات من الحفظ للاختيار،

ويجب أن ترتفع مهارات الفرز الأرشيفي لتواجه هذا التحدي !



شكل (١)

المترجم فى سطور :

عثمان مصطفى عثمان

من مواليد ١٩٦٣

- حصل على الشهادة الثانوية العامة من مدرسة دى لا سال (الفرير) سنة ١٩٨١

- تخرج فى كلية الآداب (قسم المكتبات والوثائق) سنة ١٩٨٥ بتقدير (جيد) .

- حصل على دبلومة الآثار المصرية من كلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٩٢ بتقدير (جيد جداً) .

- حصل على دبلومة فى البرمجيات من الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٩٥ بتقدير (ممتاز) .

- عمل مترجماً ومحرراً بقسم التحرير الفرنسى بوكالة أنباء الشرق الأوسط سنة ١٩٩٢

- قام بالكتابة فى الحضارة المصرية القديمة وفى علوم الكمبيوتر فى جريدة الدستور ومجلة أون لاين بين عامى ١٩٩٦ و ٢٠٠٢

- يقوم منذ عام ١٩٩٩ بترجمة المقالات فى الدوريات التى يصدرها مركز مطبوعات اليونسكو وهى : الرسالة ، ديوجين ، المجلة الدولية للعلوم الإنسانية ، مستقبلات ، المتحف الدولى .

- اشترك فى ترجمة المجلة الدولية للصليب الأحمر ٢٠٠٢

- شارك فى ترجمة كتاب : النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى . من إصدارات المشروع القومى للترجمة .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مدهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوف	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكي
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار چينيت	ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزني وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفي
١٦ - أثنية السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائي فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوذة وألف خوذة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العناني
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مدهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الإقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصه إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحدائق	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مفيت
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / محمود ملجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو بات	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألوس هكسلي	ت : مارلين تانرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب غلوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميود ويوسف الأتكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الفتى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
٧٤ - صلاح الدين والماليك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥ - فن التراجى والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩ - شعرية التأليف بوريس أوسيبينسكى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢ - مسرح ميجيل ميجيل دى أونامونو
٨٣ - مختارات غوتفريد بن
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨ - الابتلاء بالتغرب جلال آل أحمد
٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جيدنز
٩٠ - وسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميجيل
الإسبانيو أمريكى المعاصر
٩٣ - محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٤ - الحب الأول والصحة صمويل بيكيت
٩٥ - مختارات من المسرح الإشباني أنطونيو بويرو بايخو
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول) قرنان برودل
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
٩٩ - تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
١٠٠ - مساعلة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليط
١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤيد
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى برتولت بريشت
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
١٠٦ - الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبيرامتى
١٠٧ - صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيب
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسييس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنق	ول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمىة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - إمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بليغ
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندز فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيقلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريس فى	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا للتظلم فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جوالونى	ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فوينتس
 ١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليبس
 ١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد نورست
 ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
 ١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس عاطف فضول
 ١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليمان
 ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
 ١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
 ١٥٣ - غرام القراءة فيولين فاتويك
 ١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
 ١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
 ١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي أنيال وآلان وأوديت فيرمو
 ١٥٧ - خسرو وشيرين النظامي الكنجوي
 ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
 ١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
 ١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
 ١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
 ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الآسيوي
 ١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جوربون مارشال
 ١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لوكوتير
 ١٦٥ - حكايات الشعب أ. ن. أفانا سيفا
 ١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعمانيين في إسرائيل يشعياهو ليتمان
 ١٦٧ - في عالم طاغور رابندراناث طاغور
 ١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
 ١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
 ١٧٠ - الطريق ميغيل دليبيس
 ١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
 ١٧٢ - حجر الشمس مختارات
 ١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت. ستيس
 ١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
 ١٧٥ - التلفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
 ١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
 ١٧٧ - أنطون تشيخوف هنري تروايا
 ١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
 ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
 ١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
 ١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
 ت : علي عبد الرؤوف البمبي
 ت : عبد الغفار مكاوي
 ت : علي إبراهيم علي منوفي
 ت : أسامة إسبر
 ت : منيرة كروان
 ت : بشير السباعي
 ت : محمد محمد الخطابي
 ت : فاطمة عبد الله محمود
 ت : خليل كلفت
 ت : أحمد مرسى
 ت : مي التمساني
 ت : عبد العزيز بقوش
 ت : بشير السباعي
 ت : إبراهيم فتحي
 ت : حسين بيومي
 ت : زيدان عبد الحليم زيدان
 ت : صلاح عبد العزيز محجوب
 ت : بإشراف : محمد الجوهري
 ت : نبيل سعد
 ت : سهير المصادقة
 ت : محمد محمود أبو غدير
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : شكرى محمد عياد
 ت : بسام ياسين رشيد
 ت : هدى حسين
 ت : محمد محمد الخطابي
 ت : إمام عبد الفتاح إمام
 ت : أحمد محمود
 ت : وجيه سمعان عبد المسيح
 ت : جلال البنا
 ت : حصة إبراهيم منيف
 ت : محمد حمدي إبراهيم
 ت : إمام عبد الفتاح إمام
 ت : سليم عبدالأمير حمدان
 ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
- ١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تتام هانز إيندورفر
- ١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
- ١٨٧ - الأرضة بزرّج علوى
- ١٨٨ - موت الأدب القين كرنان
- ١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
- ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام
- ١٩٢ - ساحت نامہ إبراهيم بك ج١ زين العابدين المراغى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مضاربات من النقد الأتجو - أمريكى مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
- ١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إديون إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
- ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ النقد الأنبي الحديث ج١ رينيه ويليك
- ٢٠٢ - الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
- ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
- ٢٠٦ - الهيلولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧ - ليل إفريقي رامون خوتاسنديز
- ٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
- ٢١١ - فردينان دوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - مصر منذ قوم نبلين حتى رجل عبد التمر ريمون فلاور
- ٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
- ٢١٥ - سياحت نامہ إبراهيم بك ج٢ زين العابدين المراغى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
- ٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
- ت : فتحى العشرى
- ت : بسوقى سعيد
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : علاء منصور
- ت : بدر الديب
- ت : سعيد القانمى
- ت : محسن سيد فرجاني
- ت : مصطفى حجازى السيد
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : محمد عبد الواحد محمد
- ت : ماهر شفيق فريد
- ت : محمد علاء الدين منصور
- ت : أشرف الصباغ
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ت : فخرى لييب
- ت : أحمد الأنصارى
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : أحمد محمود هويدي
- ت : أحمد مستجير
- ت : على يوسف على
- ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
- ت : محمد أحمد صالح
- ت : أشرف الصباغ
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : محمود حمدي عبد الغنى
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت : محمد محمود محى الدين
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : نادية البنهاوى
- ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيراينر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد على البريرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيومان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمينجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرتيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدثة فى مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	بومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريز	ت : عبادة كحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأبيرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعرًا وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرائك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونز سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفربوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	بيفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونا	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني فى القرن العشرين ج٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تقاوالبويه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومئوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومئوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	بيفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : معدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كوانجود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بوير	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايترو ياسييفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حيية فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ - تاريخ الأدب فى إيران ج ٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ - العالم البرجوازي الزائل	نادين جوريمير	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الطو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جا	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (مكتسبة)	باسيليو يابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو يابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامة	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلي الشريبنى
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ - تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ - حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ - القلم الجرىء	نخبة	ت : البراق عبد الهادى رضا
٣٦٨ - المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ - المرأة فى أنب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ - كيف تعد رسالة بكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ - اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ - الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إيوار الخراط
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ - المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ - ملك فى الحديقة	سنيل بات	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ - حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ - أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ - تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ - هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ - مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ - نفاعاً عن التاريخ الألبى التسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات	چون بن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ - الأرشيقات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٦٢٣ / ٢٠٠٢

تختلف طبيعة الأرشييف وكيفية نشأته وتطوره باختلاف المدينة التي نشأ فيها وما تعاقب عليها من أحداث وألم بها من خطوب؛ لذلك كان الأرشييف دائماً هو المرأة التي تعكس حقيقة ما جرى، وصدت الحقيقة الذي لا يحيد إذا ما استطاع المؤرخ الحصيف أن يستنتقه.

والمؤلف الذي بين أيدينا يحتوى أوراق مؤتمر عقد في لندن في أخريات القرن الماضي ودار حول موضوع الأرشييفات والمدن الكبرى. وقد دعى إلى المؤتمر متخصصون في الأرشييف ومؤرخون من قارات الأرض الخمس؛ فجاءت أوراق المؤتمر سياحة في الزمان والمكان، واستعراضاً لرؤى مختلفة في كتابة التاريخ وطبيعة الوثائق التي تتجمع في الأرشييفات، بما يعكس خصوصية كل مدينة وطبيعتها الخاصة. وبالرغم من أنه يجمع بين دفتيه موضوعات متباينة ويعكس حضارات مختلفة، إلا أنه كتاب لا غنى عنه لدارس الوثائق وللمؤرخ على حد سواء؛ فاختلاف الرؤى وأساليب المعالجة يساهم، بلا شك، في زيادة سعة أفق الباحث، وقد يثير في ذهنه تساؤلات في تخصصه كان منطلقها موضوعاً قد يبدو شديد البعد والاختلاف عنه.

على أن هذه التعددية وذاك التنوع يضيفان تنوعاً وتجديداً يحتفظ للقارئ بمتعة الاستكشاف والتجدد بين دفتي كتاب واحد.

